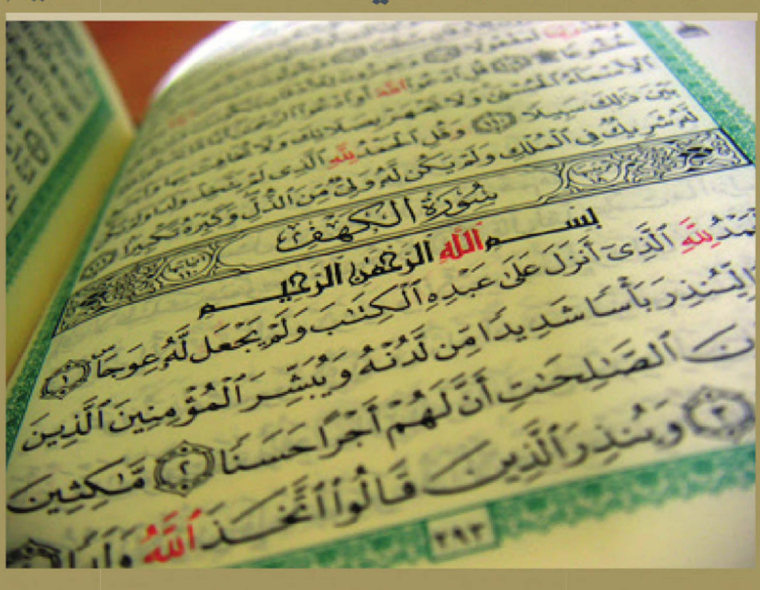
المعجزة

إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

الجزء الأول

ظواهر التجديد في لغة القرآن الكريم



أحمد بسام ساعي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المعجزة

إعادة قراءة الإعجاز اللغويّ

في القرآن الكريم

المعجزة

إعادة قراءة الإعجاز اللغويّ

في القرآن الكريم

الجزء الأوّل

ظواهر اللغة الجديدة التي نزل بها القرآن الكريم

أحمد بسام ساعي

المعهد العالمي للفكر الإسلامي



الطبعة الأولى 1433هـ/ 2012م

المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم

المؤلف: أحمد بسام ساعي

موضوع الكتاب 1 – دراسات قرآنية 2 – التجديد اللغوي
3 – البلاغة القرآنية 4 – إعجاز القرآن

ردمك (ISBN): 978-1-56564-456-5

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

المركز الرئيسي – الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute of Islamic Thought
P. O. Box: 669, Herndon, VA 20172, USA
Tel: (1-703) 471 1133 / Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب التوزيع في العالم العربي

بيروت - لبنان

هاتف: 009611707361 – فاكس: 009611311183
www.eiiit.org / info@eiiit.org

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾

[الزُمَر: 23]

إهــداء

إلى من أعطتني روح التفكير وحبّ الاكتشاف وكانت منارتي في طريق هذا البحث المحفوف بالمخاطر والأشواك،

إلى روح والدتي الشاعرة فاطمة حدّاد وقد أصبحت مع رفيقها الأعلى.

وإلى من وقف إلى جانب هذا البحث وقفة العلماء، وشهد له شهادة حقٍّ في موقفٍ عزّت فيه مثل تلك الشهادات،

إلى أستاذنا الفاضل لغويّ الشام العلّامة مازن المبارك

أهدي هذا العمل.

بسّام

المحتويات

تصدير

أ. د. طه جابر العلواني

لقد شهد القرنان الماضيان كثيرًا من الجهود المعادية "للسان القرآن"، في محاولة لتهميش اللُّغة العربيّة، والدعوة إلى هجرها وتجاوزها، واعتبارها خالية من سائر المضامين المعرفيّة والحضاريّة، جعلت من الناطقين بها مجرّد "ظاهرة صوتيّة". وقد كثر الحديث في عصرنا هذا -عصر الرغبة في الإجهاز على بقايا موروث حضارتنا وثقافتنا- عن أنّ "لسان القرآن" لسان قومي، فلا حاجة إلى من لا ينتمي -إثنيًّا وعرقيًّا- إلى غير العرب أن يتعلَّم العربية، خاصَّة أنّها لا تُعَدّ -الآن- من اللغات الحيَّة، وأنها تعبير عن "عقل بيانيّ، لا برهانيّ"، فلا تصلح أن تكون "لغة علميّة" في عصر قائم على العلم، مستند في كل جوانبه إليه.

والعربيّ -نفسه- لا يحتاج إلى العربية بوصفها لغة حيَّة، بل لأنّها جزء من تراثه، له أن يتجاوزه، ويتجاوزها معه، وله أن يحتفظ به وبها إن شاء، على أن لا يفارقه اليقين بأنّه لن ينتفع بها في حياته، وإذا كان لا بدّ له من الاحتفاظ بشيء منها؛ فاللَّهجات العاميّة الهجين يمكن أن تغنيه عن مكابدة تعلُّم نحوها وصرفها وبلاغتها وبيانها وبديعها وما إلى ذلك ممّا عدُّوه تزيُّدًا لا معنى له، ولا حاجة إليه.

وأوّل المتضرّرين بتهميش "لسان القرآن" الإسلامُ والمسلمون ومنهم العرب؛ ذلك أن تهميش "لسان القرآن" أحدث قطيعة غير معلنة بين المسلمين

وتراثهم، وقد أدّى ذلك إلى انعدام "الإبداع"، وتراجع القدرات الفكريّة والاجتهاديّة، وسلوك سبيل التدهور الحضاريّ، والدخول في دوَّامة الأزمات الثقافيّة. وقد طُرحت مشاريع كثيرة لتجاوز تلك الأزمات لم يكن من دعائم الكثير منها -إن لم نقل كلّها- إحياء "لسان القرآن" واللُّغة العربيّة.

وقد تعرّضت الشعوب المسلمة غير العربيّة[1] إلى كثير من الضغوط لإحياء لغاتها الأصليّة، وإنعاشها، وتجاوز "لسان القرآن" واللغة العربيّة التي هِيَ ينبوع الثقافة الإسلاميّة، وذلك لعلمهم أن الوسيلة الأساسيّة التي تربط هذه الشعوب بالإسلام هِيَ "لسان القرآن"، فإذا سادت العُجْمة واختفى "لسان القرآن" أمكن -آنذاك- أن يقال إنّ رسولَ الله (والقرآنَ الَّذي أُنزل عليه، كل منهما كان خاصًّا بالعرب. فالرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- عربيّ أُرسل إلى العرب، والقرآنُ الكريم عربيّ أُنزل بلغة العرب؛ فالإسلام -إذن- رسالة عربيّة قوميّة، لا رسالة عالميّة وجهت خطابها إلى البشر كافة ليتلقوا الخطاب ويستجيبوا لله وللرسول، فيعتنقها الهنديّ والكرديّ والتركيّ والفارسيّ والبربري، والملاوي، إضافة إلى غيرهم من شعوب الأرض المدعوين بهذا الخطاب إلى اعتناقها؛ فإذا حُصرت الدعوة بالعرب، فلا يحتاج غيرهم إلى الإسلام والقرآن، لأنّ خطابها موجَّه إلى العرب وخاصٌّ بهم. إنّ "العربيّة لسان" كما في الأثر[2]، إنّ اللِّسان هُوَ "لسان القرآن"، وإنّه لا يمكن لهذه الأمّة أن تعي ذاتها، وترمم بنيانها، وتعيد بناء وحدتها، وتستردّ فاعليّتها

---

(1) كما فعل أتاتورك في تركيا. بل إن هناك دولًا عربية استطاع المستعمر أن يفرض عليها لغته، فوجدت نفسها بعد الاحتلال لا تستطيع أن تفهم اللّغة العربية القوميّة كما حدث في الجزائر وتونس، ونجح الغزو الثقافيّ في البلاد الأخرى في أن يجردوها من العربية ويجعلوا العامية هِيَ السائدة في تعاملات الناس، وبهذا يسهل إبعاد المسلمين العرب عن دينهم ولغتهم كما هُوَ الحال. انظر كتاب "مشكلات في طريق الحياة الإسلامية" للغزالي.

(2) روى أَحْمَد في المسند عن سعد بن سهل -رضي الله عنه- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ- قال: "اللهم لا يدركني زمان أو لا تدركوا زمانًا لا يتبع فيه العليم، ولا يُستحي فيه من الحليم، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب". انظر:
- الشيباني، أحمد بن حنبل. مسند أحمد. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1999م، ص518، حديث رقم 22879).

الفكريّة والإبداعيّة، وتشق طريقها نحو النهوض من دون إحياء روابطها "بلسان القرآن"، وربط سائر لغاتها به، سواء أكانت لغة كتابة، أم لغة تشريع وفقه وقانون، أم لغة فلسفة، أم اقتصاد، أم اجتماع، أم سياسة، أم طب، أم هندسة؛ فالأمّة التي لا تفكر بلغتها، ولا تتعامل مع العلم بلسانها لا يمكنها أن تعالج أزماتها الفكريّة والمعرفيّة والحضاريّة، أو تتبنى لنفسها مشروعًا حضاريًا، أو تشق طريقها إلى النهوض.

إنّ "لسان القرآن" يُخرج اللفظ عن كونه مجرّد لفظ؛ لأنّه يحمِّل اللفظ طاقات دلاليّة لم يعهدها أحد في تلك الألفاظ قبل نطق القرآن بها، فهو يفرِّغها ويملؤها، ويمنحها معاني، ودلالات ما كان لشاعرٍ أو ناثرٍ أو مجموعة كبيرة أو صغيرة من أساطين العربيّة أن تمنحها تلك الدلالات.

ومن هنا احتار اللِّسانيوّن المحدَثون فيها، فهي ليست أصواتًا مقطَّعة كما يقول ابن جنيّ (ت 392هـ)[3]، وهي ليست مجرد "اختلاف تركيبات المقاطع الصوتيّة"[4] التي تفضي إلى "الدلائل الكلاميّة، والعبارات اللغويّة"[5] كما عبّر عن ذلك الآمدي (ت 613هـ).

"فلسان القرآن" أمر آخر فوق ذلك كلِّه، فلا يمسُّه اللسانيُّون، ولا يستطيعون العروج إلى عليائه لا بالتحليل ولا بالتفكيك، ولا بمناهج اللِّسانيّات، ولا بمناهج السيمائيّات؛ لأنّ هناك شيئًا قد غفل عنه هؤلاء كلُّهم، وهو الفرق بين الخطاب حين يكون إلهيًّا والخطاب البشريّ؛ فسوّوا بذلك بين خطاب ربِّ الأرباب وخطاب ابن التراب؛ فضلُّوا وأضلُّوا كثيرًا.

و"لسان القرآن" -بما يحمله من خصائص- قادر على منح العربيّة طاقات الحياة والخلود، واستيعاب معطيات "العمران والشهود الحضاريّ

(3) ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار، بيروت: دار الهدى للطباعة، ط2، (د.ت.)، ج1، ص33.

(4) الآمدي، علي بن محمد. الإحكام في أصول الأحكام. تعليق: عبد الرزاق عفيفي، (د.م.): المكتب الإسلامي، (د.ت.)، ج1، ص13.

(5) المرجع السابق، ح1، ص13.

والاستخلاف". والتراجع الذي يبدو -اليوم- عليها هُوَ انعكاس لتراجع وتخلّف حملتها، والناطقين بها؛ الذين صاروا بعد مرحلة التراجع الحضاريّ يعانون مركب نقص، وجراحات نفسيّة عميقة؛ أفقدتهم الثقة بأنفسهم وتراثهم ولغتهم وثقافتهم وحضارتهم، فتحولوا إلى متسولين يقفون على أبواب "الأنساق الثقافيّة" الأخرى موقف تبعيَّة ذليلة مقلّدة!.

إن اللُّغة أمر شديد الأهميّة كبير الخطر، بالغ الأثر في حياة الإنسان، لا يجهل أهميتّه ولا يقلِّل منها إلا إنسان فاقد للمعرفة، جاهل بحقيقتها، متجاهل لماهية الإنسان وحقيقته، غير مدرك أن الله -تبارك وتعالى- يسَّر للإنسان لكُنْهِ ذاته -فضلا منه ورحمةً- مَا جعله "ناطقًا"، وهذه "الناطقيّة" تُمثِّل الحقيقة الإنسانيّة فيه. وقد امتنّ الله -تعالى- عليه بأن علَّمه أوّلَ ما علّمه "الأسماء" كلّها[(6)]، وبعلمه بها تميَّز من الملائكة، وصار الأجدرَ بالخلافة في الأرض، والأحقَّ بأن يُستخلف فيها، يقوم على عمرانها، واستثمار ما فيها، واستخراج كنوزها، ثمّ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 4] للإفصاح عمّا يريد، وللتفاهم مع بني جنسه.

وعلاقة اللّغة بإنسانيّة الإنسان وبعقله وفكره ومعرفته وعلمه وحياته وهُويتّه وإنسانيّته علاقة عضويّة فطريّة لا يمكن تصوّر حقيقة الإنسانيَّة من دونها.

"... ولقد شغلت المسألة اللُّغويّة المفكّرين والفلاسفة منذ القدم فانشغل بذلك سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأرسطو وغيرهم... "[(7)]. ولم يكن انشغال فلاسفة المسلمين بأقل من ذلك، أمثال الكندي (ت 252)، والفارابي (ت 339)، وابن سينا (ت 428)، فضلاً عن أئمة الأصول والفقه والتفسير واللُّغات، ولم يتوقف الاهتمام بها، أو بجوانب ذات صلة بها منذ

(6) انظر الكتاب القيّم التالي في حكمة تعليم آدم الأسماء:
- الدمرداش، محمود فرج. وعلم آدم الأسماء كلها. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1417هـ/ 1996م.

(7) مرتاض، عبد الملك. في نظريّة الرواية (عالم المعرفة العدد 240). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر 1998.

القدم حتى يومنا هذا. وكُتب الطبقات والتراجم حافلة بأسماء العلماء الذين شُغلوا بهذه المسألة أو بجوانب منها، مثل: "بغية الوعاة في طبقات النحاة" و"طبقات النحويّن واللغويّين"، و"طبقات المفسِّرين" وما إليها، ولم يتوقف الاهتمام بها في أيّ عصر من العصور.

وقد كان للعرب -مثل غيرهم من الأمم- لسان، وكانت لهم لغات نابعة من ذلك اللِّسان، واختار البارئ -جلّ شأنه- أن يكون للقرآن لسانه الخاصُّ ليتصل باللِّسان العربيّ كما يشاء، وينفصل عنه عندما يريد، ويهيمن عليه في سائر الأحوال. وما التحدي والإعجاز -خاصّة- بالنظم والأسلوب والبلاغة والفصاحة إلا بعض مظاهر هذا الانفصال عن لسان العرب.

وإذ لم يكتشف اللسانيّون الفرق بين اللّغة واللّسان إلا في القرن الميلادي التاسع عشر فإنّ القرآن المجيد قد نبّه على ذلك الفرق الدقيق في تن-زيله، وفهم العرب ذلك عنه، فصاروا يقولون: اللسان العربيّ، ولسان القرآن، ولغة هذيل، ولغة قريش، ولغة الشافعيّ (ت 204)... إلخ[8].

وهذا الكتاب الذي نقدم له من أهم ما قرأت في تحدي القرآن الكريم بلغته ولسانه، منذ أن نشر الرافعي كتابه "تحت راية القرآن الكريم"، وإذا

---

(8) والفرق بين اللسان واللغة هو أن اللغة قد يُتوصل إلى فهمها من غير لسان، فالإشارة لغة، والكتابة لغة، بل إنّ أيّ شيء يصدر عنه صوت فهو لغة، ومن ذلك سُمّي صوت الطائر "لغة"، قال تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]، فسمّى الله تعالى الرمز والإشارة كلامًا، وكذا الرسوم والتصاوير فإنها معبّرة وحاكية، ولكنّها ليست ناطقة، فلا يقال لها "ألسن". واللغة عادة تكون حبيسة عادات وموروثات إقليمية، إلا أن الإنسان أعمّ منها؛ فهو أوسع تعبيرًا بدليل أن اللسان الواحد يستطيع أن يتكلم أكثر من لغة. وهذا يتضح من كلام الله تعالى: (﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 195]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97]. فالبيان والتيسير فيهما معنى الشمول والكمال بهذا اللسان الذي سوف يهيمن على اللغات كلها، وترغب فيه الألسنة جميعها. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الأحقاف: 12]؛ أي: مصدق على ما قبله وعلى ما بعده. واللسان هو: الجارحة، والكلمة، والفصاحة، والنطق، والمقالة، والرسالة، وقد يُطلق اللسان ويُراد به اللغة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: 22]؛ أي: اللغات، واللهجات، والنغمات. يقول الراغب =

أردنا الدقة والإنصاف فإنه يمتاز على ما كتب الرافعي ومن جاء بعده بمزايا عديدة، ولا أجد فيما اطلعت عليه من دراسات في مجالات التحدي والإعجاز كتابًا يجاريه ويقترب منه، بعدما كتب الكاتبون في أواخر القرن التاسع عشر والقرن الماضي في الإعجاز والتحدي اللغوي ما كتبوه، وذلك عند بداية احتكاكنا في الغرب، سواء اعتبرنا هذه البداية بدخول نابليون مصر عام 1798م أو انتهاء خلافة آل عثمان وتقسيم العالم الإسلامي، أو ما كان بمثابة الإرهاصات والمقدمات في تغيير التنظيمات والقوانين التي كانت بداياتها قبل ذلك بكثير، أو إذا نظرنا بروز الاستشراق الذي مهد للاستتباع منا وللاستضعاف لنا من ناحية الغرب.

لقد شعر علماؤنا في مراحل مختلفة من تلك المحطات التي أشرنا إليها، بضروروة مواجهة التحديات التي أثارها الاستشراق حول القرآن الكريم في تلك المراحل كلها، فنال من الوحي، وأحيا المذاهب الميتة في القول (بالصرفة)، وحاول استحضار تلك المطاعن التي جمعها القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه الخطير "الانتصار لنقل القرآن الكريم"؛ إذ أورد الباقلاني (ت 415هـ) سائر المطاعن التي ظهرت في عصره أو قبله. لقد كتب كثيرون في الرد على كل ما أُثير حول القرآن الكريم وتحديه وإعجازه، ومكمن ذلك الإعجاز؛ فكتب رشيد رضا "الوحي المحمدي"، وكتب الشيخ حسين الجسر قبله رسالته الشهيرة "الحصون الحميدية"، وكتب ولده مفتي طرابلس ولبنان الشمالي الأسبق الشيخ نديم الجسر "قصة الإيمان". وحين كتب طه حسين كتابه "في الأدب الجاهلي" فجّر الكوامن، ورفع قضية الجدل في القرآن

= الأصفهاني: "فإن لكل إنسان نغمة مخصوصة يميزها السمع، كما أن له صورة مخصوصة يميزها البصر". (الأصفهاني، عماد الدين الكاتب. مفردات غريب القرآن. تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، (د.ت.)، ص450).
واللغة كما في اللسان: أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. أمّا اللسان فصاحب ذلك التعبير وبريده والدال عليه ويستطيع أن يصيغ اللغة في أكثر من عبارة بمعان مختلفة. بل قد يكون المنشأ واحدًا واللغة واحدة واللسان كذلك في الأصل، لكنّه يختلف في البيان والإفصاح، قال تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِىَ رِدۡءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: 34].

وحوله إلى أعلى المستويات، وصدرت ردود كثيرة عليه، وكان هناك ما يشبه الإعادة والإحياء لقضية "خلق القرآن" في هذا الأمر. ثم جاء بعده محمد أحمد خلف الله فكتب رسالته التي تُعدّ خطوة إضافية على الطريق الذي بدأه طه حسين، وتصدى له من تصدى، وامتلأت المكتبات بالردود والتعليقات وكتب المناقشات، التي دارت حول القرآن الكريم ولسانه وتحديه وإعجازه وما إلى ذلك.

والدكتور أحمد بسام ساعي يأتي اليوم بهذا السفر الجليل، يتناول موضوع الإعجاز اللغوي تناولًا غضًّا دقيقًا، يتجاوز تناولات كثير من المتقدمين، ويستوعب تناولات عدد كبير من المتأخرين، ليقف عندي في صف واحد مع سلسلة الجهود التي قام بها الراحل الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابيه: "المدخل إلى القرآن الكريم"، و"النبأ العظيم"، ثم سلسلة دراسات الدكتور محمد فاضل السامرائي الذي أَعَدّ عشرة كتب في هذا المجال، تتضافر كلها لإثبات هذا الإعجاز من نواحٍ يغلب أن تكون بيانية، ولعل أهمها وأقربها إلى ما نحن فيه كتابه "التعبير القرآني"، وكتابه "لمسات بيانية". لكنّ كتاب الدكتور أحمد بسام ساعي -كما قلت- يكاد يقف وحيدًا في مجال تفرده بإعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وبذا فقد تجاوز بنا عملية حصر الإعجاز في ما بين ثلاثة إلى خمسة أوجه، كما كان الحال مع المتقدمين، أو ما يبلغ بها ثمانية أوجه عند بعض المتأخرين، أمثال: رشيد رضا، وابن عاشور، ومحمد الغزالي، ومن إليهم، يرحمهم الله.

إن كتاب الدكتور ساعي يؤسس لنظرية أعلنّا عنها منذ مدّة عن اللسان العربي واختلافه عندما يتكلم به الله -جلّ شأنه- ويختاره لسانًا يحمل خطابه إلى عباده، واختلافه عن اللسان العربي حين يتحدث به أهل اللسان من البشر. فيبدو الفارق بين الاثنين صريحًا جليًّا بحيث لا يمكن أن نقارن بين اللسان والله يتحدث به إلى عباده ويخاطبهم به، واللسان حين يُخاطِب البشر به بعضهم بعضًا. فهناك اختلاف كبير جدًا بين هذا وذاك، لذلك فإن الدكتور أحمد بسام ساعي انطلق في إعداد سفره الجليل هذا من قناعة وصل إليها، تتصل بنظريتنا هذه؛ مفادها أن للقرآن لغته واستعمالاته الخاصة التي تختلف

عن استعمالاتنا البشرية الرسمية منها واليومية. ويبين أن هذه النظرية، نظرية حقيقية جديرة بأن تكون تفسيرًا لذلك التفوق القرآني على اللسان العربي كله، فكأنه لسان مغاير لكنه يتصل وينفصل؛ فهو يتصل بكثير من الجذور اللُّغوية، ولكنه ينفصل عنها ليكون بيانًا ومبينًا وخطابًا يتصف بكل تلك الصفات التي تتجاوز أربعًا وخمسين صفة واسمًا، وصف القرآن نفسه بها. فالقرآن الكريم يبشر وينذر في آن واحد، يفتح القلوب المغلقة، والآذان الصماء والأعين العمياء على الهدى والنور، فيعظ ويبشر ويذكر، ويبين ويجادل ويحاور، ويقوم بعمليات يتعذر إحصاؤها، في حين يقف اللسان العربي حين يستخدمه البشر عند حدود معينة.

اللسان القرآني حين يشتبك مع قوى الوعي الإنساني، يستثيرها كلها ويعمل على دفعها لقبول خطابه والإيمان به، ولا نجد مثل ذلك ولا قريبًا منه في أيّ خطاب عربي آخر. اللسان القرآني يتعامل مع فطرة الناس ووجدانهم، فيكون لبعضهم هدىً وشفاءً، ويكون لبعضهم الآخر عمىً ومرضًا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] وتحدي القرآن الكريم للعرب أن يأتوا بمثله، ثم تن-زله إلى عشر سور مفتريات، ثم إلى سورة واحدة من دون تحديد لطول أو قصر، وظهور عجزهم مع كل ما لديهم من الدوافع للقيام بذلك، ومع وجود الأدوات اللغوية لديهم ومعرفتهم بها، لكنّهم عجزوا عن ذلك، وأعيا بلغاءهم وفصحاءهم أن يأتوا بمثل سورة منه. وهنا أمر رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن يعلن نتيجة التحدي في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: 88] وانتهى التحدي إلى استسلام المشركين وإخلائهم هذه الساحة، واعتراف بعض من أنصف منهم بأنه ليس بكلام بشر، وإلا لتمكنوا -فرادى أو مجتمعين- من الاستجابة لتحديه، والتغالب معه، والوصول إلى علاج لأزمتهم مع القرآن وحامل القرآن. وبقي القرآن يتحدى سائر الأجيال التي ترى أن هذا الخطاب القرآني لم يستطع الزمان أن يقيده بقوله: إنَّه صالح مدّة زمنية محددة، ولا تمكنت الجغرافيا أن تقيده قائلة: إنَّه خطاب لقريش، أو للقبائل السبع التي كانت تحيط بمكة، لأنَّ هذا الخطاب

كان منذ انطلاقته الأولى خطابًا عالميًا لا يمكن إلا أن يتخذ تلك الوجهة العالمية.

وبعد. . . فإن هذا السفر الجليل من الصعب على كاتب المقدمة أن يقدم له في الحدود التي طلب أن لا تتجاوز عشر صفحات؛ إذ إن كل قضية من قضايا الكتاب، ولا سيّما قضيته الأساسية، تتطلب حيزًا غير متاح.

إنّ هذا الكتاب قد أبرز وجهًا من وجوه التحدي القرآني لجميع الخلق أن يأتوا بمثله، وهو الإعجاز التجديدي، وكنت أتمنى أن يُسمّى بـ"التحدي التجديدي"؛ فالكتاب أثبت أن لسان القرآن قد ارتقى باللغة العربية، وجدّد فيها كل شيء تقريبًا (الألفاظ، الأساليب، السياقات، الجمل، التعبيرات، الصور، القواعد، المآلات)؛ كيف يكون اللسان بيانًا؟ وكيف يكون اللسان خطابًا؟ وكيف يستوعب كل أنواع التصوير الفني ليجدّد بها اللغة العربية، فتصبح قادرة على أن تكون لسانًا له معبّرًا عن الرسالة، ومبلّغًا للخطاب المليء بالدلالات بأمانة، بحيث يستطيع أن يعبّر بالمكنون في آياته وبالسياق وبالحذف والتقدير، ليشتبك مع ذهن القارئ، وعقل التالي، وقوى وعي السامع، ويفرض عليها حوارًا جادًا يؤدي في النهاية إلى الخروج من الظلمات إلى النور، أو إلى الارتكاس بالإخلاد إلى الأرض، واتباع الهوى والإعراض عن الذكر؟ إنه كتاب يصلح أن يكون مرجعًا في دراسات التفسير وعلوم القرآن، ومرجعًا في قضايا البلاغة والفصاحة والأدب، بحيث تستفيد منه كل تلك الفئات التي اضطر الكاتب إلى تجاوزها والانفلات من قيودها التي لم تُبنَ على لسان القرآن؛ من: اللغويين، والنحويين، والبلاغيين، والمفسرين. فهؤلاء كافة يستطيعون الاستفادة من هذا الكتاب، والاطلاع فيه على الفروق الدقيقة بين لسان القرآن واللسان العربي، قبل تجديد القرآن لهذه اللغة وبعد ذلك.

جزى الله أخانا الدكتور أحمد بسام ساعي كل خير، ووفقه لمواصلة الجهود في خدمة القرآن ولسانه، وإبراز جوانب بلاغته وفصاحته، التي تحتاج إلى مثل فكر الدكتور أحمد وخبراته وتجاربه وتخصصه الدقيق هذا، وفقه الله لما يحبه ويرضاه، ونفع به وجزاه الله خيرًا.

تمهيد

كانت البداية عام 1989 حين طلب منّي مركز أوكسفورد للدراسات الإسلاميّة إلقاء محاضراتٍ على الطلبة البريطانيين الساعين إلى فهم اللغة العربيّة من خلال القرآن الكريم. وكانت تجربةً فريدةً لي وأنا أحاول أن أترجم لتلامذتي معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزيّة ثمّ أتلقّى أسئلتهم اللغويّة المحيّرة التي تجرّك بعيداً عن حدود أيّة تقاليد أو أعرافٍ ألِفَها المفسّرون واللغويّون.

وصادف أنني كنت أعمل ذلك الحين في تحقيق كتابٍ أندلسيٍّ مع مستشرقٍ بريطانيٍّ صديقٍ في كلّية الدراسات الشرقيّة بجامعة أوكسفورد، فسألني يوماً: هل نقول (ما زال) أم (لا زال)؟ وأجبته ببساطةٍ: بل (ما زال) ولكنّه أصرّ على (لا زال) وأصررت على (ما زال).

وكانت حجّتي أنّ (لا) ستكون دعائيّةً هنا، كقولنا: لا زالت ديارُكم عامرةً بالأفراح، ومنها قول الشاعر: «ولا زال مُنْهلّاً بجَرعائكِ القَطْرُ»، ولكنّه فاجأني بقوله: إنّ القرآن لم يستخدم (ما) مع (زال) قطّ، بل اقتصر على (لا) وفي غير الدعاء.

وجمتُ للحظةٍ، ثمّ تمالكت نفسي وعدت لأفاجئه بهذا السؤال: كيف تترجم الفعل (كان) إلى الإنجليزيّة؟ ولم يتردّد في أن يجيب: *was* فقلت: إذن ترجمْ لي هذه الجملة القرآنيّة: ﴿وكان اللهُ غفوراً رحيما﴾ وأجابني حالاً: *And Allah Is Oft-Forgiving Most Merciful* فسألته: أين الفعل (كان) في هذه الترجمة؟ ولم يُحِر جواباً، إذ لم يجد أمامه إلّا *Is* وهي بمعنى (يكون) أو (إنّ)؛ وليس بمعنى (كان). وامتدّ النقاش حتّى وصلت به إلى هذه النتيجة: إنّ للقرآن لغته واستعمالاته الخاصّة التي تختلف عن استعمالاتنا البشريّة، الرسميّة منها واليوميّة.

"إعجازٌ" أم مجرّد عبقريّة؟

هذه "المواجهات" الفكريّة مع "الآخر" في العالم الغربيّ كانت بمثابة الشرارات الأولى التي أضاءت لي سبل التفكير الجدّي بإعادة النظر في قراءتي العاديّة للقرآن الكريم، تلك القراءة التقليديّة التي لم تكن تخلو أصلاً، فيما أرجو، من استيعابٍ وخشوع، ولكنّها لا تخلو أيضاً من التأثير الخطير للأُلْفة والتكرار اليوميّ، وهما اللذان يحجبان عنّا كثيراً ممّا أحسّه وأدركه العربيّ الأوّل حين كان يلتقط الآيات الأولى تتنزّل تباعاً على رسول الله ﷺ فتهزّه جِدّتها، ويحيّره نظامها وقد وجد فيه شيئاً مختلفاً عمّا ألِفه من أساليب، فتنقلب هذه الحيرة وتلك الهزّة في نفسه تساؤلاً مصيريّاً: ما الذي يحدث من حولي؟ إنّ الأمر أبعد وأخطر من أن يكون مجرّد أسلوبٍ متميّزٍ آخر لكاتبٍ ناشئٍ أو شاعرٍ صاعدٍ أو كاهنٍ مدّعٍ.

ويجب أن أعترف بأنّني كنت في المرحلة الأولى من حياتي أؤمن بالإعجاز اللغويّ للقرآن إيماناً راسخاً، ولكن بوصفي مسلماً فحسب؛ إذ لم أكن في الحقيقة قادراً على إدراك هذا الإعجاز بعقلي، وتمييزه ووضع أصابعي عليه بوسائل بحثي البدائيّة.

لقد كنت أرى في لغة القرآن الكريم جمالاً أخّاذاً، وفصاحةً متناهية، ودقّة تعبير، وبلاغةً وإيقاعاً وسحراً وتميّزاً، ولكنّني لم أكن أدرك أنّ هذه الصفات جميعاً شيءٌ، وأنّ الإعجاز اللغويّ شيءٌ آخر أعمق سبراً، وأمنع وصولاً، وأعظم خفاءً، وأشدّ استحالةً على البشر.

كنت أمنّي النفس دائماً بأنّني سأكون، بعد أن أصل إلى مرحلةٍ ثقافيّةٍ أفهم معها البلاغة العربيّة جيّداً، أكثر قدرةً على اكتشاف الإعجاز القرآنيّ الذي لم يستطع أيٌّ من كتب السابقين إقناعي بعدُ، على نحو علميٍّ غير قابلٍ للدحض، بوجوده في القرآن الكريم.

نعم لقد وضعوا لفظ (الإعجاز) في عناوين كتبهم، ولكنهم لم يتحدّثوا إلّا عن البلاغة والروعة والجمال والدقّة في التعبير، وهذه كلّها صفاتٌ قد نجدها، على تفاوت، في آداب البشر أيضاً مهما اختلفت لغاتهم وأجناسهم.

فكم هناك من عباقرةٍ وأقلامٍ وألسنةٍ وعقولٍ سحرت العالم بإبداعاتها، وحيّرت النفوس بفنّها، فكان أن وُصِفت بكلّ صفةٍ، ولكن ليس بصفة الإعجاز.

لماذا نصرّ إذن على أن نخصّ القرآن الكريم وحده بهذه الصفة؟ وأين هو الإعجاز فيه إذا كان تعريف الإعجاز حقّاً هو: ما لا يقدر عليه بشر، أيّ بشر؟ نعم، قد يكون في هذه الجوانب مجتمعةً ما يصبّ في النهاية في بحر الإعجاز، فيعمّقه ويوسّعه ويخصبه ويغنيه، ولكنّه لن يكون وحده كافياً، على نحو علميٍّ قاطع، في عصرٍ لم يعد يؤمن إلّا بالأرقام، لتشكيل ذلك المحيط الضخم الذي نسعى لاكتشافه.

وفي مرحلةٍ تاليةٍ من حياتي اللغويّة، وقد تخرّجت من قسم اللغة العربيّة، واجهني السؤالُ نفسه، ووجدت الجوابَ ما يزال هو نفسه.

ثمّ حصلت على الماجستير ثمّ الدكتوراه في الأدب العربيّ، ووجدتُني مرّةً أخرى، وأؤكّد على الاعتراف، عاجزاً عن رؤية الإعجاز اللغويّ في القرآن، بوصفي، أو بالرغم من أنّني، أصبحت، في نظر نفسي على الأقلّ، باحثاً وناقداً أدبيّاً متمرّساً بفنون اللغة والأدب!

وأعترف أنّني، في عمليّة البحث المستمرّة عن الإعجاز المفقود، كنت أواجه دائماً هذه المعضلة المنهجيّة الشاقّة: كيف أوفّق في داخلي بين المسلم والباحث، أو بتعبيرٍ أكثر بساطةً: بين العاطفة الدينيّة، القابلة للأخذ والردّ، والمؤمنة بالإعجاز بالولادة، تماماً كإيمانها المطلق بالإسلام وبكتابه، وبين التحليل العلميّ المجرّد الذي لا يُردّ، الذي لا تتدخّل في أحكامه عاطفةٌ أو إيمانٌ أو اجتهادٌ فرديٌّ أو رأيٌ جاهزٌ مسبق الصنع؟

وسألت نفسي: هل أقول مع من قال: "إنّ فكرة الإعجاز عقيدةٌ دينيّة لا يمكن أن يؤيّدها برهانٌ عقليٌّ أو حسّيٌّ حاسمٌ يكون له قوّة البرهان الرياضيّ"[1] فأستسلم بهذا لعواطفي الدينيّة وأنا أصدر أحكامي، وأستند إلى

(1) الحمصي، نعيم. **مجلّة المجمع العلمي العربيّ** بدمشق، 30، 308.

آراء السابقين، وآراء اللاحقين أيضاً، فلا أُقنع بأبحاثي في النهاية إلّا نفسي، هذا إذا أفلحت حقّا في التوصّل إلى إقناعها؟

أم أطرح هذه العواطف وتلك الآراء القديمة، والجديدة أيضاً، جانباً، وأتناول أدواتي العلميّة المخبريّة التي أستطيع بها أن أخاطب "الآخر" داخل نفسي، بثقةٍ وتجرّدٍ هذه المرّة، وأنا أُسلّط المُجهِر على الوجه الإعجازيّ غير المنظور للقرآن الذي "لا تنقضي عجائبه" كما يؤكّد من حمل إلينا مِن ربِّه نصوصَ ذلك الكتاب الخالد؟

هل كان يكفيني أن أتلمّس بروحي جمال التعبير القرآنيّ وبلاغته وتميّزه حتّى أقول إنّه معجزة؟ وأين تتوقّف حدود البلاغة والجمال، وهي حدودٌ زئبقيّةٌ ونسبيّةٌ وغير نهائيّةٍ مهما فلسفنا نظريّاتنا في رسم هذه الحدود، لنبدأ في الدخول إلى أرض الإعجاز؟

وأؤكّد من جديد: لقد أُسبِغت صفات البلاغة والفصاحة والجمال، وما تزال تُسبغ، على أعمال عديدٍ من الأدباء والشعراء والفنّانين العباقرة، العرب وغير العرب، وعلى مرّ العصور، من غير أن يَحدث فيُنسَب الإعجاز لأيٍّ منهم.

أين تتوقّف حدود العبقريّة، الهلاميّة وغير القابلة للإمساك، لتبدأ حدود الإعجاز المطلق الذي لا نقاش فيه ولا تردّد، لأنّه يستند إلى الحقائق العلميّة، ويتحدّث بلغة الأرقام، ويتجاوز تخوم العبقريّة ومنعرجاتها وتلالَها ووهادها، وهي لا تفتأ صاعدةً هابطةً في إبداعات أصحابها الأدبيّة والفنّية مهما بلغت درجة عبقريّتهم، فلا تتسرّب إلى أحكامنا الميولُ والعواطف، ولا تنطلق تلك الأحكام من الأذواق الشخصيّة أو المواقف الإنسانيّة المتأرجحة مدّاً وجزراً، ولا تصدر عن الترجيحات والاحتمالات والتوقّعات البشريّة القاصرة والمتبدّلة في أحكامها مع الزمن؟

كان هذا كلّه قبل أن أشرع في الدخول إلى المرحلة الثالثة من سنّي العلميّة، ومواجهة السؤال الملحّ والمحيّر، ومن ثمّ التوصّل إلى إجابةٍ نهائيّةٍ عنه: أين الإعجاز في لغة القرآن الكريم، الإعجاز بمعنى الكلمة الحقيقيّ، وليس العبقريّة والفصاحة والتميّز والدقّة والجمال؟

تُرى هل فقدت كلمة (إعجاز) في معاجم أذهاننا اللغويّة معناها الأصلي (وهو: الأمر الذي يستحيل صنعُه أو الإتيان بمثله) وتراجعت إلى معنىً اصطلاحيٍّ جديدٍ فقدت ذاكرتُنا معه الاعتراف بالمعنى الأوّل، فلم تعد تعني عندنا أكثر من: المتفوّق أو المتميّز أو العبقريّ؟

ما الإعجاز عند القدماء؟

لقد درس القدماء والمحدَثون بدأبٍ وغزارةٍ جوانب عديدةً ممّا سمّوه الإعجاز القرآنيّ، أستطيع أن أحصرها فيما لا يزيد على ثلاثة جوانب:

1 - الجانب الجماليّ أو البلاغيّ: وهو يتّجه إلى إثبات أنّ القرآن الكريم معجزةٌ جمالية في لغته ونظمه. وكان من أوائل من كتبوا في هذا المعنى الجاحظ والرمّاني والواسطيّ وأبو زيد البلخيّ وأبو هلال العسكريّ والخطّابيّ والباقلّانيّ والقاضي عبد الجبّار الأسدآبادي وعبد القاهر الجرجانيّ وابن أبي الإصبع وابن قيّم الجوزيّة وغيرهم.

ولكنّ الجمال يبقى دائماً مسألةً نسبيّةً قابلةً للنقاش وعرضةً للتغيّر من فردٍ إلى فرد، ومن مجتمعٍ إلى مجتمع، ومن زمنٍ إلى زمن، وما هو جميلٌ في عيني ربّما لا يكون جميلاً في عيون الآخرين، بل ربّما لا يكون جميلاً في عيني أنا بعد حين، مهما حاولت أن أقدّم، لنفسي أو لغيري، من براهين، فالبرهنة على الجمال هي في حدّ ذاتها زئبقيّةٌ وخدّاعة، وهذا ما كان يحاول أن يفعله بدأبٍ وإخلاصٍ كلُّ من كتب في الإعجاز البلاغيّ للقرآن حتّى الآن، وعلى رأس هؤلاء الباقلّاني في كتابه "إعجاز القرآن" وعبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

ويجب أن نعترف بأنّ اللغويّين الغربيّين لو اتّبعوا مناهج علمائنا في إثبات الإعجاز اللغويّ للقرآن، ولا أكاد أستثني من هؤلاء أحداً، لقادهم ذلك إلى إثبات أنّ عباقرةً مثل شكسبير أو دانتي أو روسو أو غوته هم أيضاً آلهة.

2 - الجانب التعبيريّ: وهو يتّجه إلى إثبات أنّ القرآن معجزةٌ لغويّةٌ في دقّة تعبيره، فتحدّثوا عن الفروق اللغويّة الدقيقة بين ألفاظه وتراكيبه وتعبيراته

التي قد يخيّل إلينا أنّها متشابهةٌ وهي ليست كذلك، ممّا عُرف عند الباحثين بـ (متشابه القرآن). وكان الجاحظ من أوائل من نبّه إلى هذا الجانب في كتابه "البيان والتبيين" ثمّ تلاه القاضي عبد الجبّار في "متشابه القرآن" والإسكافيّ في "درّة التنزيل وغرّة التأويل" والرازي في "درّة التنزيل" والكرمانيّ في "البرهان في توجيه متشابه القرآن".

وحاول هؤلاء محاولاتٍ مخلصةً وشاقّةً أن يتلمّسوا الفروق الدقيقة في المعنى التي تنبني على الفروق الدقيقة في التعبير، كالفرق بين هذه الأزواج التعبيريّة القرآنيّة: ﴿أفلم يسيروا/ أولم يسيروا﴾ و﴿إليه مَرجعُكم/ إلى اللهِ مَرجعُكم﴾ و﴿كذلكَ يَطبعُ الله/ كذلكَ نَطبع﴾ و﴿وفُتحت أبوابُها/ فُتحت أبوابُها﴾.. ومهما صحّت هذه الفروق وسلمت من التعسّف، وقد انزلق إليه في الواقع أكثر من كتبوا فيها، فإنّها لا يمكن أن ترتقي وحدها في عين غير المسلم، أو لنقُل في عين البحث العلميّ المجرّد، إلى درجة الإعجاز، وهي الدرجة التي لا يجد عندها المعاند فسحةً للجدل أو المدافعة.

نعم إنّ اجتماع هذه الجوانب البلاغيّة والجماليّة جنباً إلى جنبٍ مع الظواهر اللغويّة التجديديّة، تلك التي وقفنا لها بحثنا هذا، من شأنه أن يرفد في النهاية المصبّ الإعجازي العامّ للغة الوحي، كما أسلفنا، ولكن من غير أن يشكّل الجانبان الأوّلان منفردين الأرضيّةَ الثابتة الصلدة، والمقبولة لدى الباحث العلميّ المتجرّد، في إثبات هذا الإعجاز.

3 - الجانب العلميّ: وهو جانبٌ ابتدأ بالظهور في تراثنا، خلافاً لما يظنّه الكثيرون، منذ فترةٍ مبكّرةٍ جدّاً، وحاول فيه القدماء، ثمّ تابعهم المُحدَثون، أن يثبتوا أنّ القرآن معجزةٌ علميّة بما جاء فيه من حقائق كونيّةٍ لم تُكشف إلّا في القرون أو السنوات المتأخّرة. وهذا الجانب، لو سَلِم من التعسّف ومن المناهج غير العلميّة التي انزلق إليها كثيرٌ ممّن كتبوا فيه، ولا سيّما المُحدَثون، هو ممّا لا يمكن أن يماري في حقيقته مُمارٍ.

لم يكن التعسّف هو المرض الوحيد الذي أصاب هذا الجانب الأخير من الدراسات الإعجازيّة، فمعظم من كتبوا أو تحدّثوا فيه من المعاصرين كانوا

كأنّما يضحكون على أنفسهم وعلى قرّائهم، فلا متحدّثون متخصّصون، ولا خطابٌ علميّ، ولا توثيق، ولا إحالة علميّة إلى المصادر الغربيّة لمادّة بحوثهم من علماء أو دوريّاتٍ أو مراكز بحث.

كان القدماء معذورين إلى حدٍّ كبيرٍ في عدم الإحالة إلى تلك المصادر، فضلاً عن أنّهم كانوا أكثر منهجيّةً من المُحْدَثين في بحوثهم. لقد كان العرب والمسلمون يملكون آنذاك ناصية العلوم والاكتشافات في العالَم، وكانوا هم المرجع الأوّل في إثباتها أو نفيها، يوم أن كانت الحضارة تكتب من اليمين إلى اليسار. لقد كنّا نتكلّم والعالم يسمع، ونُملي وهو يكتب، ولكنّ الأمر أضحى مختلفاً تماماً اليوم، ومراكز الإشعاع العلميّ ومصادر الاكتشاف وصناعة القرار العلميّ انتقلت إلى الضفّة الأخرى من العالم بعد أن غدت الحضارة، شئنا أم أبينا، تُكتب من اليسار إلى اليمين.

في العصر الحديث، عندما ظهرت أوائل كتب المعاصرين الذين كتبوا في الإعجاز العلمي، من أمثال طنطاوي جوهري ووحيد الدين خان وعبد الرزاق نوفل، تلقّى المسلمون في القرن العشرين هذه الكتب كما تتلقّى الصحراء الظمأى مياه المطر. ولكن دخول العالم في طورٍ جديدٍ من التكنولوجيا والمخترعات والتفكير العلميّ، وانتقال الفكر الإسلاميّ، مع هذا التطور، إلى مرحلةٍ أكثر موضوعيّةً وعلميّة، جعل المسلمين يتطلّعون إلى كتبٍ أكثر منهجيّةً وأكثر استجابةً لمتطلّبات عصر التفكير العلميّ، وما كان مقبولاً، وربّما مطلوباً في القرن العشرين، من كتبٍ في الإعجاز تقوم على عرض المعلومات من غير توثيقٍ أو مرجعيّةٍ علميّةٍ ومنهجيّة، أصبح في القرن الحادي والعشرين بعيداً عن الاحترام والقبول لدى المثقّفين من المسلمين أو غيرهم.

كان من أوائل من طرق باب الإعجاز العلميّ من القدماء: الجاحظ (ت255هـ)، وابن سُراقة (ت415هـ)، والماوَردي (ت450هـ)، والغزالي (ت505هـ)، والقاضي عياض (ت544هـ)، وفخر الدين الرازيّ (ت606هـ)، وابن أبي الفضل المُرسيّ (ت655هـ)، وداود الإنطاكيّ (ت1008هـ)، ومن المُحدَثين: الإسكندرانيّ (ت1889 م)، وعبد الرحمن الكواكبيّ (ت1903م)، وطنطاوي جوهري (ت1940م)، ومن المعاصرين: وحيد الدين خان، وعبد

الرزّاق نوفل، ومصطفى محمود، وموريس بوكاي، ورياض مصطفى العبد الله، وعبد المجيد الزنداني، ومحمّد علي البار، ونبيل عبد السلام هارون، وطارق سويدان، وزغلول النجّار، وسيّد وقار حسيني، وبسام ضفدع، وعبد الدائم الكحيل، ومحمّد راتب النابلسي، وباسل الطائي، وصلاح الدين جنيد، ومحمّد جميل الحبّال، وعبد العزيز المصري، ومقداد مرعي الجواري، وغيرهم كثير من علماء مصر والشّام والعراق خاصّةً.

وظهرت سلسلةٌ من الكتب التي تتحدّث عن "الإعجاز العدديّ" في القرآن كان من بواكيرها كتاب عبد الرزّاق نوفل "الإعجاز العدديّ في القرآن الكريم" الذي صدر في أوائل السبعينيّات عن دار الشعب في القاهرة، وطبع بعد ذلك طبعاتٍ عديدة، وقد أتى فيه بقوائم لا نهاية لها "للمثاني" التي بُنيت عليها لغة القرآن الكريم. فعدد ألفاظ الليل بعدد ألفاظ النهار، وعدد ألفاظ الجنة بعدد ألفاظ النار، وعدد ألفاظ الملائكة بعدد ألفاظ الشياطين، بل اكتشف أن اللفظ (شهر) يَرد (12) مرة في القرآن، أمّا اللفظ (يوم) فيَرد (365) مرّة. والحقيقة أنّ الإمام الفخر الرازي كان أوّل من نبّه في تفسيره الكبير إلى هذا السرّ اللغويّ في القرآن الكريم عند حديثه عن اللفظ "مثاني" في قوله تعالى ﴿كتاباً متشابهاً مَثانيَ تقشعرُّ منه جُلودُ الذين يَخشَون ربَّهمْ﴾ [الزُمر: 23]. يقول الرازي:

> أكثر الأشياء المذكورة (في القرآن) وقعت زوجين زوجين، مثل: الأمر والنهي، والعامّ والخاصّ، والمجمل والمفصّل، وأحوال السموات والأرض، والجنّة والنار، والظلمة والضوء، واللوح والقلم، والملائكة والشياطين، والعرش والكرسيّ، والوعد والوعيد، والرجاء والخوف. .[2].

ثمّ تعدّدت بعد كتاب نوفل الكتبُ والمقالات والأبحاث التي تتحدّث عن هذا الجانب الإعجازيّ أو ذاك في القرآن: عن إعجاز ألفاظه ودلالاتها،

---

(2) الرازيّ، الفخر. **التفسير الكبير**. بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، 2001، ج9، ص446.

وإعجاز عدد آياته وعدد حروفه، وإعجاز دلالة فواتح السوَر أو المقطّعات، وإعجاز ترتيب سوَره، وإعجاز عدد آيات كلّ سورة، والخطّ البيانيّ الغريب الذي يمكن أن ينتج عن التوافق والارتباط بين هذا الترتيب وتلك الأعداد، وغير ذلك كثير..

وحتّى لا نخسر هذا الجانب الإعجازيّ الهامّ في القرآن الكريم، ونضيّع الفرص العظيمة التي يتيحها لنا ونحن نحاول أن نثبت للآخرين سماويّة القرآن الكريم، لا بدّ أن تكون هناك قواعد يلتزم بها كلّ من يريد أن يتصدّى للحديث عن الإعجاز العلميّ، وأبسط هذه القواعد، وهي ممّا لا بدّ من الاحتكام إليه في تقويم مكانة المتحدّث ومرجعيّته، هي:

1 - أن ينحصر الحديث في الإعجاز العلميّ بالمختصّين من علمائنا فلا يتجاوزه إلى غير أصحاب الاختصاص، فما أكثر المختصّين في العلوم من باحثينا ممّن نالوا في الوقت نفسه نصيباً من الثقافة القرآنيّة يؤهّلهم للحديث عن الإعجاز في مجال اختصاصهم. ثمّ لا بدّ أن يحصر كلٌّ من هؤلاء حديثه فيما يخصّ حقله من الإعجاز ولا يتجاوزه إلى غيره. فلا يتحدّث الفيزيائيّ عن الإعجاز الطبّي، ولا الطبيب عن الإعجاز الكونيّ، ولا عالم الفلك عن علوم الأرض، بحيث يستطيع المشاهد أو السامع أو القارئ أن يثق بما يقوله هذا العالم المختصّ ويستند إليه بوصفه مرجعاً في هذا الباب.

2 - ألّا يطلق هذا العالِم حديثه على عواهنه دون إسناده إلى مصادره، فلا يكفي أن يقول: أثبت الباحثون، أو: ثبت علميّاً، أو سمعت أحد العلماء الغربيّين يقول، أو اجتمعتُ مع جمهورٍ من العلماء الغربيّين فشرحت لهم ما تنصّ عليه الآيات من حقائق علميّة في مجال اختصاصهم فأعلن نصفهم إسلامه.. كما نسمع أو نقرأ، للأسف، من عديدٍ من العاملين في هذا الحقل..

3 - لا بدّ أن يكون المصدر العلميّ الذي أخذنا عنه غربيّاً. فالغرب هو وحده اليوم مرجعنا في الكشوف العلميّة، وإلى أن تعود الحضارة لتُكتب من اليمين إلى اليسار ستظلّ هذه القاعدة معمولاً بها في توثيقنا لأيّة معلومةٍ علميّة.

4 - ألّا يكتفي المتحدّث بذكر المصدر الذي أخذ عنه المعلومة، بل يذكر كلّ التفاصيل المتعلّقة به: اسم الباحث، واسم مركز البحوث الذي ينتمي إليه والبلد والمدينة، واسم المجلّة العلميّة التي نشرته، وتاريخ نشره، ورقم العدد الذي نشر فيه..

5 - إذا سبق لباحثٍ آخر أن تعرّض للفكرة نفسها في حديثٍ أو مقالةٍ أو كتاب؛ فلا بدّ من تطبيق أبسط قواعد الأمانة العلميّة في النقل، وذلك بإعادة الفكرة إلى صاحبها، لا أن ننشرها ونخوض في الحديث عنها ونستعرض مواهبنا العلميّة من خلالها على الشاشات التلفازيّة متجاهلين ذكر اسم صاحبها الأوّل، فيتناقلها الناس على أنّها للمتحدّث المتطفّل وليس للباحث المكتشف. إذا لم نكن أمناء مع القرآن أمام الله وأمام الناس فكيف نكون أمناء مع غيره؟

إحجام الدارسين عن الخوض في الإعجاز التجديديّ:

ومع إحساس العرب الواضح، كما يظهر في كتاباتهم بين مفسّرين ولغويّين ونحويّين ونقّاد، بأنّ في لغة القرآن شيئاً جديداً لم تعرفه العربيّة من قبل، فإنّهم، ولأسبابٍ عديدةٍ سنأتي عليها، لم يحاولوا الخوض في هذا "الجديد" حين يتحدّثون عن الجانب الإعجازيّ في القرآن، واكتفوا بالإشارة إليه أو الإشادة به من بعيد، بل ربّما أشاح بعضهم النظر عنه وأنكره، بحيث وجدنا منذ الفجر الأوّل للإسلام من يضطرّ للدفاع عن هذه الجدّة ويؤكّدها في وجوه منكِريها، كما فعل عليّ بن أبي طالبٍ ﵁ حين ردّ على من ينكر قراءة الهمزِ في ألفاظٍ مثل (البَرِيّة والنبيّ) لتُقرأ هكذا مقطوعةً (البريئة والنبيء) فقال رضي الله عنه "نزل القرآن بلسان قريشٍ وليسوا بأصحاب نبرٍ (أي قطع الهمزة كما مثّلنا) ولولا أنّ جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبيّ ﷺ ما همَزْنا"[3].

---

(3) ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان. **شرح الرضيّ على شافية ابن الحاجب**. القاهرة: مطبعة حجازي، (د. ت.). ج3، ص32.

وقع الصدمة التجديديّة على العربيّ الأوّل:

وكانت هذه الجدّة المتوزّعة على مختلف جوانب الأسلوب، اللفظيّة والتعبيريّة والنحويّة والصرفيّة والبيانيّة، فضلاً عن الجانب الفكريّ، باعثَ حيرةٍ وذهولٍ لدى من سمعوا التنزيل أوّل مرّة، وكانت عبارةٌ قرآنيّةٌ صغيرةٌ من ثلاث كلماتٍ مثل ﴿فاصدَعْ بما تُؤمَر﴾ كافيةً لتهزَّ البدويّ الذي سمعها مصادفةً فيقول: ما هذا الذي أسمع!! ليس هذا بكلام بَشَر، ثمّ يسجد قائلاً: "سجدتُ لفصاحة هذا الكلام"[4].

وانظر إلى ذلك الإحباط اللغويّ الذي أصيب به واحدٌ من أعلم المشركين بالأدب والشعر، وهو عُتبة بن ربيعة، حين ندبته قريش ليواجه الرسول ﷺ ويعود إليهم بتقريرٍ يُسفّه ما يقول، كما فعل مِن قبلِه، أو مِن بعدِه، الوليد بن المغيرة، فماذا كانت النتيجة؟

أخرج أبو يَعلى والحاكم والبيهقيّ وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال:

اجتمع قريشٌ يوماً فقالوا: أُنظُروا أعلمَكم بالسحر والكَهانةِ والشِعرِ فلْيأتِ هذا الرجلَ الذي قد فَرَّقَ جماعتَنا وشتّتَ أمرَنا وعابَ دينَنا، فلْيكلِّمْهُ ولْيَنظرْ ماذا يَردُّ عليه. فقالوا: ما نعلمُ أحداً غيرَ عُتبةَ بنِ ربيعة، فقالوا: اِئتِ يا أبا الوليد، فأتاه فقال:

يا محمّد، أنت خيرٌ أم عبدُ الله (والد النبيّ)؟ أنتَ خيرٌ أم عبدُ المطّلب؟ فسكتَ رسولُ الله ﷺ. قال: إن كنتَ تزعُمُ أنّ هؤلاء خيرٌ منك فقد عَبَدوا الآلهةَ التي عِبتَ، وإن كنتَ تزعُم أنّكَ خيرٌ منهم فتكلَّمْ حتّى نسمعَ قولَك، أمَا واللهِ ما رأينا سَخلةً قطُّ أشأمَ على قومِكَ منك، فَرَّقْتَ جماعتَنا، وشتَّتَّ أمرَنا، وعِبتَ دِينَنا، وفضحْتَنا في العرب، حتّى لقد طار فيهم أنّ في قريشَ ساحراً، وأنّ في قريشَ كاهناً، واللهِ ما ننتظرُ إلّا مثلَ صيحةِ الحُبلى أن يقومَ بعضُنا إلى

(4) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**. تحقيق: محمد سالم هاشم. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، ج2، ص108.

بعضٍ بالسيوف. يا رجل، إنْ كان إنّما بك الحاجة، جمعْنا لك حتّى تكونَ أغنى قريشَ رجُلاً، وإن كان إنّما بك الباءة، فاخترْ أيَّ نساءِ قريشَ شئتَ فلَنُزوِّجنّكَ عشْراً.

فقال رسولُ الله ﷺ: فرغتَ؟ قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيلٌ من الرحمن الرحيم. كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه﴾. . حتّى بلغ: ﴿فإنْ أعرَضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود﴾ [فُصّلت: 1-13] فقال عُتبة: حسبُك حسبُك، ما عندكَ غيرُ هذا؟ قال: لا. فرَجَع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركتُ شيئاً أرى أنّكم تكلّمونه به إلّا كلّمتُه. فقالوا: فهل أجابك؟ قال: والذي نصبَها بَنِيّةً (يقسم بالكعبة) ما فهمتُ شيئاً ممّا قال غيرَ أنّه أنذركم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود. قالوا: ويلَك: يكلّمُكَ بالعربيّةِ وما تدري ما قال؟! قال: لا واللهِ ما فهمتُ شيئاً ممّا قال غيرَ ذِكرِ الصاعقة.

تُرى أيّ نوعٍ من التلقّي لهذه الآيات تلقّاه عُتبة، البليغُ الأديب الحكيم، الخبيرُ بلغة العربِ وأساليبهم وآدابهم؟ وما طبيعة تلك الصدمة اللغويّة التي أطاشت صوابه، بحيث عاد إلى قومه هذه العودة الخائبة، وقد أُرتج عليه، فلم يفهم الآيات، ولم يَعِ ممّا سمعه منها إلّا ذكرَ الصاعقة؟

أرأيت بلداً عُرف بين بلدان العالم بتفوّقه في صناعة النسيج، ففيه أضخمُ المصانع وأعرقها في إنتاج هذه المادّة، ويقوم على هذه المصانع أشهر خبراء الخيوط والأقمشة والألبسة، وفجأةً يظهر صانعٌ مغمورٌ لا خبرة له، في حيٍّ فقير، من بيتٍ متواضع، في بلدٍ صغيرٍ ناءٍ، فينزل إلى السوق بنوعٍ من الخيوط يختلف عن كلّ الخيوط المعروفة، وبنوعٍ من القماش يبذّ سائر إنتاجِ المصانع، فيحاول أصحابُها أن يكتشفوا كيمياء هذه الخيوط الجديدة لينتجوا مثلها، وأن يعرفوا أسرار صناعة هذا النسيج المتفوّق ليقلّدوه، فيرسلون خبراءهم ومختصّيهم علّهم يكتشفون الموادّ الأساسيّة التي يعتمد عليها هذا المصنع الصغير، والآلات الجديدة التي يقوم عليها، وأسرار "الخلطة" التي تتحكّم بصناعته، فيعودون بخُفَّي حُنَين وقد سُقِط في أيديهم يائسين؟

هكذا كان شأن عُتبة مع النسيج اللغويّ القرآنيّ الجديد. إنّه لم يفهم ما تُلي عليه، ليس لأنّ لغة القرآن غير عربيّةٍ أو ليست مفهومة، بل لأنّ عقله كان لا يستطيع أن يجمع في وقتٍ واحدٍ القدرة على التقاط معاني ما يسمع، وهي أيضاً معانٍ جديدةٌ ومختلفةٌ وغريبةٌ كلّياً عليه، والقدرة على تلقّي اللَكَمات القويّة والصدمات المتلاحقة للّغة الجديدة وألفاظها وتراكيبها وبنائها وعلاقاتها التي تختلف عن كلّ ما عرف من قبل، فإمّا أن يتلقّى هذه وإمّا أن يتلقّى تلك، شأنه شأن حارس المرمى الذي لا يستطيع أن يصدّ في مرماه كُرتين في وقتٍ معاً. لقد علقت بذهنه آخر عبارةٍ فقط من الآيات، وهي وحدها التي أدرك معناها، فقد كان لديه الوقت الكافي، وقد توقّفت الصدمات اللغوية مع انتهاء قراءة الآيات، ليلتقط أنفاسه، ويبتلع هذا المعنى ويتبيّنه ويهضمه، في أثناء رحلة العودة إلى قومه من عند رسول الله ﷺ.

طبيعة التحدّي الجديد:

قد تكون قصّة عُتبة مع قومه مفتاحاً مناسباً في أيدينا للدخول إلى تلك الأسرار الإعجازيّة الخفيّة التي حيّرت بلغاء العرب، وأصابتهم بذهولٍ لم يعوا معه، لأوّل وهلة، المعاني الصريحة والواضحة التي ساقها القرآن إليهم. وحبّذا لو عاد أحدنا إلى تلك الآيات الأولى من سورة (فُصّلت) فقرأها مستحضراً شخصيّة عُتبة، ومحاولاً أن يتحسّس بنفسه عناصر الإعجاز الجديدة التي أحدَثت في ذلك العربيّ البليغ تلك الصدمة المفاجئة، فأفقدته وعيه اللغويّ، وجرّدته من قدرته على فهم نصٍّ جاء بلغةٍ ظنّ وظنّوا أنّها طاعت لهم كما لم تَطُع لغيرهم.

كم شدّتني وحيّرتني قصّة إسلام عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وهو الذي لم يبكِ قطّ -كما أخبرنا- إلّا عندما وَأَدَ ابنته، بعد أن اكتشف وهي في الخامسة أنّها حيّة، وقد أخفتها عنه زوجته طوال هذه السنين، فراحت تمدّ يدها الصغيرة من تحت التراب لتنفض ما علق بلحيته منه وهو منهمكٌ في الحفر، فسالت دمعةٌ من عينه لِما يفعله بها، من غير أن يوقفه هذا عن متابعة دفنها: كيف يتحوّل صاحب هذا القلب الحجريّ فجأةً إلى إنسانٍ ندر أن عرفت البشريّة مثل عدله

وحكمته ورحمته، وذلك لمجرّد سماعه كلماتٍ من أوائل سورة (طه)، فيسقط من يده سيف الكفر، وقد جاء ليقتل به أخته وصهره بعد أن سمع بإسلامهما، ليتحوّل في لحظةٍ إلى سيفٍ للإيمان يشهره في وجوه أعداء الإسلام؟

إنّ شيئاً ما خفيّاً يحدث هنا لم تستطع آذاننا اكتشافه. فمِن أين لنا أُذُن عمر نستبدل بها آذاننا، فنكتشف من إعجاز القرآن ما اكتشف، ونُحسّ منه ما أحَسّ، ممّا عجزنا نحن عن الإمساك به ووضع أصابعنا عليه؟

كنت أتساءل دائماً فيما بيني وبين نفسي: أن يتحدّى القرآن الكريم العربَ بأن يأتوا بمثله أمرٌ مثيرٌ، ولكنّه واقعيٌّ ومعقولٌ جدّاً. ثمّ أن يتحدّاهم بأن يأتوا بعشر سوَرٍ من مثله أمرٌ مدهشٌ، ودَلالةٌ قويّةٌ وغير عاديّةٍ على ثقة المتحدّي أمام المتحدَّى. لكن أن يتحدّاهم بعد ذلك مرّتين، وفي سورتين مختلفتين متباعدتين في نزولهما (البقرة ويونس) بأن يأتوا ﴿بسورةٍ من مثله..﴾ بسورةٍ واحدةٍ فحسب! فهذا أكثر من عجيب، وأكثر من مجرّد ثقةٍ عاديّةٍ للمتحدّي أمام المتحدَّى.

ماذا لو فعلوها وتداعى كبارُهم للاجتماع، من شعراء وأدباء وخطباء ولغويّين وعباقرة، وتعاونوا على كتابة سورةٍ واحدةٍ بحجم سورة (الضحى)، أو ربّما بحجم سورة (العصر) أو (الكوثر)، أي إنّها مسألة تأليف سطرٍ واحدٍ لا أكثر؟! هل سيكون الأمر شاقّاً عليهم إلى هذه الدرجة؟ أوَليست اللغة لغتَهم وبينهم من هم أدباؤها وعباقرتها وأمراء بيانها؟

الإعجاز ومذهب الصَّرْفَة:

لقد ظنّ بعضهم هذا حقّاً، ومنهم من حاول، صحّ ذلك عن بعضهم أم لم يصحّ، أن يجرّب حظّه في تقليد القرآن، كمُسَيلمة وابن المقفّع والمتنبّي والمعرّي وابن الراوندي، ولكنّ محاولاتهم، التي لم تُثِر إلّا السخرية والاشمئزاز بين معاصريهم بحيث لم يفكّروا حتّى بمعاقبتهم أو تأنيبهم، ما لبثت أن ذابت وتلاشت تحت سطوع اللغة القرآنيّة المتفرّدة.

هل سمعتم قطّ بمذهب **الصَّرْفَة**؟ إنّه مذهبٌ عجيبٌ حاول بعض من فاتتهم "الصدمة الأولى"، بعد أكثر من مائة عامٍ على نزول القرآن الكريم، أن

يفسّروا به عجز العرب عن مواجهة التحدّي القرآنيّ بأن يأتوا بمثله، بل بسورةٍ واحدةٍ من مثله.

إنّهم، مِثلنا اليوم، لم يعودوا يمسكون بالومضة الأولى التي خطفت أبصار من عاصروا القرآن وهو يتنزّل بين ظهرانَيهم كلّ يوم: آيةً آيةً وسورةً سورة، ولم يعودوا قادرين على فصل أنفسهم عن أنفسهم، فيستعيروا آذان المسلمين الذين كانوا يتلقّون ومضات الوحي من رسول الله حال تنزّله، ليمسكوا بحقيقة الإعجاز التجديديّ الذي فاجأهم به القرآن الكريم.

وكيف يستطيعون أن يفصلوا أنفسهم، أو كيف نستطيع نحن اليوم أن نفصل أنفسنا، عن آيات الكتاب التي وُلدنا كما وُلدوا على أصوات تلاوتها، ونشأنا وترعرعنا كما نشأوا وترعرعوا مع حروفها وكلماتها؟

وهكذا لم يكن عند هؤلاء ما يسوّغون به العجز عن تقليد العرب للقرآن إلّا أن يظنّوا بأنّ الله، وبمعجزةٍ سماويّةٍ منه، قد "**صَرف**" الأذهان والعبقريّات العربيّة في فترة تنزّله، ولتلك الفترة فقط، عن تقليد القرآن، وإذن: فمعجزة القرآن ليست في ذاته، بل هي في صرفِ الله تعالى لقلوب العرب وعقولهم عن تقليده في أثناء سنوات الوحي، وإذن، وقد انتهت مرحلة التحدّي، ورُفعت "الصَّرفة" المؤقّتة التي كانت حالةً إعجازيّةً طارئةً اقتصرت على من عاصر تنزُّل القرآن من العرب، فبإمكان المقلّدين والمدّعين إذن، وقد انصرمت الفترة الاستثنائيّة، أن يقلّدوه وأن يأتوا بسورةٍ بل بسوَرٍ عديدةٍ مثله**!!**

لقد وُلدت هذه الخاطرة أوّلاً في رأس الجَعْد بن دِرهم، مؤدِّب مروان ابن محمّد آخر خلفاء الأمويّين، ثم انتشرت الفكرة حتّى وصلت إلى (النَظّام) المتكلّم المعروف (ت231هـ) فقال:

> الآية والأعجوبة في القرآن، بما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأمّا التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أنّ الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحدثَهما فيهم[5].

(5) الغريب أنّ الدكتور شوقي ضيف رحمه الله (ت2005م) نسب هذا القول في بعض =

وهكذا فكّروا في كلّ الطرق التي قد تخرجهم من حيرتهم وهم يحاولون تفسير ما سمعوه عن "الإعجاز اللغويّ" وكيف "أَعجز" القرآنُ العربَ عن تقليده، ولكن لم يحاولوا أبداً أن يتّجهوا بتفكيرهم نحو الإجابة عن السؤال: هل كان أحد جوانب إعجاز القرآن، بل الجانب الأهمّ فيه والأكثر جدارةً بهذه التسمية، يكمن في أنّه أتى "بلغةٍ جديدةٍ كلّياً" يعجزون عن الإتيان بمثلها؟ وما طبيعة هذه الجدّة وحجمها ومداها؟

الحجم الحقيقيّ للإعجاز التجديديّ:

وأعترف بأنّني لم أكن أدرك نوعيّة التحدّي ساعةَ تصدّيت للإجابة عن هذا السؤال وقرّرت أن أُدخل لغة القرآن الكريم إلى مخبري اللغويّ وأضع نسيجها تحت المُجهِر.

لم أتبيّن أبداً من قبل، وبثقةٍ ووضوحٍ كاملين، أنّ وراء كلّ آيةٍ، بل كلّ عبارة، وأكاد أقول: كلّ لفظة، معجزةً و"اختراعاً" بل أكثر من اختراعٍ واحدٍ في كثيرٍ من الأحيان -وأعتذر إلى الله إذ لم أجد غير هذا اللفظ البشريّ القاصر للتعبير عن طبيعة إعجازٍ لا تحيط به لغتنا، ولله دائماً المثل الأعلى- حتّى كاد يبلغ بي التساؤل، أنا الذي أصابني القلق يوماً من تحدّي القرآن للعرب بأن يأتوا بسورةٍ من مثله، لأقول لنفسي الآن، وقد اكتشفت ما

= آخر مؤلّفاته "معجزات القرآن". (شوقي ضيف. **معجزات القرآن.** القاهرة: دار المعارف، 2002، ص69) إلى أبي الحسن الأشعريّ (ت324هـ) في كتابه "مقالات الإسلاميّين" والحقّ أنّ الأشعري لم يقل بهذا بل نَسب القول الذي يستشهد به ضيف إلى (النظّام) حيث يذكر: "وقال النظّام: الآية والأعجوبة في القرآن.. إلى آخر النصّ". الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. **مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلين.** تحقيق: هلموت ريتر. اسطنبول: (د. ن.)، 1929، ص57. والأغرب من ذلك أن ينسب ضيف، في المكان نفسه، إلى المعتزلة قولهم بالصَّرفة، وذلك حين ينصّ: "ونتقدّم في الزّمن إلى أوائل القرن الثّالث الهجريّ فتُعزى الفكرة (القول بالصّرفة) إلى نفرٍ من المعتزلة، مثل بِشر المريسيّ وعيسى بن صُبيح المُردار"، ولكنّ الأشعريّ، وهو الذي بدأ حياته معتزليّاً، يقول في المكان نفسه: فقالت المعتزلة، إلّا النظّام وهشاماً الفوطيّ وعبّاد بن سليمان: تأليف القرآن ونظمه مُعجزٌ محالٌ وقوعُه منهم كاستحالة إحياء الموتى".

اكتشفت: عجباً، كيف توقّف التحدّي القرآنيّ عند الإتيان بسورةٍ من مثله، ولم يتجاوزها إلى الإتيان بآيةٍ مثله؟! ثمّ ما لبثت أن طامنت من عجبي واستغرابي حين تذكّرت أن في القرآن آياتٍ لا تعدو الآية منها كلمةً واحدة، بل إنّ منها ما لا يعدو حروفاً، فطأطأت مذعناً لسموّ التحدّي الإلهيّ الحكيم.

منذ بدأت أتبيّن تلك الحقيقة، صرت كلّما اقتربت من لغة القرآن لمعالجتها واكتشاف أسرارها، أتصوّر نفسي وكأنّني مسِخٌ صغير يحاول أن يتسلّق إصبعاً من أصابع قدمِ عملاقٍ هائل، ثمّ لا يكون له ذلك.

إنّ ما في هذه اللغة ليس نوعاً من الاختراعات العلميّة التي عرفناها في هذا العصر، ولكنّها مستجِدّاتٌ لغويّةٌ مذهلةٌ مستعصيةٌ ومتنوّعة المعالم والأشكال، تتوالى وتتلاحق، بعضها يأخذ بعَناق بعض، بحيث يصاب من يحاولها أو يتصدّى لتقليدها بإحباطٍ يدرك معه أن لا سبيل إلى المطاولة والمكابرة.

أرأيت لو أنّ لك حديقةً جميلةً تخرج إليها كلّ يوم متنزّهاً، فتشمّ زهرةً ههنا، وتكتشف برعماً جديداً هناك، وتقطف ثمرةً من هذه الشجرة، وأخرى مختلفة الطعم من تلك، ثمّ جاء من يقول لك إنّ في حديقتك، التي تستمتع كلّ يوم برؤية عشرات الأشياء الجميلة فيها، آلافاً من الأسرار العجيبة التي خَفيت عنك ولم تقع عيناك عليها أبداً؛ رغم أنّها قريبةٌ إليك وفي متناول يديك وتحت نظرك.

ثم ما يلبث أن يقدّم لك نظّاراتٍ، فتضعها على عينيك، وإذا أنت أمام مشهدٍ مختلفٍ تماماً عمّا عهدته من قبل: فتحت كلّ حجرٍ في الحديقة لؤلؤةٌ ثمينة، وبين كلّ ورقتين من أوراق الورد صفيحةٌ رقيقةٌ من الفضّة، وتحت لِحاء كلّ شجرةٍ عصارةٌ من عطرٍ رائعٍ لم تعرفه من قبل، وبين كلّ ذرّتين من ترابها ذرّةٌ من معدِنٍ ثمين، وو.. كلّ هذا في حديقتك وأنت لا تعلم!

إنّ عملنا في هذا البحث ما هو إلّا محاولةٌ لإيجاد مثل هذه النظّارات الخاصّة، والإمساك بيد قارئ القرآن ليتخلّص، بنظّارتيه الجديدتين، من الألفة التي تقتل قدرته على رؤية الإعجاز التجديديّ فيه، ليفاجأ، وهو ينظر من

خلال العدستين الجديدتين، بأسرارٍ وحقائق لغويّةٍ وبيانيّةٍ لا حدود لها، ولم يكن يدري عنها قبل ذلك شيئاً.

هل ترك الأوّلون للآخِرين؟

لو قبلت أن أستسلم لمقولة "لم يترك الأوّلون للآخِرين شيئاً"، وقد قيلت لي أكثر من مرّة على مدى سنوات إعدادي لهذا البحث، لانصرفتُ عن إقحام نفسي في هذه المغامرة الاستكشافيّة غير المأمونة العواقب، ووفّرت على نفسي كثيراً من المتاعب والانتقادات التي لا نهاية لها، ولكنّني كنت أنثني دائماً عن هذا الخاطر وأقول لنفسي: ما بالك يا بسّام؟ وهل توقّفت سلسلة الإبداع والاكتشاف يوماً؟ إذن لتوقّفت البشريّة عن النموّ، ولَما كانت حضارةٌ ولا اختراعٌ ولا تطوّرٌ في هذه الأرض.

وحدث أن واجهتني هذه المقولة مرّةً بحضور أستاذنا اللغويّ الكبير الدكتور مازن المبارك فكان أن تلطّف وردّها على صاحبها بنفسه قائلاً: أخبرنا إذن، في أيّة سنةٍ بالضبط تنتهي حقبة الأوّلين وتبدأ حقبة الآخِرين؟

ومن المؤكّد أنّه حتّى القدماء، وقدماء القدماء، واجهتهم هذه المقولة الأزليّة المحبِطة، ولا أدري إن كان أحدهم قد اقترح أيضاً، أو سأل من يقترح، كما سأل الدكتور المبارك، سنةً ينتهي عندها عصر الأقدمين ويبدأ عصر المحدثين، كما فعل النحويّون حقّاً مع الشواهد النحويّة، وكان عبد القاهر الجرجانيّ، منذ القرن الخامس الهجريّ، أي قبل ألف عام، يشكو من عبء هذه المقولة فيقول:

> وكلامٌ كثيرٌ قد جرى على ألسنة الناس وله مضرّةٌ شديدةٌ وثمرةٌ مُرّة. فمِن أضرِّ ذلك قولُهم: لم يَدَعِ الأوّلُ للآخرِ شيئاً. قال: فلو أنّ علماء كلّ عصرٍ، مُذْ جرَت هذه الكلمة في أسماعهم، تركوا الاستنباطَ لِما لم ينتهِ إليهم عمّن قبلهم لرأيتَ العلمَ مُخْتَلّاً[6].

(6) الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة وجدّة: دار المدني، 1992، ص292.

يكتسب الأموات حالما يموتون، وبتأثير الرهبة والغموض والاحترام التي يشعر بها الأحياء تجاه الموت، نوعاً من القدسيّة، أو الاحترام الذي قد يتحوّل فيما بعد إلى قدسيّة، تحُول دوننا والتعرّض لفكرهم وآرائهم، فتكتسب هذه الآراء هي أيضاً نوعاً من القدسيّة أو الرهبة، ما تفتأ تتطوّر وتنمو مع تقادم العهد، فتميل النفوس إلى تصديقها وتكريسها، وإن كانت على خطأ، والنيل ممّن يتجرّأون على مخالفتها أو نقضها، متناسين ما أخبرنا به صلّى الله عليه وسلّم عن القرآن من أنّه "لا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخلَقُ من كثرةِ الردّ، ولا تنقضي عجائبُه"[7] وما أوصانا به فيه "اقرأوا القرآنَ والتمِسوا غرائبَه"[8]. وإذا أوقفنا التفكير والكشف والتنقيب في مناجم القرآن فأنّى لهذه "العجائب" ولتلك "الغرائب" أن تستمرّ في الظهور؟

يقول الدكتور طه جابر العلواني معلّقاً على أولئك الذين يعارضون أيّ فكرٍ أو كشفٍ أو رأيٍ جديدٍ حول القرآن، وموضّحاً ما يمكن أن تجنيه آراء هؤلاء على الإسلام وعلى المسلمين:

> قيّد هذا التراثُ العقولَ والأفكار بقيودٍ جنتْ على الفكر الإسلاميّ فيما يختصّ بفهم القرآن، والانتفاع بهداية القرآن، فجمد الناس على تداول هذه الكتب، واتّخذوها حَكَماً بينهم، واعتقدوا جملةَ ما فيها، من غير تمييزٍ بين حقٍّ وباطل، ونافعٍ وضارّ، واعتقدوا أنّه ليس لمؤمنٍ أن ينكر شيئاً منها أو يتجاوزه، وقالوا: هذا شيءٌ درج عليه السابقون المتقدّمون ودوّنوه في كتبهم، وشرحوا به كتاب الله، وتلقّته الأمّة بالقبول، وما كان لنا أن نتجاهله أو نتجاوزه، ولسنا بأعلم بالدين، ولا بأبعد نظراً في فهم أساليب القرآن، وتخريج الأحكام، فلا ينبغي أن نَحيد عمّا تلقّيناه عن الماضين قيد شعرة.. وبذلك أسلموا عقولهم إلى غيرهم.. وقعدوا عن النظر في القرآن.. بل وصل الأمر ببعض أهل العلم إلى أن يقول: إنّ هذا الشيء ثابتٌ في القرآن

---

(7) البيهقي، أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**. تحقيق: محمد بسيوني زغلول، بيروت: دار الكتب العالمية، ج2، ص325.

(8) المرجع السابق، ج2، ص426.

لأنّ فلاناً أو فلاناً حملوا عليه بعض آيات الكتاب الحكيم، وبذلك جعلوا القرآن تابعاً لعلم الرجال بدلاً من أن يكون علمُ الرجال دائراً مع القرآن حيث دار[9].

أهل التلاوة وأهل التدبّر:

في أثناء زيارتي لإحدى دول الخليج استضافني في منزله أحد تلامذتي العاملين هناك، ولفت سمعي، حالما دخلت معه البيت، تلاوة القرآن الكريم تنطلق في المنزل بصوتٍ خفيضٍ وقد تُرك التلفاز مفتوحاً على إحدى القنوات القرآنيّة، ثم جلسنا وتحدّثنا وأكلنا وشربنا وتسامرنا، وأنا مقسّم الذهن بين ما أسمع من مضيفي وما يتناهى إلى أذنيّ من الآيات المتلوّة، حتى انتهينا إلى الفراش والتلاوة ما زالت تنبعث في الأرجاء، فكان لا بدّ أن أطرح على مضيفي السؤال الذي احتبس طويلاً في صدري: وهل تنام أيضاً على صوت التلاوة؟ فقال: إنّ قراءة القرآن لا تتوقّف في منزلي ليل نهار، حتّى أثناء غيابي عن المنزل لعدّة أيّام.

وبغضّ النظر عن الحوار الهادئ الذي جرى بيني وبين تلميذي بعد ذلك حول هذا التقليد، أثارت هذه الحادثة في نفسي التفكير في أمر المسلمين وموقفهم من القرآن الكريم. فقد رأيتهم يتوزّعون بين طائفتين: الأولى، وهي الأعمّ، تتّخذ من القرآن سلوىً وبركة، فتعلّقه على جدران منزلها، أو تقتني نسخةً فاخرةً مذْهَبةً تزيّن بها غرفة الاستقبال، أو تستأجر المقرئين أيّام العزاء ليقرأوا ما يتيسّر من سوره الكريمة، أو ربّما تتجاوز ذلك إلى التباري، وتشجيع أبنائها على التباري، في حفظ آياته وسوَره وإتقان ترتيله والانكباب على قواعد قراءته وتجويده، وكلّ ذلك أعمالٌ لا يشكّ أحدٌ في أجرها وفي الدلالة على صدق احترام صاحبها وحبّه المنقطع النظير للقرآن الكريم.

والطائفة الثانية، وهي الأقلّ، تأتي عندها مظاهر التباري والتبرّك هذه في

---

(9) العلواني، طه جابر. **نحو موقف قرآنيّ من النسخ**. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2007، ص25.

الدرجة الثانية، ليتقدّمها ويعلو عليها حسن الإنصات إلى القرآن الكريم إنصات من يسمعه أوّل مرّة، والتفكّر في آياته، وتدبّر معانيه، والتفاعل والتجاوب مع حقائقه وحِكَمه وقصصه وأوامره ونواهيه.

وكثيرٌ من أهل هذه الفئة ربّما لا يكون لديها من حسن تلاوة القرآن، أو الإلمام بقواعد تجويده، أو ربّما إتقان قراءته، ما لدى الفئة الأولى، وقد يتعرّض بعضهم، على علوّ كعبهم في تدبّر القرآن الكريم وفقهه والتفاعل معه، إلى الانتقاد من بعض أفراد تلك الفئة والنيل منهم وتجريحهم لو حدث أن أخطأوا في قراءة آيةٍ من آياته، أو فاتتهم في أثناء تلاوتها قاعدةٌ من قواعد تجويده.

لم أستطع أن أنام في تلك الليلة الخليجيّة إلّا بعد أن نَهكني التعب وخدّرني التفكير وأنا مستلقٍ في فراشي أستمتع بالتأمّل في معاني الآيات الكريمة، فلم يكن لي مناصٌ من سماعها. وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ، فما فتئت في تلك الليلة أضمّ رِجلاً أو رِجلين أو أمدّهما، أو أضمّ جسدي كلّه أو أفرده، أو أتقلّب من جنبٍ إلى آخر، أو أعدّل من نومتي قليلاً أو كثيراً بحيث أختصر استلقائي إلى شبه جلوسٍ؛ إذ لم أجد نفسي في كثيرٍ من الأحيان قادراً على أن أظلّ هكذا مادّاً رجليّ بحضرة هذه المعاني القدسيّة الجليلة التي تتردّد على مسامعي وكأنّي بها لا تُلقى إلّا عليّ، ولا توجَّه إلّا إليّ، فأنصت بها إلى صوت الله عزّ وجلّ يخاطبني ويدعوني إلى منحها ما ينبغي من احترام، والاستجابة لها بما تستحقّه من فهمٍ وتدبّرٍ وإذعان.

إنّ من السهل على أفراد الطائفة الأولى أن يسمحوا باستمرار التلاوة ليل نهار، فبها تتمّ البركة، وبخيرها تحرس الملائكة البيت ويخيّم على ساكنيه السلام بإذن الله، ولكنّ الطائفة الثانية سيقضّ مضجعها واجب الإنصات، وهاجس التدبّر، وقدسيّة الموقف، وعظمة المعاني، وجلالة الخطاب.

ولعلّ مقدّمة كتاب محمّد الغزالي "كيف نتعامل مع القرآن" قدّمت أدقّ وصفٍ لموقف الطائفة الأولى من الكتاب الحكيم والنتائج السلبيّة التي انتهت إليها تأثيرات هذا الموقف في مجتمعنا الإسلامي المعاصر، حين تقول:

ذلك أنّ الصورة التي طُبعت في أذهاننا، في مراحل الطفولة،

للقرآن، أنّه لا يُستدعَى للحضور إلّا في حالات الاحتضار والنزع والوفاة، أو عند زيارة المقابر، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية، وهي قراءاتٌ لا تتجاوز الشفاه.

ولذلك، اقترنت الصورة الموروثة للقراءة بحالاتٍ من الخوف والاكتئاب، ينفر منها الإنسان، ويستعيذ بالله من سماعها. فإذا تجاوزنا مؤسّسات الأمّية والعامّية التي تشكّلت من خلالها تلك الصور المفزعة للقرآن، إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم، رأينا أن الطريقة التي يُعلَّم بها يصعب معها استحضار واصطحاب التدبّر والتذكّر والنظر، إن لم يكن مستحيلاً، فالجهد كله ينصرف إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف، وكأننا نعيش المنهج التربويّ والتعليميّ المعكوس. فالإنسان، في الدنيا كلّها، يقرأ ليتعلّم، أمّا نحن فنتعلّم لنقرأ، لأن الهمّ كلّه ينصرف إلى حسن الأداء، وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصةً للانصراف إلى التدبّر والتأمّل، وغاية جهده إتقان الشكل، وقد لا يعيب الناسُ عليه عدمَ إدراك المعنى قدر عيبهم عدمَ إتقان اللفظ![10].

الكثافة الإعجازيّة للمواقع التجديديّة:

أذكر أنّني شاهدت مرّةً صورةً لسلاسل شاهقةٍ وغريبةٍ من الجبال تبدو لغرابتها ورهبة منظرها وكأنّها أُخذت لسطح القمر أو المرّيخ، وحين قلبت الصورة لأقرأ عن حقيقتها فوجئت بأنها لم تكن إلّا صورةً مكبَّرةً جدّاً للخطوط الدقيقة التي تشكّل بصمة إصبع.

هذا تماماً ما سوف يشعر به القارئ وهو يشاهد تضاريس اللغة القرآنيّة، أو ما استطعنا أن نكتشفه منها حتّى الآن، من خلال عدسة المُجهر التي يحاول أن يقدّمها له هذا البحث فيستعين بها على الإمساك بتلك الحقائق اللغويّة المحيِّرة، في حجمها المحيِّر المذهل.

---

(10) الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن**. مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة. فرجينيا: المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1991، ص14.

وربّما وقفنا عند إحدى هذه الحقائق، بمعزلٍ عمّا قبلها وما بعدها من حقائق، فاستسهلْنا أمرها، وزهِدنا في تقييم شأنها، وربّما ردّدنا في أنفسنا: نعم، إنّها جديدةٌ حقّاً، ولكن متى كان التجديد إعجازاً؟

ونحن محقّون في هذا الاعتراض، فليس هناك وجهٌ للإعجاز لو توقّفنا عند حقيقةٍ واحدةٍ أو اثنتين أو ثلاثٍ من هذه الحقائق منعزلةً عن أخواتها. فقط عندما نكتشف كثافة المواقع التي شُحنت بها الآياتُ والسوَر من هذه المستجِدّات، ونعرف كيف تتوالى الواحدة إثر الأخرى من غير توقفٍ ولا تنفّسٍ ولا استراحةٍ ولا فجواتٍ، وكيف تختفي تحت كلّ كلمةٍ أو تركيبٍ أو عبارةٍ قرآنيّةٍ، وفي تضاعيفها وخلف أثوابها، واحدةٌ أو اثنتان أو ثلاثٌ أو أكثر من عجائب التجديد التعبيريّ وأشكاله وألوانه، عند ذلك سندرك طبيعة الإعجاز اللغويّ القرآنيّ واستحالتَه على التقليد أو التزييف.

قد يقال: وهل بقي شيءٌ في العالم غير قابل للتقليد؟ لقد زيّفوا الدولار والإسترليني واليورو ومعظم العملات العالميّة، وقلّدوا التماثيل والآثار والأعمدة والمصكوكات واللوحات المشهورة لأكبر الفنّانين العالميّن، فهل يعجزون عن كتابة سورةٍ أو سورتين، أو آيةٍ أو آيتين؟

إنّ الفرق كبيرٌ بين أن تزيّف شيئاً، فيفوت على الناس تزييفُك، ثمّ إذا اكتشفوه بعد ذلك فرضوا بحقّك ما تستحقّه من عقوبة، ولكن مقرونةً في نفوسهم بالتقدير والإعجاب بإتقانك وفنّك، وبين أن تزيّف شيئاً فلا ينال من الآخرين إلّا السخرية والاستهزاء واتّهامَك بالجهل وعدم الجدّية، مثلما حصل لمسيلمة الكذّاب عندما حاول أن يستبدل بكلمات الله كلماتٍ اخترعها وأحلّها محلّها من مثل: "إنّا أعطيناكَ الجماهِر، فصلِّ لربِّكَ وجاهرْ" ومثل: "والطاحناتِ طحناً" وغيرها[11].

أو مثلما فعل بعض المبشّرين مؤخّراً في أمريكا، وكثيراً ما فعلوا ذلك من قبل فذهبت محاولاتهم أدراج الرياح، فابتدعوا ما أسموه "الفرقان

(11) الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. مرجع سابق، ص387.

الحقّ"[12] وقسّموه إلى 77 ممّا أطلقوا عليه (سوَراً) ثم لم يفعلوا أكثر من أخذ بعض العبارات القرآنيّة عشوائيّاً، من غير إدخال أيّ تغييرٍ عليها، وحشر عباراتٍ أخرى خلالها من عندهم توافق معتقداتهم، أو ربّما لا توافقها بل تحاول أن تخرّب على المسلمين معتقداتهم بأيّة طريقة، فخرجت في النهاية بلا معنىً، من ناحية، وجاءت مثيرةً للسخريّة والإشفاق بما وقع في هذا "المزيج" اللغويّ العجيب من مفارقاتٍ أسلوبيّةٍ مضحكة، من ناحيةٍ ثانية. ومن ذلك قولهم فيما أسموه (سورة الوصايا):

"المد (1) إنّا أرسلناك للعالمين مبشّراً ونذيرا (2) تقضي بما يخطر بفكرك وتُدبّر الأمور تدبيرا (3) فمن عمِل بما رأيتَ فلنفسه ومن لم يعمل فلسوف يَلقى على يديك جزاءً مريرا (4) إنّا أعطينا موسى من قبلك من الوصيّات عشرةً ونعطيك عشراتٍ أخرى إذ قد ختمنا بك الأنبياء وجعلناك عليهم أميرا (5) فانسخ ما لك أن تنسخ مما أمرناهم به فقد سمحنا لك أن تُجري على قراراتنا تغييرا (6) قل لعبادي الذين آمنوا إن تثاءبوا يستعيذوا بالرحمن أن لا يضحك منهم الشيطان وليكبّروا الله إن عطسوا تكبيرا (7) وأن لا يقتنوا في بيوتهم كلباً ولا يضعوا على حيطانهم تصويرا (8). . . ".

ولا يحتاج هذا "الخليط" العجيب، الذي هو أشبه بمحاولة مزج الزيت بالماء، إلى عناءٍ كبيرٍ، حتّى من المبتدئين، لتمييز صحيحه القرآنيّ من زائفه البشريّ.

سأحاول تقريب الصورة أكثر. لو حدث أن استضافك صديقٌ في بيته، فكان فيما قدّمه لك نوعٌ من الخبز لم تذق في مثل طيبته من قبل، فسألته عن سرّ مذاقه اللذيذ فقال: إنّ الملح الذي وضع في هذا الخبز ليس ملحاً عاديّاً، وإنّما هو جذور مادّةٍ عشبيّةٍ نادرة يؤتى بها من أحد الأصقاع النائية في جزر القطب الجنوبيّ، ولا بدّ من حفر ما لا يقلّ عن عشرين متراً في أعماق الجليد للوصول إلى جذور تلك المادّة.

---

(12) الفرقان الحق:
- Al Saffee and Al Mahdy. *The True Furqan*. Wine Press and Omega, 2001.

لا شكّ في أنّك ستعجب كثيراً عند سماع هذه الحقيقة، ولكنّ عجبك سيتضاعف عندما يخبرك صاحبك أنّ الماء الذي عُجن به الخبز ليس ماءً عاديّاً، وإنّما هو قطراتٌ من ندىً جُمعت بعنايةٍ فائقة من على سطح أوراق شجرٍ نادرٍ لا يوجد إلّا في بعض أدغال إفريقية المنقطعة، ولا يمكن جمعها إلّا في أيّامٍ محدّدةٍ من أيّام السنة تزدهر فيها هذه الأوراق بحيث تكون قادرةً على تجميعٍ تلك القطرات، ثم تختفي حتى العام القادم.

وسيفيض عجبك وحيرتك أكثر فأكثر لو استرسل صاحبك شارحاً: أمّا الطحين الذي صُنع منه الخبز فمأخوذٌ من بقولٍ عجيبةٍ، غير القمح، لا تنمو إلّا في أعماق الثلوج، ولا تنبت إلّا في أعالي جبال همالايا.

وسيبلغ عجبك ثمّ إعجابك ثمّ ذهولك وانبهارك الغاية عندما يخبرك صاحبك في النهاية أنّ الطريقة التي حُضّر بها الخبز غير الطريقة التقليديّة، وأنّ الفرن الذي خُبز فيه غير الفرن الذي نعرفه، والوقود الذي أوقد عليه غير الوقود، والصانع غير الصانع، و. . و. .

مثل هذا تماماً ما سيتكشّف لك في هذا البحث، طبقةً فوق طبقةٍ ومرحلةً إثر مرحلة، من جدّة لغة القرآن، سطوحها وأعماقها، وأسرار هذه الجِدّة، أو بعض ما استطعنا الوصول إليه من هذه الأسرار التي تكمن وراء خصوصيّة طعمها، ولذّة مذاقها، وصمودها المستمرّ مع الزمن أمام كلّ محاولات التقليد والتزييف الباهتة والعنيدة والمستمرّة إلى يومنا هذا.

إنّ التجديد يغلّف ثنايا هذه اللغة ومنعطفاتها، ويكوّن نسيجها الخاصّ، فيتخلّل لُحمتها وسَداها، وقد اعترف كلّ من "ذاقها" من النقّاد والبلغاء والأدباء واللغويّين بلذة طعمها وجمال صياغتها ودقّة عبارتها، وحاولوا، بنجاحٍ وبساطةٍ وصدقٍ أحياناً، وبكثيرٍ من التكلّف والاعتساف أحياناً أخرى، أن يضعوا أيدينا على مواضع هذا الجمال ويسوّغوا لنا مذاقه، ولكنّهم لم يُدخلوا نسيجَه اللغويّ إلى مخابرهم ليكتشفوا المصادر غير العاديّة والمميَّزة لمادّته اللغويّة والتصويريّة والفكريّة، ويظهروا لنا المكوّنات الجديدة التي تدخل في بناء أجزاء هذه المادّة، ثم طريقة تَضامّ كلّ تلك الأجزاء بعضها إلى بعض ليتحقّق هذا الشكل الإعجازيّ النهائيّ للتعبير القرآنيّ.

النفوذ المحيِّر للبِنية الإيقاعيّة الجديدة لدى العرب:

كان الوحي في عيون العرب الذين عاصروا تنزّله بمثابة هبوط طبقٍ طائرٍ ضخمٍ أمام أعينٍ بدويّةٍ بدائيّة، بكلّ تعقيدات هذا الطبق وسحر صنعه وغرابة قطعه الدقيقة المتقَنة.

والأعجب من كلّ هذا أنّ العرب قد اعتادوا، كما اعتادت كلّ أمّة، ألّا يتقبّلوا الإيقاع التعبيريّ، شعراً ونثراً، إلّا فيما تعوّدته آذانهم من سبائك وصيغٍ وتراكيب لغويّةٍ تتردّد هي ذاتها عند الأجيال من الكتّاب والخطباء والشعراء، فلو خرج أحدهم عنها لأحسّوا نشازاً إيقاعيّا يؤذي آذانهم، ثمّ لن يألفوا هذا النشاز إلّا إذا تكرّر مع مرور السنين ليصبح بعد ذلك عضواً معترفاً به في نادي إيقاعاتهم اللغويّة.

ولكنّهم، ويا للدهشة، لم يحسّوا هذا النشاز وهم يواجهون أوّل مرّة تلك الحشود المكثّفة من المستجدّات اللغويّة والنحويّة والتعبيريّة المتتابعة في القرآن، التي ستبني في نفوسهم وأسماعهم بالضرورة، من خلال تجمّعاتها المتلاحقة الفريدة، بسرعةٍ لا سابقة لها، قاموسَها الإيقاعيّ المتميّز الجديد.

وعلى العكس، كان ما شدّهم إلى القرآن، منذ اللحظات الأولى لنزوله، إيقاعُ لغته وموسيقا ألفاظه وعباراتِه، الداخليّةُ منها والخارجيّة، والجديدةُ تماماً على العربيّ، لكنِ المقبولة، بل المستحبّة، بل المحيِّرة حتّى لبلغاء المشركين، وهم الذين لم يملكوا حين سمعوه إلّا أن قالوا على لسان كبيرهم الوليد بن المُغِيرة - الذي رفض أن يُسْلِم مع ذلك - :

واللهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ منّي، ولا أعلَمُ برَجَزِه، ولا بقصيدِهِ منّي، ولا بأشعارِ الجِنّ، واللهِ ما يُشْبهُ الذي يقولُ شيئاً مِن هذا، وواللهِ إنّ لِقولِه الذي يقولُ حلاوةً، وإنّ عليه لَطُلاوةً، وإنّه لَمُثمرٌ أعلاه مُغْدِقٌ أسفلُه، وإنّه لَيعلو وما يُعلَى، وإنّه لَيَحْطِمُ ما تحتَه[13].

(13) الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري. **المستدرك على الصحيحين**. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1410هـ، ج2، ص550. =

رحلتي في آلة الزمان:

كم تساءلت فيما بيني وبين نفسي: تُرى هل هناك آلةٌ تستطيع أن تسبح بي في فضاء الزمان لتعبر بي أربعة عشر قرناً إلى الوراء فأستطيع سماع القرآن بأُذُن العربيّ الأوّل وكأنّني أسمعه، كما سمعه هو، أول مرة؟ هل أستطيع التجرّد من ذاكرتي القرآنيّة، بل الإسلاميّة، وأتصوّر أنّني ذلك الجاهليّ الذي عاش عصر الوحي، وسمع القرآن وهو يتنزّل آيةً بعد آية، فتلتقط أذناه عذريّةَ التعبير القرآنيّ، وهما ما تزالان بريئتين من التعوّد والتكرار والألفة التي تحجب عنهما عبقريّة هذا التعبير وجدّته وتفرّده؟

تأمّلوا معي المشهد التالي لتروا كيف يجسّم لنا صورةً عن تلك المشاعر العجيبة التي استيقظت عند الصحابة الكرام حال وفاةِ الرسول الكريم وانقطاعِ الوحي من السماء:

عن أنسٍ ﵁ قال: قال أبو بكرٍ لعمر ﵁ بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أمّ أيمن ﵂ نزورُها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلمّا انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ أما تعلمين أنّ ما عند الله تعالى خيرٌ لرسولِ الله ﷺ؟ فقالت: إنّي لا أبكي أنّي (أي لأنّي) لا أعلم أنّ ما عند الله تعالى خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكنْ أبكي أنّ الوحي قد انقطع من السماء. فهيّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[14].

الله.. أيّة تجربةٍ رائعةٍ عاشها المسلمون الأوائل وهم يتلقّون الوحي من السماء أوّل مرّة؟! أيّة نشوةٍ أحسّوا بها وهم يسمعون رأي السماء في كلّ أمرٍ يَعرِض لهم في حياتهم، ويستقبلون، بالبثّ المباشر وعلى الهواء، أحكامها التي لا تقبل الجدل أو الشكّ، على ما يجري لهم من أحداثٍ يوميّة، وما

= وانظر أيضاً:

- البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج1، ص156.

راجع الروايات والمواقف الأخرى للمشركين من القرآن في عدّة مواضع من كتاب: الزايد، سميرة. **الجامع في السيرة النبويّة**. دمشق: المطبعة العلميّة، 1995.

(14) القشيري، مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج4، ص1907.

يترتّب على هذه الأحكام من تبرئةٍ أو إدانةٍ أو وعدٍ أو وعيدٍ لأناسٍ يعيشون بينهم ويتحرّكون أمامهم ملء السمع والبصر؟!

بل كيف تلقّوا حديث السماء وهو يدخل بهم كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ خضمّاً مذهلاً من العوالم التي لا تكاد تتحمّلها عقولهم.

حتّى رسول الله ﷺ نجده وقد هزّه الوصف الهائل للأسرار الكونيّة والإلهيّة التي يتنزّل بها جبريل عليه فتهيج عواطفه ودموعه:

عن عائشة رضي الله عنها أنّ بلالاً أتى النبيّ ﷺ يؤْذِنه لصلاة الصبح فوجده يبكي، فقال: يا رسول الله ما يُبكيك؟ قال: وما يمنعني أن أبكي وقد أُنزل عليّ هذه الليلة ﴿إنّ في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأُولي الألبابِ﴾ ثمّ قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر[15].

ومن روح هذا المشهد النبويّ العجيب حاولوا أن تستحضروا معي وقْع مثل هذه الآيات التالية على ذهن العربيّ الأوّل وهو يتلقّاها لأوّل مرّة:

﴿وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرضُ جميعاً قَبْضَتُه يومَ القيامةِ والسمواتُ مَطْوِيّاتٌ بيمينِه سبحانَهُ وتَعالَى عَمّا يُشْرِكون. ونُفِخَ في الصُّوْرِ فصَعِقَ مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ إلّا مَنْ شاءَ اللهُ ثمّ نُفِخَ فيه أُخرَى فإذا هُمْ قيامٌ يَنظُرون. وأشْرَقَتِ الأرْضُ بنُورِ ربِّها ووُضِعَ الكتابُ وجِيءَ بالنبيِّين والشُهداءِ وقُضِيَ بالحقِّ بينَهمْ وهمْ لا يُظْلَمون﴾ [الزمر: 67-69].

فهل لبشرٍ أن يستعيد بخياله تلك اللحظات النورانيّة التي فجّرت في نفوس المسلمين الأوائل ما فجّرته، من قوّةٍ وإيمانٍ وثقةٍ وتصميم، بنَوا بها حضارةً غيّرت وجه التاريخ؟!

لقد استعنتُ بهذه الآلة البشريّة القاصرة لأستعيد تلك اللحظات، ساحباً قرصَ الذاكرة القرآنيّة من حاسوبٍ دماغي، لأدفع مكانه بقرصِ الذاكرة الشعريّة

---

(15) رواه ابن حبّان في صحيحه بألفاظ قريبة، انظر:

- البستي، محمد ابن حبّان. **صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1993، ج2، ص386، حديث رقم 620.

الجاهليّة، ثمّ بقرصِ ذاكرة الحديث النبويّ، وهما المصدران شبه الوحيدَين وشبه المؤكَّدين لتكوين صورةٍ عن اللغة التي كانت توازي أو تواكب زمنيّاً لغةَ القرآن في تلك الحِقبة.

ولكنّني لم أنسَ أن أضع بعض التحفّظ أمام صحّة رواية الشعر الجاهليّ عامّةً، وأسماءٍ معيَّنةٍ منه بخاصّة، ولا سيّما حين تتشابه روح الأبيات مع روح الإسلام، تشابهاً لا يترك للباحث خياراً في إهمالها وإخراجها من قاموس الشعر الجاهليّ، ومن ثمّ من ساحة البحث أو الاستشهاد. واقرأوا معي هذه الأبيات التي تُنسب للحُصين بن حُمام الفزاريّ (ت10 ق.هـ):

أعوذ بربّي من المُخزيا	تِ يومَ ترى النفسُ أعمالَها
وخَفَّ الموازينُ بالكافرين	وزُلزِلتِ الأرضُ زِلزالَها
ونادى منادٍ بأهلِ القبور	فهَبّوا لتُبرزَ أثقالَها
وسُعِّرتِ النارُ فيها العذاب	وكان السلاسلُ أغلالَها

فمَن يستطيع منّا، مهما كانت درجة إحساسه الأدبيّ أو مهاراته النقديّة، أن يصدّق أنّ هذه الأبيات التالية هي لشاعرٍ جاهليّ؟

بين المعجم القرآنيّ والمعجم الجاهليّ والمعجم النبويّ:

وبدهيٌّ، وأنا أحاول استكشاف الفروق اللغويّة والأسلوبيّة بين القرآن الكريم وكلٍّ من الشعر الجاهليّ والحديث النبويّ، أن أركّز على الشعر بخاصّة، ولديّ منه ما يزيد قليلاً على عشرين ألف بيت، هي ما أحصته الموسوعات الإلكترونيّة التي بين أيدينا حتّى الآن؛ أي ما يَعدل حجم القرآن الكريم تقريباً، أو يزيد، وإن كنّا نعلم أنّ ما ضاع من هذا الشعر مع الزمن ربّما كان أكثر ممّا وصل إلينا[16].

(16) كان جلّ اعتمادنا في توثيق الشعر الجاهليّ على (الموسوعة الشعريّة) الضوئيّة التي قام عليها المجمّع الثقافيّ في دولة الإمارات، بإصداراتها الأوّل (1998) والثاني (2000) والثالث (2003)، ويجب أن أسجّل هنا أنّني من غير هذه الموسوعة بشكلٍ =

ومع هذه الشكوك التي تحيط بالشعر الجاهليّ، فإنّ أيّة دراسةٍ للإعجاز التجديدي للقرآن لن تستمدّ موثوقيّتها من صحّة هذا الشعر بقدر ما تستمدّها من تلمّس الفروق بين لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف، فالأحاديث النبويّة موازيةٌ زمنيّاً للغة الشعر الجاهليّ، وهي تستمدّها كذلك من تلمّس الفروق بين لغة القرآن ولغتنا البشريّة الأدبيّة أو اليوميّة، في الماضي وفي الحاضر.

ومع تحفّظنا على بعض قصائد الشعر الجاهلي، وتردّدنا في قبول كثيرٍ ممّا يُنسب إلى شعراء معيّنين، فإنّ هذا لا يعني تحفّظاً على الشعر الجاهليّ برمّته، كما فعل طه حسين مرّةً، مهتدياً في ذلك برأي المستشرق البريطانيّ مارغليوث، بل إنّ إثبات كتابنا هذا للفجوة اللغويّة الحاسمة بين الشعر الجاهليّ ولغة القرآن الكريم، ومن ثمّ إثبات جدّة لغة القرآن الكريم وموثوقيّتها، سوف يعني في النهاية أيضاً إثبات صحّة الشعر الجاهليّ وموثوقيّته، مستندين في ذلك إلى تميّز لغته تميّزاً تامّاً عن لغة القرآن الكريم، على تعايش اللغتين وتزامنهما الحميميّ.

إنّ وجود شخصيّة لغويّة خاصّة بالشعر الجاهليّ، متميّزةٍ عن لغة الرسول ﷺ الذي ولد وعاش في قلب الحقبة الجاهليّة، وكذلك وجود لغةٍ نبويّةٍ متميّزةٍ تماماً عن لغة كتابٍ ظهر في تلك الحقبة نفسها، وحمله إلينا الرسول نفسه، من غير أن تختلط اللغات الثلاث أدنى اختلاط، ما هو إلّا دليلٌ على موثوقيّة نصوص اللغات الثلاث كلّها: الجاهليّة، والنبويّة، والقرآنيّة؛ إذ لم تتسرّب المشارب الأسلوبيّة واللغويّة لأيٍّ من النصوص الثلاثة إلى أيٍّ من النصّين الآخرين، على حين تجد أساليب شعراء الجاهليّة تتشابه وتتداخل بحيث لا يكاد الدارس يفرّق تفريقاً جازماً وقاطعاً بين شاعرٍ وآخر من خلال الأسلوب أو الشخصيّة اللغويّة لكلّ شاعر.

= خاصّ، والموسوعات الضوئيّة الأخرى إلى جانبها بشكلٍ عامّ، ما كان لهذا البحث أن يصل إلى يقينيّته وموضوعيّته وشموليّته، جزى الله خيراً كلّ من أسهم في ظهور هذه الموسوعات إلى النور، وأعانهم على تصحيحها وتدارك أخطائها والخروج بها في القريب العاجل على أكمل وجه علميّ وموثّق.

حتّى إن تميّز أحدهم على الآخرين بقوّةٍ أو ضعفٍ أو جزالةٍ أو رقّة أو بساطةٍ أو غموض، فإنّ ناقداً ما لن يجرؤ أن يقطع في أحكامه بأن هذه القصيدة لا بدّ أن تكون لفلانٍ الشاعر أو فلانٍ الآخر، بالقدر نفسه الذي يجرؤ فيه أحدنا، ناقداً كان أو قارئاً عاديّاً، على القطع في حكمه بأنَّ هذا قرآنٌ وهذا ليس قرآناً.

ومع أنّ لغة الحديث الشريف لا بدّ أن تكون قد تأثّرت بلغة القرآن الكريم، تأثّراً سطحيّاً قد لا يظهر في أكثر من 1% من النصّ النبويّ، فإنّ هذا التأثّر لم يغيّر من الطبيعة المتميّزة للأسلوب النبويّ الذي يختلف على نحوٍ أساسيٍّ عن الأسلوب القرآنيّ، ولذلك كان من الضروريّ أن أحرص على إبراز الفروق الأسلوبيّة واللغويّة بينهما أينما عثرت عليها، وهي فروقٌ جذريّةٌ وواسعة، لإبرازها وتوجيه أنظار بعض المستشرقين والمشكّكين إليها، ممّن اعتادوا أن يوجّهوا أصابع الريب إلى لغة الوحي وينالوا من سماويّتها ويتّهموا الرسول ﷺ أو غيره من معاصريه بوضعها.

أمّا ما استشهد به اللغويّون وأصحاب المعاجم من ألفاظٍ وتعبيراتٍ قرآنيّةٍ حاولوا أن ينفوا عنها جِدّتها، فقالوا إنّ العرب سبق أن عرفوها وجاءت في كلامهم قبل نزول القرآن، فليس من الموضوعيّة أن نعود إليها ونطمئنّ لصحّتها ولموثوقيّة قِدَمها بثقةٍ تَعدِل ثقتنا بلغة الحديث الشريف، وكذلك ثقتنا بلغة الشعر الجاهليّ، مع كلّ ما يحيط بهذا الأخير من إشارات استفهامٍ وشكوك، وما دخل الحديثَ الشريف من أحاديث وضعها أصحاب المصالحِ من ذوي النفوس الضعيفة، ولكنّ هؤلاء الوضّاعين، على أيّة حال، ينتمون إلى عصرٍ أو عصورٍ ليست بعيدةً جدّاً عن عصر الحديث النبويّ، ومن ثمّ تظلّ لغتهم، الموضوعة والمزيّفة، ممثّلةً أيضاً للغة تلك العصور.

فالعرب المسلمون، حتّى البداة منهم، لا بدّ أن يكونوا قد تأثّروا أيضاً، ومنذ القرن الإسلاميّ الأوّل، باللغة القرآنيّة الجديدة، كيف لا وقد رضعوها، هم وآباؤهم وآباء آبائهم، مع حليب أمّهاتهم، ولا سيّما إذا تذكّرنا أنّ عمليّة جمع اللغة من ألسنة البداة لم تبدأ إلّا في القرن الثاني الهجريّ؛ أي بعد أكثر من قرنٍ من نزول القرآن الكريم، وبعبارةٍ أوضح: بعد ولادة ورحيل ما لا يقلّ

عن أربعة أجيالٍ توارثت لغة الوحي، بل لغة الحديث الشريف أيضاً، وعاشتها لغةً يوميّةً وعقيدةً وطريقة حياةٍ وتفكير.

كيف يمكن أن نصدّق أنّ هؤلاء البداة كانوا ما يزالون يحتفظون باللغة التي تكلّم بها الجاهليّون، وقد نشأوا، بوصفهم مسلمين، ونشأ آباؤهم وآباء آبائهم على لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف؟

نعم، من الممكن أن نفترض أنّهم ظلّوا بعيدين عن التأثّر بلغة الأعاجم الذين دخلوا الإسلام فأدخلوا معهم لحونهم وتأثيراتهم في لغة أهل الحواضر، ولكنّهم لم يكونوا يوماً بعيدين عن لغة القرآن الكريم التي كانت ملء أسماعهم وأفواههم وذواكرهم وحياتهم اليوميّة، وشاركت في تكوين ملَكاتهم اللغويّة منذ أن كانوا في أرحام أمّهاتهم ثمّ في أحضان آبائهم وبيئتهم الاجتماعيّة والثقافيّة.

ليس من حقّ أيّ لغويٍّ أن يستدلّ من لغة هؤلاء البداة على معرفة العرب الجاهليّين أو عدم معرفتهم للفظٍ قرآنيٍّ ما. لقد فقد هؤلاء، وقد تربّوا على لغة القرآن، حصانتهم الجاهليّة، ولم تعد لغتهم صالحةً للاستشهاد بها على أنّها تمثّل لغة عرب ما قبل القرآن الكريم.

الثورة اللغويّة الجديدة:

كيف قابل العرب اللغة الجديدة للقرآن الكريم وقد جاءهم بكلّ شيءٍ إلّا ما تعوّدوه من ألفاظٍ وتراكيب وأبنيةٍ لغويّةٍ، فتركهم في حَيرة، وربّما أصابهم بذهولٍ لم يُفيقوا منه إلّا مع مرور الوقت وتعوّدهم وائتلافهم لهذه اللغة الجديدة.

أرأيتم لو زرتم منزلاً عربياً، فقدّم لكم أصحابُه أنواع الأطعمة والأشربة اللذيذة فلم يكن بينها الشاي أو القهوة، ألا تقولون: ولكن أين فنجان القهوة أو الشاي؟!

لقد استضاف القرآن الكريم العرب على مائدته الجديدة، وأقبلوا عليه محمَّلين بتراثهم الأدبيّ واللغويّ العريق، فلم يجدوا فيه قهوتهم ولا شايهم.

إنّهم لم يجدوا لدى مُضيفهم ما اعتادوه من تقاليد الضيافة اللغوية: فلا الأشربة هي الأشربة، ولا الأطعمة هي الأطعمة، بل اختلف عليهم حتى التوابل والخبز والفاكهة والحلوى وترتيبُ المائدة ونوعيّة الصحون والملاعق والكراسي والأرائك والسجّاد واللوحات والأثاث وألوان الجدران والستائر والنوافذ والأبواب والعتبات..

وليس هذا فحسب، لقد اختلفت أشكال هذه الأشياء وألوانها ومواقعها داخل البيت، فهي تتجاور أو تتباعد، وتكبر أو تصغر، وتعلو أو تنخفض، وتتقدّم أو تتأخّر، وتأخذ ألواناً وأشكالاً بطريقةٍ تختلف تماماً عمّا عهدوه في منازلهم. كلّ هذا، وللعجب، من غير أن تُفقدهم تلك الجِدّةُ قدرةَ التكيّف مع هذه اللغة وائتلافِهم لها وانجذاب قلوبهم وأسماعهم إليها، بل اعترافِهم، مؤمنين ومكذِّبين، بتفوّقها وتفرّدها.

إذن، فالتغيير لم يطرأ على الألفاظ القرآنيّة وحدها، بل تجاوزها إلى علاقات هذه الألفاظ فيما بينها، ومواقعِها في سياقها، واستخداماتها، والعناصر والأعراف اللغويّة والنحويّة والخياليّة الجديدة التي تنتظمها، وكذلك الوحدات اللغويّة الكاملة التي تشكّلت في النهاية من تلك الألفاظ والعلاقات والأعراف. وهذا كلّه يفسّر تجاوُز عدد المواقع الإعجازيّة الجديدة في كلّ سورةٍ لعدد ألفاظ هذه السورة كما سوف نرى.

الحدود بين الأعراف والقواعد:

في هذه الثورة المفاجئة التي أحدثها القرآن الكريم في اللغة العربيّة، لا بدّ من التمييز بين "القاعدة" و"العُرف". فقد طال التجديد القرآنيّ الأعرافَ اللغويّة والنحويّة السائدة في الجزيرة العربيّة حين لم تكن قد أخذت بعدُ شكلَ قاعدةٍ شرعيّةٍ معترَفٍ بها. حتّى إن كانت هناك قواعد لغويّةٌ متعارَفٌ عليها قبل القرآن، وهذا أمرٌ قابلٌ جدّاً للنقاش، فإنّ الحدود بين الأعراف والقواعد اللغويّة كانت، ولا بدّ أن تكون، ما تزال متماهيةً ومتحرّكة، تماماً كرمال الصحراء العربيّة.

فما الفرق بين العُرف والقاعدة؟

نستطيع أن نقول إنّ اللغة العربيّة كانت عشيّة نزول الوحي مجموعةً من التقاليد النحويّة والصرفيّة واللغويّة والبيانيّة، تواضع عليها العرب في جزيرتهم. بل إنّ هناك ما هو أخطر من ذلك، فقد كان لكلّ قبيلةٍ مواضعاتها اللغويّة الخاصّة المختلفة عن مواضعات القبائل الأخرى، ولم تكن هذه التقاليد قد اكتسبت شرعيّتها القواعديّةَ بعدُ، وهذه الحقيقة كانت عاملاً هاماً في سهولة تقبّل العرب للثورة اللغويّة الهابطة عليهم من السماء، بل عاملاً هامّاً في التفافهم حولها، وإعجابهم بها إلى حدّ الانبهار والاستسلام والارتماء في أحضانها الدافئة.

كان علينا بعد ذلك أن ننتظر عدّة عقودٍ من السنين قبل أن يظهر في الأفق أوائل الروّاد من العلماء الذين وضعوا الأسس لعلوم النحو والصرف والبلاغة والبيان، فحوّلوا بذلك أعراف العربيّة وتقاليدها إلى قواعد وقوانين صارمةٍ ما لبث أن اشتدّ عودها وفرضت نفسها، عليهم وعلى الآخرين، بوصفها حدوداً لا ينبغي أن يتجاوزها اللاعبون على حلبة التعبير اللغويّ.

القرآن يمهّد لتحويل الأعراف اللغويّة إلى قواعد:

وهكذا نجد أن الحديث عن "القاعدة" قبل عصر القرآن هو بالأحرى حديثٌ عن العُرف، وأنّ القاعدة لم تصبح "قاعدة" إلّا بفضل الحركة اللغويّة التي ابتعثها القرآن الكريم في الجزيرة العربيّة وما حولها، وأدّت في النهاية إلى ظهور علوم اللغة بمختلف جوانبها، ومن ثمّ، إلى تحويل الأعراف اللغويّة، ذات الرمال الرخوة المتحرّكة، إلى قواعد صخريّةٍ صارمةٍ وثابتةٍ يصعب الخروج عنها.

وبكلمةٍ قصيرة: إنّ القرآن هو الذي فتح الباب على العرب للتفكير بوضع قواعد للغتهم، وقبل القرآن لم يكن هناك إلّا المادّة اللغويّة البِكر التي كانت تتداولها ألسنة القبائل العربيّة في الصحراء الكبيرة الممتدّة، والتي كانت تنتظر من يستقريها ويرصدها ويستنبط منها القوانين والقواعد التعليميّة المدرسيّة التي ستصبح بعد ذلك التخومَ اللغويّة الدوليّة والشرعيّة المعترف بها لتلك اللغة.

وإذا كان بعض المغرضين اليوم، سواءٌ جهلوا هذه الحقيقة أو أدركوها،

يهاجمون القرآن لخروجه في كثيرٍ من آياته على قواعد النحو العربيّ، فإنّ عليهم ألّا يتغافلوا عن حقيقة أن هذه القواعد، وقد وُضعت بعد القرآن، هي التي عجزت عن الإحاطة بقواعده فلم تستطع ترويضها وإدخالها إلى قفص قواعدها البشريّة، وأنهم، باعتراضهم على القرآن لمخالفته هذه القواعد، أشبه بمن يعترض على مصمّم أزياءٍ مشهورٍ خرج على الناس بزيٍّ جديد، فقيل له: لقد خرجتَ عن تصاميمك القديمة إلى تصميمٍ مختلفٍ وهذا مرفوض!

لقد أصبح القرآن الكريم، حال اكتمال تنزّله وجمعه، المصدرَ العربيّ المنهجيّ الأوّل للّغة العربيّة، فهو النموذج الذي وضعه المصمّم الأوّل للغة البشر، من داخل اللغة القديمة نفسها، فجاء بلغةٍ عملاقةٍ ذات تصميمٍ جديد ومؤهّلٍ لإيصالنا إلى إطارٍ قواعديٍّ ناضجٍ لهذه اللغة البِكر التي لَم تكن قواعدها قد استقرّت بعد، ثمّ تأبى أقزامٌ قدراتنا البشريّة بعد ذلك إلّا أن تعترض وتقول: هذه ليست على مقياس لغتنا..

منهج الدراسة:

وأخيراً، لقد بدأتُ العمل في هذا البحث عام 1989 وليس معي إلّا ذاكرتي، إلى جانب مَلَكتي النقديّة التي تكوّنت خلال دراستي وتدريسي للشعر العربيّ، قديمه وحديثه، ثمّ دراستي للتفسير وعلوم القرآن الكريم، وكذلك عكوفي على الحديث الشريف، وقد درستُ معظم مجموعاته، المشهورةِ منها والأقلِّ شهرةً، فرُحتُ أحاول استنطاق كلّ ذلك في نفسي لسبر توقّعاتي "الفراغيّة" والخروج بأحكامي التي تظلّ، رغم كلّ شيء، غير قاطعةٍ ولا نهائيّة[17].

ولكنّ ما منّ الله به علينا في السنوات الأخيرة من فتوحات الموسوعات

---

(17) مصطلح (الفراغيّة) استعرته من علم (الهندسة الفراغيّة) الذي يتطلّب من المهندس استخدام خياله لتصوُّر بعدٍ ثالثٍ للأشكال المسطّحة بحيث تبدو له مجسَّمةً، وهكذا يقيم الكاتب جسراً جديداً في خياله بينه وبين القارئ يستحضره عليه ليخاطبه قبل أن يكتب، مثلما يقيم القارئ جسراً في خياله بينه وبين الكاتب يستحضره عليه قبل أن يقرأ ما كَتب، كما يقيم الناقد جسراً بينه وبين النص الذي يدرسه مستحضراً وقعه على البيئة والعصر اللذين وُضع فيهما. وقد بنيت على هذا المحور الفكريّ كتابي الأخير "مسلمون في مواجهة الإسلام، مسيحيّون في مواجهة المسيحيّة".

الضوئيّة والإلكترونيّة، وما نهَدَ له علماؤنا وباحثونا ليُدخلوا فيها مجموعات الحديث الشريف ودواوين الشعراء العرب، منذ الجاهليّة حتّى اليوم - على ما في هذه الموسوعات حتّى الآن من أخطاءٍ في التحرير والتحقيق - فضلاً عمّا ظهر من الموسوعات القرآنيّة والنحويّة المتعدّدة، كلّ ذلك جاء ليمنح أحكامي الظنّية الأولى مزيداً من المصداقيّة، وليمنحني المزيد من الثقة لمتابعة هذا البحث ونشره.

وقد حرَصتُ على وضع القارئ، ما استطعت، في إطارٍ بسيطٍ وواضحٍ من الشروح، مع الإكثار من الأمثلة المأخوذة من لغتنا اليوميّة، محاولاً بذلك تذليل ما يصعب شرحه من غوامض المواقع القرآنيّة الجديدة، وإبرازِ جدّتها ومخالفتها لما سبق من تقاليد وأعرافٍ كانت تَحكم اللسان العربيّ قبل القرآن.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ابتعدت عن كلّ ما من شأنه أن يشدّ انتباه القارئ بعيداً عن السياق، حيث تجنّبت، ما استطعت، الإسراف في التعليقات والهوامش، وهي ظاهرةٌ تطبع اليوم مؤلّفات اللغويّين والنحويّين والمحقّقين، فكنت، على سبيل المثال، أذكر سند الحديث وروايته إذا كان هذا الحديث ممّا يعتمد عليه البحث في أفكاره ومنهجه ومنعطفاته الأساسيّة، ولكنّني أهملت ذلك حيثما استشهدت بلفظٍ أو تركيبٍ أو جزءٍ من الحديث لإظهار الفروق اللغويّة بين كلٍّ من التعبير القرآنيّ والتعبير النبويّ والتعبير البشريّ، ما دامت هذه الأجزاء لن تغيّر حكماً فقهيّاً أو شرعيّاً أو تاريخيّاً، وما دامت ليست أكثر من "أجزاءٍ" من أحاديث.

وسواءٌ جرت تلك الأحاديث حقّاً على لسان الرسول ﷺ أو كانت موضوعة، فإنّ هذه الأخيرة قيلت على الأغلب -كما سبق أن نوّهت- في مُناخٍ لغويٍّ عربيٍّ ليس بعيداً جدّاً عن عصر النبوّة، وهذا ما يهمّنا في بحثٍ لغويٍّ كهذا، وإن حرصتُ، قبل ذلك كلّه وبعده، على أن يكون معظم ما استشهدتُ به منها مأخوذاً من كتب الحديث المشهورة التسعة[18].

---

(18) أعني: صحيح البخاريّ، صحيح مسلم، سُنن أبي داود، جامع التِرمذيّ، سُنن النَسائيّ، سُنن ابن ماجَه، مسند أحمد، موطّأ مالك، وسُنن الدارميّ.

وسيلاحظ القارئ أنّي لم أقيّد نفسي، وأنا أتوجّه إليه بالخطاب في ثنايا الكتاب، بالصيغة التقليديّة المعتادة (المفرد المخاطب: أنت) بل كنت أتنقّل باستمرار بين صيغتي الجمع والمفرد (أنت وأنتم) مع علمي بإصرار المؤلّفين في خطابهم دائماً على التوجّه إلى "القارئ" وليس إلى "القرّاء" مع أنّ القرآن الكريم يتوجّه في معظم حديثه، إلّا ما يتعلّق منه بشخصٍ بعينه، إلى الجماعة دون الفرد (يا أيّها الناس، يا أيّها الذين آمنوا، وأطيعوا الله، ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً..). ثمّ إنّ من شأن هذا التنقّل بين الفرد والجماعة أن يبتعث لدى القارئ شعوراً بالحركة والحياة ينأى به عن التعب أو الشرود بذهنه عمّا يقرأ.

لقد حاولتُ ما استطعت أن أدخل بالقارئ إلى هذه الأسرار القرآنيّة برفقٍ وأناة، فأُبرزُ كلّ ما أَدخَله القرآن في بنائنا اللغويّ من تغييرات، وقدّمت لهذه المستجدّات بشرحٍ عامٍّ ومفصّلٍ لطبيعتها وأنواعها يستغرق هذا القسم الأوّل من الكتاب، وأستمدّ شواهده من مختلف سوَر القرآن الكريم، مع إعطائي عنايةً خاصّة، في معظم فصوله، لإحدى أوائل السوَر نزولاً، ومن ثمّ أكثرها بكوراً في التصادم مع الأعراف اللغويّة العربيّة، وهي سورة (المدّثر)، بحيث غطّت معظمُ فصول هذا الجزء، فيما غطّته من الظواهر العامّة في مختلف سوَر القرآن، الجوانبَ اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة المستجدّة في تلك السّورة[19].

ثمّ خصّصتُ القسم الثاني من الكتاب لتطبيق الظواهر التي درسناها في

(19) روى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: سألت جابر بن عبد الله: أيُّ القرآن أُنزل قبلُ؟ قال: ﴿يا أيّها المدّثّر﴾ قلت: أو ﴿اِقرأ باسمِ ربِّك﴾؟ قال: أحدّثكم ما حدّثنا به رسولُ الله ﷺ: "إنّي جاورتُ بحِراء، فلمّا قضيتُ جواري نزلتُ فاستبطنتُ الوادي، فنظرتُ أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، ثمّ نظرتُ إلى السماء فإذا هو، يعني جبريل، فأخذتْني رجفةٌ، فأتيتُ خديجةَ فأمرَتْهم فدثّروني، فأنزل اللهُ ﴿يا أيّها المدّثّر. قم فأنذِر﴾". ويعلّق منّاع القطّان على الحديث بقوله: (وأجيبُ عن حديث جابر بأنّ السؤال كان عن نزول سورةٍ كاملة، فبيّن جابرٌ أنّ سورة (المدّثّر) نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة (اقرأ) فإنّ أوّل ما نزل منها صدرُها). القطّان، منّاع. **مباحث في علوم القرآن**. مرجع سابق، 1998، ص60.

القسم الأوّل على سوَر القرآن الكريم واحدةً إثر أخرى، مؤْثِراً أن أَشرع بأكثرها تداولاً في عباداتنا وقراءاتنا اليوميّة، وهي السّوَر القصيرة، فبدأت بـ(الفاتحة) لأنتقل بعدها إلى آخر سوَر القرآن ترتيباً (الناس) ثمّ (الفلق) ثم (الإخلاص) وهكذا مرتدّاً بالدراسة إلى الوراء حسب الترتيب التراجعيّ للسّوَر.

وهذا المنهج، فضلاً عن أنّه يساعدنا على النظر بمنظارٍ جديدٍ إلى أكثر السور تردّداً في صلواتنا وحياتنا اليوميّة، من شأنه أيضاً أن يقرّبنا من التسلسل الزمنيّ لنزول السور، ومن ثمّ إلى حركة التطوّر التاريخيّ للّغة القرآنيّة وتطوّر استقبال العرب لها عبر فترة تنزّل الوحي على مدى ثلاثةٍ وعشرين عاماً، لأنّ معظم السور القصيرة، وليس كلّها، تنزّل في الفترة المكّية؛ أي في السنوات المبكّرة الأولى من الوحي.

وقد اخترتُ أن أبدأ دراستي لهذه السور بالوقوف عند الألفاظ والمصطلحات الجديدة في كلّ سورة، ثمّ أُتبع ذلك بالحديث عن الصياغة اللغويّة والعلاقات الداخليّة النحويّة والفكريّة والبيانيّة فيها، ثمّ أنتقل إلى السبائك اللغويّة القرآنيّة الجديدة، وأتوقّف بعد ذلك عند الألفاظ والعبارات ذات الأبعاد المتعدّدة، وهي أبعادٌ نحويّةٌ ومعنويّةٌ إضافيّةٌ لا تملكها الألفاظ والعبارات عادةً في لغتنا البشريّة، وهو ما يُخرجها من نطاق اللغة المسطّحة ويُدخلها في باب اللغة المجسّمة أو المنفتحة، وأنتهي بعد ذلك إلى الحديث عن جوامع الكلِم من العبارات القرآنيّة السائرة التي دخلت بعد نزول الوحي، أو هي مرشَّحةٌ باستمرار لأن تدخل، معاجمَ لغتنا الأدبيّة واليوميّة.

ومع أنّني التزمت التزاماً بعيداً بمعاني الألفاظ أو الآيات كما رُويت عند المفسّرين، قدمائهم ومحدثيهم، فإنّي لم أحصر نفسي في محيط "الرواية"، ولا سيّما أنّ معطيات العصر وآفاق الثقافة الحديثة الواسعة تمنحنا فرصاً جديدةً هائلةً للدراية، ولإغناء فهمنا للقرآن، واكتشاف المزيد من معانيه وعجائبه التي لا تنقضي، كما أنبأنا حامل هذه الرسالة السماويّة العظيمة ﷺ، وهو أمرٌ ستظهر للقرّاء أهمّيته ودوره الكبير في ظهور هذا البحث أصلاً إلى الوجود.

لقد أساء كثيرون فهم مقولة "تفسير القرآن بالرأي" لدرجةٍ جمدت معها العقول، وتباطأت حركة ملاحقة الجوانب الإعجازيّة في القرآن لاكتشاف المزيد من هذه الجوانب، وتراجع التفكير والاجتهاد وحركة الإبداع عند المسلمين، وتوقّفت، من ثمّ، عجلة الحضارة الإسلاميّة عن الدوران، وما تزال.

ويحضرني هنا درسٌ في هذا الباب يسوقه لنا الأنباريّ في واقعةٍ جرت بين لغويّين عملاقين عاشا في القرن الهجريّ الثاني هما أبو عُبيدة والأصمعيّ. فقد "بلغ أبا عُبيدة أنّ الأصمعيّ يَعيب عليه تأليفَ كتاب "المجاز في القرآن"، وأنّه قال (عنه): يفسّر ذلك (أي القرآن) برأيه. فسأل عن مجلس الأصمعيّ في أيّ يومٍ هو، فركب حماره في ذلك اليوم، ومرّ بحلقة الأصمعيّ، فنزل عن حماره وسلّم عليه وجلس عنده وحادثه، ثمّ قال له: يا أبا سعيد، ما تقول في الخبز؟ قال: هو الذي نخبزه ونأكله، فقال له أبو عُبيدة: فسّرتَ كتابَ الله برأيك؟ قال الله تعالى: ﴿إنّي أراني أحملُ فوقَ رأسي خُبزاً﴾، فقال له الأصمعيّ: هذا شيءٌ بان لي فقلتُه، لم أفسّره برأيي. فقال له أبو عُبيدة: وهذا الذي تَعيبُه علينا: كلٌّ بان لنا فقلناه، ولم نفسّره برأينا. ثمّ قام فركب حماره وانصرف"[20].

وقد حرَصت، وأنا أخوض بالقارئ هذه الأرض الشاقّة البكر من المناجم اللغويّة للقرآن، أن تكون لغتي في متناول أكبر عددٍ من القرّاء، فأتجنّب ما استطعت مصطلحات النحويّين واللغويّين والبلاغيّين، إلّا ما وُفّقت إلى شرحه وإيضاحه للقارئ منها، وأتفادى طرائقهم ومسالكهم وشروحاتهم التي قد تُغلِق على القارئ العاديّ، وأتحدّث عن أعقد القضايا النحويّة واللغويّة والبيانيّة بأبسط ما استطعت من وسيلة، متجنّباً الخوض في المسائل شديدة التخصّص.

لم أشأ إذن لهذا البحث أن يكون للمتخصّصين واللغويّين والنحاة، وكان

---

(20) الأنباريّ، محمّد. **نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء**. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار نهضة مصر، 1967، ص108-109.

جلّ همّي أن أجعله قريب المتناول لكلّ من يقرأ العربيّة ويكتبها، فلا أتحوّل في هذا العمل إلى نحويٍّ متحذلق، أو لغويٍّ متشدّق، أو بلاغيٍّ متكلّف.

ومع هذا فأنا أنصح أولئك الذين لا صبر لهم على لغة النحويّين وفلسفتهم الفكريّة ومفرداتهم الغريبة بأن يتجاوزوا عند قراءتهم للقسم التطبيقيّ من هذا البحث تلك الفقرات التي جاءت في دراستي للسوَر تحت عنوان (السبائك القرآنيّة) لأنّها أكثر مواقع البحث تعرّضاً للعلاقات النحويّة بين ألفاظ القرآن، وتحليلاً لهذه العلاقات، وغوصاً بها في بعض الأحيان في سبيل إظهار التفرّد اللغويّ والنحويّ في بناء الجملة القرآنيّة، مع محاولاتي المخلصة والمستمرّة لتقريب لغتي فيها أيضاً من لغة القارئ العاديّ كما سبق أن وعدت.

وأجد نفسي مَسُوقاً إلى أن أنبّه باستمرار، وستجدونني أعود إلى التنبيه مرّةً أخرى وأخرى، إلى أنّ فصل أيّ موقعٍ تجديديٍّ في كلّ سورةٍ عن باقي المواقع قد يتسبّب في الإيحاء بأنّه قليلُ الأهمّية ولا يرقى للوصف بأنّه "معجز". إنّ الإعجاز الذي نتحدّث عنه لا يأتي إلّا من اجتماع هذه النقاط جنباً إلى جنب، وبهذه الكثافة المثيرة، في كلّ سورة من سوَر القرآن الكريم.

وكثيراً ما كنت أنزلق أنا نفسي، في أثناء إعداد البحث، إلى مثل هذا التردّد والشكّ، فأتساءل وأنا أقف أمام أحد المواقع: وهل هذا كافٍ ليجعل من هذا الموقع إعجازاً؟ ثمّ أعود إلى وعيي فأتذكّر أنّ حقيقة الإعجاز هي في كثافة هذه المواقع وتجاورها وتلاحمها وتداخلها بعضها في بعض ضمن كلّ سورة، وأنّ النظر إلى أيّ موقعٍ منها خارج هذه الدائرة من شأنه أن يُفقده ثقله الإعجازيّ ويعيده إلى مجرّد إتقانٍ وبلاغةٍ وفصاحة، وهو ما يَخرج بنا عن دائرة هذا البحث، ويُدخلنا في المتاهات البلاغيّة التي دخلها الأقدمون ممّن كتب في الإعجاز القرآنيّ.

إنّ الهدف النهائيّ من هذه الدراسة هو أن نضع أيدينا ما استطعنا، وبقدراتنا البشريّة المحدودة، على البصمات الجديدة التي تركها الوحي على لغتنا العربيّة، وسيكون همّنا إذن منصبّاً على الإجابة عن سؤالٍ واحدٍ: أين الجديد في لغة الوحي؟ وماذا أضافت هذه اللغة إلى قاموسنا؟ ثمّ ننتقل بعد

ذلك إلى البرهنة على أصالة هذا الجديد.

وعلى هذا، فلن يكون في البحث مكانٌ للتحليلات اللغويّة والنحويّة والصرفيّة التي لا تخدم هدفه الأساسيّ ولا تساعد في الإجابة عن السؤال الهامّ الذي هو محور دراستنا.

ومع ذلك فأنا واثقٌ من أنّ القارئ سوف يخرج من الكتاب في النهاية وقد غدا نحويّاً أو لغويّاً صغيراً، ومن أنّ هذا البحث سيفتح أمامه آفاقاً لا حدود لها لإعادة قراءة القرآن الكريم بنظّاراتٍ جديدةٍ تمكّنه من أن يرى فيه ما لم يكن يراه قبل قراءته للبحث، بل ربّما أعانته على اكتشاف ما لم أكتشفه، أنا أو غيري، من آفاق الإعجاز القرآنيّ الخالد. مبتهلاً إليه تعالى أن يمنحني من فسحة العمر ما يمكّنني من دراسة المزيد من أجزاء كتابه المعجز.

ومع ثقتنا الأكيدة بريادة هذا العمل الذي نُقْدم عليه، متحرّرين من قيود التعتيم التاريخيّ الطويل على حقيقة التجديد اللغويّ في القرآن الكريم، لا بدّ من التأكيد باستمرار على الحقيقة التي لا ينبغي لباحثٍ حصيفٍ أن يُغفلها، وهي أنّ أيّ تفسيرٍ بشريٍّ للقرآن، أو تحليلٍ لغويٍّ، أو كشفٍ إعجازيٍّ بلاغيٍّ أو لغويٍّ أو علميّ، مهما اتّخذت من أشكالٍ وأساليب موضوعيّة، تبقى في حدود الترجيح وتخضع لاحتمالات الخطأ البشريّ. وكلّ ما نأتي به في هذا السبيل إنّما هو محاولاتٌ مخلصةٌ للاقتراب من الحقيقة المطلقة، التي نجد أنفسنا في النهاية عاجزين عن الوصول إليها ما دمنا نتعامل مع اللانهائيّ وغير المحدود من الإعجاز الإلهيّ بقدراتنا البشريّة الضعيفة والقاصرة والمحدودة.

وإنّ في كلمة أبي بكرٍ ﵁ لَعظةً لكلِ باحثٍ في القرآن أو مستكشفٍ لأسرار معجزاته وآياته حين سُئل عن قوله تعالى ﴿وفاكهةً وأبّا﴾ فقال: "أيُّ سماءٍ تُظِلُّني، أو أيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إنْ أنا قلتُ في كتابِ الله ما لا أعلم"[21].

(21) ابن ابي شيبة، عبد الله بن محمد. **المصنف في الأحاديث والآثار**. تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشيد، 1409هـ، ص136، حديث رقم 30103.

الباب الأوّل

لغة الوحي الجديدة

الفصل الأوّل

الشخصيّة اللغويّة للقرآن الكريم

خصوصيّة الكتاب:

أدركت الفطرة العربيّة، منذ اللحظات الأولى للتنزّل، أنّ كلّ ما يحيط بالقرآن الكريم يوحي بالجِدّة والخصوصيّة، بدءاً باسمه المميَّز (قرآن) الذي لم يعرفه العرب بهذه الصيغة اللغويّة الجديدة قبل الإسلام، وكأنّه يشير بتفرّده إلى تفرّد ما جاء تحته أو ضمنه من مقروءٍ أو مكتوب، ثم بالاسم الخاصّ والمميَّز لمقدّمته، الذي لم يشاركه فيه أيّ كتابٍ آخر من قبل أو من بعد (الفاتحة)، ومروراً باللفظ الخاصّ الذي سُمّيت به أبوابه أو فصوله (سُورة) وقد اشتُقّ من (السُّوْر) أي الجدار الذي يحيط بالمدينة أو القلعة لحمايتها، فكأنّه إشارةٌ سماويّةٌ مبكّرةٌ إلى حَصانة "سُوَر" القرآن وامتناعها على كلّ من يريد تقليدها أو تسلُّقَ حصونها أو العثور في جدرانها المستعصية على ثغراتٍ تسمح بالنفاذ إليها، ثمّ اللفظ الخاصّ (آية) الذي يعني (معجزة)، وقد أطلقه تعالى على الوحدات اللغوية الصغيرة الأولى للقرآن، وهي بمثابة الغرف والرَّدهات التي تتكوّن منها تلك القلعة، فكان إشارةً سماويّةً أخرى لتأكيد الصفة الإعجازيّة وعنصر التحدّي لكلّ وحدةٍ لغويّةٍ فيه، طالت أو قصُرت، وانتهاءً باللفظ (يتلو) أو (تِلاوة) المختصّ بقراءة القرآن الكريم وكأنّه إشارةٌ توثيقيّةٌ من السماء إلى أنّ الرسول ﷺ ليس أوّل من يقرأ هذه الآيات في الأرض بل هو "تالٍ" أو "ثانٍ" في قراءتها، فجبريل هو الذي قرأ أوّلاً والرسول هو الذي "تلاه" مقتفياً قراءته.

والعجيب أنّ هذه الأسماء الجديدة قد نصّ عليها القرآنُ نفسه في آياتٍ

عديدةٍ ولكن بطريقةٍ مميّزةٍ وخاصّةٍ به وحده، بحيث فهمناها من غير أن يشرحها لنا ومن غير أن يشير صراحةً إلى أنّه استخدم مصطلحاتٍ جديدةً ومختلفة، كما يمكن أن يفعل أيّ باحثٍ أو كاتبٍ لو ابتكر لكتابه منهجاً أو مصطلحاتٍ جديدةً تخالف ما جرى عليه الباحثون من قبله، بل إنها، في حالة القرآن الكريم، ستظلّ خاصّةً ومخالفةً لما سيجري عليه الباحثون والكتّاب من بعده أيضاً.

ويكتفي القرآن الكريم بأن يذكر هذه الأسماء المتفرّدة الجديدة، وفي آياتٍ عدةٍ، بطريقةٍ تجعلنا ندرك تلقائياً ما أُطلقت عليه، كما نتبيّن من هذه الآيات، وقد جُعلت الأسماء الجديدة بالحرف المائل:

- ﴿وإذا قُرئ القرآنُ فاستمعوا له وأنصِتوا لعلّكمْ تُرحَمون﴾ [الأعراف: 204]
- ﴿وقال الذين كَفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جُملةً واحدةً﴾ [الفرقان: 32]
- ﴿لو أَنزَلْنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدِّعاً مِن خَشيَةِ الله﴾ [الحشر: 21]
- ﴿يَحْذَرُ المُنافقون أنْ تُنَزَّلَ عليهمْ سُورةٌ تُنَبِّئُهم بما في قلوبِهمْ﴾ [التوبة: 64]
- ﴿سُورةٌ أنزلْناها وفرَضْناها وأنزَلْنا فيها آياتٍ بيّناتٍ﴾ [النور: 1]
- ﴿تلكَ آياتُ اللهِ نتلوها عليكَ بالحقّ﴾ [البقرة: 252]
- ﴿واتْلُ ما أُوحيَ إليكَ مِن كتابِ ربِّك﴾ [الكهف: 27]
- ﴿هوَ الذي بَعثَ في الأمّيّين رسولاً منهمْ يَتلو عليهِمْ آياتِه﴾ [الجمعة: 2]

التحدّي القرآنيّ:

وكان تنزّلُ القرآن منجّماً على مدى ثلاثةٍ وعشرين عاماً ظاهرةً جديدةً لم تحدث لكتابٍ سماويٍّ من قبل، فقد كانت تلك الكتب تنزل على الأنبياء دفعةً واحدةً كما هو معلومٌ لدى أهل تلك الكتب الكريمة.

ولكنّ الأهمّ من ذلك أنّه لم يحدث لأيٍّ من تلك الكتب أن تحدّت من تنزّلت إليهم من الشعوب، ولو مرّة واحدة، بأن يأتوا بمثلها، أو بمثل جزءٍ

صغيرٍ منها على الأقلّ، كما فعل القرآن الكريم في آياتٍ عديدة، وهو ما يضفي عليه جوانب أخرى من الفرادة والخصوصيّة والتميّز. وانظر كيف تدرّج التحدّي من (الإتيان بكتابٍ مثله) حتّى وصل إلى (الإتيان بسورةٍ واحدة):

- ﴿ومَنْ أَظلَمُ ممّن افترَى على اللهِ كَذِباً أو قالَ أُوْحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شيءٌ ومَنْ قالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللهُ﴾ [الأنعام: 93]
- ﴿فلْيَأتُوا بحديثٍ مِثْلِه إنْ كانوا صادقين﴾ [الطور: 34]
- ﴿قُلْ لئنِ اجتمعتِ الإنْسُ والجِنُّ على أنْ يَأتُوا بمِثْلِ هذا القرآنِ لا يَأْتُونَ بمِثْلِهِ ولو كان بعضُهمْ لِبعضٍ ظَهيراً﴾ [الإسراء: 88]
- ﴿قُلْ فأتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ﴾ [هود: 13]
- ﴿وإنْ كنتمْ في رَيبٍ ممّا نَزّلْنا على عبدِنا فأْتوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِه﴾ [البقرة: 23]
- ﴿أمْ يقولون افْتراهُ قُلْ فأْتوا بسُورةٍ مِثْلِه وادْعُوا مَنِ استطعتُم﴾ [يونس: 38]

ولو وقفنا عند السوَر واحدةً واحدة، وعرفنا أنّ عدد المواقع القرآنيّة الجديدة، والنقاط المتفرّدة المكتشَفة، يزيد في كلّ سورةٍ على عدد كلمات هذه السّورة، وأنّ في سورةٍ قصيرةٍ، كالفاتحة مثلاً، مكوَّنةٍ من (29 كلمة) ما لا يقلّ عن 58 من هذه "المستجدّات"، وفي سورة الناس (20 كلمة) ما لا يقلّ عن 33، وفي سورة الفلق (23 كلمة) ما لا يقلّ عن 38، وفي الإخلاص (15 كلمة) ما لا يقلّ عن 22، وهكذا في سائر السور، أدركنا حجم المفاجأة أو الصدمة التي أحدثها القرآن، بشخصيّته اللغويّة المتفرّدة، في نفوس العرب آنذاك، وتفهّمنا تأثير هذه الصدمة على عُتبة بن ربيعة حين سمع الرسول ﷺ يقرأ عليه، أوّل مرّة، ثلاث عشرة آيةً، فلم يستوعب منها، وهو المذهول ممّا سمع، إلّا آخر آيةٍ قُرئت عليه.

هذه "الصدمة" اللغويّة التي أصابت العربيّ الأوّل كانت أشبه بالصدمة الكهربائيّة التي يُجريها الأطباء اليوم على مريضٍ توقّف قلبه عن الخفقان رجاء إعادة الحياة إليه. وكأنّ الله، تعالى شأنه وجلَّت حكمته، أراد أن يعيد بهذه الصدمة اللغويّة الصاعقة الحياة إلى القلب الجاهليّ الميّت في نفوس العرب

أوّلاً، قبل أن يعودوا إلى القرآن فيسمعوه من جديد، ويستوعبوا معانيه، ويتحقّقوا من جِدّته وتميُّزه، ويسلّموا بإعجازه.

لقد لانت قلوب كثيرٍ منهم للّغة الجديدة واستسلمت حال سماعها للآيات الأولى من الوحي فاعتنقت الإسلام، بل إنّ قلوب بعضهم كانت أضعف من أن تتحمّل صدمةً بهذه القوّة، فما أن سمعوا آياتٍ من القرآن الكريم حتّى شهقوا شهقةً فارقوا معها الروح. ويتحدّث السيوطيّ عن قائمةٍ صُنّفت في أولئك الذين ماتوا حال سماعهم للقرآن[1].

لا تعجبوا لهذا، فلعلّكم تستطيعون أن تتصوّروا معي حالةً من حالات الوفاة هذه. فماذا يمكن أن يحدث لأحدنا لو أنّ زميلاً له أخبره بأنّه حين يعود إلى بيته سيجد شخصيّةً كبيرةً تنام في فراشه -وليفترض أحدكم هذه الشخصيّة: قد تكون رئيس دولته أو ملِكها، أو ربّما رئيس أكبر دولةٍ في العالم-. فإذا عاد إلى منزله في المساء، وفتح الباب، وخطا إلى الداخل، وهو ما يزال ينفي عن ذهنه تماماً تصديق تلك المزحة السخيفة، يفاجأ برائحة عطرٍ غريبٍ لم يعتدها من قبل في بيته، فتبدأ الشكوك تساوره، ثمّ يمدّ رأسه من باب غرفة نومه ويفاجأ مرّةً أخرى بأنّ هناك كتلةً تتكوّم تحت غطاء سريره، فتتسارع نبضات قلبه، ويمدّ يده المرتجفة ليكشف الغطاء وإذا برأسٍ بشريّةٍ تشبه حقّا رأس تلك الشخصيّة، فيتبادر إلى ذهنه، وهو ما يزال يصُرُّ على أنّها مزحةٌ سخيفة، أنّ الرأس التي أمامه ما هي إلّا لعبةٌ أو تمثالٌ وضعه له أحدهم لإكمال المزحة، ولكنّه يصعق ويرتدّ إلى الوراء وهو يرى يداً بشريّةً تمتدّ من تحت الغطاء لتصافحه، ويفاجأ بصوتٍ، هو حقّاً الصوت الذي يعرفه لتلك الشخصيّة، يقول له: أنا فلان، يسعدني أن أراك يا بسّام؟..

تُرى كم منّا من يملك قلباً له من القوّة ما يكفي لتحمّل مثل تلك المفاجأة؟

فكيف بنا لو كانت المفاجأة مع الله؟ كيف سيكون شعور من سمع بأنّ فلاناً يدّعي أنّه نبيٌّ، وأنّ لديه ما يزعم أنه كلامٌ بَعَث به إليه، ومع ملاكٍ

---

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص238.

عجيب، خالقُ السماء والأرض؟ قد يصرّ أوّلاً على استحالة وقوع أمرٍ كهذا، ثمّ يهبّ إلى ذلك "المدّعي" ليسمع منه ويدحض "أكذوبته" الكبيرة، فيسمعه يردّد الآية الأولى فتتسارع نبضات قلبه وهو يحسّ بشيءٍ غير عاديٍّ فيها، ولكنّه يصرّ على المكابرة، ثم يسمع الآية الثانية فيرتعش ويرتجف، وهو ما يزال يحاول إقناع نفسه بأنّها لا يمكن أن تكون لغة الله، ثم يسمع الثالثة فالرابعة، وتتوالى عليه الصدمة إثر الأخرى، حتّى يبدأ بالانهيار ويجد نفسه فجأةً، وهو في محنة مواجهة اللغة الجديدة المحيِّرة، وجهاً لوجهٍ مع الله؟

هل استطعت أن أقرّب لكم صورة الصدمة اللغويّة الهائلة التي تلقّاها العربيّ الجاهليّ عند سماعه لكلمات الوحي الأولى؟ وهل تتوقّعون أن تكون قلوب جميع العرب، على ما منحتها البادية والصحراء من قسوةٍ وتحمّل، قادرةً بالدرجة نفسها على تلقّي تلك الصدمة؟

الفن الأدبي الجديد – أدب السورة:

هذا "الفنّ الأدبيّ" الجديد الذي تنزّل على العرب فجأةً من السماء، لم يكن ينضوي تحت فنّ الخَطابة، وقد عرفه العرب تماماً وأبدعوا فيه، ولم يكن ينتمي إلى سجع الكهّان، وقد عرفه العرب أيضاً وتركوا لنا منه نماذج قليلةً وإن لم نكن متأكّدين من صحّة أيٍّ منها، ولم يكن ينتمي إلى فنّ الرسائل، وقد عرفه العرب في نطاقٍ محدودٍ جداً بسبب ندرة من يكتب بينهم، كما لم يكن ينتمي إلى فنّ الشعر، وقد عرفوه حقّ المعرفة، ووصل إلينا من إبداعاتهم فيه أكثر من عشرين ألف بيت. لم يكن الفنّ القرآنيّ الجديد ينتمي إلى أيٍّ من هذه الفنون، بل كانت له شخصيّته الفنّية الخاصّة التي تقترح علينا أن نطلق عليه اسم "أدب السورة".

كان لـ "أدب السورة" الجديد مقوّماته الفنّية المختلفة، كما سوف نرى، من سبائك وتراكيب وألفاظٍ ومصطلحاتٍ وإيقاعاتٍ وسجعاتٍ (فواصل) وروابط لغويّةٍ وطرائق مستقلّةٍ في القراءة والتجويد.

التميّز الفنيّ لفواتح السوَر:

كان من جملة ما تميّز به هذا النوع الأدبي السماويّ الجديد، فيما امتاز به من خصائص استقلّ بها عن الفنون الأدبيّة الأرضيّة، فواتحُ سوَره.

لقد جاءت افتتاحيّات السور القرآنيّة مختلفةً تماماً عمّا عهده العرب، في الماضي وفي الحاضر، من افتتاحيّات لمختلف فنونهم الأدبيّة، كالقصيدة والخطبة والرسالة والتوقيع والمقامة والمقالة والخاطرة والبحث والفصل من الكتاب.

وإذا أجرينا مسحاً لفواتح السور المائة والأربع عشرة التي يتألّف منها القرآن الكريم فسنجد معظمها، إن لم يكن كلها، مختلفاً تماماً عن أيّة فواتح معهودةٍ في أيّ فنٍّ من الفنون الأدبيّة المعروفة لدى العرب، وربّما غير العرب أيضاً.

ولو نظرنا في طبيعة هذه الفواتح، بادئين بالأكثر فالأقلّ تكراراً في القرآن، فسنجدها متدرّجةً حسب الترتيب التالي:

1 - هناك 29 سورةً تبدأ بحروفٍ محيِّرةٍ لم يعرف لها العرب تفسيراً مؤكّداً حتّى اليوم. والغريب أنّ 28 من هذه السوَر تحتلّ مكانها بين السوَر الخمسين الأولى من القرآن، أمّا السورة التاسعة والعشرون منها فتحتلّ الرقم (68) ثمّ تخلو بعدها بقيّة السوَر من هذه الفواتح.

2 - هناك 15 سورةً تبدأ بالقسَم.

3 - هناك 14 سورةً تبدأ بفعلٍ ماضٍ، ولكنّ 12 من هذه الأفعال الماضية تدلّ على الزمن الحاضر، وربّما المستقبل، وليس الماضي، وهو استعمالٌ نادرٌ وصعبٌ في لغتنا، كما نجد في سورة (النحل) مثلاً: ﴿أتى أمرُ الله﴾ أي سيأتي سريعاً، وفي سورة (الفرقان): ﴿تبارك﴾ أي هو مباركٌ. أمّا الفعل الثالث عشر فهو ماضٍ متعدٍّ ولكنّه، خلافاً للمعهود في لغتنا، لم يتعدّ في هذه الآية، ويَرد الفعل في سورة (المعارج): ﴿سأل سائلٌ بعذابٍ واقع﴾ فلا نجد للفعل (سأل) مفعولاً. والفعل الرابع عشر يأتي في صيغة الغائب ولكنّه، على غير المشهور

في لغتنا، جاء في معنى المخاطَب، وهو في سورة (عبس): ﴿عبسَ وتولّى﴾ والمعنى (عبستَ وتولّيت).

4 - هناك 10 سورٍ تبدأ بالنداء، وبصيغةٍ قرآنيّةٍ خاصّةٍ وثابتةٍ في السور جميعاً هي ﴿يا أيّها﴾، وهي تختلف عن صيغ النداء في لغتنا، بل عن صيغة النداء في الحديث الشريف أيضاً؛ إذ تكاد تقتصر فيه على (يا) أو (أيّها) منفردتين.

5 - هناك 7 سورٍ تبدأ بظرف المستقبل (إذا)، والغريب أنّ الحالات السبع جميعاً تنحصر في الربع الأخير من القرآن، وأوّلها سورة (الواقعة). ولكن التميّز فيها أن الظرف (إذا)، الذي اعتدنا في لغتنا أن يتضمّن دائماً معنى الشرط، لا يتضمّن هذا المعنى في فواتح السوَر بل ينحصر فيها بالدلالة على المستقبل: ﴿إذا وقعتِ الواقعة﴾، ﴿إذا الشمسُ كُوِّرت﴾، ﴿إذا السماءُ انفطرت﴾، ﴿إذا السماءُ انشقّت﴾ فلا وجود للشرط في هذه الفواتح، بل ربّما يتوجّه الظرف فيها إلى الحاضر، وأحياناً إلى الماضي، كما في سورة (المنافقون): ﴿إذا جاءكَ المنافقون﴾ فقد جاءه المنافقون حقاً قبل نزول الآية، وكما في سورة (النصر): ﴿إذا جاء نصر الله﴾ فقد تمّ النصر والفتح قبل نزول الآية.

6 - هناك 6 سورٍ تبدأ بالتسبيح والثناء على الله أو الأمر بهما (الحمد لله الذي -سبحان الذي أسرى- سبّح اسم ربّك) وهو أسلوب لم يعرفه العرب قبل الإسلام.

7 - هناك 5 سورٍ تبدأ بفعل الأمر المفرد (قُلْ).

8 - هناك 4 سورٍ تبدأ باسمٍ نكرةٍ (براءةٌ، سورةٌ، ويلٌ).

9 - هناك 4 سورٍ تبدأ بأداة التوكيد (إنّ) ولكن المتصلة بضمير الجمع (نا) الذي جاء بمعنى المفرد وهو الله تعالى، وهذه السوَر الأربع جميعاً تنحصر في السدس الأخير من القرآن، وأوّلها سورة (الفتح): ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

10 - هناك 3 سورٍ تبدأ بآيةٍ مؤلّفةٍ من كلمةٍ واحدةٍ لا أكثر (الرحمن، الحاقّة، القارعة).

11 - هناك 3 سورٍ تبدأ بفعلٍ مضارع، ثابتٍ أو منفيّ، ولكنّه لا يختص في أيٍّ منها بالمستقبل؛ بل بالماضي المتصل بالحاضر (يسألونك، يسبّح، لم يكن).

12 - سورتان تبدآن بـ (لا) النافية (لا أقسم)، ولكنّ (لا) هنا مختلفةٌ عن (لا) النافية المعتادة في لغتنا، فهي هنا بمعنى (نعم) كما يرى كثيرٌ من المفسّرين.

13 - سورتان تبدآن بـ (قد) التحقيقيّة (قد أفلح، قد سمع) وليس هذا ممّا اعتادته العرب، إلاّ أن ترتبط باللام (لقد).

14 - سورتان تبدآن بالاستفهام المنفيّ (ألَمْ) مما لم تعتده فواتحنا البشريّة.

15 - سورتان تبدآن بحرف الاستفهام (هل)، ولكنّه لا يأتي للاستفهام بل للتأكيد، فهو فيهما بمعنى (قد): ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ﴾ - ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾، والمعنى (قد أتى).

16 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بمصدر: ﴿تنزيلُ الكتاب﴾.

17 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ باسمٍ موصولٍ ﴿الذين كفروا﴾.

18 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بـ (عمّ): ﴿عمّ يتساءلون﴾.

19 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بهمزة الاستفهام (أ): ﴿أرأيت الذي يكذّب بالدين﴾.

20 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بجارٍّ ومجرورٍ لم يُذكر متعلَّقهما ﴿لإيلاف﴾.

21 - سورةٌ واحدةٌ تبدأ بالبسملة، وهي فاتحة الكتاب.

والآن، هل اعتاد الكتّاب، في أيٍّ من الفنون الأدبيّة المعروفة، أن يبدأوا كتاباتهم بالقسَم مثلاً؟ أو بفعلٍ ماضٍ يأتي بمعنى المستقبل؟ أو بصيغة النداء (يا أيّها)؟ أو بالنكرة؟ أو بالأداة (قد)؟ أو بمصدر؟ أو باسمٍ موصول؟

وللإجابة عن هذا السؤال دعوني أتناول معكم أقرب كتابٍ إلى يدي على أرفف المكتبة. هذا هو الجزء الأوّل من كتاب "وحي القلم" لعبقريّة النثر العربيّ في القرن العشرين الأديب مصطفى صادق الرافعيّ. سنُجري الآن إحصاءً سريعاً للفواتح في مقالات الكتاب، وسنجد أنّ هذه الفواتح جاءت بالترتيب على الشكل التالي:

جاء في تاريخ الواقديّ - جاء يوم العيد - ما أشدّ حاجتنا - خرجتُ أشهد الطبيعة - كانت جلوةُ العروس كأنّها - إذا احتدم الصيف - ما أجمل الأرض - جاء في امتحان شهادة - اجتمع ليلة الأضحى خروفان - عصمت ابن فلان باشا طفلٌ - على عتبة البنك نام الغلام - كان فلانٌ ابن الأمير فلان - كانت هذه المرأة وضّاحة الوجه - كانت لها نفسٌ شاعرة - صاح المنادي في موسم الحجّ - قال رسول عبد الملك - ذهب الناس يميناً وشمالاً - جلس جماعة أصحاب الحديث - قال أبو معاوية الضرير - دخل أحمد بن أيمن - قال صاحبها وهو يحدّثني - كتبت إليّ سيّدةٌ فاضلة - هؤلاء ثلاثةٌ من الأدباء - قال الشابّ - أرملة الحكومة فيما تواضعنا عليه - قال أبو خالد الأحول الزاهد - فرغ أبو يحيى مالك بن دينار - أحبّها وأحبّته - لكأنّما والله قد تمدّد على سيف البحر - ترجمنا عن الشيطان قصيدة - كيف يُشعَب صَدعُ الحبّ - جلستُ على ساحل الشاطبيّ - جلست وقد مضى هزيعٌ من الليل - أفي الممكن هذا؟ - قالت لي صاحبة الجمال البائس.

يا تُرى كم من هذه الفواتح الخمس والثلاثين تلتقي مع فواتح القرآن الكريم؟ والحقيقة أنّه حتّى تلك التي يمكن أن نظنّ للوهلة الأولى أنّها متشابهة؛ فإنّها ليست كذلك.

فالفعل الماضي يدلّ على الزمن الماضي الحقيقيّ في جميع الحالات الستّ والعشرين من الأفعال الماضية في فواتح الرافعيّ، ولكنّه لم يكن كذلك في أيٍّ من حالاته الخمس عشرة في فواتح السور. ثمّ إنّ الحالة الوحيدة التي افتُتحت فيها مقالة الرافعي بهمزة الاستفهام جاء فيها الاستفهام حقيقياً "أفي الممكن هذا؟"؛ أو جاء على أبعد الأحوال للتعجّب، على حين جاءت الهمزة في الحالة الوحيدة لها في فواتح السور (أرأيت الذي يكذّب بالدين)

للإخبار وليس للاستفهام، أي: (دعني أخبرك بأمر الذي يكذّب بالدين)، وعلى هذا يمكن أن نقيس بقيّة الفواتح.

إنّ ظاهرة اختلاف الفواتح القرآنيّة عن فواتح أيّ فنٍّ أدبيٍّ بشريّ، هي جزءٌ من الظاهرة العامّة الكبرى التي تشمل لغة القرآن جملةً وتفصيلاً، وهي دليلٌ على أنّ هذه اللغة تختلف عن اللغة البشريّة على اختلاف أنواعها، بما فيها لغة الحديث النبويّ أيضاً.

شخصيّة (السورة) القرآنيّة:

سبق أن عرفنا في المقدّمة أنّ القرآن الكريم قد استخدم الفعل الناقص (كان) بمعنى (إنّ). لقد تكرّر هذا الاستعمال الجديد في القرآن ما لا يقلّ عن 190 مرّة، ومع ذلك فلا وجود لهذا الفعل مطلقاً، بمعناه القرآنيّ الجديد، خارج الكتاب الكريم حتى اليوم، لا نستثني من ذلك حتّى الحديثَ الشريف!

ولكنّ نظام توزيع هذا الفعل على السوَر القرآنيّة أكثر إثارةً للدهشة. فأمرٌ عاديٌّ في سورةٍ لا تزيد على سطرين كسورة (الإخلاص) أن تكون حصّتها، من المرّات الـ 190 التي يتكرّر فيها الفعل، مرّةً واحدةً على الأقلّ، وذلك قولُه تعالى: (ولم يكن له كفواً أحد). إنّ الفعل المنفيّ هنا (لم يكن) يعني في الحقيقة: (لمْ ولا ولنْ يكون) فلا يقتصر معناه على الزمن الماضي وحده كما هو في استعمالاتنا البشريّة.

فماذا نتوقّع أن تكون حِصّةُ سورةٍ طويلة كالبقرة من هذا الفعل، وهي التي يقارب حجمها 1/ 12 من حجم القرآن بكامله؟ والجواب: لا شيء! فماذا عن السور الأخرى التي تليها طولاً؟ آل عمران مثلاً؟ لا شيء! والمائدة؟ لا شيء! والأنعام؟ والأعراف؟ والأنفال؟ والتوبة؟ لا شيء، لا شيء! وهكذا حتّى السورة السادسة عشرة؛ أي ما يقرب من نصف القرآن!! كلّ هذه السوَر تخلو تماماً من هذا الاستعمال القرآنيّ الجديد والغريب للفعل الناقص (كان).

ولكن، في وسط هذا السهل المنبسط الفسيح، الخالي من أيّ أثرٍ للفعل الجديد، تشرئبّ فجأةً قمّةٌ شاهقةٌ هي سورة (النساء)، وهي السورة الرابعة في

الترتيب بين هذه السوَر الطويلة، فيتكرّر فيها الفعل، وبشكلٍ حادٍّ وخارجٍ بشدّة عن القاعدة، 53 مرّة، ولكن ليختفي بعدها تماماً في السور الاثنتي عشرة التالية، ثمّ يتخّذ بعد ذلك نظاماً جديداً في ترتيب ظهوره، فيعود ليتكرّر في السورة رقم (17) وهي (الإسراء) على نحو مكثّف 27 مرّة، ثمّ يختفي على مدى سبع سورٍ تاليةٍ لتظهر بعدها قمّةٌ جديدةٌ عند السورة (25) وهي (الفرقان) فيتكرّر فيها 11 مرّة، ثمّ يعود فيختفي لسبع سورٍ أخرى حتّى يظهر في السورة (33) وهي (الأحزاب) 26 مرّةً، ثمّ يختفي تماماً ليتوالى ظهوره بعد حينٍ في بضع سوَرٍ متأخّرة، وهو ما يدعّم ما نذهب إليه في هذه الدراسة من أنّ لكلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم "سُوْرُها" المنيع الخاصّ، وشخصيّتها اللغويّة المستقلّة التي تميّزها عن السور الأخرى بحيث يصعب اختلاطُ آيات السور أو تَداخلُها بعضِها ببعض.

ولكنّ الأهمّ من ذلك، في هذه الظاهرة، أنّها بمثابة شهادةٍ توثيقيّةٍ لكلّ سورة تدعّم تسلسلها الحاليّ بين السوَر، وتنفي وقوع أيّ اضطرابٍ أو تعديلٍ بشريٍّ في هذا التسلسل كما هو بين أيدينا، وهو أمرٌ من شأنه أن يرجّح كفّة من قال بسماويّة هذا الترتيب، من ناحية، ويؤكّد استمراره على الزمن في الصّورة نفسها التي وُجد عليها في عهد النبوّة، من ناحيةٍ أخرى، خلافاً لادّعاءات بعض المستشرقين وتهويماتهم غير الموضوعيّة[2].

وقد يقول قائلٌ من هؤلاء المستشرقين، ممّن اعتادوا اتّهام الرسول ﷺ بوضع القرآن الكريم: بدهيٌّ أن يختلف أسلوب السور المدنيّة، وقد جاءت في مرحلةٍ متأخّرة، عن أسلوب السوَر المكّية، وقد جاءت في فترةٍ مبكّرةٍ من الدعوة، فكلّ إنسانٍ يتطوّر أسلوبه مع الزمن.

إنّ في احتواء سورة (النساء)، وهي مدنيّة، هذا العدد الكبير من الأداة

---

(2) هذا إذا طرحنا جانباً الدراسات الحاسوبيّة الكثيرة التي تصل إلينا بين الحين والآخر عبر الشبكات الإلكترونيّة، ويؤكّد أصحابها بالحسابات الرقميّة، وبعضهم بالخطوط البيانيّة، حتميّة وسماويّة التسلسل الحالي للسور وللآيات، بل حتميّة عدد السور في القرآن، ثمّ عدد الآيات في كلّ سورة.

(كان) القرآنيّة دون باقي السور المدنيّة قبلها وبعدها، ثمّ في وقوع سورةٍ مكّيةٍ ضخمةٍ بين هذه السوَر الطوال، وبحجم سورة (النساء) تقريباً، وهي سورة (الأنعام)[3] مع خلوّها تماماً من هذا الفعل القرآنيّ، هو خير ما تُردّ به هذه التهمة على أصحابها.

والشخصيّة اللغويّة للسوَر القرآنيّة، كلٌّ على حدة، ظاهرةٌ عجيبةٌ أخرى في القرآن، وهي جزءٌ من الهيكل العامّ للشخصيّة اللغويّة للكتاب الكريم. إنّ كلّ سورة، كما سيتبيّن لنا في دراستنا التفصيليّة للسور، تنفرد، مهما قصُرت، بعدة ألفاظٍ ليست في السوَر الأخرى، كما تنفرد بعلاقاتٍ لغويّةٍ جديدةٍ وسبائك وتركيباتٍ وأدواتٍ تقتصر عليها وحدها دون سائر السوَر، فضلاً عن خصوصيّة الإيقاع العامّ والفاصلة القرآنيّة اللذين ينتظمان كلّ سورة، فتكاد تستقلّ بهما عن معظم السوَر الأخرى.

فالتعبير (آياتٌ بيِّنات) على سبيل المثال يتكرّر في القرآن 8 مرّات، أمّا التعبير (آيات مُبيِّنات)، على تميّزه، فيتكرّر مرّتين فحسب ولكنّ المرّتين كلتيهما تردان في سورة (النور). والفعل (مزّق) تتكرّر مشتقّاته 4 مرّات، ولكنّها جميعاً تنحصر في سورة (سبأ) دون غيرها من السوَر، والأداة (حاشَ)، على تميّزها، نجدها مرّتين فحسب، وكلتا المرّتين في سورة (يوسف)، واللفظ (مستمرّ)، على تميّزه أيضاً، يرِد مرّتين كلتاهما في سورة (القمر)، ومشتقّات الجذر (طمث)، على تميّزها، نجدها مرّتين كلتاهما في سورة (الرحمن)، وصيَغ الفعل (استنكف)، على ندرة استعماله، ترد 3 مرّات كلّها في سورة (النساء)، والفعل (راغ)، مع تفرّده، يتكرّر 3 مرّات اثنتان منها في سورة (الصافّات) ويتعدّى في كلٍّ من المرّتين بحرفٍ مختلف ليحمل بذلك معنىً مختلفاً، "فراغَ إلى آلهتَهم (91) فراغَ عليهمْ ضَرْباً (93)"، والتعبير (عزيزٌ حكيمٌ) يرِد 13 مرّةً منها 5 في سورة (البقرة) و4 في (الأنفال)، ولكنّ الأغرب من ذلك أنّ هذا التعبير لا يتجاوز في القرآن سورة (لقمان: 31) إذ يختفي بعدها تماماً في باقي السوَر، والتعبير (وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون) يرد

---

(3) باستثناء ثلاث آياتٍ منها قيل إنّها مدنيّةٌ في أرجح الأقوال.

6 مرّات 5 منها في السورة رقم 2 (وهي البقرة) ومرّة واحدة في السورة رقم 3 (آل عمران) ثمّ لا يتكرّر بعدها أبداً، والتعبير (إنّه هو التوّاب الرحيم) يرد مرّتين كلتاهما في سورة (البقرة)، ويتكرّر التعبير (العزيز الغفّار) 3 مرّات تتوزّع على السوَر المتتالية الثلاث: (ص: 38) و(الزُمَر: 39) و(غافر: 40)... وهذا كلّه غيضٌ من فيض.

ويكتشف لنا عبد الخالق عضيمة أنّ الأداة (كلّا) لا توجد إلّا في السوَر المكّية وفي النصف الثاني من القرآن الكريم، وأنّ 4 من أصل 5 ألفاظ رباعيّة أو خماسيّة الأصل يقتصر عليها القرآن قد اجتمعت في سورة (الإنسان) وهي (زمهرير، قمطرير، زنجبيل، سلسبيل) وأنّ كلّ أبنية الرباعيّ المجرّد جاءت في النصف الثاني من القرآن دون النصف الأوّل، باستثناء اللفظ (زخرف)[4] .

هل تتداخل شخصيّات السوَر؟

كثيراً ما نشعر في أثناء استظهار بعض السور القصار منها بخاصّة، أنّنا نوشك أن ننزلق عن خطّ السورة فتتحوّل التلاوة بنا إلى سورةٍ أخرى تتّفق معها في حروف فاصلتها وإيقاعها، أو تتقارب أوزان بعض سبائكها، كما يمكن أن يحدث معنا مثلاً بين سورتي (المرسلات) و(النازعات) أو بين سورتي (التكوير) و(الانشقاق) أو بين (الأعلى) و(الليل).

ومثل هذا الانزلاق والخروج عن خطّ السورة قد يجعلنا نظنّ أنّه إنّما هو تداخلٌ في شخصيّتَي السورتين، وتَماهٍ للحدود بينهما إلى حدّ إمكان ذوبان إحداهما في الأخرى، فتسقط بذلك مقولتنا عن استقلال كلّ سورةٍ بشخصيّتها اللغويّة وتميّزها عن باقي السوَر.

بين سورتيْ (الأعلى) و(الليل):

إنّ مقارنةً سريعةً بين أيّ زوجين من هذه السور ستبرهن لنا كيف تتباعد

---

(4) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**. القاهرة: دار الحديث، 2004. ج4، ص5.

الشخصيّتان اللغويّتان للسورتين فلا تكادان تلتقيان حتّى في عبارةٍ واحدة.

ولنتوقّف على سبيل المثال عند سورتَي (الأعلى) و(الليل) لنرصد جانباً واحداً من المساحة اللغويّة لهذا الثنائيّ، هو جانب التراكيب والتعبيرات، لنتبيّن من خلاله إلى أيّ مدىً تتشابه أو تتباين الشخصيّتان اللغويّتان للسورتين، على تداخل الخطوط الإيقاعيّة بينهما كما ذكرنا.

إنّ كلتا السورتين تأتي في ثمانية أسطر، وتتكوّن الأولى من 72 كلمة والثانية من 71 كلمة. ومع وحدة الفاصلة بينهما؛ إذ تنتهي فيهما دائماً بالألف، وتكون على وزن (فعْلَى) غالباً، ومع اشتراكهما في بضعة ألفاظٍ قليلةٍ مثل (خلقَ - الأشقى - يَصلَى - الآخرة - ربّه - الأعلى) فإنّهما لا تشتركان في أيّ تعبيرٍ أو تركيب، فلكلٍّ منهما تعبيراتها وتراكيبها المستقلّة والمختلفة تماماً عن السورة الأخرى مع وفرة عدد هذه التعبيرات والتراكيب في كلّ سورة.

والأغرب من ذلك، بل الأكثر إعجازاً، هو أنّ معظم التراكيب والتعبيرات التي تتكوّن منها أيٌّ من السورتين تقتصر على هذه السورة فلا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى في القرآن الكريم.

فبين 26 تركيباً أو تعبيراً هي قوام سورة (الأعلى) يمكن أن نعثر على ما لا يزيد على أربعةٍ منها في سورٍ أخرى من القرآن وهي (خَلَقَ فسوَّى - إلّا ما شاءَ اللهُ - فذَكِّرْ - ولا يَحْيَى) على حين يظلّ 22 منها؛ أي ما يزيد على 80% من التراكيب والتعبيرات، مختصّاً بهذه السورة وحدها فلا يتكرّر في القرآن أبداً.

وهكذا فإنّك لن تجد أيّاً من التراكيب والتعبيرات الآتية من سورة (الأعلى) في أيّة سورةٍ أخرى من سور القرآن الكريم، ولا في سورة (الليل):

1 - ﴿سَبِّحِ اسمَ﴾

2 - ﴿ربِّكَ الأعلى﴾

3 - ﴿قدَّرَ فهَدى﴾

4 - ﴿أخرجَ المرعى﴾

5 - ﴿غُثاءً أحْوَى﴾

6 - ﴿سنُقرِئُكَ﴾

7 - ﴿فلا تَنسَى﴾

8 - ﴿يَعلمُ الجَهْرَ وما يَخْفَى﴾

9 - ﴿ونُيسّرُكَ لليُسرَى﴾

10 - ﴿إنْ نَفعَتِ الذّكرَى﴾

11 - ﴿سيَذّكّرُ مَن يخشَى﴾

12 - ﴿ويتجنّبُها الأشقى﴾

13 - ﴿يَصْلَى النارَ﴾

14 - ﴿النارَ الكبرَى﴾

15 - ﴿ثمّ لا يموتُ﴾

16 - ﴿أفلَحَ مَن تزَكّى﴾

17 - ﴿وذَكَرَ اسمَ ربِّه﴾

18 - ﴿فصَلّى﴾

19 - ﴿بل تُؤْثِرون الحياةَ﴾

20 - ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبْقَى﴾

21 - ﴿لَفي الصُّحُفِ الأُولى﴾

22 - ﴿صُحُفِ إبراهيمَ وموسى﴾

أمّا في سورة (الليل) فبين 25 تركيباً وتعبيراً، هي قوام السورة، يمكن أن نعثر على ثلاثة تعبيرات فحسب تشارك فيها سوَراً أخرى من القرآن الكريم، وهي: (فأنذرتُكم - كذّبَ وتولّى - إلّا ابتغاءَ) ثمّ تنفرد بـ (22) تركيباً أو

تعبيراً تشكّل 88% من تراكيب وتعبيرات السورة، فلا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى، ولا سورة (الأعلى).

وعلى هذا فلن تجد أيّاً من التراكيب والتعبيرات القرآنيّة التالية إلّا في سورة (الليل) وحدها:

1 - ﴿والليلِ إذا يَغشَى﴾

2 - ﴿والنّهارِ إذا تَجلَّى﴾

3 - ﴿وما خَلقَ الذّكرَ والأنثى﴾

4 - ﴿إنّ سعيَكمْ لَشتَّى﴾

5 - ﴿أعطَى واتّقى﴾

6 - ﴿صَدّقَ بالحُسْنَى﴾

7 - ﴿فسنُيسِّرُهُ لليُسرى﴾

8 - ﴿بَخِلَ واستَغنَى﴾

9 - ﴿كَذَّبَ بالحُسْنَى﴾

10 - ﴿فسنُيسّرُهُ للعُسرَى﴾

11 - ﴿وما يُغْني عنه مالُهُ﴾

12 - ﴿إذا تَرَدَّى﴾

13 - ﴿إنّ علينا لَلهُدى﴾

14 - ﴿وإنّ لنا للآخرةَ﴾

15 - ﴿ناراً تَلَظَّى﴾

16 - ﴿لا يَصْلاها إلّا الأشْقَى﴾

17 - ﴿وسيُجَنَّبُها الأتقَى﴾

18 - ﴿يُؤتي مالَهُ يتزكّى﴾

19 - ﴿وما لأحدٍ عندَهُ﴾

20 - ﴿نِعمةٍ تُجزَى﴾

21 - ﴿وجهِ ربِّه الأعلى﴾

22 - ﴿ولَسوف يَرضَى﴾

شموليّة الآية القرآنيّة:

وهناك جانبٌ هامٌّ آخر في الشخصيّة القرآنيّة لن أقف عنده في هذه الدراسة لما فيه من مزالق لغويّةٍ ونقديّةٍ كثيرةٍ وعدت نفسي أن أتجنّبها وأنا أخوض هذه التجربة الصعبة. وقد سبق إلى الكشف عن هذا الجانب الشيخ محمّد الغزالي في كتاب "كيف نتعامل مع القرآن" وفصّل القول فيما يمكن أن نطلق عليه (شموليّة الآية القرآنيّة) وتداخُلَ المحاور الفكريّة فيها تداخلاً لم يحدث قبل القرآن ولن يحدث بعده. يقول الغزالي:

القرآن ليس كتاباً فنّياً مقسّماً على قضايا معيّنةٍ ثمّ تنقطع فيه الرؤية الشاملة، بل هو يعرض الكون وهو يبني العقيدة، ويعرض الكون وهو يربّي الخَلق، ويمزج بين الجميع بطريقةٍ مدهشة. فالنظر إلى الكون والواقع والتاريخ يقود إلى الإيمان، ويؤصّل التوحيد، ويبني الخُلُق. فقوله تعالى:

﴿يا أيّها الناسُ اعبُدوا ربّكم﴾

توحيدٌ فيه أمرٌ للناس بالعودة إلى الله، لكنْ:

﴿..الذي خَلَقَكمْ والذين مِن قبلِكمْ لعلّكمْ تتّقون. الذي جَعلَ لكمُ الأرضَ فِراشاً والسماءَ بِناءً وأَنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً فأَخرَجَ به مِنَ الثمراتِ رِزقاً لكمْ فلا تَجعَلوا للهِ أنداداً وأنتُمْ تَعْلَمون﴾ [البقرة: 21-22].

انظر إلى طريقة القرآن: كيف عرض الكون، ومظاهره، وحقائقه، وهو ينفي الشركاء ويؤسّس عقيدة التوحيد. وهذا في المدينة.. كذلك نجد المسلك نفسه في مكّة:

﴿اللهُ الذي جَعلَ لكمُ الليلَ لتَسكُنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً إنّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ

على الناسِ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يَشكرون. ذلكمُ اللهُ ربُّكمْ خالِقُ كلِّ شيءٍ لا إلهَ إلّا هوَ فأنّى تُؤفَكون. كذلكَ يُؤفَكُ الذين كانوا بآياتِ اللهِ يَجحَدون﴾ [غافر: 61-63].

فالمحاور التي يقوم عليها القرآن الكريم.. ليست مقسّمةً على أساس أنّ هذا المحور لكذا، وذاك المحور لكذا، ولكن نحن بجهدنا العقليّ نجيء لآيةٍ واحدة، أو لطائفةٍ من الآيات يمكن أن تكون في قضيّةٍ واحدة، فنرى أنّ هذه القضيّة الواحدة تماسكت الآيات فيها على عدّة محاور: من الكلام عن الله، والكون، والجزاء، والنفس البشريّة، والإيمان، والأخلاق، تماسكاً غريباً لا يُعرف إلّا في هذا القرآن[5].

التخوّف من التصريح بجِدّة اللغة القرآنيّة:

لقد وقف المفسّرون والأدباء والنقّاد متخوّفين قروناً عديدةٍ من الإعلان عمّا في نفوسهم من يقينٍ بأنّ القرآن قد أتى "بلغةٍ جديدة". ومن تجرّأ منهم فصرّح بذلك توقّف عند هذا التصريح فلم يحاول الخوض في الحديث عن اللغة الجديدة وتحليلها وإثبات وجودها، وربّما كان أحدُ الأسباب التي دفعتهم إلى ذلك خوفَهم من أن يتعرّضوا لألسنة اللغويّين والنحويّين، ولا سيّما أنّ كثيراً من هؤلاء الأخيرين كانت قد انطبعت أخلاقهم، للأسف، بقواعد النحو الصارمة المتشدّدة، فتعاملوا مع الآخرين بمثل هذا التشدّد والتطرّف.

كان خوفهم من هذه الألسنة القاسية، وقلقهم من الاتّهام بأنّهم يدّعون خروج القرآن على لغة العرب، وكأنّه ليس عربيّاً، أقوى من شجاعتهم وحرصِهم على إثبات جِدّة لغته وإظهار ما أحدثه من فتوحاتٍ لغويّةٍ باهرة. وكان يكفي من أحدهم أن يتجرّأ فيصرّح بوجود كلمةٍ جديدةٍ واحدةٍ في القرآن حتّى يصبح متّهماً بعلمه وبدينه.

واسمع معي ما ينقله مفسّرنا الجليل الشوكاني في (الفتح القدير) وهو

---

(5) الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن**. مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة. فرجينيا: المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1991. ص44-45.

يتحدّث عن معنى لفظ (الفاسقين) الذي ورد في الآية 26 من سورة (البقرة):

"وقد زعم ابن الأعرابيّ أنّه لم يُسمَع قطّ في كلام الجاهليّة ولا في شعرهم (فاسق) وهذا مردودٌ عليه، فقد حَكَى ذلك عن العرب، وأنّه من كلامهم، جماعةٌ من أئمّة اللغة، كابن فارس والجوهريّ وابن الأنباريّ وغيرهم"[(6)].

إنّه نوعٌ من المصادرة الفكريّة فرض نفسه، على نحو أو آخر، على النحويّين واللغويّين والمفسّرين المسلمين، فمنعوا أنفسهم، ومنعوا غيرهم، من متابعة الطريق حتّى النهاية لوضع نظريّةٍ كاملةٍ عن الثورة اللغويّة الجديدة التي أحدثها القرآن الكريم، والشخصيّة اللغويّة الجديدة التي تفرّد بها، فاكتفى العلماء بالتحدّث عن أنماطٍ ممّا سمّوه "الإعجاز البلاغيّ" و"إعجاز النظم" في القرآن، كما فعل القضاة النقّاد الثلاثة: الباقلّانيّ وعبد الجبّار والجرجانيّ رحمهم الله.

الخلط بين (الإعجاز) و(البلاغة) عند العلماء:

ومع أنّ القاضي الباقلّاني (ت403هـ) يصرّح في كتابه الرائد "إعجاز القرآن"، في معرض ردّه على القائلين بالصَرفة، بأنّ لغة القرآن جديدةٌ لم يُسبق إليها من قبل "فلمّا لم يوجد في كلامِ مَن قبلَه مثلُه عُلِم أنّ ما ادّعاه القائلُ بالصَرفة ظاهرُ البطلان"[(7)] فإنّه يعود ليفسّر هذه "الأسبقيّة" بأنّها أسبقيّة اجتماع "جمال" الألفاظ والتعبيرات فيه بكثافةٍ لم تُسبق، وليس، عنده، أسبقيّةَ اجتماع "جدّة" الألفاظ أو التعبيرات، كما كنّا نرجو له أن يقول، وهو يؤكّد ذلك مراراً وتكراراً في كتابه، ومن ذلك قوله معلّقاً على الآيات (37-39) من سورة (يس):

---

(6) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير: الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**. القاهرة: دار الفكر، (د. ت.)، ج1 - ص57.

(7) الباقلّاني، القاضي أبو بكر محمّد بن الطيّب. **إعجاز القرآن**. تعليق وتخريج: صلاح بن عويضة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001، ص25.

"ثمّ تأمّل قولَه: ﴿وآيةٌ لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا همْ مظلمون. والشمسُ تجري لِمُستَقَرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيزِ العليم. والقمرَ قَدّرناه مَنازِلَ حتّى عادَ كالعُرجونِ القديم﴾. هل تجدُ كلَّ لفظةٍ وهل تعلمُ كلَّ كلمةٍ تستقلُّ بالاشتمال على نهاية البديع، وتتضمّنُ شرطَ القولِ البليغ؟ فإذا كانت الآيةُ تنتظمُ من البديع، وتتألّف من البلاغات، فكيف لا تَفوتُ حدَّ المعهود، ولا تجُوزُ شأوَ المألوف؟ وكيف لا تجُوزُ قصَبَ السبْق، ولا تتعالى عن كلام الخَلق؟ "[8].

"والأغرب من ذلك أن يعود الباقلّاني ليؤكّد في مكانٍ آخر من كتابه أن الإعجاز اللغويّ في القرآن هو في حقيقته "العجز" البشريّ عن فهم سرّ الإعجاز، ولو حدث أن اكتشفنا هذا "السرّ" فلن يعود الإعجاز إعجازاً:

وأمّا ما لا سبيلَ إليه بالتعلُّم والتعمُّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدلّ على إعجازه.. وكلّ ما يمكن تعلُّمه، ويُتهيّأ تلَقُّنُه، ويمكن تخليصُه، ويُستدرَك أخذُه، فلا يجب أن يُطلَب وقوعُ الإعجاز به"[9].

نظريّة (النظم) عند الجرجاني:

أمّا القاضي عبد القاهر الجرجاني (ت471 أو 474هـ) فقد شغلت ذهنَه قضيّةُ (النظم) التي كان الباقلّاني قد سبقه إلى التنبيه إليها، بل أشار هذا الأخير إلى أنّ الجاحظ قبله قد "صنّف في نظم القرآن كتاباً".

ثمّ أنضج النظريّة من بعد القاضي الباقلّاني القاضي عبد الجبّار الأسدآبادي (ت415هـ) في كتابه "إعجاز القرآن" بتركيزه على العلاقات اللغويّة بين الألفاظ، حتّى تبنّاها الجرجاني في النهاية ليجعل منها محوراً لكتابه "دلائل الإعجاز" الذي طغت شهرته على شهرة كتاب الباقلّاني نفسه على أسبقيّة الأخير وريادته في هذا المجال، ومع أنّ الجرجاني لم يعدُ أن وقف عند قضيّة جمال النظم في القرآن، وليس جدّة هذا النظم التي ما فتئنا

---

(8) المرجع السابق، ص123.

(9) المرجع السابق، ص172 و178 .

نفتّش عنها، قبل هؤلاء وبعدهم، عند عباقرة الذين كتبوا في الإعجاز القرآني، ولكن من غير طائل.

ويحسن بنا أن نتوقّف مع الجرجاني عند قوله تعالى: ﴿وجَعلوا للهِ شُركاءَ الجِنَّ﴾ [الأنعام: 100] لنعرف من خلال هذا النموذج السريع توجّهاته النقديّة وهو يحاول الإمساك بأسرار الإعجاز القرآنيّ:

"ليس بخافٍ أنّ لتقديم (الشركاء) حُسناً وروعةً ومأخذاً من القلوب أنتَ لا تجدُ شيئاً منه إن أنت أخّرتَ فقلت: (وجعلوا الجِنَّ شركاءَ لله)، وأنّك تَرى حالَكَ حالَ مَن نُقِل عن الصورة المبهِجة، والمنظر الرائق، والحُسن الباهر، إلى الشيء الغُفْل الذي لا تَحْلَى منه بكثيرِ طائل، ولا تَصيرُ النفسُ به إلى حاصل. والسبب في أنْ كان ذلك كذلك؛ هو أنّ للتقديم فائدةً شريفة، ومعنىً جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير. بيانُه أنّا، وإنْ كنّا نرى جملةَ المعنى ومحصولَه أنّهم جَعلوا الجِنَّ شركاءَ، وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يَحصُل مع التأخير حصولَه مع التقديم، فإنّ تقديم (الشركاء) يُفيد هذا المعنى، ويُفيد معه معنىً آخر، وهو أنّه ما كان ينبغي أن يكون له شريكٌ، لا من الجِنّ ولا غير الجنّ. وإذا أُخّر فقيل: (جعلوا الجنّ شركاءَ لله) لم يُفِدْ ذلك، ولم يكنْ فيه شيءٌ أكثرَ من الإخبار عنهم بأنّهم عَبدوا الجنَّ مع الله تعالى، فأمّا إنكار أن يُعبَد مع الله غيرُه، وأنْ يكون له شريكٌ من الجنّ وغيرِ الجنّ، فلا يكون في اللفظ، مع تأخير (الشركاء)، دليلٌ عليه"[10].

لقد كان معظم همّ الجرجاني في كتابه أن يثبت لنا "دقّة" التعبير القرآني، وقيمة التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والإضمار والإظهار، والقطع والاستئناف، وغير ذلك من فنون البلاغة والفصاحة، في تحقيق هذه الدقّة وإقامة الفكرة القرآنيّة المطلوبة، مع المحافظة على جمال النظم والصياغة باستمرار، مهما اختلف موضوع الآية أو السورة. ولكنّ الجرجاني لم يحاول أبداً التوقّف عند "الجديد" في هذا النظم أو الصياغة أو الألفاظ في التعبير القرآنيّ.

---

(10) الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز**. مرجع سابق، ص286.

لغةٌ عربيّةٌ ولغةٌ جديدةٌ معاً:

وينقل السيوطي لنا، مع ذلك، عدداً من الشهادات المتقدّمة من كبار اللغويّين والنقّاد الذين أدركوا، كما يجب أن نتوقّع، أنّ التجديد اللغويّ والأسلوبيّ هو أحد أهمّ الجوانب الإعجازيّة في القرآن، إن لم يكن أهمّها على الإطلاق. ومن هذه الشهادات الهامّة ما ينقله عن ابن سُراقة (ت415هـ) في قوله:

"اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن، فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرةً كلّها حكمةٌ وصواب، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عُشر معشاره:

فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة.

وقال آخرون: هو البيان والفصاحة.

وقال آخرون: هو الرصف والنظم.

وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم، والنثر، والخطب، والشعر، مع كون حروفِه في كلامهم، ومعانيه في خطابهم، وألفاظِه من جنس كلماتهم، وهو بذاته قَبيلٌ غير قبيلِ كلامهم، وجنسٌ آخر متميّزٌ عن أجناس خطابهم، حتّى إنّ من اقتصر على معانيه وغيّر حروفه أذهبَ رونقَه، ومن اقتصر على حروفه وغيّر معانيه أبطل فائدته، فكان في ذلك أبلغُ دلالةٍ على إعجازه"[11].

ومع هذه التصريحات الجريئة الكاشفة فإنّنا، على مدى قرونٍ من تاريخ مكتبتنا التراثيّة، نتعثّر هنا وهناك بالعديد من القصص الغريبة التي وضعها الوضّاعون للدفاع عن فكرة "أنّ القرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدة" وكأنّما هي سُبّةٌ تلحق بكتاب الله تعالى أن يخالف أعراف العرب اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة ويأتي فيها بجديدٍ لم يُسبق إليه! ويصل بعض هذه القصص في ضعفه إلى حدّ

(11) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص236.

التهافت، ويصل تفكير بعض من قَبِل هذه القصص أو صدّقها إلى حدّ السطحيّة والسذاجة.

وهذا النوع من الحصار الفكريّ لم يقتصر على جانب الإعجاز التجديديّ في القرآن، بل تجاوزه إلى جانبٍ لا يتحدّث أصحابه عادةً إلّا بلغة الأرقام، وهو جانب الإعجاز العلميّ، فانبرى بعض المتشدّدين ليوصد الباب أمام من يحاولون التحدّث عن أيّ سبقٍ علميٍّ للقرآن. ولم يقتصر هذا الموقف على معاصرينا من اللغويّين والنحويّين والعلماء، وإن لم يشملهم جميعاً، فهذا الخطّ المتشدّد يمتدّ عميقاً في تراثنا وعند بعض علمائنا، وعلى رأسهم الشاطبي الأندلسي (ت970هـ) الذي كان على رأس من هاجموا، منذ ذلك الوقت، التفسير العلميّ للقرآن الكريم.

إنّ من المؤكّد أنّ القرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدةٍ منفصلةٍ عن اللغة العربيّة، وهذا موضع إعجازه، لأنّه نزل بالعربيّة وانطلق من قواعدها، ولكنّ تفرّده يأتي من تجاوز هذه اللغة والقفز فوق محدوديّة ألفاظها وتراكيبها وسبائكها وصورها وعلاقاتها اللغويّة، كما يأتي من تطوير أعرافها، ثمّ قواعدها، من غير إلغاء هذه القواعد، وفتحِ الباب أمامها للمزيد من التطوّر والغنى، ومنحِها أبعاداً وآفاقاً واسعةً لم يكن أصحاب هذه اللغة يحلمون بها أبداً.

إنّ إعجاز القرآن لا يكمن في إيجاد لغةٍ من لا شيء، وإلّا لانفصل بنفسه وبتعاليمه عن البشر، أيّاً كانت لغتهم، وإنّما في بناء لغةٍ جديدةٍ على أسس اللغة القديمة نفسها، والتحليق بعد ذلك في فضاءاتٍ واسعةٍ لم تعرفها أو تصل إليها اللغة التقليديّة.

ولطالما واجهتُ في أثناء محاضراتي في موضوع هذا البحث احتجاجاً من بعض الحضور على إطلاقي تعبير (لغة جديدة) على لغة القرآن، لأنّني أوهِم بهذا أنّها لغةٌ غير عربيّة، واقترحوا أن أجد بديلاً لهذا التعبير غير لفظ "لغة"، ولكنّ الإعجاز يكمن حقيقةً في هذا التناقض؛ التناقض بين حقيقة "أن تكون لغةً عربيّةً" وحقيقة أن تكون في الوقت نفسه "لغةً جديدةً". حقّاً قد يبدو هذا غير منطقيّ، ولكنّ منطق المعجزة هو ألّا تقوم على منطق، وإذا استندت المعجزة إلى المنطق توقّفت عن أن تكون معجزة.

الإعجاز لا قاعدة له، وحتّى يكون الإعجاز إعجازاً فلا بدّ أن يتجرّد من المقاييس والموازين والقواعد الإنسانيّة التقليديّة .لغة القرآن الكريم "لغةٌ عربيّةٌ" وهي أيضاً "لغةٌ جديدةٌ"، شاء منطقنا الإنسانيّ أم أبى. يقول الناقد الإنجليزيّ ميدلتون مري *Middleton Murry*: "إنّ إبداعَنا لعملٍ أدبيٍّ عظيم ليس في انتصار اللغة بل في الانتصار على اللغة"[12] وهذا ما حقّقته لغة القرآن الكريم في حركة تقاطعها الفذّة مع اللغة الجاهليّة، فكانت انتصاراً على اللغة من داخل اللغة نفسها. إنّه بتعبيرٍ آخر: انتصارٌ باللغة على اللغة.

ظاهرتا التجويد والترتيل:

وإمعاناً في تأكيد خصوصيّة الشخصيّة اللغويّة الجديدة للقرآن الكريم ارتبط الوحي بما عُرف فيما بعد بـ (علم التجويد) وهو مجموعةٌ من قواعد القراءة الجديدة التي نزل بها الوحي والتي ظلّت خاصّةً بالقرآن وحده، بحيث تتميّز قراءته عن قراءة أيّ نصٍّ آخر، نثريٍّ أو شعريّ، بل عن قراءة الحديث الشريف أيضاً بما فيه الحديث القدسيّ.

إنّنا، مثلاً، نقرأ اللفظ (ويلٌ) في آية سورة (الهُمَزة): (ويلٌ لكلّ هُمَزَةٍ لُمَزَة) هكذا: (وَيْلُلْ) ولكنّنا نقرأ اللفظ نفسه في الحديث الشّريف "ويلٌ للأعقابِ من النّار"، أو في أيّ حديثٍ أو نصٍّ بشريٍّ آخر، هكذا: (وَيْلُنْ). ونحن نقرأ اللفظ (فإنْ) في الآية (11) من سورة (النّساء): (فإنْ لم يكُنْ له ولدٌ) هكذا: (فإلْ) ولكنّنا نقرأ اللفظ نفسه في الحديث الشّريف "قالوا فإنْ لم يجِدْ. ."، أو في أيّ حديثٍ أو نصٍّ بشريٍّ آخر، بالنون: (فإنْ) .. وهكذا تستطيع أن تميّز فيما تسمعه بين ما هو قرآنٌ وما ليس بقرآن، بغضّ النظر عن مستوى ثقافتك ومعرفتك بأسلوب القرآن أو قواعد تجويده.

ولا بدّ من التنبيه إلى أنّ أوائل من وضعوا علم التجويد، وكان ذلك في مرحلةٍ متأخّرة من القرن الهجريّ الأوّل، قد مزجوا فيه بين ما هو خاصٌّ

---

(12) Murry, John Middleton. *The Problem of Style*. Oxford: Oxford University Press, 1960. p. 101.

بالقرآن الكريم وحده لا يشاركه فيه أيّ كتابٍ أو نصٍّ بشريّ، عربيٍّ أو غير عربيّ، وما هو مجرّد ظواهر لسانيّةٍ عربيّةٍ أو بشريّةٍ معروفةٍ في معظم اللغات.

فأن نلفظ (ارْكبْ معَنا) هكذا (ارْكمْ معَنا) وأن نلفظ (خَيْراً يَرَهْ) هكذا (خَيْرَيْ يَرَهْ) وأن نلفظ (سَمِيعٌ بَصِيرٌ) هكذا (سَمِيعُمْ بَصِيرٌ) أمرٌ يختصّ بالقرآن، وبالقرآن وحده، وهو، مع ما يدخل تحت بابه من قواعد، يمثّل الجوهر الحقيقيّ لعلم التجويد، أمّا أن نلفظ (قدْ تَبَيَّنَ) هكذا (قتْ تَبيَّنَ) وأن نلفظ (فآمَنَتْ طائفةٌ) هكذا (فآمَنَطْ طائفةٌ) وأن نلفظ (أثْقَلَتْ دَعَوا) هكذا (أثْقَلَدْ دَعَوا) فهذه من الظواهر اللغويّة العامّة التي تشمل اللسان العربيّ كلّه، بل تشاركه فيها لغاتٌ بشريّةٌ أخرى. ولا شكّ في أنّ فصل هذه الظواهر عن علم التجويد من شأنه أن يحفظ لهذا العلم خصوصيّته المتفرّدة واقتصاره على القرآن الكريم وحده، فلا يشاركه فيها أيّ نصٍّ لغويٍّ بشريّ، عربيٍّ أو غير عربيّ، على الإطلاق.

ولم تكن قواعد علم التجويد هي وحدها الضابط لقراءتنا للقرآن الكريم، إذ لا بدّ أن يلازمها السماع أيضاً. فقواعد التجويد، على سعتها، وفي عصرٍ لم يعرف الإنسانُ فيه آلة التسجيل الصوتيّة، لم يكن لها أن تحيط بدقائق النطق القرآنيّ التي تختصّ بالقرآن وحده دون غيره من النصوص، النبويّة أو الإنسانيّة على السواء، ولا بدّ إذن، حتّى يكون النقل غايةً في الأمانة، من أن يسمعه التلميذ عن شيخه، وهذا عن شيوخه، وهكذا حتى تصل السلسلة إلى رسول الله ﷺ، وهو أمرٌ لم يتكرّر، ولا يمكن أن يتكرّر، في أيّ كتابٍ آخر.

وفوق كلّ هذا وذاك؛ لم يعرف العرب لنثرهم لحناً ولا «ترتيلاً». لقد ظلّ الشعر عندهم مستأثراً بهذه الصفة الإنشاديّة أو الغنائيّة أو التقطيعيّة، حتّى جاء القرآن وجاءت معه الأوامر الإلهيّة التي تحدّد للمسلمين طريقة قراءته مقطّعاً ﴿ورتِّلِ القرآنَ ترتيلا﴾ [المزّمّل: 4] وجاءت بعد ذلك الأوامر النبويّة الموضّحة لطبيعة هذه القراءة: «إنّ هذا القرآنَ نَزل بحُزنٍ، فإذا قرأتموهُ فابكُوا، فإن لم

تَبكُوا فتباكَوا، وتَغنَّوا به، فمن لم يتغنَّ به فليس منّا»[13] .«اقرأوا القرآنَ بالحُزْن فإنّه نزلَ بالحُزن»[14] .«زيّنوا القرآنَ بأصواتِكم»[15] .«ما أَذِنَ اللهُ – أي سمع – لشيءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت يتغنّى بالقرآنِ يَجهرُ به»[16] .

الإيقاع والفاصلة القرآنيّة:

يجب أن أعترف بأنّني كثيراً ما وجدتُني أدافع فكرةً طالما تردّدت في نفسي، وهي دراسة الموسيقا الجديدة للقرآن. إنّها من غير شكٍّ موسيقا متميّزةٌ ومتفرّدةٌ لم يعرفها العرب في نثرهم أو في شعرهم من قبل.

ولقد كنت دائماً من الذين استهوتهم دراسة هذا الجانب الفنّيّ في معظم دراساتي الأدبيّة والنقديّة، ولكنّني كنت هنا أقاوم هذه الرغبة باستمرار، لأنّني شعرت أنّها ستخرج بي عن الإطار العامّ للدراسة الذي أخذت نفسي به، وهو الإطار الموضوعيّ الذي ينطلق من لغة الأرقام، ويستند إلى مادّةٍ علميّةٍ هي التي تزوّدنا بهذه الأرقام، أمّا الموسيقا فتظلّ مادّةً هلاميّةً زئبقيّةً يصعب أن تمسك بأطرافها، ومهما حاولنا ضبط حدودها في أُطرٍ علميّةٍ فسوف تفلت من بين أصابعنا وتخرج بنا إلى عوالم الذوق والإحساس واستشعار الجمال، وهي عوالم غير موضوعيّةٍ ولا تخضع لقواعد أو قوانين ثابتةٍ وقطعيّة. إنّه من شبه المستحيل أن تبلّ قدميك في بحر الموسيقا اللغويّة من غير أن تغرق.

فإذا تعسّفنا الطُرق وحاولنا أن نفرض على الموسيقا مثل هذه القوانين، كان علينا أن نمزّقها أوّلاً ونقطّع أوصالها على مشرحة مخابرنا؛ أي أن نقتلها

---

(13) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر)**، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار اليمامة، 1407هـ، ج6، ص2743. وانظر أيضاً: القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص545.

(14) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج1، ص424.

(15) الطبراني، سليمان بن أحمد. **المعجم الأوسط**. تحقيق: طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، القاهرة: دار الحرمين، 1415هـ، ج3، ص193.

(16) الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، مرجع سابق، ج1، ص761 .

ونحلّل جزئيّات جسدها الرقيق من أجل الوصول إلى حقائقها، فينقلب الفنّ بين أيدينا إلى علم، وتضيع، من ثمّ، تلك الجوانب الجماليّة التي نسعى إلى إثباتها ووضع اليد عليها في هذا الفنّ. إنّنا بمعنىً آخر سنفقد الجمال في اللحظة التي نعثر فيها عليه[17].

وكان هذا هو السبب نفسه الذي شعرت دائماً بأنّه يدفعني بعيداً عن دراسة ما اصطُلح على تسميته "الفاصلة" في القرآن، وهي ما يقابل "السجعة" في النثر و"القافية" في الشعر، مع أنّها تمثّل جانباً شديد الأهميّة والتميّز في الكتاب العزيز[18].

والفاصلة القرآنيّة لها قواعدها المتفرّدة والمختلفة تماماً عن السجعة في النثر أو القافية والرويّ في الشعر، ولها دلالاتها المتبدّلة مع تبدّلها. إنّها ليست مجرّد سجعةٍ تجميليّةٍ تُقصد لذاتها، بل لها غاياتٌ أبعد من ذلك، ويميّزها عن السجع والقافية خصائص عديدةٌ أهمّها:

1 - يلتزم القرآن الفاصلة في نهاية الآية مهما طالت هذه الآية، وقد تصل إلى صفحةٍ كاملة، على حين التُزمت السجعة في الكتابات العربيّة، قبل نزول القرآن وبعده، في الجمل القصيرة التي لا تتجاوز، مهما طالت، بضع كلمات.

2 - معظم فواصل القرآن تأتي ممدودة النهاية (عظيم، قدير، يسبحون، العالَمين، المبين، بمجنون، المحسنين، رحيما، سبيلا، غرورا..) وكثيرٌ من هذا الممدود ينتهي بالنون أو بحرفٍ منوّن، وقد فسّر الزركشيّ ذلك بقوله: "كثُر في القرآن الكريم ختمُ كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المدّ واللِّين

---

(17) هذا ينطبق أيضاً إلى حدٍّ كبيرٍ على تحليل البلاغيّين للصورة الفنّية، فنحن نفقد الإحساس بجمال الصورة حال تحليلها إلى مشبّهٍ ومشبّهٍ به ووجه شَبهٍ وأداة تشبيه، ممّا فصّلت الحديث عنه في كتابي "الصورة بين البلاغة والنقد": ساعي، أحمد بسام. **الصورة بين البلاغة والنقد.** جدّة: دار المنارة، 1984.

(18) تفاوت تعريف الفاصلة عند البلاغيّين والنقّاد، فاقتصرت عند بعضهم على الحرف الأخير من الآية، وتمطّت عند آخرين حتّى شملت الآية بكاملها، كما تداخلت عندهم، قديماً وحديثاً، تعريفات كلٍّ من الفاصلة والرويّ والسجعة.

وإلحاق النون، وحِكمتُه وجود التمكّن من التطريب في ذلك"[19] .

3 - تلتزم معظم السور فاصلةً/سجعةً أساسيّةً واحدةً تبدأ بها عادةً، وقد تنتقل بعد ذلك إلى فاصلةٍ أخرى مختلفة، أو أكثر من فاصلة، ولكن مع العودة باستمرار إلى القافية الأساسيّة الأولى التي تنتظم السورة بأكملها.

ومع خروج سورةٍ طويلة، كسورة (البقرة) مثلاً، عن فاصلتها الموحّدة بين آنٍ وآخر، كانتقالها إلى فاصلة الراء المسبوقة بياء المدّ (ـير) في الآيات 106 و108 و109 و110 و120 و148 و270، وإلى فاصلة الباء المسبوقة بالألف (ـاب) في الآيات 165 و166 و196 و197 و202 و211 و212 و269، وإلى القاف المسبوقة بالألف (ـاق) في الآية 200، وإلى الراء المسبوقة بالألف (ـار) في الآية 201، وإلى الميم المسبوقة بالألف (ـام) في الآية 204، وإلى الدال المسبوقة بالألف (ـاد) في الآيات 205 و206 و207، مع كلّ هذا فإنّ السورة تعود باستمرار لتلتزم بالفاصلة العامّة التي بنيت عليها وهي المدّ بالواو أو الياء والمنتهي بالنون أو الميم غالباً (ـون، ـين، ـيم)، وأحياناً باللام (ـيل) أو الدال (ـود، ـيد)، وهو ما يجعل الفاصلة القرآنيّة، بهذا النوع من الالتزام، أقرب إلى القافية أو الرويّ في الشعر منها إلى السجعة في النثر، من غير أن يعني هذا انضواءها تحت أيٍّ من هذه الأنواع الثلاثة.

بل نذهب إلى الزعم بأن ما أطلقتْ عليه الشاعرة العراقيّة نازك الملائكة اسم (شعر التفعيلة) في كتابها "قضايا الشعر المعاصر" وفضّلتُ أن أطلق عليه اسم (شعر التوقيع) في كتابي "حركة الشعر الحديث" قد استعار نظام رويّه من هذا النظام القرآني، فاعتمد أكثر شعراء هذا النوع من الشعر رويّاً أساسيّاً واحداً يبدأون به قصائدهم، ثمّ لا يفتأون يتنقّلون ضمن القصيدة الواحدة بين

---

(19) الزّركشيّ، بدر الدّين محمّد بن بهادر. **البرهان في علوم القرآن.** تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، 1958. ج1، ص68. ومن الممتع والمفيد حقّاً العودة إلى الإحصائيّات التي قدّمها محمّد الحسناوي لأنواع هذه الخواتم في كتابه القيّم.

- الحسناوي، محمّد. **الفاصلة في القرآن.** عمّان: دار عمّار، 2000، ص165-315.

أكثر من رويٍّ، مع العودة دائماً من جديدٍ إلى الرويّ الأساسيّ الذي بدأوا به قصيدتهم.

4 - الحرف ليس هو الركن الأساسيّ الذي تقوم عليه الفاصلة القرآنيّة، كما هو الأمر في السجع، وإنّما هي النغمة والوزن، فلا يكون للحرف في هذه الحال قيمةٌ تُذكر. وهكذا وجدنا الآيات الثلاث (200 و201 و202) من سورة (البقرة) تنتهي على التوالي بهذه المقاطع (ـلاق، ـنار، ساب) وهي كلّها على وزنٍ واحد وإيقاعٍ واحد، ولكنّها كما هو واضحٌ لا تنتهي بالحرف نفسه. وهكذا الآيات (213، 214، 215) التي تنتهي بكلماتٍ توحّدت أوزان وإيقاعات مقاطعها الأخيرة من غير أن تتّحد حروفها الأخيرة (مستقيم، قريب، عليم).

5 - لا تكون الفاصلة فاصلةً إلّا أن تُختتم بها الآية. لقد حاول عددٌ من المستشرقين إيهام أنفسهم وإيهامنا بأنّ آيات القرآن الكريم لم تتنزّل من السماء هكذا مقسّمةً كما هي بين أيدينا الآن، بل المسلمون هم الذين قاموا بتقسيمها على الشكل الذي نراه، فحيثما وجدوا في العبارة القرآنيّة كلمةً تصلح لأن تكون فاصلةً توقّفوا عندها وجعلوها خاتمةَ آيةٍ لتبدأ بعدها آيةٌ جديدة.

وفضلاً عن أن هذا الزعم تنقُضه شواهد تاريخيّةٌ عديدةٌ سجّلها لنا من أرّخوا لفترة الوحي؛ فإن النصّ القرآنيّ نفسه يدحض بطبيعته هذه الفكرة.

هذه سورة (الشعراء) مثلاً. لنقرأ فيها معاً الآية 49:

- ﴿قال آمنتُم له قبل أنْ آذَنَ لكمْ إنّه لَكبيرُكمُ الذي عَلّمكُمُ السِّحْرَ فلَسوف تَعْلمون لأُقَطِّعَنَّ أيديَكمْ وأرجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ولأُصَلِّبَنَّكُمْ أجمعين﴾.

فلو أخذ المسلمون بقياسات هؤلاء لتوقّفوا عند اللفظ (تَعْلمون) ليجعلوا منه نهايةً للآية، ولتبدأ بعده آيةٌ جديدة. إنّ في هذا اللفظ كلّ مقوّمات الفواصل التي سبقت هذه الآية أو لحقتها (ساجدين، العالَمِين، هارون.. منقلبون، المؤمنين، مُتَّبَعون..).

وعلى العكس، نجد الآيتين 92 و93 من السورة نفسها قد انفصلتا إلى آيتين في موضعٍ كان يمكن أن يفرض علينا، تبعاً لقياساتنا البشريّة النحويّة، ضمّهما في آيةٍ واحدةٍ:

- ﴿وقِيلَ لهمْ أين ما كنتُمْ تَعبُدون. مِن دونِ الله هل يَنصرونكمْ أو يَنتصِرون﴾

ولنقرأ أيضاً الآيتين 6 و9 من سورة (الزُمَر):

- ﴿ألا للهِ الدِّينُ الخالصُ والذين اتَّخذوا مِن دونِه أولياءَ ما نَعبُدُهمْ إلّا لِيُقَرِّبونا إلى اللهِ زُلْفَى إنّ اللهَ يَحكُمُ بينَهمْ في ما همْ فيه يَختلفون إنّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذبٌ كَفّار﴾.

- ﴿أَمّنْ هو قانِتٌ آناءَ الليلِ ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه قُلْ هل يَستوي الذين يعلمون والذين لا يَعلَمون إنّما يَتذكّرُ أُولُو الألباب﴾.

فلو كان الأمر كما ظنّوا لكان على المقسّمين أن يُنهوا الآية (6) عند اللفظ (يختلفون) والآية (9) عند (لا يعلمون). ففي اللفظين كلّ شروط الفاصلة القرآنيّة، فضلاً عن أنّ معظم آيات السورة تنتهي بفاصلةٍ تتوافق تماماً مع (يختلفون) و(يَعلمون) كالآيات (6 و7 و11 و12 و13 و15 و16 و22 و24 حتى 35.. ثمّ أكثر الآيات بعد ذلك)؛ إذ تُختتم بالألفاظ (تُصرفون، الصدور، الدِّين، المسلمين، عظيم، المُبِين، فاتّقونِ، مُبِين، تَكسِبون، يَشعُرون، يَعْلمون، يتذكّرون، يتّقون.. إلخ).

وعلى العكس نجد الآية 14 في هذه السورة تُختتم باللفظ (دِيني) وهو يشكّل فاصلةً تخالف طبيعة الفواصل الأخرى في السورة، إذ لا ينتهي بحرفٍ مسبوقٍ بحرف مدٍّ كما في فواصل الآيات قبله وبعده:

- ﴿قُلِ اللهَ أعبُدُ مُخْلِصاً له دِيني (14)﴾

فلو أخذنا بطريقة المستشرقين لكان الأصحّ أن تُضمّ هذه الآية إلى الآية 15 بعدها لأنّها تُختتم بالفاصلة (المُبِين) التي ستبدو، تبعاً لقياساتهم، أكثر انسجاماً مع بقيّة فواصل السورة.

ولنقرأ الآيتين التاليتين من سورة (مريم) فهما تلخّصان بوضوح كلّ هذا الحديث:

- ﴿قُلْ مَن كان في الضّلالةِ فلْيَمْدُدْ له الرحمنُ مَدّاً حتّى إذا رأَوا ما يُوعَدون إمّا العذابَ وإمّا الساعةَ فسيَعْلمون مَن هوَ شَرٌّ مَكاناً وأضعفُ جُنْداً.

ويَزيدُ اللهُ الّذين اهتَدَوا هُدىً والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّكَ ثواباً وخيرٌ مَرَدّاً﴾

فلماذا لم تنته الآية الأولى عند اللفظ (مَدّا) لتبدأ بعدها آيةٌ جديدة، ثمّ لماذا لم تنته الآية الثانية كذلك عند اللفظ (هدى) إن كان المسلمون حقّاً هم الذين قسّموا الآيات، وهم الذين ذهبوا في تقسيمها هذا المذهب؟

والأمثلة القرآنيّة على ذلك أكثر من أن نحصيها هنا.

6 - لكلّ سورةٍ شخصيّتها الموسيقيّة التي تسهم الفاصلةُ إلى حدٍّ كبيرٍ في تكوينها وإعطائها ملامحَها التي تميّزها عن معظم السّوَر الأخرى. ومع تغيّر الفاصلة وتَحوّلها وتَلوُّنها ضمن السورة الواحدة، فإنّ عنصراً فنّياً ما، ليس هذا البحث موضعاً لدراسته أو محاولة اكتشافه ووضع اليد عليه، يظلّ محافظاً على الخطّ الإيقاعيّ العامّ الذي ينتظم السورة بكاملها.

ولو جرّبنا انتزاع آيةٍ من سورتها ووضْعَها مكان آيةٍ في سورةٍ أخرى، حتّى إن كان موضوع الآيتين واحداً، فسندرك للتوّ أنّ خللاً ما قد حدث للإيقاع العامّ للسّورة، وأنّه فقد التجانس الذي كان عليه قبل هذا التدخّل. وهذا ينطبق على معظم سور القرآن، ولا سيّما الطوال منها التي ينفرد كلٌّ منها بإيقاعه المختلف، على حين يمكن أن تشترك سورتان قصيرتان أو أكثر في إيقاعٍ واحد.

هاتان آيتان من سورة (طه) تتحدّثان عن انفلاق البحر بعصا موسى، ونجاتِه وقومه، وغرقِ فرعون وجنوده:

- ﴿ولقد أَوحَينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بعباديْ فاضرِب لهمْ طريقاً في البحرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخشَى. فأَتْبَعَهمْ فِرعَونُ بجنودِه فغَشِيَهمْ من اليَمِّ ما غَشِيَهمْ﴾. [طه: 77-78]

وتلك ثلاث آياتٍ أخرى من سورة (البقرة) تتحدّث الثانية منها عن موضوع آيتي (طه) نفسه: انفلاق البحر ونجاة قوم موسى وغرق آل فرعون:

- ﴿وإذ نجّيناكم مِن آلِ فِرعَونَ يسومونَكُمْ سُوءَ العذابِ يُذَبّحون أبناءَكمْ

ويَستَحْيُون نساءَكمْ وفي ذلكُمْ بلاءٌ مِن ربِّكُمْ عظيم. وإذْ فَرَقْنا بكُمُ البحرَ فأنْجيناكُمْ وأغْرقْنا آلَ فِرعَونَ وأنتمْ تنظُرون. وإذ واعدْنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعدِه وأنتمْ ظالمون﴾. [البقرة: 49-51]

فلو أحللنا الآية الأولى من آيتي سورة (طه) محلّ الآية الثانية من آيات سورة (البقرة)، وكلتاهما تتحدّث عن واقعة الغرق نفسها، ثمّ قرأنا الآيات الثلاث من جديدٍ قراءةً مرتّلةً متأنّية، أدركنا بسهولةٍ تَمايُزَ الشخصيّة الإيقاعيّة للآية المستضافة عن الشخصيّة الإيقاعيّة للآيتين المُضيفتين. ولنقرأ الآيات الثلاث في وضعها المضطرب الجديد للتأكّد ممّا نقول:

وإذْ نجّيناكمْ مِن آلِ فِرعَونَ يسومونَكُمْ سُوءَ العذابِ يُذَبّحون أبناءَكمْ ويَستَحْيُون نساءِكمْ وفي ذلكُمْ بلاءٌ مِن ربِّكُمْ عظيمٌ - ﴿ولقد أَوحَينا إلى موسى أنْ أَسْرِ بعباديْ فاضرِب لهمْ طريقاً في البحرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً ولا تَخشَى﴾- وإذْ واعدْنا موسى أربعين ليلةً ثمّ اتّخذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعدِه وأنتمْ ظالمون

ولن أغوص في تحليل ما جرى للإيقاع بعد التغيير الذي طرأ على نظام الآيات، فلن أكون، لو فعلت، في مأمنٍ من الانزلاق الذي ما فتئت أتخوّفه وأحذّر منه، ولكنّني واثقٌ من أنّ القارئ سيدرك بسهولةٍ أنّ أمراً ما في منتصف النصّ قد خرج بقطار الإيقاع عن خطّه، فاضطربت حركته واختلّ توازنه.

لقد استوفى الأقدمون والمحدثون دراسة الفاصلة القرآنيّة، وأفردوا لها كتباً كاملةً أو أجزاءً من كتب، ومنهم الرمّانيّ والباقلّانيّ والطوفيّ وابن الصايغ والخَروبيّ والمخلّلاتي ومصطفى صادق الرافعيّ وإبراهيم أنيس ومحمّد المبارك وعائشة عبد الرحمن ومحمّد رجب البيّومي ومحمّد الحسناوي، ولكنّ معظم هؤلاء لم يَسلموا وهم يتحدّثون عن الفاصلة، ولا نتوقّع لهم أن يسلموا، من التكلّف وإصدار الأحكام الذوقيّة البعيدة عن الضوابط العلميّة، كما أنّهم لم يحيطوا بأسرار الفاصلة وقواعدها الشاملة التي يبدو أنّها ما تزال بعيدة المنال[20].

---

(20) أجمل محمّد الحسناوي، في كتابه المذكور، الحديث عن هذه الأبحاث بشكلٍ يغطّيها خير تغطية، وقدّم دراسةً إحصائيّةً ضافيةً لأنواع الفواصل في القرآن لم يُسبق إليها، =

إنّ من المهمّ أن نؤكّد قبل الانتقال إلى موضوعٍ آخر حقيقةَ التميّز المتفرّد لشخصيّة القرآن الكريم، كما رأينا وسوف نرى، بوصفه كتاباً، وحقيقةَ أنّه الكتاب الوحيد في تاريخ الكتب في العالم الذي ينفرد بخصائص عديدةٍ لم يشاركه بها أيّ كتابٍ آخر.

والمقارنة هنا ليست بين موضوعات الكتب أو أفكارها أو لغتها أو أساليبها، فكلّ كتابٍ ولا شكّ ينفرد بخصائص تميّزه عن باقي الكتب في هذه الجوانب، ولكنّني أتحدّث عن "جنس" الكتاب بوصفه كتاباً.

لو قارنتم مثلاً بين هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن وأيّ كتابٍ آخر في مكتبتكم لما وجدتم ما يميّزه، بوصفه كتاباً، عن الكتب الأخرى، باستثناء مقارنته مع كتابٍ باللغة الإنكليزيّة فيمكن أن نقول آنذاك إنّ مّا يميّز أحد الكتابين عن الآخر أمران:

1 - أنّ الأوّل كُتب بالعربيّة والثاني بالإنكليزيّة،

2 - وأنّ الأوّل يُقرأ من اليمين إلى اليسار والآخر يُقرأ من اليسار إلى اليمين.

هذا هو كلّ الفرق بين الكتابين، ولكن مع الانتباه إلى أنّ أيّاً من الكتابين لا يختصّ بهذه الصفة دون سائر الكتب، لأنّ هناك ملايين الكتب التي كُتبت بالعربيّة غير كتابي، وهناك ملايين الكتب التي كُتبت بالإنكليزيّة غير ذلك الكتاب، وأنّ كلّ الكتب العربيّة تُقرأ من اليمين إلى اليسار، وكلّ الكتب الإنكليزيّة تُقرأ من اليسار إلى اليمين.

وإذن لا يختصّ أيٌّ من هذين الكتابين، بوصفهما كتابين، بأيّة خصوصيّةٍ ينفرد بها دون بقيّة الكتب.

= ولكنّه لم يَسلم هو أيضاً، كما يُفترض أن نتوقّع، من التكلّف وإصدار الأحكام الذاتيّة والذوقيّة في أثناء تقويمه الجماليّ للفواصل وخصائصها الإيقاعيّة والموسيقيّة، مع محاولاته المخلصة والجادّة لتفادي تلك المزالق، وهي مزالق محتومةٌ على من يخوض مثل هذه الكيميائيّة المعقّدة. انظر:

- الحسناوي، محمد. **الفاصلة في القرآن**. عمان: دار عمار، 2000.

الخصائص العشرون للكتاب الكريم:

ومن هذا المنطلق نجد أنّ للقرآن الكريم خصائص لم يشاركه فيها أيُّ كتابٍ آخر، قبله أو بعده. ومع أنّ بإمكاننا أن نحصي عشراتٍ من هذه الخصائص التي ينفرد بها القرآن وحده، فإنّنا، أخذاً بمنهجنا العلميّ، سنكتفي هنا بالحديث عن تلك التي لا يستطيع أن يجادل فيها اثنان، والتي لم، ولا، ولن يشارك فيها القرآنَ أيُّ كتابٍ آخر على مرّ الدهور. وقد أحصينا منها هذه الخصائص العشرين:

1 - التسميات الخاصّة:

لم يكن للعرب قبل تنزّل الوحي كتابٌ يعودون إليه ليستعيروا منه مصطلحاتٍ تقنيّةً لخدمة هذا الفنّ الجديد الذي طرأ عليهم بنزول القرآن الكريم وسمعوا به أوّل مرّة: صناعة الكتب.

كان الكتاب المقدّس، ببعديه: التوراة والإنجيل، هو الكتاب الوحيد المعروف للعرب في جزيرتهم حتّى نزول القرآن الكريم، مع الأخذ بالحسبان أنّه لم يكن قد تمّت ترجمته بعدُ إلى اللغة العربيّة، ومن ثمّ، لم تكن المصطلحات التي تسمّى بها فقراته وفصوله وأبوابه، التي تتداولها الترجمات العربيّة اليوم، كالسِّفر والأصحاح والأعمال والرسائل مثلاً، بين أيدي اليهود أو المسيحيّين العرب في فترة تنزّل القرآن، وظلّت عباراته أو جُمله أو فقراته بعد ترجمته إلى العربيّة، إلى الآن، من غير تسميةٍ معروفةٍ خاصّةٍ به، وإن كان بعض الدارسين اليوم يستعير لها أحياناً التسمية القرآنيّة (الآية).

في مثل هذه الأجواء نزل القرآن الكريم يحمل بين دفّتيه منذ البداية، وقبل زمنٍ طويلٍ من اكتماله كتاباً تاماً، تسمياتِه الخاصّة، كما سبق أن قدّمنا، والتي لم ولن يشاركه بها كتابٌ آخر، وذلك بدءاً من اسمه الخاصّ والجديد تماماً على اللغة العربيّة (القرآن)، وقد أضاف إليه المسلمون فيما بعد اسم (المُصْحَف) اشتقاقاً من "الصُحُف" التي يضمّها بين جنبيه، أو مِن "تصحُّف" المسلمين لهذه الصحف - ومروراً بمصطلح (السورة) الذي أطلقه القرآن على

ما يسمّونه اليوم (الباب) أو (الفصل) في النثر، و(القصيدة) في الشعر، ثمّ بمصطلح (الآية) لتسمية ما نطلق عليه (الجُملة) أو (الفِقرة) أو (العبارة) في النثر، و(البيت) في الشعر، وكذلك مصطلح (السبع المثاني) أو ما أطلق عليه الرسول ﷺ اسم (الفاتحة) وهو يقابل ما نعرفه اليوم باسم (المقدّمة) أو (المدخل)، وانتهاءً بمصطلحَي (التِلاوة) و(الترتيل) مقابل ما اعتاد العرب أن يطلقوا عليه لفظ (القراءة) في النثر و(الإنشاد) في الشعر. ثم كان أن أوجد له العلماء المسلمون مصطلح (الفاصلة) ليقابل (السجعة) في النثر، و(القافية) في الشعر.

إنّ معظم هذه التسميات "التقنيّة" هي، كما نرى، ممّا نزلت به ونصّت عليه آيات القرآن الكريم صراحةً ولم يقترحها البشر، خلافاً لما هو الأمر مع الكتب السماويّة الأخرى التي اصطلح البشر على معظم تسمياتها[21].وقد ردّد القرآن الكريم هذه التسميات منذ بواكير نزوله، على نحو يؤكّد الوعي التامّ، ومنذ تلك المرحلة المتقدّمة، بتكامل الكتاب وبشخصيّته اللغويّة المتفرّدة، فتكرّرت فيه تلك الألفاظ عشرات المرّات. فلفظ (القرآن) يرد فيه 70 مرّة، ولفظ (سورة)، مفرداً أو جمعاً، 10 مرّات، ولفظ (آية)، مفرداً أو مثنّىً أو جمعاً، وبمعانيه المختلفة، ومنها المعجزة والعلامة، 382 مرّة[22] .

ويتكرّر اللفظ (يتلو) في القرآن الكريم، بمشتقّاته المتعدّدة، 62 مرّة. وفي استخدام القرآن لهذا اللفظ المبتكر الدقيق دلالةٌ منهجيّةٌ موضوعيّةٌ قويّةٌ لأصل القرآن السماويّ. فلو حدث أن أجرى أحدهم معي مقابلةً حول كتابٍ لي

---

(21) من الغريب مثلاً ألّا نجد اسم (التوراة) في التوراة أبداً، وإنما نجده مرّةً واحدةً في الإنجيل "أوَما قرأتُمْ في التوراةِ أنّ الكهَنةَ في السبتِ في الهيكلِ يدنّسون السبتَ وهم أبرياء" (متّى: 12-5).

(22) من المهمّ أن ننبّه هنا إلى أنّ استخدام القرآن لهذا اللفظ (آية) بغير صيغة الجمع أينما ورد (86 مرّةً بصيغة المفرد ومرةً واحدةً بصيغة المثنّى) يشير دائماً، ومن غير استثناء، إلى معنى (المعجزة الإلهيّة، أو العلامة) وليس إلى الآية القرآنيّة، ممّا قد يشير إلى أن معنى الآية 106 من سورة البقرة ﴿ما نَنْسَخْ مِن آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلِها﴾ التي ما زالت تثير جدلاً طويلاً بين العلماء حول النسخ في القرآن؛ ليس نسخ الآيات القرآنيّة بل نسخ المعجزات الإلهيّة.

وسألني عمّا أوردته فيه لقلت: إنّني ذكرتُ في الكتاب كذا، وأوردتُ كذا، وذهبتُ إلى كذا، وقلتُ كذا، ولكن ما كان للقرآن الكريم أن يورد مثل هذه الأفعال على لسان الرسول وهو ﷺ يعلم أنّه ينقل ويتحدّث عن كلام ليس من صنعه أو تأليفه، فقد كان الرسول "تالياً" أي "ثانياً" أو "لاحقاً" بهذه الآيات - عكس "أوّلاً" أو "سابقاً" - إذ قرأها عليه جبريل أوّلاً ثمّ "تلاه" محمّدٌ ﷺ في قراءتها على المسلمين - كما سبق أن أوضحنا - وإذن فهو "تالٍ" لها وليس "قائلاً" أو "مؤلِّفاً"، خلافاً لوضعي أنا مع كتابي، وهذا ما تعبّر عنه الآيات بوضوح:

- ﴿وإذا تُليتْ عليهمْ آياتُنا زادتْهمْ إيماناً﴾ [الأنفال: 2]
- ﴿قُل تعالَوا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربُّكمْ عليكمْ﴾ [الأنعام: 151]
- ﴿واذكُرنَ ما يُتْلَى في بيوتِكُنَّ مِن آياتِ اللهِ والحكمةِ﴾ [الأحزاب: 34]

2 - القراءات المتعدّدة:

لقد كُتب القرآن الكريم بطريقةٍ واحدة، ولكنّ له قراءاتٍ متعدّدة؛ إذ يُقرأ كثيرٌ من ألفاظه وعباراته بأكثر من قراءةٍ - "هكذا أُنزِل.. وهكذا أُنزِل" حسب قول الرسول ﷺ للصحابيَّين اللذين اختلفا على قراءة آية -. وقد يُقرأ اللفظ بطريقتين أو ثلاثٍ أو أكثر "نزل القرآن على سبعة أحرف"، وتصل قراءات بعض ألفاظه إلى العشرات، كما في اللفظ (أفٍّ) في الآية 23 من (الإسراء) والآية 67 من (الأنبياء) مثلاً، وقد قرأها بعضهم بتسعٍ وثلاثين طريقة(23).

(23) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص303. وفسّر بعضهم (الأحرف السبعة) بتعدّد الألفاظ للمعنى الواحد، وأنّ هذه الألفاظ كانت موجودة في نُسخ المصاحف حين أحرقها عثمان رضي الله عنه خشية اختلاف المسلمين عليها، وهي قليلةٌ ومحدودة. انظر: القطّان، منّاع. **مباحث في علوم القرآن**. مرجع سابق، ص144 وما بعدها.

3 - اختلاف قراءته عن كتابته:

فللقرآن أيضاً قواعده الخاصّة في القراءة، فيُلفظ على غير ما يُكتب، من غير أن يؤثّر ذلك في معانيه، ككتابة ألفاظ (الصلاة) و(الزكاة) و(الحياة) و(النجاة) و(الغداة) و(الربا) بالواو مع قراءتنا لها بالألف، وكقراءتنا (قراءة حفص) للّفظ (لكنّا) في الآية 37 من سورة (الكهف)، وللّفظ (سَلاسِلا) في الآية 4 واللفظ (قَواريرا) في الآية 16 من سورة (الإنسان) من غير الألِف الأخيرة مع أنها تظهر في الكتابة، وكذلك عدم مدّ هاء الضمير إذا تَحرّك ما بعدها وسُبقت بساكن، خلافاً لقراءتنا البشريّة، كما في الآية 3 من سورة (الكهف) مثلاً (ماكثينَ فيه أبَدا) ولا يُستثنى من ذلك إلّا الآية 69 من سورة (الفرقان): (ويَخْلُدْ فيهِ مُهانا) فتُلفظ هذه الأخيرة وحدها (فيهي) كما نلفظها عادةً في غير القرآن.

4 - اختلاف لفظه عن لفظنا (علم التجويد):

وللقرآن الكريم قواعده الخاصّة في اللفظ، فاستناداً إلى قواعد علم التجويد، التي اختصّ بها القرآن، تُلفَظ كلماته، كما رأينا، بطريقةٍ مختلفةٍ عن لفظ أيّ نصٍّ عربيٍّ آخر، حتّى الحديث الشريف. ولم يعرف العرب قبل القرآن الكريم، ولا بعده، لا في شعرهم ولا في نثرهم، هذه الطرائق اللغويّة الجديدة التي كوّنت فيما بعد العلم المسمّى بعلم التجويد الذي ظلّ خاصّاً بالكتاب الكريم وحده.

5 - اختلاف كتابته عن كتابتنا:

وللقرآن قواعده الخاصّة بالكتابة وهي التي اصطُلح عليها في عهد النبوّة والخلفاء الراشدين ثمّ لم تتغيّر بعد ذلك إلى اليوم، ولم يشاركه فيها أيّ كتابٍ آخر. إنّ قواعدنا الإملائيّة الحاليّة، وقواعد كتب تراثنا كلّها، لا تتوافق مع كثيرٍ من قواعد الكتابة القرآنيّة، كما يتّضح لنا من هذه النماذج المختارة عشوائيّاً من صفحات القرآن الكريم:

يَأيّها الذين، يَموسى (أي: ياموسى)، أيُّهَ المُؤمنون، تأويلُ رُءْيَيَ (أي: رُؤياي)، القُرْءانُ، رَحْمَتُ الله، لَعْنَتَ الله، سُنَّتُ الأوّلِيْن، امرأتُ عِمران، بَقِيَّتُ الله، وسوف يُؤْتِ اللهُ، سَنَدْعُ الزَّبانِيَه، ويَوْمَ يُنادِ المُنادِ، فَأُلَئِك، ءَالاءِ، مِلّةَ ءَاباءِي (أي: آبائي)، إِبْرَهِم وإسْمَعِيل، تَاللهِ تَفْتَؤُا (أي: تَفْتَأُ)، أفَإِينْ (أي: أفَإنْ)، مالِ هذا الكتابِ (أي: ما لِهذا)، وإِيتاىٕ (أي: وإِيْتاءِ)، مِن تِلقاءِى (أي: تِلْقاءِ)، ولقد رَءَاهُ (أي: رآه)، الَّيْل (أي: اللّيل)، أُوْلُوا الألْباب، ولا تَقولَنَّ لِشَاْيْءٍ (أي: لشيءٍ)، وَجاىءَ (أي: وجِيءَ)، سَأُوْرِيْكُمْ (أي: سأُرِيْكُم)، بِأَييِّكُمُ (أي: بأَيِّكم)، أَقْصَا المدينة، لَدَا الباب، قال المَلَؤُ، وملإِيْهِ (أي: ومَلَئِه)، ما نَشَؤُا (أي: ما نشاءُ)، أَمّا اشتَمَلَتْ عليه (أي: أَمْ ما)، وإِنْ ما نُرِيَنَّك (أي: إمّا)، وحيثُ ما كنتم، لأاذْبَحَنَّه (أي: لأَذْبَحنّه)، بأَيْيْدٍ (أي: بأيْدٍ، وهو القوّة)، أَؤُنزِلَ (أي: أَأُنزل)، إنّا بُرَءَؤُا (أي: بُرَآءُ)، ولا تايئسوا (أي: تيأسوا) كُلَّ ما جاءَ (أي: كلَّما)، لتّخَذْتَ عليه (أي: لاتَّخذْتَ)، والذين سَعَو في (أي: سعَوا)، فَسْئَلْه (أي: فاسألْه)، وَسْئَلوا اللهَ (أي: واسألوا) ..

6 - اشتراط السماع في توثيقه:

يُشترط في رواية القرآن الكريم السماع، ولا يُكتفى بالتوثيق الكتابيّ. فمع وجود قواعد خاصّةٍ لقراءته يفصّلها لنا (علم التجويد) فلا بدّ من الاعتماد، إضافةً إلى ذلك، على السماع والرواية الشفويّة المتّصلة من تلميذٍ عن شيخٍ عن شيخه حتى تصل السلسلة إلى الرسول ﷺ نفسه.

إنّ قواعد التجويد لن تفيدنا مثلاً في قراءة هذه الآية التي تبدأ بها سورة (مريم) والمتشكّلة من ائتلاف خمسة من الحروف الأبجديّة:

- ﴿كهيعص﴾ [مريم: 1]

فالسماع والنقل يقتضيان مدّ حروف الكاف والعين والصاد في قراءتنا لهذه الآية، ولكن دون الهاء أو الياء.

ولن نجد تفسيراً لمدّ حروف الميم والعين والسين والقاف، ولكن دون الحاء، في قوله تعالى:

- ﴿حم. عسق﴾ [الشورى: 1-2]

وليس لدى علم التجويد، وقد اعتمد جزءٌ كبيرٌ منه على السَّماع دون القياس، إجابةٌ على مدّ السين والميم، ولكن دون الطاء، في قوله تعالى[24]:

- ﴿طسم﴾ [القصص: 1]

بل ليس في علم التجويد ما يفسّر لنا قراءة حرف الطاء هنا - وكذلك حروف الهاء والياء والحاء في الآيات السابقة - مقصورة الهمزة هكذا (طا، ها، يا، حا) وليس كما نلفظها في لغتنا عادةً (طاء، هاء، ياء، حاء) على حين تبقى الحروف الأخرى بمدّها الكامل هكذا (سين ميم..).

وليس في علم التجويد أيضاً ما يفسّر لنا التسكين الملازم لهذه الحروف، فهي تُقرأ ساكنةً في الآيات هكذا (عينْ، صادْ، سينْ، قافْ، ميمْ) وليس محرّكةً كما هي في قراءتنا العاديّة، فنحن نقول: (هذه سينٌ سبقتها عينٌ وارتبطت بقافٍ وتحوّلت ميماً.. إلخ)[25].

وتتكرّر هذه الظواهر في عددٍ من فواتح السوَر، وهي ممّا لا تعيننا قواعد التجويد، ولا أيّة قواعد لغويّةٍ أخرى، على تفسير موجباتها ودواعيها.

ثمّ لو درسنا وضع اللفظ (عبادي) داخل سورة واحدة هي سورة (الزُمَر) لوجدناه يتجرّد من الياء، كتابةً ولفظاً، في ثلاث آياتٍ:

- ﴿قُلْ يا عِبادِ الذين آمنوا اتّقُوا ربَّكُمْ﴾ [الآية: 10]
- ﴿يا عِبادِ فاتّقونِ﴾ [الآية: 16]
- ﴿فبشِّرْ عِبادِ﴾ [الآية: 17]

---

(24) مع ملاحظة أنّ الحروف التي لا تُمدّ في هذه المقطّعات هي تلك التي ينتهي لفظها، في قراءتنا البشريّة لها، بألف المدّ (هاء، ياء، حاء طاء..).

(25) هذا يجعلنا نستغرب آراء بعض العلماء الذين ذهبوا إلى أنّ الحرفين (طه) في مطلع سورة (طه) هما من أسماء النبيّ ﷺ، ولو أنّ الأمر كما قالوا لجرى على هذا اللفظ ما يجري على المنادى العلَم فبُني على الضم فقرأناه هكذا (طهُ)، ثمّ لماذا يصادف ألّا يأتي هذا "الاسم النبويّ" إلّا في مطلع السورة فلا يتكرّر أبداً في قرآنٍ أو حديث، مثله مثل الياء والسين أيضاً في مطلع سورة (يس) وقد قيل فيهما أيضاً ما قيل في (طه).

ولكنّ الياء تعود إليه من جديدٍ في آيةٍ أخرى لاحقة، بل، ولنا أن نزداد عجباً، تأتي مفتوحةً أيضاً إمعاناً في إثبات لفظها:

- ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الذين أسرَفوا على أنفُسِهِمْ لا تَقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ﴾ [الآية: 53]

ولا نجد حقّاً أيّة قاعدةٍ، في التجويد أو غيره، تساعدنا في تفسير هذه المفارقة، وضمن السورة الواحدة. ولو تُرك الأمر لقواعد قراءتنا البشريّة التقليديّة لأثبتنا الياء، كتابةً ولفظاً، في آيتين على الأقلّ من الآيات الثلاث التي حُذفت فيها (16 و17)، لعدم التقاء الياء فيهما مع ساكنٍ بعدها ييسّر لنا حذفها، حذفاً لفظيّاً على الأقلّ. وعلى العكس من ذلك، كنّا سنخصّ الحذف، إذا كان لا بدّ من هذا الحذف، بالآية (53) التي ثبتت فيها الياء، ومفتوحةً أيضاً، وذلك لالتقاء الياء في هذه الآية مع ساكنٍ بعدها هو الألف في (الذين) مع أنّ هذا السياق اللغويّ نفسه يتكرّر، بالألفاظ نفسها، في الآية (10) ولكن الياء حُذفت هناك (يا عبادِ الذين).

وكثيرٌ من آداب القراءة القرآنيّة لا قواعد لها معروفة، فهي ليست قياسيّةً بحيث يكوّن تكرارُ حالتها أكثر من مرّةٍ قاعدةً لنا تساعدنا على ضبط قراءتها حيثما وردت؛ إذ لا قاعدة هنا إلّا القاعدة القرآنيّة الأشهر: السماع.. هكذا سمعها الرسول ﷺ من جبريل، ثمّ سمعها المسلمون من الرسول، ثمّ سمعها مَن بَعدهم عنهم، وهكذا..

لن تجد مثلاً، مهما بحثت في قواعد اللغة العربيّة، أو غيرها من قواعد اللغات البشريّة الأخرى، تفسيراً لتلك السكتة الخفيفة التي ينبغي أن نَسكتها، ومن غير تنفّس، بين حرفَيْ النون والراء في قوله تعالى: ﴿مَنْ راقٍ﴾ [القيامة: 27] أو السكتة الخفيفة الأخرى بين حرفَيْ اللام والراء في قوله تعالى: ﴿بلْ رانَ﴾ [المطفّفين: 14]. إنّها، ببساطة، الآداب القرآنيّة المنزلة التي لا تفسير لها، شأنها شأن كثيرٍ من الخصائص اللغويّة الأخرى للقرآن الكريم.

هذه التفاصيل اللفظيّة الدقيقة التي نزل بها القرآن، والتي لا تستند إلى قاعدة، لها فاعليّةٌ تحريضيّةٌ وقائيّةٌ من شأنها أن تحثّ قارئ القرآن على التحسّب والترقّب وعدم الاستسلام لخَدَر القراءة التقليديّة، بحيث يحافظ بهذه

القراءة الواعية، والمتيقّظة باستمرار، على كلّ التفاصيل اللغويّة الخاصّة بالقراءة القرآنيّة. إنّ هذه العناية الفائقة بالتفاصيل تكفل عدم الخروج، الواعي أو غير الواعي، عن النصّ وعن حرفيّته المتناهية في الدقّة، ومن ثمّ، فهي تشكّل ما يشبه الحصن الرقميّ الذي يحمي النصّ القرآني من أيّ تغييرٍ أو تحريفٍ، مقصودٍ أو غير مقصود، على مرّ الأجيال والقرون.

7 - اشتراط التغنّي بقراءته:

تُقرأ جميع سور القرآن تغنّياً، وينصّ على ذلك عددٌ من الأحاديث النبويّة كما مرّ بنا، وكما في قوله ﷺ: "تَغَنَّوا بالقرآن، ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن".

8 - اللغة المنفتحة:

إنّ جزءاً ضخماً من ألفاظ القرآن وعباراته يُفهم بأكثر من طريقة، من غير أن يكون هناك أيّ تناقضٍ بين المعاني المقترحة مهما تعدّدت. وهذا الجانب الانفتاحيّ في لغة القرآن الكريم له دورٌ كبير في حيويّته واستمراريّة أحكامه وتطوّر علومه، كما سنعرف عند دراستنا لهذا الجانب اللغويّ فيه.

9 - اللغة المنغلقة (فواتح السور):

لقد ظلّت معاني فواتح السوَر مثل (الم، المص، الر، كهيعص، طسم، طه، يس، حم، عسق..) سرّاً مستغلقاً على الجميع، ولم يتوصّل إلى حقيقة هذه المعاني أيٌّ من الصحابة أو التابعين ومن توالى بعدهم من العلماء والمفسّرين حتى يومنا هذا، وليس لدينا إلّا التأويلات والاحتمالات التي لا تقوم على برهان (يجمع هذه الحروف قولهم: صِلْهُ سُحَيْراً مَن قَطَعَكَ).

والغريب أنّنا لا نكاد نمرّ في مجموعات الحديث الشريف، على ضخامتها، بأيّة مناسبةٍ يسأل فيها الصحابة نبيّهم الكريم عن معنى هذه الفواتح العجيبة، مع غموضها الشديد عليهم كما هي علينا، ومع وجود 29 سورةً من أصل 114 تبدأ بهذه الفواتح؛ أي أكثر من ربع سوَر القرآن، وكلّ ما عثرت

عليه في هذا الباب سؤالٌ وجّهه أعرابيٌّ للرسول عن (حم) فقال ﷺ: "أسماءُ وفواتحُ سُوَر". يقول الشوكاني: "فإن قلتَ: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيءٌ يصلح للتمسّك به؟ قلتُ: لا أعلم أنّ رسول الله ﷺ تكلّم في شيءٍ من معانيها"[26].

وقد جرّب الكثيرون مهاراتهم العقليّة لاكتشاف أسرار هذه "المقطّعات" كما أُطلق عليها، فإن استطاعوا أن يقنعونا، بعض الإقناع، بتفسير بعضها فإنّهم يخفقون في سائرها.

ويفسّر المستشرق النمساوي محمّد أسد مطلع سورة (يس) بما ذهب إليه ابن عباس، ووافقه عليه عِكرمة والضحّاك والحسن البصريّ وسعيد بن جبير وغيرهم من المفسّرين، من أنّ الحرف الأوّل منهما (يا) يعني النداء، كما في الأداة المعروفة - إذ لا يُقرأ هنا (ياء) هكذا بالهمزة كما نلفظ هذا الحرف عادةً - والحرف الثاني (سين) يعني بلغة طيٍّ (إنسان) أي: أيّها الإنسان، أو هو، في رأي الزمخشري، اختصارٌ للفظ (أُنَيسِين) الذي هو تصغير (إنسان) وهو تصغيرٌ يراد منه التعظيم لأنّه موجّهٌ للرسول ﷺ كما يُفهم من الآية 3 بعدها (إنّكَ لَمِنَ المرسَلين)[27].

ولكنّ من ذهب إلى هذا التفسير ينسى أنّ كلّ حروف فواتح السوَر، الذي ينتهي لفظها عادةً بالهمزة الممدودة في لغتنا، تُقطع فيها الهمزة في القراءة

---

(26) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير**، مرجع سابق، ص1-31. وقد عثرت في نصٍّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورد في عدّة رواياتٍ ضُعّفت جميعاً، وتقول إحداها: "عن حُذيفة أنه سئل عن ﴿حم. عسق﴾ وعمرُ وعليٌّ وابن مسعودٍ وأبيّ بن كعبٍ وابن عبّاسٍ وعدّةٌ من أصحاب النبي ﷺ حضورٌ، فقال حذيفة: العين: عذابٌ، والسين: السِنة والمجاعة، والقاف: قومٌ يُقذفون في آخر الزمان. فقال له عمر: ممّن هم؟ قال: من ولَد العبّاس، في مدينةٍ يقال لها الزوراء، ويُقتل فيها مَقتلةٌ عظيمة، وعليهم تقوم الساعة، قال ابن عبّاس: ليس ذلك فينا (يعني في عائلته)، ولكنِ القاف: قذفٌ وخسفٌ يكون، قال عمر لحُذيفة: أمّا أنت فقد أصبت التفسير، وأصاب ابنُ عبّاسٍ المعنى. فأصابت ابنَ عبّاسٍ الحُمّى حتى عادهُ عمرُ وعدّةٌ من أصحاب النبي ﷺ، ممّا سمع من حذيفة" - رواه الخطيب البغداديّ في (تاريخ بغداد) عن عبيد بن عمير.

(27) Muhammad Asad. *The Message of the Qur'an*. Bristol (England): The Book Foundation, 2003, Vol. 5, P: 758.

القرآنيّة، وليس الياء وحدها التي في سورة (يس)، كما مرّ بنا قبل قليل.

ويربط الفَراهي بين حرف الألف الذي تبدأ به سورة (البقرة): (الم) ومعنى الألف بالعبريّة وهو البقرة، ومرّةً أخرى يربط في السور الأربع التي تبدأ بحرف الطاء (طه، طسم، طس، طسم) بين معنى الطاء في العبريّة، وهو الحيّة، وابتداء هذه السور جميعاً، بعد التمهيد، بقصة موسى وعصاه وانقلابها إلى حيّة، كما يربط بين الحرف (ن) الذي افتُتحت به سورة (القلم) - ويُطلق عليها أيضاً سورة (ن) - ويونس عليه السلام المعروف بلقب (ذي النون) أي (صاحب الحوت). يقول الفراهي: "والسورة.. جاء بها ذكر يونس عليه السلام ولم يُذكر فيها غيره من الأنبياء، وذكره الله تعالى فيها باسم (صاحب الحوت)" [28] .

10 - خصائص لغويّةٌ لم يُسبق إليها:

للقرآن الكريم أعرافه الكثيرة واستعمالاته اللغويّة والنحويّة الخاصّة التي لم يأتِ بها كتابٌ قبله (وهي ممّا وُضع هذا الكتاب لإثباته).

11 - خصائص لغويّةٌ لم يُلحَق بها:

وله أيضاً أعرافه الكثيرة واستعمالاته اللغويّة والنحويّة الخاصّة التي لم يأتِ بها أحدٌ بعده (وهي أيضاً ممّا وُضع هذا الكتاب لإثباته).

---

(28) راجع: عبد الحميد الفراهي، **تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.** أعظم كره (الهند): الدائرة الحميدية، 2000، ص97 وما بعدها. ومن المؤكّد أنْ لا شيء مؤكّدٌ من هذه التأويلات، على ما فيها من جاذبيّةٍ وطرافةٍ وإثارة. ورغم أنّنا أدخلنا هذه الحروف تحت باب (اللغة المنغلقة) فإنّها ولا شكّ فتحت أبواباً وآفاقاً واسعةً أمام المؤوّلين والمجتهدين ليجرّبوا مهاراتهم اللغويّة والفكريّة، فهذا يحصيها ليجد أنّها في مجموعها نصف حروف العربيّة تماماً (14 حرفاً) لا أكثر ولا أقلّ، وآخر يكتشف أنّه لا يتكرّر فيها حرفان متشابهان رسماً، فلو وجدت بينها العين فلن تجد الغين، ولو وجدت الصاد فلن تجد الضاد، ولو وجدت الطاء فلن تجد الظاء، ولو وجدت السين فلن تجد الشين، ولو وجدت الحاء فلن تجد الخاء. وغير ذلك كثير من الكشوف والاجتهادات التي سوف يظلّ الباب مفتوحاً لها إلى يوم الدين.

12 - عدم اختلاطه بكلام البشر:

إنّه الكتاب الوحيد الذي تؤكّد نصوصُه ويؤكّد أصحابه أنّه، من أوّل حرفٍ إلى آخر حرفٍ فيه، هو من كلام الله تعالى لم يدخل فيه شيءٌ من كلام البشر. ومن الواضح لكلّ من يقرأه أنّه موجّهٌ من طرفٍ واحد، بغضّ النظر عن الضمائر التي يستخدمها هذا الطرف للتعبير عن نفسه، وهو الله تعالى، إلى طرفٍ آخر متلقٍّ وهو الرسول ﷺ وبقيّة البشر.

13 - اختلاف أسلوبه كلّياً عن أسلوب حامله:

حَمل هذا الكتابَ إلى الإنسانيّة رجلٌ يستخدم في حديثه وخطابه، الرسميّ واليوميّ، وقد وصل إلينا منه عشرات المجلّدات، أسلوباً يختلف كلّياً، وفي كلّ عبارةٍ من عباراته، عن أسلوب الكتاب الذي حمله إليهم. وسنتبيّن فيما بعد اقتراب لغة الرسول ﷺ، من لغة البشر، بحيث استطاع بعضهم اختراقها وتقليدها، على عظمتها وتفوّقها، وابتعاد لغة القرآن عنها بحيث عجز الجميع عن الاقتراب منها وتقليدها، مع المحاولات الكثيرة التي بذلها بعض الملاحدة في هذا السبيل.

14 - انفراده بتحدّي محاولة تقليده:

إنّه الكتاب الوحيد الذي تجرّأ فتحدّى الناس جميعاً، في ستة مواضع على الأقلّ، أن يأتوا بمِثله أو بمثل سورةٍ واحدةٍ من سوَره، أي بسطرٍ واحدٍ من أسطره (إذ لا يتجاوز حجم بعض هذه السوَر سطراً واحداً).

15 - انفراده بتحدّي اكتشاف خطإٍ فيه:

وهو أيضاً الكتاب الوحيد الذي تحدّى الناس، في عصره وعلى مرّ العصور، أن يجدوا فيه خطأً واحداً في كلّ ما أتى بين دفّتيه من أخبارٍ وأفكارٍ وحقائق تاريخيّةٍ وعلميّةٍ وفلكيّةٍ وإنسانيّةٍ وتشريعيّة:

- ﴿ولو كانَ مِن عندِ غيرِ اللهِ لَوجَدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء: 82]

- ﴿كتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثمّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ﴾ [هود: 1]

مع أنّه يورد ما لم يتجرّأ، ولن يتجرّأ أحدٌ على إيراده، وهو تقريرٌ لمصير عدّة أشخاصٍ تحدّوا الإسلام ونبيّه، وتحديد النهاية التي يموتون عليها، كعمّ الرسول ﷺ أبي لهبٍ، وكذلك زوجته (سيَصلَى ناراً ذاتَ لهَب، وامرأتُه حمّالةَ الحطب)، وكذلك الوليد بن المغيرة (..إنْ هذا إلّا قولُ البشَر، سأُصْليْهِ سَقَر) ثمّ عاش هؤلاء، بعد نزول الآيات بحقّهم، سنواتٍ عديدةً كان يُحتمل خلالها أن يعتنقوا الإسلام، إمّا تحدّياً منهم للقرآن، وإمّا عن قناعةٍ حقيقيّةٍ بالدين الجديد، مثلما اعتنقه عرب الجزيرة قاطبةً بعد ذلك، ولكنّهم ماتوا وحدهم على الشرك، تماماً كما سبق أن قرّره القرآن بحقّهم.

هذا فضلاً عن الحقائق العلمية الكثيرة، التي تُعدّ بالمئات، ممّا قرّره القرآن الكريم حين كانت الإنسانيّة ما تزال في طفولتها، قبل ألف عام أو أكثر من وقوع ما سينكشف لها من أسرار العلوم وحقائقها. ومن أبرز هذه الحقائق؛ تقرير القرآن لكرويّة الأرض، ولدورانها، ولأصلها الغازيّ، وللانفجار الكبير الذي انفصلت فيه عن طبيعتها الغازية لتكون الكرة الأرضيّة، وأنّ الكون الذي نعيش فيه مستمرّ بالتوسّع والتضخّم وسوف يظلّ كذلك:

- ﴿يُكوِّرُ الليلَ على النهارِ ويكوِّرُ النهارَ على الليل﴾ [الزمر: 5]
- ﴿والأرضَ بعدَ ذلكَ دَحاها﴾ [النازعات: 30]
- ﴿وتَرى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السَّحاب﴾ [النمل: 88]
- ﴿ثمّ استوى إلى السماءِ وهي دُخانٌ فقالَ لها وللأرضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرهاً﴾ [فُصّلت: 11]
- ﴿أوَلم يَرَ الذين كفَروا أنّ السمواتِ والأرضَ كانتا رَتْقاً ففَتَقْناهما﴾ [الأنبياء: 30]
- ﴿والسماءَ بنيناها بأييدٍ وإنّا لَمُوسِعون﴾ [الذاريات: 47]

16 - ارتباط قراءته بطقوسٍ خاصّة:

تتطلّب قراءةُ القرآن الكريم من قارئه القيامَ باستجاباتٍ طقسيّةٍ لما يقرأه، كالسجود في بعض المواقع من الآيات (14 موقعاً على الأقلّ)، والالتزام

بآدابٍ معيّنةٍ نصّت عليها الآيات الكريمة:

- ﴿وإذا قُرِئَ القرآنُ فاستمعوا له وأنصِتوا﴾ [الأعراف: 204]
- ﴿فإذا قرأْتَ القرآنَ فاستَعِذْ بالله منَ الشيطانِ الرّجيم﴾ [النحل: 98]
- ﴿لايمَسُّه إلّا المُطهَّرون﴾ [الواقعة: 79]

كما تنصّ عليها الأحاديث النبويّة الشريفة:

- . . إذا مرّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبّح، وإذا مَرّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرّ بتعوُّذٍ تعوّذ[29].
- طيِّبوا أفواهَكم بالسِّواك فإنّها طُرُقُ القرآن[30].
- أحسَنُ الناسِ قراءةً الذي إذا قرأ رأيتَ أنّه يَخشى اللهَ[31].
- إنّ المصلّي يُناجي ربَّه فلْيَنظُرْ بمَ يُناجيه، ولا يَجْهَرْ بعضُكم على بعضٍ بالقرآن[32].
- ﴿لا تقرأ القرآنَ وأنتَ جُنُبٌ﴾[33].
- اقرأ القرآنَ ما نَهاكَ، فإنْ لم يَنْهَكَ فلستَ تقرأُه[34].
- مَنْ قرأ منكم (بالتّينِ والزّيتونِ) فانتهى إلى آخرِها (أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمين) فلْيَقُلْ: بلى وأنا على ذلك من الشاهدِين، ومن قرأ (لا أُقْسِمُ بيومِ القيامة) فانتهى إلى (أليس ذلك بقادرٍ على أنْ يُحْيِيَ المَوتى) فلْيَقُلْ: بلى، ومن قرأ (والمُرْسَلاتِ) فبلغ (فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمِنون) فليقُلْ: آمَنّا بالله[35].

---

(29) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص536.

(30) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص382.

(31) المرجع السابق، ج2، ص388 .

(32) الطبراني، **المعجم الأوسط**، مرجع سابق، ج5، ص41 .

(33) البزاز، أحمد بن عمرو. **البحر الزخار**. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، بيروت: مؤسسة علوم القرآن، 1409هـ، ج8، ص123 .

(34) القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر. **مسند الشهاب**. تحقيق: حمدي السلفي، بيروت: دار الرسالة، 1407هـ، ج1، ص245 .

(35) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص377.

- عن عوف بن مالك الأشجعيّ، قال: «قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلةً، فقام فقرأ سورة (البقرة)، لا يمرّ بآيةِ رحمةٍ إلّا وقف»[36].

إنَّ هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكَوا[37].

وهذه المزاوجة بين القراءة والممارسة تمثّل نوعاً من التفاعل والحوار بين القارئ والمقروء لم يعرفه تاريخ الكتب من قبل، وهو تفاعلٌ من شأنه أن يضمن اقتران قراءتنا للنص القرآني بالتطبيق العمليّ لما في هذا النصّ، فهو بمثابة إحكامٍ وتدريبٍ عمليٍّ للمؤمن على الربط بين القول والعمل في دينه.

17 - يحفظه الملايين غيباً:

إنّه الكتاب الوحيد الذي يحفظه عن ظَهر قلبٍ ملايينُ من البشر يعيشون في كلّ بلدٍ وفي كلّ قريةٍ من بلدان العالم الإسلاميّ، صحرائها وجبالها وسهولها وجزُرها، ولا يدخل في هذا الرقم أولئك الذين يحفظون أجزاءً منه، قلّت أو كثرت. وقد أكّد تعالى لنبيّه أهمّية هذا الجانب التوثيقي الذي منحه الله لكتابه، وعدّه من أعظم ما منّ به الله على رسوله، كما يؤكّد الحديث الشريف:

- عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لمّا فرغتُ ممّا أمرني به مَن أمَرَ السمواتِ والأرضَ قلتُ: يا ربِّ، إنّه لم يكنْ نبيٌّ قبلي إلّا وقد كرّمتَه، جعلتَ إبراهيمَ خليلاً، وموسى كَليماً، وسَخّرْتَ لداودَ الجبالَ، ولسليمان الرّيحَ والشّياطين، وأحييتَ لعيسى الموتى، فما جَعلْتَ لي؟ قال: أوَليس قد أعطيتُكَ أفضلَ مِن ذلكَ كلِه: أنّي لا أُذكَرُ إلّا ذُكِرْتَ معي، وجَعلْتُ صدورَ أمّتِكَ أناجيلَ يَقرأون القرآنَ ظاهراً (أي غيباً) ولم أُعْطِها أمّةً (غيرَ أمّتك)، وأعطيتُكَ كنزاً مِن كنوزِ عرشي: لا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللهِ العليِّ العظيم"[38].

---

(36) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص375.

(37) البيهقي، **شعب الإيمان**، مرجع سابق، ج2، ص362.

(38) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر. **الدر المنثور**. بيروت: دار الفكر، 1993، ج8، ص549.

18 - معظم حفَظته ممّن لا يتكلّمون لغته:

الكتاب عربيٌّ، والعرب لا يشكّلون أكثر من 20% من المسلمين في العالم، ومعظم أولئك الذين يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلبٍ هم من غير العرب، وممّن لا يتكلّمون العربيّة ولا يفهمونها، ومن ثمّ لا يفهمون نصوص هذا الكتاب الذي يحفظونه غيباً، جنباً إلى جنب مع إخوانهم الذين يقرأونه من غير أن يحفظوه، وهم أكثر. ولم يحدث هذا ولن يحدث، وبهذا العدد البشريّ الهائل، لأيّ كتابٍ آخر على مرّ الزمان.

19 - توثيق نصوصه ملايين المرّات يوميّاً:

تتكرّر تلاوته، ومن ثَمّ توثيقُ نصوصه، جماعيّاً وأمام جماهير متفرّقةٍ ومتباعدة المسافات من المصلّين ثلاث مرّاتٍ كلّ يوم (في الصلوات الجهريّة: الفجر والمغرب والعِشاء) فضلاً عن صلاة الجمعة وصلاتَي الفِطر والأضحى، وذلك في ملايين المساجد على مساحة الكرة الأرضيّة، وعلى مدى أربعة عشر قرناً منذ نزول الوحي إلى اليوم، فإذا أخطأ الإمام في قراءة لفظٍ أو حرفٍ من الكتاب؛ بادر عشراتٌ من المصلّين خلفه إلى تنبيهه وتصحيح خطئه، فلا يُحتمل مع هذا النظام التوثيقيّ العجيب والمكثّف، الذي لم ولن يتيسّر لأيّ كتابٍ قبله أو بعده، دخولُ أو سقوطُ أو تحريفُ أيّ لفظٍ أو عبارةٍ أو قراءةٍ منه على توالي القرون وتنائي المسافات. وهذا النظام التوثيقيّ المتفرّد قد شكّل عاملاً أساسيّاً في الحفاظ على وحدة النصّ القرآنيّ، فالمذاهب الإسلاميّة الكثيرة قد تختلف على أشياء كثيرة، ولكنّها تجتمع، ومن غير أيّ تردّد، على نصٍّ قرآنيٍّ واحد، وهو ما لم يتوفّر لأيّ كتابٍ سماويٍّ آخر.

20 - أحدثَ أوسعَ ثورةٍ علميّةٍ في زمنٍ قياسيّ:

لم يحدث قبل القرآن، ولا بعده حتى اليوم، أن حقّق كتابٌ واحد، وفي عقودٍ قليلةٍ من السنين، ثورةً أدبيّةً وعلميّةً وفكريّةً ولغويّةً في كلّ الاتجاهات. لقد حدث أن أحدث كتابٌ لفلان ثورةً في علم الفلسفة، وكتابٌ لفلان ثورة في علم الاجتماع، وكتابٌ لفلان ثورة في علم الطب، وآخر لفلان في علم

التربية، مع عدم ادّعاء أيّ من هذه الكتب أنّها هي التي أوجدت تلك العلوم في بلادها، ولكن لم يحدث لكتابٍ ما، وخلال بضعة عقودٍ من السنين فحسب، وفي جزيرةٍ أمّيةٍ منعزلةٍ لم تكن تعرف قبله إلّا كتاباً واحداً، هو الكتاب المقدّس، وليس لديها أيّة فكرةٍ عن أيّ علمٍ من العلوم، أن أوجد، وبهذا الزمن القياسيّ، مكتبةً ضخمةً في علم اللغة، وأخرى في المعاجم، وأخرى في القراءات، وأخرى في التفسير، وأخرى في الرواية، وأخرى في أسباب النزول، وأخرى في علوم القرآن، وأخرى في علوم الحديث، وأخرى في الفقه والأحكام، وأخرى في الأصول، وأخرى في علم الرجال، وأخرى في الأنساب، وأخرى في الأدب، وأخرى في الشعر، وأخرى في النقد، وأخرى في البلاغة، وأخرى في التاريخ، وأخرى في علوم الأرض، وأخرى في علم الفلك والنجوم.. حتّى تحوّلت الجزيرة العربيّة، وكلّ الأصقاع التي وصل إليها القرآن بعد ذلك، إلى موائل للعلم تعجّ بالمكتبات الضخمة وبالعلماء والباحثين الذين يحجّون إليها من كلّ أطراف الأرض.

وتفرّد كتابته بالعناية المتفوّقة:

وأخيراً، وفضلاً عن تلك الخصائص العديدة التي خصّت السماء بها هذا الكتاب دون بقيّة الكتب السماويّة أو الأرضيّة؛ فقد خصّه البشر أيضاً بعنايةٍ لم يشاركه فيها أيّ كتابٍ آخر. إنّه الكتاب الوحيد الذي ضُبطت كتابته على نحو يتحدّد للقارئ معه، بدقّةٍ متناهية، مواضعُ إدغام الحرف وإخفائه وإظهاره، والمواضعُ التي يُلفظ فيها وإن سقط من الكتابة، أو يُهمَل فيها لفظه وإن كُتب، ومواضعُ قَلبِ لفظ الحرف إلى حرفٍ آخر مختلف، ومواضعُ المدّ والقصر والوصل والقطع، ومواضعُ السَّكْت القصير، ومواضعُ الوقف اللازم، والممنوع، والجائزِ المستحبّ، والجائزِ غير المستحبّ، وغير ذلك من دقائق قراءته، بل نُقلت هذه القراءة المجوّدة له إلى اللغات الأخرى، فأصبح القارئ الإنكليزيّ مثلاً يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم مجوّداً، من خلال الطبعات الصادرة بالإنكليزيّة المزوّدة بالترجمة الكتابيّة للحروف العربيّة إلى الحروف اللاتينيّة transliteration.

ولم يتوقّف الأمر عند ذلك بل تجاوزه إلى التزام العلماء المسلمين بشكل الحرف القرآني الذي وصل به إلينا، مع قبول التحسينات الفنّية التي يمكن أن تكون قد طرأت عليه على مرّ القرون، ومع قبول مختلف أنواع خطوط النسّخ التي وصلت إلينا من القدماء، وهكذا التزمت جميع الطبعات التي ظهرت للقرآن الكريم، ومن غير استثناء، بتلك الخطوط الأصليّة القديمة، فلا يمكن أن تجد أيّة طبعةٍ له، على تعدّدها، صادرةً بحروف المطبعة العاديّة التي تصدر بها كلّ الكتب عادةً، بما في ذلك الطبعات المترجمة التي أصدرها المستشرقون. بل، وإمعاناً في الحفاظ على النصّ القرآنيّ والدقّة في النقل والتوثيق، بالغ كثيرٌ من العلماء في هذا الأمر بحيث دَعوا إلى ضرورة التزام الكتّاب والمؤلّفين بالرسم القرآنيّ إذا حدث أن استشهدوا في كتبهم ولو بآيةٍ واحدةٍ من آيات القرآن الكريم.

هذه الحقائق جميعاً تحتّم علينا أن ننبّه إلى أنّ أيّة دراسةٍ للقرآن يجب أن تأخذ في حسبانها حقيقةَ أنّه كتابٌ سماويٌّ له قواعده الخاصّة والمختلفة عن قواعد أيّ كتابٍ أرضيّ، بل عن أيّ كتابٍ سماويٍّ آخر، وهو أمرٌ فات كثيراً من الباحثين، القدماء والمحدثين على السواء، ممّن تعرّض لدراسة هذا الكتاب الفريد، كما فعل مثلاً نصر حامد أبو زيد، حين وجدناه ينزلق هو نفسه إلى ما أخذه على القدماء، كالزركشيّ والسيوطيّ، من حرفيّة تعاملهم مع الزمن في القرآن، من غير أن يتنبّه، شأنه شأنهم، إلى زئبقيّة الحدود وتداخلها، في كثيرٍ من التعبيرات القرآنيّة، بين الزمن الماضي والحاضر والمستقبل[39].

(39) انظر: أبو زيد، نصر حامد. **مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن**. بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، 1996. ص97-115.

الفصل الثاني

السبيكة القرآنيّة

عرف العرب ظاهرةً لغويّةً ليست غريبةً على اللغات الأخرى، وهي أنّ ثروةً من الألفاظ والتراكيب والعبارات والأبنية الشعريّة كانت متداوَلةً ومتبادَلةً بين الشعراء الجاهليّين يستمدّون منها مادّتهم اللغويّة للتعبير عن أفكارهم ثمّ لا يكادون يخرجون عنها، بحيث بات لهم منها قوالب ثابتةٌ تُكوّن أساس النسيج اللغويّ لمعظم أشعارهم.

ونستطيع أن نعيد أكثر ما بين أيدينا من مادّة الشعر الجاهليّ إلى بضع عشراتٍ من القوالب اللغويّة الأساسيّةٍ كانت هي المتداولة في السوق الشعريّة حتّى نزول القرآن الكريم، وتشكّل ما يمكن أن نسمّيه البِنية التحتيّة للبناء اللغويّ الشعريّ. واستمرّ كثيرٌ من هذه القوالب بعد القرآن، وما يزال بعضها حيّاً عند كثيرٍ من الشعراء، مع اختلافٍ في نسبة استخدامها لدى كلٍّ منهم، وفي نسبة السبائك الجديدة التي يختصّ بها كلّ شاعر، وهي نسبةٌ تظلّ عند الجميع، مهما بلغت مكانة الشاعر في التجديد، دون نسبة السبائك التقليديّة السائدة. وربّما انسحب الأمر على لغة النثر أيضاً وإن كنّا لا نكاد نملك أيّة نماذج جاهليّةٍ كاملةٍ منه.

كانت هذه القوالب بمثابة وحداتٍ أو سبائك لغويّةٍ أوّليّةٍ يقوم عليها البناء اللغويّ العامّ للقصيدة أو النصّ الأدبيّ، وكان من النادر للشاعر أو الكاتب أو الخطيب أن يخرج عنها أو يضيف إليها سبيكةً جديدةً تُغْني البناء اللغويّ القديم، فإذا تمّ له مثلُ هذه الإضافة ففي حركةٍ بطيئةٍ لا تكاد تتبيّن لنا إذا حاولنا أن نلاحق الخطّ البيانيّ لتطوّر اللغة الشعريّة أو الأدبيّة عند العرب على مرّ السنين.

السبيكة الشعريّة:

بإمكاننا أن نضع أيدينا على هذه الحقيقة لو استدعينا بعض السبائك اللغويّة التي تتردّد عند عددٍ من الشعراء العرب، على تباعد الحقب التي عاشوا فيها، لنرى كيف التزم بها الشاعر المتأخّر كما وردت ابتداءً عند الشاعر المتقدّم.

لقد كانت هذه السبائك عند الجاهليّين أشبه بالمقصوصات الكرتونيّة (جيغ سو) أو بورق اللعب، فهي أمامهم قطعٌ جاهزةٌ للّعب بها وتشكيل مجسّماتٍ لغويّةٍ، قد تكون بأعيننا جديدةً وهي القصائد، ولكنّها في حقيقتها قديمةٌ بقوالبها أو الموادّ الأوّليّة التي صُنعت منها وبُنيت أشكالها الجديدة عليها.

ومن السهل أن نميّز في الأبيات الخمسة التالية لبعض الشعراء الجاهليين أو المخضرمين (جاهليّين/إسلاميّين) واحدةً من أقدم السبائك وأشهرها في ديواننا العربيّ:

- وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَه

علـيَّ بأنواعِ الهمومِ ليَبتلي

- وعَنْسٍ كألواحِ الإرانِ نسأتُها

على لاحِبٍ كالبُردِ ذي الحَبِراتِ

امرؤ القيس (ت80 ق.هـ)

وخَرقٍ كظَهر التُرسِ قَفْرٍ قطعتُهُ

بعاملتينِ، ظَهرُه ليس يُعمَلُ

الشَنفرَى (ت70 ق.هـ)

وخَرقٍ كنَصلِ السيفِ قد رامَ مَصدَفي

تعسّفتُه بالرُّمحِ والقومُ شُهّدي

حاتم الطائيّ (ت46 ق.هـ)

وخيـلٍ كـأسـراب الـقَـطا قـد وَزَعْـتُـهـا

عـلـى هـيـكـلٍ نَـهْـدِ الـجُـزارةِ مُـرمَـدِ

دُريد بن الصِمّة (ت8ه)

إنّ الأبيات الخمسة - وهي غيضٌ من فيض الأبيات العربيّة العديدة التي بُنيت على نمطها- تبدأ بسبيكةٍ واحدةٍ مؤلَّفةٍ من خمسة أجزاءٍ في أربع كلمات:

(1) مبتدأٌ، هو المشبّه، مجرورٌ لفظاً بواو (رُبَّ) التي تسبقه، ثمّ:

(2) خبرٌ هو الكاف التي بمعنى (مثل)، وهذه مضافةٌ إلى:

(3) اسمٍ هو المشبّه به، وهذا مضافٌ أيضاً إلى:

(4) مضافٍ إليه متمِّمٍ للمشبّه به.

(5) ويليها جميعاً فعلٌ ماضٍ مرتبطٌ بضميرٍ يعود على المبتدأ.

إنّها تركيبةٌ نحويّةٌ بدأت ذاتَ مُلكيّةٍ خاصّةٍ عند شاعرٍ جاهليٍّ قد يكون من الصعب تحديده من غير تعسّف، ثمّ ما لبث الشعراء أن أُعجبوا بها وتداولوها وتوارثوها حتّى تحوّلت إلى سبيكةٍ عامّةٍ يصعب على غير الشاعر العبقريّ الفكاك من أسرها.

والأبيات الخمسة جميعاً جاءت من البحر الطويل، فلكلّ بحرٍ من البحور العربيّة الستة عشر سبائكُه اللغويّة الخاصّة التي لا تصلح، بحكم بنائها اللغويّ، للبحور الأخرى، وعلى هذا فإنّ السبيكة في الشعر ذاتُ بناءٍ عروضيٍّ ونحْويٍّ معاً، ولنا أن نضع لهذه السبيكة التي أمامنا هذا الميزان العَروضيّ والنحْويّ: (وعَمَلِنْ كعمَلِ العمَلِ عمِلتهُ)[1].

(1) سيلاحظ القارئ أنني فضّلت أيضاً في موازين السبائك القرآنيّة استخدام الفعل (عمل) على الآخر الذي اقترحه الخليل بن أحمد لعروض الشعر العربيّ (فعل) تجنّبا لأيّ شبهةٍ ولأيّ لَبسٍ أو اختلاطٍ بين المقاييس القرآنيّة والمقاييس الشعريّة.

هذه "القواسم اللغويّة" المشتركة التي كان يتقاسمها الشعراء على موائد الشعر لم تتوقّف، كما ذكرنا، عند عصرٍ معيّن، بل نجدها متناثرةً في دواوين الشعراء على مدى أحقابٍ متباعدة، بحيث كَوّنت الخزّانَ الأكبر الذي كان يستقي منه الشعراء العرب، ولقرونٍ عديدة، وحداتِهم اللغويّة الأساسيّة في أيّة قصيدةٍ يكتبونها.

ونسوق هنا نماذج لسبيكةٍ شعريّةٍ أخرى تردّدت في أبياتٍ تفصل بينها مسافاتٌ زمنيّةٌ شاسعة، من غير أن يغيّر الزمانُ أيّ عنصرٍ من عناصر تركيبتها اللغويّة الأولى، وإن تباعدت المعاني التي تعبّر عنها:

إذا أنتَ لم تنفعْ بوُدّكَ قُربَةً

ولم تَنْكِ بالبؤسَى عدوَّكَ فابعِدِ

طَرَفة بن العبد (ت60 ق.هـ)

إذا أنتَ لم تُعرِضْ عن الجهلِ والخَنا

أصَبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ

زهير بن أبي سُلمى (ت13ق.هـ)

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ من التُقى

ولاقيتَ بعدَ الموتِ من قد تَزَوّدا

ندمتَ..

الأعشى (ت7هـ)

إذا أنتَ لم تنفعْ فضُرَّ، فإنّما

يُرَجَّى الفتى كيما يَضُرَّ وينفعا

النابغة الجعدي (ت50هـ)

إذا أنتَ لم تَعشَقْ فتصبحَ هائماً

ولم تكُ معشوقاً فأنتَ حمارُ

مجنون ليلى (ت68هـ)

يقول لكَ العقلُ الذي بيّنَ الهدى:

إذا أنتَ لم تدرأ عدُوّاً فدارِهِ

المعرّي (ت449هـ)

والسبيكة اللغويّة التي تنتظم هذه الأبيات هي سبيكةٌ خماسيّةٌ مؤلَّفةٌ من:

(1) أداة الشرط (إذا)

(2) يليها الضمير (أنتَ)

(3) يليه حرف الجزم (لم)

(4) يليه فعلٌ مضارعٌ

(5) يليه فاءٌ مرتبطةٌ بفعلٍ غالباً

ونستطيع العثور على هذه السبيكة (وميزانها: إذا أنت لم تعملْ فاعمل، أو: عملْتَ) في عشرات الأبيات الأخرى على مدى قرونٍ تمتدّ إلى عصرنا هذا، وبدهيٌّ مرّةً أخرى، وبسبب طبيعتها اللغويّة الثابتة، أن نجدها دائماً في البحر الطويل دون غيره من البحور.

وهكذا سنميّز بسهولةٍ عديداً من السبائك اللغويّة المختلفة التي اتّخذ منها الشعراء على مدى العصور وحداتٍ أساسيّةً وإطاراتٍ لا بدّ منها لإقامة أبنيتهم الشعريّة، كما في هذه الأبيات الأربعة التي تجمع بينها سبيكةٌ شاعت هي أيضاً عند أكثر الشعراء القدماء، في الجاهليّة والإسلام:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضُرَ الوغى

وأنْ أشهدَ اللذّاتِ، هل أنتَ مُخْلِدي

طَرَفة بن العبد (ت60ق.هـ)

ألا أيُّهذا السائلي: أين يمّمَتْ

فإنّ لها في أهلِ يثربَ موعدا

الأعشى (ت7هـ)

ألا أيُّـهـذا الـمُـؤتَـلـي إنّ نَـهْـشَــلاً
عَـصَـوا قـبـلَ مـا آلـيـتُ مُـلْـكَ بـنـي نَـصـرِ

نهشل بن حري (ت45هـ)

ألا أيُّـهـذا الـمُـوعِـدي وسْـطَ وائـلٍ
ألـسـتَ تـرى زاري وعِـزَّ نـصـيـري

الأخطل (ت90هـ)

فالسبيكة الخماسيّة التي تنتظم الأبيات الأربعة مؤلّفةٌ من:

(1) أداة الاستفتاح (ألا)

(2) يليها المنادى (أيّ)

(3) وهذا يرتبط باسم الإشارة (هذا)

(4) ويتلو اسمَ الإشارة دائماً بدلٌ يجب أن يكون اسمَ فاعلٍ معرَّفاً بال

(5) واسم الفاعل هذا لا بدّ أن يكون متّصلاً بياء المتكلّم، فإن لم تتيسّر فبياءٍ أصليّة، كما في بيت نَهْشَل بن حَرِيّ الذي استخدم اللفظ (المُؤتلي).

ومرةً أخرى تأتي الأبيات هنا من الطويل، وميزانها العَروضيّ والنحْويّ (ألا أيُّهذا العاملي/ المُعمِلي).

وأعرض فيما يلي قائمةً من أشهر السبائك الجاهليّة التي طغت بسحرها على ألسنة الشعراء في تلك الفترة، ثمّ تسرّبت ممتدّةً إلى حقبٍ عديدةٍ بعدهم. ولم أحتجْ لاختيار هذه النماذج إلى أكثر من بضع دقائق نظرت خلالها في صفحاتٍ قليلةٍ من الشعر الجاهليّ، واخترتها من صدور الأبيات فحسب، وفي هذا ما يكفي من دلالةٍ على سعة حجم هذه الظاهرة في شعرنا العربيّ:

ومَن يَكُ ذا..

وإنّي امرُؤٌ إنْ..

ألا طَرَقَتْ رَحلِي..

ألا هل أتى عنّا..

ألا يا لَهْفَ هندٍ..

ألا مَنْ مُبْلِغُ الحيَّيْن عنّي..

ألا ليتَ شِعري هل..

ألا قَبَّحَ اللهُ البَراجم..

ألا انعِم صباحاً أيُّها الربع..

ولا عيبَ في اليَحموم..

خليليَّ مُرّا بي..

أمِنْ آلِ أسماءَ الطُلولُ الدوارسُ..

يا صاحبيَّ تَلَوَّما..

لَعَمرِيْ لَنِعْمَ المرءُ..

ودِّعْ أُمامَةَ إنّ..

أَهاجَكَ مِن أسماءَ رَسْمُ المَنازل..

لا يُبعِدِ اللهُ جيراناً..

ولستُ بذاخِرٍ لِغدٍ طعاماً..

سَما لكَ شوقٌ بَعدما كان..

أَمِنْ ذِكْرِ سلمى..

لِمَنْ طَلَلٌ بينَ الجَديّةِ..

وتغطّي السبيكة عادةً جزءاً من الشطر، ولكنّها قد تمتدّ لتستغرق الشطر بكامله، أو قد تتجاوزه، كما في بيت أحمد شوقي المشهور الذي قاله بعد هزيمة أحمد عرابي:

صَغارٌ في الذَهابِ وفي الإيــابِ   أهذا كلُّ شــــأنِكَ يا عرابي

وقد نقل السبيكة المحوريّة فيه عن الشاعر العبّاسيّ أبي الحسن الأنباريّ حين رثى ابنَ بقيّة بعد أن صلبه عضُد الدولة، فقال:

عُلُوٌّ في الحياةِ وفي الممـــاتِ   بحقٍّ أنتَ إحدى المعجــزاتِ

هكذا كانت المدرسة اللغويّة الشعريّة في تعاملها مع الأبنية الأساسيّة للقصيدة الجاهليّة عشيّة نزول القرآن الكريم بين ظهرانَي العرب. لقد قلبتْ لغةُ الوحي هذه الموازين جميعاً، وفَتّتت السبائكَ المتوارثة، وخرجت على النسيج اللغويّ التقليديّ لتوجِد لنفسها نسيجَها الخاصّ، وليكون لها سبائكها اللغويّة الجديدة التي ستُحْدث هزّةً في سجلّ اللغة الأدبيّة عند العرب.

ولن تقتصر هذه السبائك الجديدة على جزءٍ من المساحة اللغويّة لآيات القرآن الكريم، بل ستغطّي هذه المساحة تماماً بحيث تستطيع أن تميّز قرآنيّتها من خلال خزعةٍ عشوائيّةٍ واحدةٍ تتناولها من أيّة سورةٍ أو صفحةٍ أو سطرٍ من أسطر القرآن الكريم، بل من خلال ما هو أصغر حجماً من السبيكة، كالتعبير أو التركيب، وأحياناً اللفظ.

معظم سبائك القرآن لا يتكرّر:

إنّ "النكهة" المميَّزة جدّاً للسبائك القرآنيّة من شأنها أن تجعلنا نستنتج أنّ تكرارها في القرآن بكثرةٍ، مع جِدّتها واختلافها جميعاً عن السبائك العربيّة المعروفة، هو السبب في سهولة تمييزنا لها وسرعة إدراكنا لقرآنيّتها.

والواقع أنّ عدداً لا بأس به من السبائك يتكرّر بكثرةٍ في القرآن، داخل السورة نفسها وخارجها، كمثل هذه الآيات:

- ﴿يا أيُّها المُدّثِّر﴾ [المدّثّر: 1]
- ﴿يا أيّها المُزّمِّل﴾ [المزّمّل: 1]
- ﴿والمُرسَلاتِ عُرْفا. فالعاصفاتِ عَصْفا. والناشراتِ نَشْرا. فالفارِقاتِ فَرْقا﴾ [المرسَلات: 1-4]

- ﴿والنّازِعاتِ غَرْقا. والناشِطاتِ نَشْطا. والسابحاتِ سَبْحا. فالسابقاتِ سَبْقا﴾ [النازعات: 1-4]

- ﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ. وإذا النجومُ انكدرتْ. وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ. وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: 1-4]

- ﴿إذا السماءُ انفطرَتْ. وإذا الكواكبُ انتثرَتْ. وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ. وإذا القُبورُ بُعثِرَتْ﴾ [الانفطار: 1-4]

نعم، إنّ مثل هذا التكرار للسبائك ظاهرةٌ واضحةٌ تماماً في القرآن الكريم، ولا سيّما في السوَر القصيرة، ولكنّ العجيب أنّ ما لا يتكرّر من السبائك القرآنيّة، مع وضوح ظاهرة التكرار هذه، أكثر بكثيرٍ ممّا يتكرّر.

إنّ معظم السبائك يرِدُ في القرآن مرّة واحدةٍ لا أكثر، وتظلّ له، مع ذلك، نكهته المميّزة الواضحة. أمّا سبائكنا البشريّة، شعراً كانت أو نثراً، فمن الصعب تمييزها واستقرار شكلها وبنائها في أذهاننا وذواكرنا إذا لم تتكرّر مرّاتٍ عديدةً، فتألفها بذلك نفوسنا وتتعوّدها مسامعنا. إنّها خصيصةٌ عجيبةٌ أخرى من خصائص لغة الكتاب الحكيم: ائتلافُنا لسبائكه التي لا تتكرّر أبداً مهما كانت كثيرة.

وقد يقال: ولماذا تخصّ القرآن وحده بالسبائك المتفرّدة، فلكلّ كاتب سبائكه الخاصّة أيضاً، ولها خصائصها وبناؤها المتميّز؟ هذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، ولكن ليس إلى كلّ حدّ.

إنّ الأساليب البشريّة، على اختلافها، لن تساعدنا دائماً في تمييز أصحابها أحدها عن الآخر، مهما تباعدوا في الزمان والمكان. وكثيراً ما يتقارب كاتبان في أسلوبيهما، أو أكثر من كاتبين، بحيث يختلط علينا الأمر. وتبرز هذه الحقيقة واضحةً لنا إذا اكتفينا بجملةٍ واحدةٍ لكلٍّ منهم فقارنّاها مع جمل الكتّاب الآخرين.

فمن منّا يستطيع أن ينظر في السبائك التالية، التي جمعناها عشوائياً وسريعاً من أدباء مختلفين، قدماء ومعاصرين، فيخبرنا مهما أنعم النظر فيها:

أيّها للمعرّي، وأيّها لابن المقفّع، وأيّها لابن حزم، وأيّها لطه حسين، وأيّها لمصطفى صادق الرافعيّ؟

- وأمّا الكتابُ فجمَعَ حِكمةً ولهواً
- وإنّ هذا لَيُولِّدُ من الحُزنِ والأسفِ غيرَ قليلٍ
- يبتدعون أساليبَ ومناهجَ في نظمِ الكلام
- لا يخافُ على ولدِه من اليُتْم
- ولكنّ الفنَّ البيانيَّ يرتفعُ على ذلك

إنّ من المستحيل على أيٍّ منّا، مهما ادّعى من براعةٍ أدبيّةٍ ونفاذ بصيرةٍ نقديّة، أن يضع الاسم الصحيح من أسماء هؤلاء الكتّاب الخمسة أمام الجملة الصحيحة، إلّا أن يقع ذلك له مصادفةً، ولكنّ دخول آيةٍ قرآنيّةٍ واحدة، أيّة آيةٍ، طالت أو قصرت، بين هذه الجمل البشريّة الخمس، على اختلاف عصورها وتباعد مدارس أصحابها الأدبيّة، سيجعل من السهل، للحاذق وللمبتدئ على السواء، أن يشير إليها حالاً بإصبعه ليقول، بثقةٍ متناهية: هذه آية[2].

ومعظم ألفاظه لا يتكرّر:

وهذه الظاهرة لا تقتصر على السبائك وحدها. إنّ إحصاءً سريعاً للألفاظ في أيّة صفحةٍ من صفحات (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) تؤكّد لنا بجلاءٍ أنّ معظم ألفاظ القرآن (ما يقرب من الثلثين)، وليس قوالبه التعبيريّة أو

---

(2) أصحاب هذه الجمل هم على الترتيب: ابن المقفّع (ابن المقفّع، عبد الله. **كليلة ودمنة**. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1987، ص68)، وابن حزم (ابن حزم الأندلسيّ. **طوق الحمامة في الألفة والألّاف**. تحقيق إحسان عبّاس. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993، ص216)، وطه حسين (حسين، طه. **في الأدب الجاهليّ**. القاهرة: دار المعارف، 2001، ص315)، والمعرّي (المعرّي، أبو العلاء. **رسائل أبي العلاء المعرّي**. تحقيق عبد الكريم خليفة. عمّان: اللجنة الأردنيّة للتعريب والترجمة والنشر، 1978، ج3، ص587)، والرافعيّ (**وحي القلم**، ج1، ص16).

سبائكه فحسب، يقتصر ورودها فيه على مرّةٍ واحدة، وهي ظاهرةٌ لغويّةٌ أخرى لا يمكن أن تجدها في كتابٍ بشريٍّ من هذا الحجم على الإطلاق[3].

خذ مثلاً، ودفعاً للانتقائيّة، الصفحة 300 في منتصف هذا المعجم[4] وهي في باب حرف الخاء، وأحصِ الألفاظ التي وردت فيها، فستجد الألفاظ التالية، وقد رتّبتُها هنا ترتيباً تصاعديّاً تبعاً لأرقام تكرارها:

- 16 كلمةً يقتصر ورودها في القرآن على مرّةٍ واحدة: تُخْفوها - نُخْفي - يُخْفِيْنَ - أُخْفِيَ - لِيَستَخْفُوا - خَفِيّ - خَفِيّاً - وأَخْفَى - خافِيَة - مُسْتَخْفٍ - تَخْلُدون - يَخْلُد - أَخْلَدَ - أَخْلَدَه - خالِد - خالِدَين (بالتثنية)
- 3 كلمات ترد في القرآن مرّتين: يُخْفُون - يَسْتَخْفُون - خُفْيَة.
- كلمتان تردان في القرآن 3 مرّات: تُخْفي - خالداً.
- كلمةٌ واحدةٌ ترد في القرآن 6 مرّات: الخُلْد.
- كلمةٌ واحدةٌ ترد في القرآن 25 مرّة: خالِدون.

وهذا يعني أنّ 16 كلمةً من أصل 23 كلمةً وردت في هذه الصفحة لن تجدها في القرآن إلّا مرّةً واحدة، وقس على ذلك معظم بقيّة صفحات المعجم، يُستثنى منها تلك الصفحات التي خُصّصت لألفاظٍ بدهيٌّ أن تتكرّر كثيراً في القرآن مثل: (الله، ربّ، آمنوا، جنّة، جهنّم، قال، قلْ..) فقد تملأ واحدةٌ منها عدّة صفحاتٍ متتاليةٍ من المُعجم.

كثافة السبائك القرآنيّة المتفرّدة:

والغريب، بل المعجِز حقّاً، أنّ السبائك القرآنيّة التي لا تتكرّر أكثرُ من

---

(3) هذا النوع من المعاجم يساعدك في التعرّف على موضع كلّ آيةٍ في القرآن، وفي أيّة سورةٍ هي، إذا تذكّرت كلمةً واحدةً من هذه الآية، فتجد الآية في باب الحرف الأوّل من هذه الكلمة. كما تساعدك هذه المعاجم في معرفة عدد تكرار أيّ لفظٍ في القرآن، وتكرار مشتقّاته، ومواقع ورودها.

(4) عبد الباقي، محمّد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. القاهرة: دار الحديث، 1988.

أن تُحصى، وما أسهل أن نضع أيدينا على عددٍ كبيرٍ منها في كلّ صفحةٍ من صفحات الكتاب الكريم.

ولكي تكون أحكامنا موضوعيّةً وغير انتقائيّة، نتوقّف عند أوّل صفحةٍ كاملةٍ من القرآن، وهي تضمّ، في معظم طبعات المصحف المتداولة، الآيات 6 - 16 من سورة (البقرة)، لنتبيّن كثافة السبائك القرآنيّة وتنوّعها فيها.

إنّ من السهل علينا أن نعثر، في هذه الصفحة وحدها، على ثلاثٍ وعشرين سبيكةً على الأقلّ، لكلٍّ منها بناءٌ مختلفٌ ومستقلٌّ، ليس عن السبائك العربيّة، الشعريّة والنثريّة، أو عن سبائك الحديث النبويّ، فحسب، بل عن السبائك الأخرى في الصفحة ذاتها أيضاً. وسنرى أنّها، إلى جانب تفرّدها وتميّزها، ومع التأثير اللغويّ للقرآن في لغتنا واجتذاب أسلوبه الرفيع لأقلام كتّابنا، ظلّ معظمها حتّى اليوم خاصّاً بالتعبير القرآنيّ دون التعبير البشريّ، ولن نجده في أيّة لغةٍ أدبيّةٍ أخرى على مرّ العصور:

1 - ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتَهم أم لم تُنذرْهمْ لا يؤمنون﴾

2 - ﴿ولهمْ عذابٌ عظيم ﴾

3 - ﴿ومِنَ الناسِ من يقولُ آمنّا﴾

4 - ﴿وما همْ بمؤمنين﴾

5 - ﴿وما يَخدعون إلا أنفسَهم وما يَشعرون﴾

6 - ﴿في قلوبِهم مرضٌ فزادهمُ اللهُ مرضاً﴾

7 - ﴿ولهمْ عذابٌ أليمٌ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 2)

8 - ﴿بما كانوا يَكذِبون﴾

9 - ﴿وإذا قيل لهم لا تُفسِدوا في الأرض﴾

10 - ﴿إنّما نحن مُصْلِحون﴾

11 - ﴿ألا إنّهمْ همُ المفسِدون﴾

12 - ﴿ولكنْ لا يشعُرون﴾

13 - ﴿وإذا قيلَ لهمْ آمِنوا كما آمَنَ الناس﴾

14 - ﴿قالوا أنؤمِنُ كما آمنَ السفهاء﴾

15 - ﴿ألا إنّهمْ همُ السفهاءُ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 11)

16 - ﴿ولكنْ لا يَعلمون﴾ (تكرار للسبيكة رقم 12)

17 - ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنّا﴾

18 - ﴿وإذا خَلَوا إلى شياطينِهم﴾

19 - ﴿إنّما نحن مستهزئون﴾ (تكرار للسبيكة رقم 10)

20 - ﴿اللهُ يستهزئُ بهمْ﴾

21 - ﴿ويَمدُّهم في طغيانِهم يَعمَهون﴾

22 - ﴿أولئك الذين اشترَوا الضَلالةَ بالهُدَى﴾

23 - ﴿وما كانوا مُهتدين﴾[5].

إنّ هناك أربع سبائك فحسب تكرّرت مرّتين دون بقيّة السبائك، ولكنّ السبائك الثلاث والعشرين جميعاً هي سبائك قرآنيّةٌ لا تشبه أيّاً من سبائكنا اللغويّة البشريّة، أو سبائك الحديث النبويّ.

فكيف واجه العرب الجاهليّون هذه العاصفة التعبيريّة التي هبّت عليهم من مكّة؟ وفي أيّ موقعٍ وقفت لغة القرآن الكريم بإزاء تلك المؤسّسة اللغويّة الضخمة التي ازدهرت فجأةً، وفي زمنٍ قياسيّ، قبل الإسلام؟ كيف ستكون ردّة فعل العرب، الذين اعتادوا أن يبيعوا ويشتروا في سوقٍ لغويّةٍ لا تعرف إلّا بضع عشراتٍ، أو مئاتٍ، من السبائك الأساسيّة التقليديّة المتكرّرة، وهم يواجهون على حين غرّةٍ كتاباً مرصوصاً بآلاف السبائك الجديدة التي لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم من قبل، ثمّ لن يَعرفاها من بَعد؟

ولنحاول أن نقرّب الصورة أكثر. كم نوعاً من الحجارة نستعمل الآن في بناء بيوتنا؟ خمسة؟ عشرة؟ عشرين؟ خمسين على الأكثر؟ ماذا لو أُغرِق السوق فجأةً بعشرة آلافِ نوعٍ جديدٍ من الحجارة لا تمتّ بصِلةٍ إلى أيٍّ من

---

(5) الآيات 6-16 من سورة البقرة.

الأنواع القليلة التقليديّة؟ ماذا سيحدث لتجّار البناء وللبنّائين وللناس جميعاً حين يقفون حائرين أمام هذه الآلاف من الأنواع الجديدة للحجارة، وهم لا يملكون في متاجرهم وورشاتهم وبيوتهم وتصميماتهم إلّا تلك الأنواع القديمة المحدودة؟

بل ماذا سيفعل مهندسو البناء وهم ينظرون بحسرةٍ إلى هذه الحجارة الجديدة، وعلومُهم الهندسيّة، بقواعدها الكثيرة المتوارثة، غير قادرةٍ على استيعابها، ومخطّطاتهم عاجزةٌ عن استخدامها في الأبنية التي غدوا الآن يحلمون في بنائها وإقامة جدرانها بها؟

هذا ما سيحاول الفصل التالي البحثَ عن إجابةٍ عنه.

الفصل الثالث

بين السبيكة القرآنيّة والنبويّة والبشريّة

فاجأ القرآن الكريم العرب بقوالبه اللغويّة الجديدة وفتح أمامهم البابَ على مصراعيه للتفكير باستحداث قوالب جديدة، ولإخصاب خيالهم للبحث عن هياكل جديدةٍ للتعبير، بعد أن أحدث في نفوسهم تلك الهزّة التي زلزلت أعرافهم اللغويّة والبيانيّة والنحويّة، وفتّتت سبائكهم التعبيريّة المتوارَثة، ولكن من غير أن يعني هذا، تمكُّنَ العرب من تقليد السبائك القرآنيّة نفسها أو النسج على منوالها.

لقد كانت السبائك الجديدة قوالب لغويّةً خاصّةً بالقرآن، وبإمكان أيٍّ عربيٍّ، مهما يكن مستواه اللغويّ، أن يدرك بسهولةٍ قرآنيّةَ تلك السبائك وتميُّزها عن أيّة سبائك لغويّةٍ أخرى كما سبق أن بيّنّا.

ألا نستطيع أن نحكم حال سماعنا لهذه السبائك بأنّها عباراتٌ قرآنيّة؟ هل يمكن أن نخلط مثلاً بينها وبين عباراتٍ للحجّاج أو الجاحظ أو بديع الزمان الهمذانيّ، أو حتّى بينها وبين لغة الرسول ﷺ؟

قد نخلط مثلاً، نحن الدارسين، بين بعض الحديث الشريف وبعض أقوال الصحابة، ولا سيّما الخلفاء الراشدين، ومع تأثّر الحديث الشريف بلغة القرآن الكريم، وتضمُّن كثيرٍ من الأحاديث النبويّة لآياتٍ أو أجزاءٍ من آيات في سياقها، فإنه يصعب أن نخلط -إن حدث مطلقاً- بين الحديث الشريف والقرآن الكريم، بل إنّ من السهل على الدارس المتمكّن أن يميّز بين الحديث القُدسيّ والحديث النبويّ العاديّ، فلكلٍّ منهما أسلوبه المختلف أيضاً، دعك من احتمال الخلط بين كلام الله تعالى وأسلوب أيّ كاتبٍ بالعربيّة على مدى

أربعة عشر قرناً من تاريخ النثر العربيّ. إنّ هذا أبعد ما يكون عن الحدوث.

بين السبيكة القرآنيّة والسبيكة البشريّة:

حتّى نثبت وجود الحاجز الصلب والمرتفع بين السبيكة البشريّة والسبيكة الإلهيّة، الذي يقف حائلاً دون تداخل السبيكتين مهما أمعنّا في المحاولات، سنقترح موازياً بشريّاً للسبائك القرآنيّة الثلاث والعشرين من سورة (البقرة) التي وقفنا عندها في الفصل السابق. ولن تكون هذه الموازِيات هي وحدها الشكل البشريّ البديل المحتمل، وإنّما هي مجرّد نموذجٍ يمثّل أسلوب الكاتب، فلكلٍّ منّا نحن البشر أسلوبه المختلف، و"الأسلوب هو الرجل" تبعاً للنظريّة النقديّة السائرة.

لقد رتّبنا عباراتنا المقترحة حسب ترتيب السبائك المذكورة نفسه كي يسهل على القارئ ملاحظةُ الفروق بين الأسلوب القرآنيّ والأسلوب البشريّ في كلّ سبيكة، من غير أن نخوض هنا في تحليل كل آيةٍ لإظهار صياغتها اللغويّة الخاصّة وخصوصيّتها النحويّة المختلفة عن لغتنا البشريّة، فهذا ما سنطبّقه في القسم الثاني من البحث عندما نتحدّث عن السبائك القرآنيّة في كلّ سورةٍ من السور المدروسة فيه.

هذه هي الآن العبارات البشريّة المقترحة؛ والموازية لسبائك الصفحة الأولى من القرآن الكريم:

1 - إنّ إنذارك لهم أو عدمَه سيّان فإنّهم لن يؤمنوا على أيّة حال

2 - وسوف نعذّبُهم بشدّة

3 - يدّعي بعضُ الناسِ أنّهم آمَنوا

4 - والحقيقة أنهم لم يؤمنوا

5 - والحقيقة أنّهم يخدعون أنفسَهم من غير أن يدركوا ذلك

6 - فزاد اللهُ مرضَهم

7 - وسوف نعذّبُهم بشدّة

8 - جزاءَ كذِبِهم

9 - وإذا طُلب منهم ألّا يخرّبوا عيش الناس

10 - رَدّوا بأنّهم لا يُخرّبون بل يُصلحون

11 - ولكنّهم في الحقيقة مخرّبون

12 - من غير أن يدرِكوا ذلك

13 - وإذا طُلِبَ منهم أن يصدّقوا الرسولَ كالآخَرين

14 - رَدّوا بأنّ الحمقى وحدهم هم الذين صدّقوه

15 - ولكنّهم في الحقيقة هم الحمقى

16 - وهم لا يُدركون ذلك

17 - إنّهم يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين

18 - ولكنّهم إذا انفردوا بأصحابهم من الكفّار

19 - أكّدوا لهم أنّهم ما زالوا معهم وأنّهم في الحقيقة يَسخَرون من المؤمنين

20 - والواقع أنّ اللهَ هو الذي يستهزئ بهم

21 - وهو سيتركهم يتمادَون في غيّهم فلا يُبصرون الحقيقة

22 - إنّهم فضّلوا الكفرَ على الإيمان

23 - ولن يُسْلِموا أبداً مهما فعلتَ من أجلهم

إنّ من المهمّ جدّاً، ونحن نراقب الفروق بين الأصل القرآنيّ والموازي البشريّ، أن نحافظ في أذهاننا على السياق الذي وردت فيه السبيكة القرآنيّة كما هو في السورة قبل إجراء أيّة مقارنة.

فمن المحتمل أن يعترض أحدنا قائلاً: وماذا في السبيكة رقم 20 "اللهُ يستهزئُ بهم" من خصوصيّة؟ أليس في لغتنا البشريّة العاديّة عباراتٌ كثيرةٌ على نمطها؟ ألا نقول مثلاً: الأشرار يستهزئون بنا، الناجح يسخر بالمخفق، الابن يقتدي بأبيه؟ أين هي تلك الخصوصيّة التي تتحدّث عنها؟

هذا الاعتراض يمكن أن يواجهنا باستمرار إذا نزعنا الآية من سياقها

العامّ. وبإمكاننا ملاحظة الفرق بين حكمنا على السبيكة المذكورة منعزلةً عن سياقها؛ وحكمنا عليها وهي في هذا السياق للتأكّد من تلك الحقيقة.

إنّها في سياقها ليست مجرّد (الله يستهزئ بهم) وإنّما جاءت ضمن سياقٍ أكسبها معاني أخرى إضافيّة، بحيث كان علينا، لإيجاد موازٍ بشريٍّ لها، أن نعيد الجزء البشريّ المفقود منها فنقول: إنّما نحن مستهزئون [بالمؤمنين. ولكنّهم لا يدركون أنّ] اللهَ [في الحقيقة هو الذي] يستهزئ بهم. فالعبارة البشريّة لا تستغني عن تلك الأجزاء المضافة إذا أريد لها أن تُفهم على نحو كاملٍ وصحيح، مع أنّ السبيكة القرآنيّة لم تكن محتاجةً، بتركيبتها الإلهيّة الخاصّة، إلى مثل هذه الإضافات التوضيحيّة، وهنا يكمن بعض أسرار خصوصيّتها.

طبيعة السبيكة القرآنيّة وتركيبتها:

إنّ التفرّد القرآنيّ في كلا السبيكة واللفظة معاً، ثمّ في علاقات الألفاظ، وعلاقات التراكيب والعبارات بعضها ببعض، يبني لغةً مميّزةً يصعب حتّى على القارئ العاديّ أن يخلط بينها وبين الأساليب البشريّة المعروفة.

ولْنَخُضِ الآن تجربةً عمليّةً تؤكّد لنا هذا الكلام النظريّ.

سنطرح أمامنا على الطاولة عشر جملٍ، واحدةٌ منها فقط جملةٌ قرآنيّة، وقد أُخِذتْ معاني الجمل التسع الأخرى من القرآن مع الحفاظ على أبنيتها القرآنيّة؛ أي على وزن السبيكة العروضيّ والنحويّ كما هو في أصلها القرآنيّ، ولكن مع تغيير كلماتها. لقد حاولنا أن نصوغها موازيةً في بنائها اللغويّ للسبائك القرآنيّة، بحيث تزداد فرص التباسها مع تلك السبائك على القارئ، بنائيّاً في بعض أجزائها، أو لفظيّاً في أجزاءٍ أخرى، فلم نجعل الفجوة بعيدةً بين كلٍّ من الجُمل البشريّة التسع والجملة القرآنيّة التي سرّبناها بينها، من ناحية، ثمّ بين الجمل التسع وبين الآيات القرآنية التسع التي ضمّنّا هذه الجملَ معانيها، من ناحيةٍ أخرى.

إنّنا، باختصار، ألبسنا السبائك أو القوالب القرآنيّة الأصليّة ألفاظاً من

عندنا، كما هو ديدن أولئك الذين يحاولون في كلّ عصرٍ ومَصرٍ أن يضعوا سُوَراً مفترَياتٍ مِن عندهم ويُدخلون فيها من المعاني ما شاءت لهم شياطينهم.

وليختبر كلٌّ منّا مهاراته اللغويّة ويحاول أن يضع يده على الجملة القرآنيّة الحقيقيّة بين الجمل العشر، وأنا واثقٌ من أنّ معظمنا سيكتشفها بسرعة، وربّما بسهولةٍ لم يكن يتوقّعها.

هل أنتم جاهزون؟ إذن لنبدأ العدّ ليعرف كلٌّ منّا كم من الثواني احتاج لاكتشاف الجملة القرآنيّة:

1 - وكُشِفَتِ الحقيقةُ أخيراً

2 - وخُلِقَ ابنُ آدمَ جباناً

3 - وجُعِلَتِ الأرضُ مُسَطّحةً

4 - وطُبِعَ المرءُ مُجادِلاً

5 - ونُصِبَتِ الجبالُ مرتفعَةً

6 - ورُفِعَتِ السماءُ عالياً

7 - وجُعِلَ يومُ السبتِ مقدَّساً

8 - ودُكَّتِ المدائنُ دكّاً

9 - وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً

10 - وقُتِلَتِ الموؤودةُ ظُلماً

هه؟ هل وضعنا أيدينا على الجملة القرآنيّة الحقيقيّة بين هذه الجمل العشر التي أُخذتْ معانيها، وكذلك معظم ألفاظها، من القرآن الكريم؟ الأسرع بيننا هو الأكثر خبرةً بلغة القرآن، حتّى إن لم يكن يستظهر من القرآن آيةً واحدة.

ولكن السؤال الصعب، والذي لن يقف له إلّا قلّةٌ قليلة بيننا، هو: كيف اهتدينا، بالبرهان العلميّ، وبعيداً عن ذواكرنا ومحفوظاتنا، إلى الجملة القرآنيّة الحقيقيّة فميّزناها عن الجمل البشريّة التسع؟

طبعاً الجواب الذي سيكون جاهزاً على ألسنتنا جميعاً هو: الأمر واضح: بالسليقة والخبرة..

نعم هذا صحيح، ولكن من أين أتينا بهذه السليقة؟ وهل نستطيع أن نصفها ونجسّمها ونضع لها قواعد مادّيةً علميّةً تساعدنا على التأكّد من صحّة أحكامنا، وتُجنّبنا، وبشكلٍ علميّ، الخلطَ بين اللغة القرآنيّة واللغة البشريّة؟

قد يكون من السهل مثلاً، لو خانتنا هذه السليقة، أن نخلط بين الجمل التسع السابقة، وبين الجمل القرآنيّة الحقيقيّة التي أخذناها منها، وهذه هي الآيات، مع الحفاظ في ترتيبها على ترتيب الجمل السابقة نفسه:

1 - ﴿الآن حَصحَصَ الحقُّ﴾ [يوسف: 51]

2 - ﴿إنّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعا﴾ [المعارج: 19]

3 - ﴿وإلى الأرضِ كيف سُطِحَت﴾ [الغاشية: 20]

4 - ﴿وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلا﴾ [الكهف: 54]

5 - ﴿وإلى الجبالِ كيف نُصِبَت﴾ [الغاشية: 19]

6 - ﴿وإلى السماءِ كيفَ رُفِعَت﴾ [الغاشية: 18]

7 - ﴿إنّما جُعِل السبتُ على الذين اختَلفوا فيه﴾ [النحل: 124]

8 - ﴿كلّا إذا دُكَّتِ الأرضُ دكّاً دَكّاً﴾ [الفجر: 21]

10 - ﴿وإذا الموؤودةُ سُئلَتْ. بأيِّ ذنْبٍ قُتِلتْ﴾ [التكوير: 8-9]

أنا لم أُفوّت الآية رقم 9 سهواً، لأن الآية موجودةٌ في المجموعة الأولى وقد اختلطت بالجمل البشرية التسع، فجاءت بينها تحت الرقم نفسه:

9 - ﴿وخُلقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾ [النساء: 28]

إنّ ما يجعلنا نميّز بين الجملة القرآنيّة والجملة البشرية، ليس هو بالضرورة الألفاظَ القرآنيّة المتفرّدة وحدها، ولا التركيبات التي قامت عليها، ولا الإيقاع البلاغيّ المتناسق الذي يلفّها، ولا الصور القرآنيّة الجديدة التي

أدهشتنا، ولا المعاني الإلهيّة الجادّة المتميّزة، بحكمتها ووقارها وأزليّتها واستعلائها عن معاني البشر وصفاتهم، ولا الخطاب السماويّ المتفرّد، القادر كلّ القدرة، والواثق كلّ الثقة، والمتمكّن والمُخبِر والآمر والناهي والمتعالي عن الروح الإنسانيّة الضعيفة، ليس كلّ هذا فحسب، فهناك، إلى جانب ذلك كلّه، السَبْكَ الذي يجمع بين كلّ هذه العناصر، فيضمّ بعضَها إلى بعض، ليخرج منها بوحداتٍ لغويّةٍ صغيرة، قد تكوّن جملةً أو أكثر من جملةٍ، بحيث إنّها لو اختلطت مع آلاف الجمل البشريّة لأعرب بناؤها عن نفسه، ونَطق بقرآنيّتها خصوصيّةُ ألفاظها وعباراتها وبلاغتها وإيقاعها:

1 - فجملتنا الأولى لا ينبغي لها أن تكون جملةً قرآنيّةً لأنّ بناءها النحويّ بناءٌ غير قرآنيٍّ مع أنّنا حاولنا تقريبه من البناء القرآنيّ. ولو استعرنا من الخليل بن أحمد موازينه العروضيّة، مع تبديل وحدته القياسيّة المشهورة (فَعَلَ) بوحدةٍ أخرى هي (عَمِلَ)، اتّقاءً لشبهة الخلط بين لغة القرآن ولغة الشعر كما سبق أن ذكرنا، لكانت تركيبة بنائها، النحويّة وليس العَروضيّة، هكذا: (وعُمِلَتِ العَميلةُ عَميلاً). حتّى لو استعرنا لها البناء القرآنيّ فسوف تفضحها ألفاظها البشريّة الثلاثة جميعاً:

إنّ اللفظ (كُشِفتْ) تَرد اشتقاقاتُه في القرآن (20) مرة، ولكن ليس هكذا بالماضي المجهول، وأقرب أشكاله القرآنيّة إلى جملتنا البشريّة هو حين أتى في صيغة المضارع المبنيّ للمجهول في قوله تعالى:

- ﴿يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَونَ إلى السجودِ فلا يستطيعون﴾ [القلم: 42]

ثم حين أتى في صيغة الماضي، ولكن مبنيّاً للمعلوم، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿فلمّا رأتْه حسِبَتْه لُجّةً وكَشَفتْ عن ساقَيها﴾ [النمل: 44]

ولن نجده في القرآن أبداً في صيغة الماضي المبنيّ للمجهول كما هو في جملتنا البشريّة.

ثمّ إنّ لفظ (الحقيقة) - مع اتّساع تداوله في لغتنا البشريّة - ليس لفظاً

قرآنيّاً، مع ورود مشتقّات جذره في القرآن (287) مرّة، وأقرب الألفاظ القرآنيّة إليه اللفظ (حقيق) واللفظ (حقّ) ونجدهما معاً في قوله تعالى:

- ﴿حقيقٌ عليّ ألّا أقولَ على الله إلّا الحقّ﴾ [الأعراف: 105]

أمّا اللفظ (أخيراً) - مع سعة انتشاره في لغتنا البشريّة أيضاً - فلا وجود له في القرآن، مع ورود مشتقّات جذره فيه (248) مرّة.

2 - والجملة الثانية لا يمكن أن تكون قرآنيّةً، مع أنّنا استعرنا لها بناءً قرآنيّاً وميزانه: (وعُمِل العاملُ - أو ابنُ العاملِ - عاملاً). والسبب أنّ (ابن آدم) - هكذا بالإفراد - ليس استعمالاً قرآنيّاً، وإنما نجده في القرآن بصيغة الجمع (بني آدم)، ونجده مرةً واحدةً بغير الجمع، ولكنْ في صيغة المثنى:

- ﴿واتلُ عليهم نبأ ابنَيْ آدمَ بالحقّ إذْ قَرّبا قُرباناً﴾ [المائدة: 27]

على حين نجد أن صيغة المفرد هذه تكثر في الحديث الشريف، ولا سيّما في القدسيّ منه "يا ابن آدم..". فضلاً عن أنّ اللفظ (جباناً) لا وجود له أو لأيٍّ من اشتقاقاته في القرآن الكريم.

3 - ولا يمكن للجملة الثالثة أن تكون قرآنيّةً لأنّ المرّة الوحيدة التي ورد فيها الفعل (جُعِلَ) في القرآن، هكذا ماضياً مبنيّاً للمجهول، لم يأخذ مفعولاً ثانياً ظاهراً - مع ورود اشتقاقاته في القرآن (346) مرّة - كما يتّضح لنا في آية سورة (النحل) - الآية السابعة في قائمتنا -. ولكنّه في جملتنا البشريّة يتعدّى، كما نرى، إلى مفعولٍ ثانٍ ظاهرٍ (مسطّحةً). ويكثر مثل هذا الاستعمال في لغة الحديث الشريف "جُعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً" ولكنّه ينعدم تماماً في القرآن الكريم.

ثمّ إنّ اللفظ (مسطّحةً) لفظٌ غير قرآنيّ، فلا وجود له أو لاشتقاقاته في القرآن، فيما عدا مرةً واحدةً ورد فيها فعلاً ماضياً مبنيّاً للمجهول (سُطِحَتْ) وذلك في آية سورة (الغاشية) التي تقابل هذه الجملة (الآية الثالثة).

4 - والجملة الرابعة لا يمكن لها أن تكون قرآنيّة. فمع وجود الفعل

(طُبع) 11 مرّةً في القرآن - هكذا مبنيّاً للمجهول، وأحياناً مبنيّاً للمعلوم - فإنّه، خلافاً لما في هذه الجملة، يتعدّى في القرآن دائماً بالأداة (على) ثمّ تكون التعدية في هذه الحالات جميعاً، ومن غير استثناء، إلى لفظ (قلوب) بالتحديد، كما في قوله تعالى:

- ﴿وطَبَعَ اللهُ على قلوبِهم فهم لا يعلمون﴾ [التوبة: 93]

- ﴿كذلكَ نطبَعُ على قلوبِ المعتدين﴾ [يونس: 74]

- ﴿ذلك بأنّهم آمنوا ثمّ كفروا فطُبِعَ على قلوبِهم فهم لا يفقهون﴾ [المنافقون: 3]

وترِد مشتقّات اللفظ (مُجادِلاً) في القرآن الكريم (29) مرةً ولكنّنا لا نجده في صيغة الصفة المشبّهة هذه أبداً، فهو إذن، مرةً أخرى، خارجٌ عن الألفاظ القرآنيّة.

5 - إنّ كُلّاً من اللفظين (نُصِبت) و(الجبال) في هذه الجملة قرآنيّ، ولكنّ اللفظ (مرتفعة) بصيغة الصفة المشبّهة هذه ليس في القرآن - مع سعة استعماله في لغتنا البشريّة - وإنّما نجده فيه على صيغة اسم المفعول (مرفوعة) كما في قوله تعالى:

- ﴿وفُرُشٍ مرفوعة﴾ [الواقعة: 34]

- ﴿في صُحُفٍ مكرّمة. مرفوعةٍ مطهّرة﴾ [عبس: 14]

- ﴿فيها سُرُرٌ مرفوعة﴾ [الغاشية: 13]

6 - لقد استعير بناء هذه الجملة من القرآن، فهي سبيكةٌ ذات ميزانٍ قرآنيّ، والألفاظ الثلاثة فيها قرآنيّةٌ أيضاً، ولكنّ اللفظ (عالياً) سيُفسد كلّ شيء. إنّه يَرِد حقّاً في القرآن، مرّة واحدة، ولكنّه في هذا الاستعمال الوحيد يأتي حاملاً معنىً قرآنيّاً خاصّاً وهو (متكبّراً) يختلف عن كلّ المعاني البشريّة المعروفة له، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿من فرعونَ إنّه كان عالياً من المسرفين﴾ [الدخان: 31]

7 - هذه السبيكة قرآنيةٌ (وعُمِلَ عَمَلُ العمَلِ عاملاً)، وكذلك ألفاظها جميعاً، ولكن ليس مائةً بالمائة. فالألفاظ (جُعِل) و(يوم) و(السبت) و(مقدَّس)

كلّها قرآنيّ، كما نتبيّن من ورود اللفظين الأول والثالث في آية سورة (النحل) المقابلة لهذه الجملة (الآية السابعة) وكذلك من ورود اللفظ الرابع في قوله تعالى:

- ﴿إذ ناداه ربُّه في الوادِ المقدَّسِ طُوى﴾ [النازعات: 16]

ولكنّ اللفظ (جُعِل) تعدّى في الجملة إلى المفعول (مقدَّساً) بنفسه، خلافاً للاستعمال القرآني حيث يتعدّى بحرف الجرّ (على) كما هو واضح.

أما التركيب (يوم السبت) فليس قرآنيّاً، مع قرآنيّة اللفظين فيه. فنحن نقول: حدث يومَ الأربعاء، وحُدِّد يومُ الخميس، واحتفلنا يومَ الجمعة، أمّا القرآن فيُسقط عادةً اللفظ (يوم) كما رأينا في آية سورة (النحل)، وكما في الآيات الآتية:

- ﴿ولقد علمتمُ الذين اعتدَوا منكم في السبت﴾ [البقرة: 65]
- ﴿وقُلنا لهم لا تَعْدُوا في السبت﴾ [النساء: 154]
- ﴿إذ يَعْدون في السبت﴾ [الأعراف: 163]

فإذا حدث أن أبقى القرآن على اللفظ (يوم) فلا بدّ أن تَسبقه فيه الأداة (مِن) كما في قوله تعالى:

- ﴿يا أيّها الذين آمنوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِن يومِ الجُمُعةِ فاسعَوا إلى ذكرِ الله﴾ [الجمعة: 9]

أو يتجرّد فيه من (ال) ولكن يضاف بدلاً من ذلك إلى ضمير، كما في قوله تعالى:

- ﴿إذ تأتيهمْ حيتانُهمْ يومَ سبتِهم شُرّعاً﴾ [الأعراف: 163]

خلافاً للاستعمال النبويّ الذي يوافق غالباً استعمالاتنا لهذا الظرف، كما في الأحاديث الشريفة التالية:

- الغُسْلُ يومَ الجُمُعةِ واجبٌ على كلِّ مُحتلِم..

- إذا كان يومُ الجُمُعةِ وقفتِ الملائكةُ على بابِ المسجدِ يكتبون الأوّلَ فالأوّل. .

- "خَلَقَ اللهُ عزّ وجلّ التُربةَ يومَ السبت، وخلق منها الجبالَ يومَ الأحد، وخلقَ الشجرَ يومَ الإثنين، وخلقَ المكروهَ يومَ الثُلاثاء، وخلقَ النورَ يومَ الأربعاء، وبَثَّ فيها الدوابَّ يوم الخميس، وخلقَ آدمَ (عليه السلام) بعد العصرِ مِن يومِ الجُمعة. . ".

أمّا اللفظ (مقدّس) فلا يأتي في القرآن نكرةً قطّ، كما حدث في جملتنا؛ إذ لا بدّ من تعريفه بـ(ال)، كما في سورة (النازعات): (بالوادِ المقدّس)، ثمّ إنّه لا يأتي مفعولاً ثانياً كما حدث في جملتنا أيضاً.

8 - وهذه الجملة هي أيضاً قريبةٌ من السبائك الأخرى في المجموعة، التي صيغت قريبةً جدّاً من إحدى السبائك القرآنيّة (وعُمِلَ العملُ عملاً) وتتّفق بألفاظها الثلاثة (دُكّت) و(المدائن) و(دكّا) مع الألفاظ القرآنيّة، ولكنّ هذا غير كافٍ ليجعل منها سبيكةً قرآنية.

إنّ الفعل (دُكّت) يرِد مرّتين في القرآن، ولكنه يأتي عادةً إمّا مسبوقاً بظرف، كما في آية سورة (الفجر) المقابلة لهذه الجملة (الآية الثامنة)، وإمّا مثنّىً ومعطوفاً على فعلٍ قبله كما في الآية الأخرى:

- ﴿وحُمِلتِ الأرضُ والجبالُ فدُكّتا دكّةً واحدة﴾ [الحاقّة: 14]

أمّا اللفظ (مدائن) ففي المرّات الثلاث التي ورد فيها في القرآن جاء مسبوقاً بحرف الجرّ (في) مع تعليق الجارّ والمجرور بحالٍ متأخّرةٍ عنهما، أو، في إعرابٍ آخر، بالفعل الذي سبقهما، كقوله تعالى:

- ﴿قالوا أرجِهْ وأخاه وأرسِل في المدائنِ حاشرين﴾ [الأعراف: 111]

- ﴿فأرسل فرعونُ في المدائنِ حاشرين﴾ [الشعراء: 53]

فاللفظ (حاشرين) في كلتا الآيتين حالٌ من الفعل (أرسل)، وقد تعلّق به الجارّ والمجرور (في المدائن) أو ربّما تعلّقا بالفعل (أرسل) نفسِه، وهذا يخالف تماماً الوضع النحويّ للّفظ في جملتنا البشريّة.

10 - هذه الجملة الأخيرة هي أيضاً قرآنيّة الألفاظ كلّياً، ولكنّ المواقع النحويّة لهذه الألفاظ تختلف في جملتنا عن مواقعها في الجملة القرآنيّة.

فالفعل المؤنّث (قُتِلَتْ) المبنيّ للمجهول لا تُفتتح به الجملةُ القرآنيّة، مثلما حدث هنا، بل تُختَتم به، كما في آية سورة (التكوير) المقابلة لجملتنا هذه (الآية العاشرة) وهي الآية الوحيدة في القرآن التي ضمّت هذا الفعل.

ومن الواضح أنّ لفظ (الموؤودة) - وهو لا يتكرر مرةً أخرى في القرآن - جاء في الآية نائبَ فاعلٍ لفعلٍ محذوفٍ يفسّره الفعل الذي بعده (سُئِلَت)، شأن أيّ اسمٍ يأتي بعد (إذا)، على حين جاء في جملتنا نائب فاعلٍ لفعلٍ سبقه، وهو (قُتِلت). وهذا يبرز الفرق بين استعمالنا البشريّ والاستعمال القرآنيّ.

أما اللفظ (ظلماً) فأمره أكثر تعقيداً من اللفظين السابقين. إنّه في المرّتين اللتين جاء فيهما مفعولاً لأجله في القرآن، كما هو في جملتنا أيضاً، جاء بعد فعلٍ مضارعٍ وليس بعد فعلٍ ماضٍ كما وقع في جملتنا، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿إنّ الذين يأكلون أموالَ اليتامي ظُلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ [النساء: 10]

- ﴿ومن يفعلْ ذلك عدواناً وظلماً فسوف نُصليه ناراً﴾ [النساء: 30]

وفي المرّة الوحيدة التي ورد فيها اللفظ في القرآن بعد ماضٍ، كان هذا الماضي مبنيّاً للمعلوم (جَحدوا ظلماً) وليس مبنيّاً للمجهول كما هو الحال في جملتنا، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿وجحَدوا بها واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلوّاً﴾ [النمل: 14]

التركيبة الإيقاعيّة للسبيكة:

ماذا لو لم نستخدم ألفاظنا البشريّة مطلقاً عند محاولتنا تعديل هذه السبائك، فاكتفينا عند تبديل أيّ لفظٍ من ألفاظ الآيات باستخدام ألفاظٍ قرآنيّةٍ أيضاً، ولكنّها وردت في آياتٍ غير هذه الآيات وسياقاتٍ غير هذه السياقات؟ فهل سنخرج بأحكامٍ شبيهةٍ بالأحكام السابقة؟

وحتّى لا تتأثّر موضوعيّة أحكامنا بذاكرتنا القرآنيّة، وقد شكّلتها قراءتنا المستمرّة للكتاب الكريم وتعايشُنا معه وحِفظُنا لآياته وسوَره، لا بدّ أن نجاهد أوّلاً في إبعاد ظلّ هذه الذاكرة عن دائرة تحليلنا للتخفيف ما أمكن من قوّة نفوذها على توجيه أحكامنا.

فهل سنشعر، وقد حلّ لفظٌ آخر في الآية محلّ اللفظ الأصليّ، مع أنّ اللفظ البديل هو قرآنيٌّ أيضاً، أنّ خلخلةً ما قد طرأت على الآية؟ وهل ستنتفض الأذن المرهفة احتجاجاً، وتستشعر النفس الذوّاقة للغة السماء إحباطاً وقلقاً للتغيير غير المريح الذي طرأ على لغة الآيات، وللالتواءات الناشزة التي ظهرت في المرتسم البيانيّ لإيقاع سبائكها وتناغم ألفاظها؟

هل سنشعر بأيّ شيءٍ من هذا لو أحللنا، مثلاً، اللفظ القرآنيّ الآخَر (ظَهَر) محلّ اللفظ (حَصحَص) في الآية الأولى، فقلنا:

1 - الآن [ظهر] الحقُّ

والجواب ببساطة: نعم. إنّ موقع اللفظ الجديد أحدث خللاً في البناء الإيقاعيّ القرآنيّ لهذه السبيكة لا يقلّ بروزاً ووضوحاً عن أي خللٍ عروضيٍّ قد يصيب بيتاً من الشعر، ليس لتوالي حركاتٍ أربع في (ـنَ ظَهَرَ)[1] فقد حدث أن توالى خمسٌ منها في آيةٍ أخرى مشابهةٍ ﴿جاء الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ﴾ [الإسراء: 81] فقد توالت الحروف المتحرّكة الخمسة (قُ وَزَهَقَ) من غير أن نشعر بأيّ خلل، بل تتوالى في آيةٍ أخرى ستُّ حركاتٍ لا أربع (قُ وَظَهَرَ أَ) ولكن من غير أن يتسبّب ذلك في أيّ تصادمٍ مع الانسياب الموسيقيّ للآية:

- ﴿حتّى جاء الحقُّ وظَهَرَ أمْرُ الله وهم كارهون﴾ [التوبة: 48]

وسوف نحسّ مثل هذا الالتواء أيضاً، وإن كان أكثر دقّةً وأصعب تحديداً، لو أحللنا اللفظ (عنيداً) محلّ اللفظ (هلوعاً) في الآية الثانية - مع تساوي اللفظين نحويّاً وعروضيّاً -:

(1) يندر توالي أربع حركات في الشعر، ولا تجيز قواعد عروضه أن تتوالى فيه خمس حركات.

2 - إنّ الإنسانَ خُلق [عنيداً]

مع أنّ هذا اللفظ البديل مأخوذٌ من قوله تعالى:

- ﴿كلّا إنّه كان لآياتِنا عنيداً﴾ [المدّثر: 11]

وهكذا أيضاً لو أحللنا اللفظ (ذُلِّلت) محلّ اللفظ (سُطِحت) في الآية الثالثة، فقلنا:

3 - وإلى الأرضِ كيف [ذُلِّلَتْ]

مع أنّ اللفظ البديل يرد في قوله تعالى:

- ﴿وذُلِّلتْ قُطوفُها تذليلاً﴾ [الإنسان: 14]

وكذلك لو أحللنا اللفظ (الخَلْق) محلّ اللفظ (شيءٍ) في الآية الرابعة، فقلنا:

4 - وكان الإنسانُ أكثرَ [الخَلقِ] جَدَلا

مع أنّ اللفظ يتكرّر كثيراً في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى:

- ﴿وما كُنّا عن الخَلْقِ غافلين﴾ [المؤمنون: 17]

وكذا الأمر لو أحللنا اللفظ (استقرّت) محلّ اللفظ (نُصِبَتْ) في الآية الخامسة، فقلنا:

5 - وإلى الجبالِ كيف [استقرّت]

مع أنّ اللفظ (استقرّ) قرآنيٌّ، وقد ورد في وصف الجبل أيضاً، وذلك قوله تعالى:

- ﴿ولكنِ انظُرْ إلى الجبلِ فإنِ استقرَّ مكانَه فسوف تراني﴾ [الأعراف: 143]

وهكذا لو أحللنا اللفظ (عَلَتْ) محلّ اللفظ (رُفِعتْ) في الآية السادسة، فقلنا:

6 - وإلى السماءِ كيفَ [عَلَتْ]

مع أنّ اللفظ يرد في قوله تعالى:

- ﴿إنّ فِرعَونَ عَلا في الأرض﴾ [القَصص: 4]

وكذا لو أحللنا اللفظ (عليه) محلّ اللفظ (فيه) في الآية السابعة، فقلنا:

7 - إنّما جُعِل السبتُ على الذين اختَلفوا [عليه]

مع وجود اللفظ البديل في آياتٍ كثيرة.

وكذلك لو أحللنا اللفظ (البلاد) محلّ اللفظ (الأرض) في الآية الثامنة، فقلنا:

8 - كلاّ إذا دُكَّتِ [البلاد] دكّاً دكّاً

مع قرآنيّة اللفظ البديل ووجوده في أكثر من آية، كقوله تعالى:

- ﴿فلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهمْ في البلاد﴾ [غافر: 4]

وكذلك لو أحللنا اللفظ (الرجل) محلّ اللفظ (الإنسان) في الآية التاسعة، فقلنا:

9 - وخُلِقَ [الرجلُ] ضعيفاً

مع أنّ اللفظ يتكرّر مراراً في القرآن، كقوله تعالى:

- ﴿ما جَعلَ اللهُ لِرجُلٍ مِن قلبَين في جَوفِه﴾ [الأحزاب: 4]

وأخيراً، لو أحللنا اللفظَ (الصغيرة) محلّ اللفظ (الموؤودة) في الآية العاشرة، فقلنا:

10 - وإذا [الصغيرة] سُئلتْ. بأيّ ذنْبٍ قُتِلت

مع أنّنا نجد اللفظ في أكثر من آيةٍ قرآنيّةٍ، كقوله تعالى:

- ﴿ما لهذا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها﴾ [الكهف: 49].

لقد وعدت نفسي ووعدت القارئ بأن أتجنّب دراسة الجوانب الزئبقيّة التي تسمح هلاميّتُها بأن يختلف عليها اثنان أو أكثر، فلا أخوض بالقارئ خضمّ الموسيقا اللغويّة أو الإيقاع القرآنيّ، وهي منطقةٌ يصعب أن تجوب ديانَها وحقول ألغامها ثمّ تخرج منها بلا إصابات، مع أنّ هذا الجانب كان ينال دائماً اهتمامي ويستأثر بجزءٍ كبيرٍ من كتبي ودراساتي النقديّة، ومع ذلك فإنّني لم أجد هنا مفرّاً من أن أُدخِل القارئ معي إلى مَخبري اللغويّ وأعرض عليه هذه التجربة الإيقاعيّة السريعة، على ألّا أُلزمه أو أُلزم نفسي بإقناعه، وبالأرقام، كما فعلتُ وسأفعل في كلّ مرّة؛ إذ لا عمل للأرقام في رمالٍ متحرّكةٍ كرمال الموسيقا، وميدانٍ يعتمد أوّلاً وأخيراً على رهافة الأذن وحاسّة التذوّق الأدبيّ، وكلاهما زئبقيٌّ متحوّلٌ مطّاط.

وباللاإنتقائيّة نفسها التي التزمت بها دائماً، هأنذا أفتح القرآن في أواسطه، عشوائيّاً، لأجد نفسي أمام الصفحة 283، وسأضع إصبعي في وسط هذه الصفحة لتحطّ، عشوائيّاً أيضاً، على الآيات الثلاث التالية:

- ﴿وكلَّ إنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائرَهُ في عُنُقِه ونُخْرِجُ له يومَ القيامةِ كتاباً يَلقاهُ مَنشوراً. اقرأْ كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حَسِيباً. مَنِ اهتدَى فإنّما يَهتدي لنفْسِهِ ومَنْ ضَلَّ فإنّما يَضِلُّ عليها ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى وما كُنّا مُعَذِّبِينَ حتّى نَبعَثَ رسولا﴾ [الإسراء: 13-15].

دعونا ندخل بهذه الآيات مخبرنا اللغويّ، وليس أمامنا فيه عملٌ كبير، فلن أغيّر في كلمات الآيات شيئاً، ولا في معانيها، بل في بنائها. إنّ كلّ ما سأفعله هو إعادة ترتيب مواقع الكلمات داخل كلّ آيةٍ ووضعُها في ترتيبٍ مختلفٍ ولكن مقبول، وهذا الترتيب ليس هو بالضرورة الترتيب البشريّ المعتاد، بحكم أنّنا ملتزمون بالمحافظة على الألفاظ نفسها، بل بالمحافظة أيضاً على بعض التراكيب القرآنيّة التي تمنعنا من التمادي في هذا التغيير، ولا هو بالترتيب الإلهي، وقد غيّرنا فيه ما غيّرنا محاولين، ما أمكن، ألّا نُلحق بالمعاني أو القواعد النحويّة ضرراً كبيراً. وسنحصل في النهاية على مثل هذا النصّ:

"وألزمْنا في عنُق كلّ إنسانٍ طائره، ويَلقى يومَ القيامة كتاباً منشوراً

نُخرجُه له. كفى اليومَ بنفسِك حسيباً عليك، فاقرأ كتابك. فإنّما لنفسِه يهتدي منِ اهتدى، وإنّما يَضِلّ عليها من ضلّ، ولا وازرةَ تَزِرُ وِزْرَ أُخرى، وحتّى نَبعث رسولاً ما كنّا مُعذِّبين".

هذه ليست لغتَنا البشريّة، وإنّما هي ألفاظٌ وتراكيب قرآنيّةٌ ولكن بترتيبٍ بشريّ، مع تجنّبنا للتقديم والتأخير ما استطعنا حرصاً على حياديّة التعديل وحفاظاً على أكبر قدرٍ من الموسيقا الداخليّة. ولو أردت أن أصوغ الجملة الأخيرة مثلاً بأسلوبي العاديّ فلن تكون إلّا شيئاً من هذا القبيل: لنّ نعذّب أمّةً إلّا بعد أن نبعث إليهم برسولٍ ينذرهم ويوضّح لهم.

والآن، والنصّان: الإلهيّ والمحرَّف أمامكم، أيّ فرقٍ موسيقيٍّ تحسّونه بين النصّين؟ إنّني لا أريد أن ألقي بظلال رأيي على أحكامكم فتتأثّر به، فأصدِروها إذن قبل أن تنتقلوا إلى الفقرة التالية التي سأُدلي فيها بدلوي مثلكم، سريعاً.

أستطيع أن أميّز بوضوح الآن، بقراءةٍ سريعةٍ متّصلةٍ للنصّين، أنّ الفرق بين نصّنا المقترح والنصّ الأصليّ هو كالفرق بين أيّة قصيدةٍ وشرحها: لقد فقدنا الوزن.

طبعاً ستقولون: وهل للقرآن وزن؟ أنا شخصيّاً أقول: نعم، ولكنّه ليس الوزن العروضيّ الذي عرفناه للشعر، القرآن ليس شعراً، وهذا أمرٌ قد بتّ فيه القرآنُ نفسه، ولا ينطبق أيٌّ من أوزان الخليل الستّة عشر على الأوزان القرآنيّة، إلّا في حالاتٍ عشوائيّةٍ أحصى منها السيوطي خمس عشرة آية[2] وإنّما للقرآن أوزانه الكثيرة الخاصّة، وعددها بعدد سبائكه.

ولكنّ أغرب ما في هذه الأوزان، وهو أحد جوانب الإعجاز فيها، أنّ آذاننا، وآذان العرب الذين سمعوها أوّل مرّة، ألِفتْها واستمتعت بإيقاعها حال سماعها، مع أن معظمها لا يتكرّر في القرآن أكثر من مرّة، كما سبق أن أثبتنا.

---

(2) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص170.

إنّ التكرار شرطٌ أساسيٌّ لقيام الوزن والاعتراف بصلاحيّته في سوق الأوزان، بل إنّ كلّ مكرَّرٍ يتحوّل إلى وزن، ولو أردتَ أن تصنع وزناً من أيّة عبارةٍ نثريّة، أيّة عبارةٍ على الإطلاق، فما عليك إلّا أن تكرّرها عدّة مراتٍ لتجد أنّها تحوّلت في النهاية إلى إيقاعٍ أو وزنٍ يمكن أن تصوغ عليه قصيدةً أو ديواناً. هذا ما أسمّيه بالتكرار الداخليّ، أو الأصغر، وهو أحد التكرارين الأساسيّين الضروريّين لينال الوزنُ اعترافنا.

أمّا التكرار الآخر فهو التكرار الخارجيّ، أو الأكبر، وهو أن تَنظم أكثر من قصيدةٍ أو قطعةٍ على هذا الوزن الجديد بحيث تبدأ الأسماع بائتلافه والتغنّي به، وتضطرّ الأذن الوطنيّة أو القوميّة، من ثمّ، إلى الاعتراف بالوزن الذي ابتكرتَه.

لا بدّ إذن لأيّ وزنٍ جديد، إذا أردنا لآذان الناس أن تقبله وتعترف به، من أن يحقّق في النهاية التكرار الأكبر، ولكن مروراً بالتكرار الأصغر(3).

ولكنْ للسبائك القرآنيّة النثريّة شأنٌ آخر. فقد تحوّلت إلى أوزانٍ، بل إلى أوزانٍ مألوفة، وذلك بفعل النَظم الإلهيّ الفريد لكلماتها وليس بفعل التكرار، قليلاً كان أو كثيراً.

ولو سألتموني: ما السرّ في ذلك؟ كيف تتحوّل إلى أوزانٍ وهي لا تتكرّر أبداً:

لا داخليّاً: إذ لا تتكرّر (الكلمة) داخل الآية، مثلما تتكرّر التفعيلة داخل البيت، لا بنفسها ولا بما هو بوزنها، ولا يتكرّر فيها (التركيب)، لا بنفسه ولا بما هو بوزنه، إلّا أن تكون محض مصادفة،

ولا خارجيّاً: إذ لا يتكرّر معظم سبائك القرآن، كما أثبتنا، أكثر من مرّةٍ

(3) للمزيد في هذا الباب ارجع إلى الفصلين: التجديد في الشعر الخليليّ، والأنواع العروضيّة الحديثة، في كتابنا :
- ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية.** مرجع سابق.

واحدة، ثمّ لا علاقة لهذه السبائك، كما أكّدنا، بأيٍّ من الأوزان العروضيّة المعروفة للشعر؟

إذن لكان جوابي من غير تردّد، وبتواضعٍ جمٍّ أمام عظمة هذا الإعجاز: لا أدري..

إنّ أدنى تغييرٍ في السبيكة القرآنيّة يؤدّي إلى فقدانها للوزن، وللسبائك القرآنيّة أوزانٌ بعدد هذه السبائك، وهذه الأوزان لا تقوم على الحركات والسكون، كما هو الشأن في الأوزان الشعريّة، ولا على قواعدنا البشريّة في تنسيق الحروف وتجانسها، فكم خرجت عليها هذه السبائك فلم تزدد إلّا سلاسةً وإتقاناً.

فتلك ستّ ميماتٍ تتوالى في الآية (ومن أظلمُ مِمَّن مَنَعَ مساجدَ اللهِ) - تُلفظ تجويديّاً: أظلمُ مِمْ مَمْ مَعك - بل تتوالى ثماني ميماتٍ في الآية (وعلى أُممٍ مِمَّن معك) - تُلفظ تجويديّاً: أمَمِمْ مِمْ مَمْ مَعك - فلا نشعر مع هذا التوالي بما نشعر به من ثِقلٍ وتعثّرٍ فيما لو حدث أن وقع مثله في لغتنا البشريّة.

إنّ "الوزن" أو الإيقاع القرآنيّ تشارك في تكوينه عوامل وعناصر خفيّةٌ أخرى أشعر أنّ أدواتنا النقديّة ما تزال عاجزةً عن تقديم أيّة مساعدةٍ لوضع أيدينا عليها وتحديدها. ويؤكّد هذه الحقيقة عددٌ من المفكّرين الغربييّن الذين لامسوا القرآن في دراستهم فوصفوا انعكاساته الغريبة في نفوسهم، حتّى إن لم يفقهوا معانيه، كما نجد في حديث الكاتب الأمريكي جيفري لانج عنهم:

ليس من الضروريّ أن يكون الإنسان مسلماً لكي يشعر بهذه القوّة الخارقة للقرآن؛ ذلك أنّ الكثير منهم اختار الإسلام بَعدَ، وبسببِ، مثلِ هذه الملاحظات. أيضاً، كثيرٌ من دارسي الإسلام من غير المسلمين، قرّروا ذلك. عالم اللغة العربيّة البريطاني، آرثر جيه آربري، تذكّر كيف أنّ القرآن سانده في فترةٍ عصيبةٍ من حياته. قال: إنّ استماعه إلى القرآن وهو يرتَّل باللغة العربيّة كان بالنسبة له كاستماعه إلى نبضات قلبه.

وفريدريك ديني، كاتبٌ غير مسلم، تذكّر "التجربة الرائعة المقلقة" التي

يمارسها الإنسان أحياناً وهو يقرأ القرآن، عندما يبدأ القارئ في الشعور "بحضور غامض، ومخيفٍ أحياناً"، فبدلاً من قراءة القرآن، يبدأ القارئ يشعر أنّ "القرآن هو الذي يَقرأ القارئ"[4].

وربّما كان خيرَ ما يعبّر عن هذا الموقف في صفحات تراثنا عبارةُ السكّاكيّ: "اِعلم أنّ شأن الإعجاز عجيبٌ، يُدرَك ولا يمكن وصفُه، كاستقامة الوزن: تُدرَك ولا يمكن وصفُها، وكالملاحة"[5].

السبيكة القرآنيّة الجديدة أبداً:

هذا الاختلاف والتميّز في لغة القرآن لا يعني لدينا ولادة لغةٍ جديدةٍ تحلّ محلّ اللغة العربيّة، كما توهّم بعضهم. ومن المهمّ أن نؤكّد باستمرار حقيقة أنّ التجديد القرآنيّ لم يلغِ قواعد اللغة العربيّة بل طوّرها حين لم تكن عشيّة نزول القرآن أكثر من مجرّد أعراف. إنّ القرآن هو الذي حوّل أعراف العرب اللغويّة إلى قواعد فأسّس في مرحلةٍ تاليةٍ من أجل بناء علم النحو وعلم الصرف وعلم البلاغة وعلوم اللغة المختلفة.

حتّى إذا حدث ومسّ التجديد القرآنيّ قواعدَ اللغة العربيّة، ونعود فنؤكّد أنّها لم تكن قد أخذت بعدُ صفة (قواعد)، فقد كان هذا بمثابة إغناءٍ وإضافةٍ وتطويرٍ لهذه القواعد لا إلغاء لها[6].

---

(4) لانج، جيفري. **حتّى الملائكة تسأل.** ترجمة: زين نجاتي. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2002، ص195.

(5) السكّاكيّ، أبو يعقوب يوسف. **مفتاح العلوم.** تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2000، ص526.

(6) يمكن الرجوع في هذا الباب إلى كتاب محمد عبد الخالق عضيمة "دراسات لأسلوب القرآن الكريم" وهو يحصي في مجلّداته الأحد عشر الظواهر النحويّة والصرفيّة في القرآن، ويتّهم النحوييّن بتجرّئهم على تخطئة القراءة القرآنيّة إذا لم تستجب إلى قواعدهم، بل حتّى إن استجابت لها في بعض الأحيان (عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج1، ص25 - 26). ويتابعه في ذلك أحمد مكّي الأنصاريّ في كتابه "نظريّة النحو القرآنيّ". (الأنصاريّ، أحمد مكّي. **نظريّة النحو القرآنيّ.** (د. م.): دار القبلة، 1405هـ) وهو يصرّ على وجود نحوٍ خاصٍّ =

ولو أنّنا وضعنا أيدِيَنا على الظواهر التجديديّة التي سنّها القرآن أو أضافها إلى القواعد والأعراف اللغويّة والنحويّة، وجُلّ همّنا في هذا العمل تحسّسُها واكتشافها لإبراز الفروق الكبيرة بين التعبير القرآنيّ وكلٍّ من التعبير النبويّ، والتعبير الشعريّ، والتعبير النثريّ العاديّ، لكان لنا بها ثروةٌ أسلوبيّةٌ تفتح أمامنا أبواباً لا حدود لها من التجديد اللغويّ الأصيل الذي ما زلنا نسعى لتحقيقه منذ قرون، وقد ضاعت منّا مثل هذه الفرصة إلى الآن في زحمة اختلاط الدعوات التجديديّة الأصيلة بالدعوات المشبوهة أو المستوردة، تلك التي لا تهدف إلّا إلى هدم العربيّة وضياع تراثها وشرذمة أبنائها.

ولكن من المهمّ أن نتنبّه إلى حقيقةٍ قد تغيب عن بالنا، في زحمة انشغالنا باكتشاف الطبيعة الجديدة للنسيج اللغويّ القرآنيّ، وهي أنّ هذا النسيج الجديد ظلّ جديداً حتّى يومنا هذا.

إنّ كلّ جديدٍ يخطّه قلمٌ أو ينطق به لسانٌ بشريٌّ اليوم، لن يلبث أن يصبح قديماً مع الغد. فالسبيكة اللغويّة التي قدّمها الشاعر الجاهليّ الأوّل كانت جديدةً حين جاء بها أوّل مرّة، ولكنّها لم تلبث أن غدت قديمةً متكرّرةً حين تناولها الشاعر اللاحق ثمّ من لحق به، وهكذا.. أمّا السبائك القرآنيّة فقد أمسك معظمُها بالزمن وتوقّف عند اللحظة التي تنزّلَ بها فلم يسمح لأحدٍ بتكراره بعد ذلك أبداً.

= بالقرآن الكريم وعلى وجوب تعديل قواعدنا النحويّة إستناداً إليه. ورغم أخْذِه على النحويّن تمسّكهم بقواعدهم دون الأخذ بعين الاعتبار قواعد القرآن الكريم، وهو محقٌّ في هذا، فإنّه يسوق أسماء عددٍ منهم ومِن غيرهم من العلماء ممّن تنبّه لوجود فجوةٍ بين القواعد النحويّة والنصّ القرآنيّ "من أمثال ابن تيميّة والفخر الرازي وأبي حيّان وأبي عمرو الداني وابن حزم والقشيري والحريري وابن المنير والدماميني وابن الجزري والسيوطي وغيرهم" (ص: 19). وكأنّ الأنصاريّ قد استشعر الخوف من ألسنة النحاة الذين اعتادوا أن يصبوّا جام غضبهم على كلّ من يخالفهم، فدافع عن نفسه، أثناء انتقاده لبعض من رفض منهم عدداً من القراءات القرآنيّة المتواترة لمخالفتها قواعدهم، فقال محاولاً أن يحتمي بمظلّة الدكتور عضيمة: "الفكرة عامّةٌ واحدةٌ متّحدةٌ بيني وبين الشيخ عضيمة، وهي عدم الارتياح إلى مواقف بعض النحاة من القراءات، وهو عالِمٌ جليلٌ من طبقة المحافظين مثلي، فلا يُتّهم في دينٍ أو خلُق، كما أنّه متخصّصٌ مثلي في الدراسات النحويّة، فلا تُوجَّه إليه تهمة التعصّب ضدّ النحو والنحويّن" (ص22).

ومع دعوتنا في هذه الدراسة إلى تضمين لغتنا ومعاجمنا للتعبيرات القرآنيّة السائرة التي سندرسها في هذا البحث تحت عنوان (جوامع الكَلِم) فإنّ ذلك لن يعدو أن يكون مجرّد (تضمينٍ) أو (تزيينٍ) للغتنا البشريّة بهذه العبارات المتفوّقة التي تظلّ، أينما وقعت، متميّزةً وواضحة الشخصيّة القرآنيّة، ولكنّها غير قابلةٍ للخلط أو الإذابة في لغتنا العاديّة.

وفيما عدا الألفاظ والمصطلحات والتركيبات الجديدة التي أتى بها القرآن ثمّ انتشرت في لغتنا، وأحياناً في لغة الحديث الشريف، انتشاراً غيّر وجْه لغتنا، تبقى لغة القرآن، بأبنيتها المتفرّدة، وبكثيرٍ من أعرافها/ قواعدها النحويّة الجديدة، مقتصرةً عليه وحده وممتنعةً على التقليد، بل تبقى منفصلةً ومتميّزةً بوضوح عن لغة النبيّ ﷺ نفسه، وهو الذي أُنزل عليه القرآن، ولكنّه بَشَرٌ في النهاية.

وإذا كان للغة الحديث الشريف، بأسلوبَيها المتميّزين والمتفاوتين أيضاً: القدسيّ والنبويّ، ما يميّزها ويرتفع بمستواها إلى درجةٍ غير عاديّةٍ من البلاغة والفصاحة والجمال، فإنّها تظلّ محتفظةً بخصائصها البشريّة المستقلّة التي تميّزها بوضوحٍ لا لَبس فيه عن الإعجاز اللغويّ الإلهيّ.

بين السبيكتين القرآنيّة والبشريّة:

إنّ الإعجاز القرآنيّ يوازي لغتَنا البشريّة العاديّة التي نتداولها في كلّ جوانب حياتنا الأدبيّة والعمليّة، ولكن من غير أن يتقاطع معها أو يختلط بها. وما سأقوم به الآن هو تجربةٌ مخبريّةٌ نُجريها على أنفسنا لإزالة العنصر الكيميائيّ الذي ينتج في العادة عن تفاعل الزمن مع الألفة ليشكّل غشاوةً تغلّف أعيننا فتمنعنا من رؤية الفروق الحقيقيّة الهائلة بين اللغة البشريّة واللغة القرآنيّة.

اقرأوا معي هذه العبارات التي صغتها بنفسي وحاكِموها واحدةً بعد أخرى إلى لغتنا العاديّة، وسجّلوا أمام كلّ عبارة ملاحظاتكم عليها، لو وُجد مثل هذه الملاحظات:

1 - ثمّ أنت هذا تأتي لتزورني

2 - الدولة أعلَمُ مَن يقفُ معها وأعلم بمن يقف ضدّها
3 - لم أُرسل لك هذه الرسالة إلّا إنّها لَتتضمّنُ نصيحةً لك
4 - ممّا أخطائك وقعَ لك ما وقع
5 - لا تفرّقْ بين أحدٍ من تلامذتك
6 - لو كان في المطبخ طبّاخون إلّا الطبّاخُ لاحترقت الطبخة
7 - سأفضّل المتفوّقين منكم على غيرهم مكافأةً كبيرة
8 - استأجرت لبيتي لَمَن يهدِم أكثر ممّا يبني
9 - مِن الناسِ يُحسنون ومنهم مَن يسيئون
10 - لا تبالغْ في أحكامك غيرَ الحقيقة
11 - لا تَلحَقْ رفاقَ السوء عمّا جاءكَ من رفاق الخير
12 - أُعجبتُ بالكتاب الكبير غيرِ الصغير
13 - وعدْتُكم لكم مكافأةٌ كبيرة وزيادةٌ في المرتّب
14 - لا يعلمُ مَن في الصفّ أو المدرسةِ أسئلةَ الامتحان إلّا الأستاذُ
15 - الجنين يسمع في بطن أمّه ويستجيبُ الأصواتَ الخارجيّة
16 - أُتركِ الكلبَ في الزريبة غير إخراجٍ
17 - أَطِع القانون ولا تخالف نظام السير وبالمشاةِ تفضيلاً
18 - لا تفضّلوا الأقرباء أنْ تُساووا بين الناس
19 - بدّلْ خيراً من هذه الفاكهة
20 - قد أسمعُك البارحة.

من يستطيع اليوم، ممن يمتلك السليقة اللغويّة العربيّة، ألّا يقف متشكّكاً أمام هذه العبارات فينظر إلينا نظرة احتجاجٍ وتساؤلٍ واستغراب، وكأنّه يقول لنا: هل أنتم متأكّدون من صياغة العبارة؟[7]

---

(7) عرضت هذه العبارات في محاضرتين ألقيتهما على جمهورٍ عربيٍّ في لندن، ثمّ في =

لنسمع ولنقارن:

1 - إنّ قولنا: (ثمّ أنت هذا تأتي لتزورني) أسلوبٌ لم تعرفه العربيّة في الماضي أو في الحاضر، ولكنّنا مع ذلك لا نشعر بأيّة غرابة ونحن نمرّ بالآية: ﴿ثمّ أنتمْ هؤلاء تَقتلون أنفُسَكم﴾ [البقرة: 85].

2 - وهل نستطيع أن نسمع أحدهم يقول: (الدولة أعلَمُ مَن يقفُ معها وأعلم بمن يقف ضدّها) من غير أن ننبّهه قائلين: تقصد أن تقول: (الدولة أعلمُ بمن..)؟ ولكنّنا نردّد هذا الأسلوب كلّ يوم، ومن غير أن يثير في رؤوسنا أيّة مشكلة، حين نتلو قوله تعالى: ﴿إنّ ربَّكَ هو أعلَمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بالمهتدين﴾ [الأنعام: 117].

3 - ومن يستطيع أن يكتب إلى صديقه رسالةً يقول فيها: (لم أُرسل لك هذه الرسالة إلّا إنّها لَتتضمّنُ نصيحةً لك) من غير أن يسمع من يعدّل له عبارته قائلاً: (إلّا وهي تتضمّن..) .ولكنّنا نمرّ غير آبهين أو معترضين، بل بالأحرى معجبين ومأخوذين بالتعبير القرآنيّ: ﴿وما أرسَلْنا قَبلَك مِن المُرسَلين إلّا إنّهم لَيَأكلون الطعامَ ويَمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20].

4 - ومن منّا يقول لأحدهم مؤنّباً: (ممّا أخطائك وقعَ لك ما وقع) من غير أن يجد من ينصحه بتعديل عبارته لتكون: (مِن أخطائك)؟ وهو لا يَعي أنّه يقرأ في كتاب الله كلّ يوم، مأخوذاً بسحر البيان الإلهيّ: ﴿ممّا خطيئاتِهم أُغرِقوا﴾ [نوح: 25].

5 - وأيّ توجيهٍ نسمعه لتربويٍّ يقول: (لا تفرّق بين أحدٍ من تلامذتك) نجد أنفسنا مدفوعين لتصحيحه قائلين: تقصِد (بين الواحد والآخر من

= بلدٍ عربيّ، وسألت الحضور أن يخمّنوا جنسيّة كاتب هذه العبارات فكانت الأجوبة تركّز في معظمها على أنّها لا بدّ أن تكون لغة: تركمانيّ، أرمنيّ، أريتيريّ أو صوماليّ، أجنبيّ يتكلّم العربية، أو أجنبيّ تعلّم العربيّة من غير معلّم، أو ترجمة كومبيوتر من لغةٍ أخرى، ولم يتصوّر أحدٌ منهم، على كثرتهم، أنّها ليست أكثر من عباراتٍ صغتها بنفسي وبنيتها على سبائك قرآنية.

التلامذة)، وكأنّنا لم نقرأ الآية الكريمة: ﴿لا نفرّقُ بين أحدٍ مِن رُسُلِه﴾ [البقرة: 285].

6 – ومن منّا يقول: (لو كان في المطبخ طبّاخون إلّا الطبّاخُ لاحترقت الطبخة) من غير أن نصحّح له قائلين: تعني (لو كان في المطبخ أكثر من طبّاخ)؟ وكأنّنا لم نمرّ يوماً بقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لَفسَدتا﴾ [الأنبياء: 22].

7 – ومن منّا يستطيع أن يقول لأولاده: (سأفضّل المتفوّقين منكم على غيرهم مكافأةً كبيرة) من غير أن يسمع من يعلّق: تريد أن تقول: (بمكافأةٍ كبيرة)؟ وكأنّه لم يتلُ يوماً قولَه تعالى: ﴿وفضّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما﴾ [النساء: 95].

8 – ومن يجرؤ أن يقول: (استأجرت لبيتي لَمَن يهدِم أكثر ممّا يبني) من غير أن يسمع من يصحّح له قائلاً: تقصد (استأجرت مَن يهدم)؟ وكأنّنا لا نذكر قوله تعالى: ﴿يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ مَن نَفعِه﴾ [الحجّ: 13].

9 – وأيُّ تلميذٍ يكتب في واجبه هذه العبارة: (مِن الناسِ يُحسنون ومنهم مَن يسيئون) ثمّ لا يصحّحها له المدرّس بالخطّ الأحمر لتصبح: (مَن يحسنون)؟ مع أنّ المدرّس سبق أن قرأ عشرات المرّات الآية الكريمة: ﴿مِنَ الذين هادُوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه﴾ [آل عمران: 46].

10 – وهل تستطيع أن تقول لأحدهم: (لا تبالغْ في أحكامك غيرَ الحقيقة) من غير أن تسمع من ينبّهك معترضاً: تقصد: (وتتجاوز الحقيقة)؟ مع أنّه طالما قرأ قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تَغلُوا في دينِكم غيرَ الحقّ﴾ [المائدة: 77].

11 – ولو سمعت والداً يقول لولده: (لا تَلحَق رفاقَ السوء عمّا جاءك من رفاق الخير) لالتبس عليك الأمر، وعلى الولد أيضاً، ولتطوّعتَ بتعديل الجملة قائلاً للولد: (لا تَلحقْهم مفضّلاً لهم على رفاق الخير) وأنت غافلٌ عن قراءتك في كتاب الله كلّ يوم: ﴿ولا تتّبعْ أهواءَهم عمّا جاءك من الحقّ﴾ [المائدة: 49].

12 - ولو خيّرك صاحب المكتبة بين كتابين: صغيرٍ وكبير، فاخترت الكبير وقلت: (أُعجبتُ بالكتاب الكبير غيرِ الصغير) لصحّح لك قائلاً: تقصد: (وليس الصغير) مع أنّه يقرأ في صلاته، سبع عشرة مرّةً كلّ يومٍ على الأقلّ، قوله تعالى: ﴿صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم﴾ [الفاتحة: 7].

13 - وأيّ مسؤولٍ يقول لموظّفيه مبشّراً: (وعدْتُكم لكم مكافأةٌ كبيرة وزيادةٌ في المرتّب) ثمّ لا يجد من ينبّهه قائلاً: تقصِد: (وعدتُكم بمكافأة)؟ وكأنّه تعالى لم يَقُل: ﴿وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيم﴾ [المائدة: 10].

14 - ولو قال قائل: (لا يعلمُ مَن في الصفّ أو المدرسةِ أسئلةَ الامتحان إلّا الأستاذُ) لسمعَ مائة معلّقٍ يقول له: (لا يعلم ممّن في الصفّ) رغم أنّهم يقرأون قوله تعالى مسحورين ببيانه وروعته: ﴿قلْ لا يعلمُ مَن في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا اللهُ﴾ [النمل: 65].

15 - ولو قال آخر: (الجنين يسمع في بطن أمّه ويستجيبُ الأصواتَ الخارجيّة) لوجدَ حالاً من يصحّح له قائلاً: (ويستجيب للأصوات) كأنّهم لم يسمعوا قوله تعالى: ﴿ويعلمُ ما تفعلون. ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فضلِه﴾ [الشورى: 25-26].

16 - ولو قيل لك - ولن يقال - : (أُترك الكلبَ في الزريبة غيرَ إخراج) لعدّلتَ بينك وبين نفسك عبارة من يخاطبك لتكون هكذا: (من غير أن تخرجه) وكأنّك لم تقرأ أبداً قوله تعالى: ﴿والذين يُتوَفَّون منكمْ ويَذَرون أزواجاً وصيّةً لأزواجِهم متاعاً إلى الحَوْلِ غيرَ إخراجٍ﴾ [البقرة: 240].

17 - وعلينا ألّا نستغرب لو قلنا ناصحين: (أَطِع القانون ولا تخالف نظام السير وبالمشاةِ تفضيلاً) فاعترض أحدهم علينا قائلاً: تقصِد: (والأفضليّة للمشاة)، وكأنّه لم يسمع بقوله تعالى: ﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: 36].

18 - وهل نتوقّع لو وعظْنا قائلين: (لا تفضّلوا الأقرباء أنْ تُساووا بين

الناس) ألّا يقول أحدهم مستدركاً علينا: (بل ساووا بين الناس)؟ مع أنّه تعالى يقول: ﴿فلا تتّبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا﴾ [النساء: 135].

19 - ولو قلت للبائع: (بدّلْ خيراً من هذه الفاكهة) لَبادركَ مستدركاً: تريد: (بدّلْ هذه الفاكهة بخيرٍ منها؟) مع أنّه ما يفتأ يردّد في تلاوته قوله تعالى: ﴿فلا أقسِمُ بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنّا لَقادرون. على أن نبدّلَ خيراً منهمْ وما نحن بمسبوقين﴾ [نوح: 40 - 41].

20 - ولو قلت الآن لمن كنت تحدّثه بالأمس هاتفيّاً: (قد أسمعُك البارحة) لشكّ في أنّك سمعت ما قاله لك البارحة، وله الحقّ في هذا؛ إذ جئت بعد (قد) بفعلٍ مضارعٍ لا ماضٍ، ولكنّ القرآن الكريم يردّد ذلك في آياتٍ عديدة ثمّ لا نعجب ولا نستغرب، كما في الآيات:

- ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهِكَ في السماء﴾ [البقرة: 144]
- ﴿قد يعلمُ اللهُ الذين يتسلّلون منكم لِواذاً﴾ [النور: 63]
- ﴿قد يعلمُ اللهُ المعوِّقين منكم﴾ [الأحزاب: 18]
- ﴿لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أنّي رسولُ اللهِ إليكم﴾ [الصفّ: 5]

وبإمكانكم في النهاية أن تجمّعوا الآيات القرآنيّة العشرين وتضعوها بإزاء الجمل البشريّة الموازية، لتروا الفارق التركيبيّ الواضح والكبير بين البناءين اللغوييّن. ولا تنسوا، وأنتم تقرأون الآيات مجتمعةً، أن تتحسّسوا وجود أيّة مفارقاتٍ أخرى في التعبير القرآنيّ من شأنها أن تجعلكم تستغربون، فيما بينكم وبين أنفسكم، من بنائها اللغويّ:

1 - ﴿ثمّ أنتم هؤلاء تقتلون أنفسَكم﴾ [البقرة: 85]

2 - ﴿إنّ ربَّكَ هو أعلَمُ مَن يَضِلُّ عن سبيلِه وهو أعلمُ بالمهتدين﴾ [الأنعام: 117]

3 - ﴿وما أرسَلْنا قَبلَك مِن المُرسَلين إلّا إنّهم لَيَأكلون الطعامَ ويَمشون في الأسواق﴾ [الفرقان: 20]

4 - ﴿ممّا خطيئاتِهم أُغرِقوا﴾ [نوح: 25]

5 - ﴿لا نفرّقُ بين أحدٍ مِن رُسُلِه﴾ [البقرة: 285]

6 - ﴿لو كان فيهما آلهةٌ إلّا اللهُ لَفسَدتا﴾ [الأنبياء: 22

7 - ﴿وفضّلَ اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ [النساء: 95]

8 - ﴿يدعو لَمَن ضَرُّه أقربُ مَن نَفعِه﴾ [الحجّ: 13]

9 - ﴿مِنَ الذين هادُوا يُحَرِّفون الكَلِمَ عن مَواضعِه﴾ [آل عمران: 46]

10 - ﴿قلْ يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دينِكم غيرَ الحقِّ﴾ [المائدة: 77]

11 - ﴿ولا تتّبعْ أهواءَهم عمّا جاءكَ من الحقِّ﴾ [المائدة: 49]

12 - ﴿صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم﴾ [الفاتحة: 7]

13 - ﴿وعَدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ﴾ [المائدة: 10]

14 - ﴿قلْ لا يعلمُ مَن في السمواتِ والأرضِ الغيبَ إلّا اللهُ﴾ [النمل: 65]

15 - ﴿ويعلمُ ما تَفعلون .ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فضلِه﴾ [الشورى: 25-26]

16 - ﴿والذين يُتوَفَّون منكمْ ويَذَرون أزواجاً وصيّةً لأزواجِهم متاعاً إلى الحَوْلِ غيرَ إخراجٍ﴾ [البقرة: 240]

17 - ﴿واعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً﴾ [النساء: 36]

18 - ﴿فلا تتّبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا﴾ [النساء: 135]

19 - ﴿فلا أقسِمُ بربِّ المشارقِ والمغاربِ إنّا لَقادرون. على أن نبدّلَ خيراً منهمْ وما نحن بمسبوقين﴾ [نوح: 40 - 41]

20 - ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهِكَ في السماءِ﴾ [البقرة: 144]

بين (تقليد) لغة القرآن و(اقتباسها):

هذا كلّه لا يعني أنّ بإمكاننا إذن تقليدَ لغة الوحي فنُحلّ الأساليب القرآنيّة محلّ أساليبنا البشريّة، إنّه أمرٌ مستحيل، والسبب: أنّ في بناء التعبير الإلهيّ سرّاً يجعل منه تعبيراً خاصّاً بالقرآن الكريم، ولن يكون مناسباً أو

مقبولاً، بل ربّما بدا مضحكاً، إذا لم يَرِد التعبير في بنائه وسياقه التنزيليّ وألفاظه وعلاقاته اللغويّة التي ورد فيها بالأصل، وهذا سرّ العجز المستمرّ الذي يواجهه إلى اليوم كلّ من حاول أو يحاول تقليد لغة القرآن الكريم أو تزييفها.

إنّ من السهل على أحدنا، بل من الجميل، أن يضمّن كلامه آيةً أو جزءاً من آيةٍ، والتضمين، أمرٌ كثير الشيوع في لغتنا المكتوبة والمحكيّة. بل من السهل على أحدنا أن يبدّل لفظاً في آية، أو أكثر من لفظ، بلفظٍ آخر، فيقول مثلاً لشخصٍ لا يريده أن يسافر معه: (ألم أقل لكَ إنّك لن تستطيعَ معيَ سَفَراً) مُحِلّاً اللفظ (سفراً) محلّ اللفظ (صبراً) الذي ورد في الآية 75 من سورة (الكهف).

بل إنّ لنا أن نستشهد بهذه الآية نفسها، كما هي من غير أدنى تغيير، لو شئنا أن نقول لمن أخفق بالالتزام بمبادئه وعهوده معنا: ما يفيد معنى (لقد قلنا لك منذ البداية إنّك لن تتحمّل الاستمرار معنا طويلاً)، نعم نستطيع أن نفعل كلّ هذا..

ومع ذلك فسيكون من المضحك أن نلبس مسوح الآية أو السبيكة بكاملها، فنكتفي بتبديل كلماتها دون تغيير بنائها.

تصوّروا لو أنّ مدير أحد المصانع جمع عمّاله وألقى فيهم خطاباً، وأراد أن يقول لهم في ثنايا الخطاب إنّ كلّاً منهم يتحمّل مسؤوليّة أخطائه، وفضّل، في هذا المعنى، أن يستفيد من العبارة القرآنيّة السائرة:

﴿ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى﴾ [فاطر: 18].

ولم يشأ أن يستخدم العبارة القرآنيّة نفسها فحاول أن يُلبسها ألفاظاً من عنده من غير أن يغيّر بناءها، وهكذا اكتفى بأن أحلّ اللفظ (يحمل) ومشتقّاته محلّ اللفظ القرآنيّ (يَزِر) مقتفياً أثر الآية الكريمة، فقال لعمّاله: (ولا يَحملُ حاملةٌ حِمْلَ أخرى).

إنّه تجاوز حدود الاقتباس أو التضمين حين استعار السبيكة القرآنيّة شديدة

التميّز، فأبقى عليها كما هي، ولكنّه وضعها في سياق لغته البشريّة مكتفياً بإحلال لفظٍ آخر محلّ اللفظ القرآنيّ، له المعنى القرآنيّ نفسه والوزن نفسه، فخرج، مع ذلك، بهذا المخلوق اللغويّ المشوّه والمثير للسخرية والإشفاق اللذين أكاد أراهما بوضوح على وجوهكم وأنتم تقرأون عبارة مدير المصنع.

فأْتُوا بسورةٍ مثلِه:

وهكذا ضحك آباؤنا في الماضي، ونضحك اليوم، ساخرين ومشفقين، لتلك المحاولات الساذجة والمستمرّة لأناسٍ يريدون أن ينالوا من القرآن ومن الإسلام، فيحاولوا وضع هياكل لغويّةٍ مشوّهةٍ يدّعون أنّها سوَرٌ قرآنيّة.

ومهما حاول المزوّرون أن يُدخلوا في القرآن ما ليس منه، أو أن يصوغوا جملةً أو عبارةً، أو يضعوا ما يدّعون أنّه سورةٌ، فسوف تفضحهم خصوصيّة القرآن اللفظيّة والتركيبيّة، وسبائكه المميّزة، تماماً كما تفضح اليوم اختبارات الـ DNA في مخابر الأطبّاء من يحاول نسبة ولدٍ إلى غير أبيه، أو فعلٍ إلى غير فاعله. إنّ جسم لغة القرآن سيرفض أيّ دمٍ لغويٍّ جديدٍ نحاول أن نحقنه فيه، والزمرة الدمويّة المخالفة ستفسد باقتحامها كلّ ما يحيط بها من أنسجة.

لنفترض أن أحدنا أراد أن يصوغ جملةً توازي هذه الآية القرآنيّة:

- ﴿إنّ الذين اشترَوا الكفرَ بالإيمانِ لن يَضرّوا اللهَ شيئاً ولهمْ عذابٌ أليم﴾ [آل عمران: 177]

فصنعَ لنا هذه العبارة:

إنّ الذين اشتروا الجحودَ بالعرفان لن يضرّوا الملكَ شيئاً ولهم قِصاصٌ كبير.

لقد أحللنا (الجحود والعرفان) هنا محلّ (الكفر والإيمان) و(قِصاصٌ كبير) محلّ (عذاب أليم) وأبقينا على بناء السبيكة القرآنيّة في جملتنا كما هو، ومع هذا فسيكتشف من يقرأها أنّنا لم نفعل إلّا أن ألبسنا الآية ألفاظاً لا تتناسب مع النسيج القرآنيّ العامّ للعبارة - مع أنّ معظم الألفاظ التي اخترناها

قرآنيٌّ أيضاً - وهو ما سبّب إرباكاً لها، ووضَعَنا أمام مفارقاتٍ لغويّةٍ أقلُّ ما يُقال فيها إنّها غير مُريحةٍ للأذن، إن لم نقل إنّها مثيرةٌ للسخرية، لأنّها تولّدت من اختلاط الألفاظ الجديدة، التي ربّما جاءتها، مع ذلك، من آياتٍ أخرى، بالنسيج اللغوي القرآنيّ المميَّز لهذه العبارة، وهي مفارقاتٌ تنطق بالتمزّق والتنافر.

وإذن فلْنَسِرْ بالتغيير شوطاً أبعد، فنجعل عبارتنا هكذا:

إنّ الذين اشتروا الجحود بالعرفان لن يضرّوا الملك بشيءٍ ولهم قِصاصٌ كبير.

لقد أضفنا إلى التغيير السابق عنصراً جديداً، فأحللنا التعبير البشريّ الذي جاء في شكل شبه جملة (بشيءٍ) محلّ التعبير الإلهيّ الذي جاء مجرّداً من الباء (شيئاً) فبعُدت الشِقّة بين عبارتنا وبين الآية القرآنيّة، ولكن ليس على نحو يكفي لإخفاء الأصل القرآنيّ ما دامت الجملة فيه معتمدةً حتّى الآن على الاستعمال الخاصّ جداً (اشترى) الذي يأتي في القرآن عادةً بمعنى (قابل) أو (بدّل)، وكذلك على التعبير الخاصّ الآخر (ولهم) الذي يأتي في القرآن عادةً بمعنى (سيصيبهم أو جزاؤهم) كما في التعبيرات القرآنيّة: (لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم - ولهم عذابٌ عظيم - ولكم في الأرض مستقَرٌّ ومتاعٌ إلى حين).

إنّ المفارقة والتمزّق اللغويّ ما يزالان واضحين في العبارة، وضوحاً كافياً لإثارة السخرية والشكّ بجدّية النصّ.

فلتناول بالتغيير إذن هذين الموقعين الأخيرين أيضاً لتقترب الآية أكثر من لغتنا البشريّة وتتخلّى عن طبيعتها القرآنيّة، فنقول:

إنّ الذين آثروا الجحود على العرفان لن يضرّوا الملك بشيءٍ وسينالهم قِصاصٌ كبير

لقد خرجنا أخيراً من ثوب السبيكة اللغويّة القرآنيّة وجرّدنا الجملة من أيّة "دماء" قرآنيّة، ولبسنا ثوبنا اللغويّ المعتاد، وإذن فلن ينظر أحدٌ إلينا أو إلى جملتنا الأخيرة شزراً بعد الآن.

صفحة سورة (البقرة) - المقابل البشريّ:

فماذا يحدث لو تخلّصنا من هذه الحالة الانتقائيّة لآياتٍ معيّنةٍ فأجرينا مثل تلك التبديلات البشريّة على صفحةٍ كاملةٍ من القرآن لنتأكّد أكثر فأكثر أنّ هذه الحقيقة ليست مقتصرةً على بضع آياتٍ فيه، وإنّما تشمل النصّ القرآنيّ بكامله.

لنقف عند الصفحة الأولى نفسها من سورة (البقرة) التي سبق أن استخرجنا سبائكها الثلاث والعشرين؟ فأيّ شكلٍ من النصوص سيكون بين أيدينا لو قمنا بعمليّة التبديل هذه؟ وإلى أي مدىً سيكون النصّ الناتج معنا مقبولاً في الأوساط الأدبيّة أو اللغويّة، أو حتّى الشعبيّة؟

ومن المهمّ أن نشير هنا إلى أنّنا أردنا بهذه المحاولات التبديليّة أيضاً أن نعِين ذاكرتنا على التجرّد من عامل الألفة الذي من شأنه أن يسيطر إلى حدٍّ كبيرٍ على نظرتنا وأحكامنا، فائتلافنا للغة القرآن الكريم يقف باستمرار حائلاً بيننا وبين استحضار الصدمة التي شعر بها العربيّ الأوّل وهو يستمع إلى القرآن أوّل مرّة، وعمليّة التبديل هذه ستساعدنا على الخروج من "حالة الألفة" هذه والانتقال إلى "لحظة الصدمة" التي فقدناها اليوم، لنتبيّن بوضوح الصورة اللغويّة الجديدة للقرآن الكريم في شكلها الأصليّ، نقيّةً من الإشعاع المُعْشي لعنصر الأُلفة، ونتأكّد من اختلافها الواسع والكامل عن لغتنا البشريّة.

هذه هي آيات الصفحة المذكورة من جديد، ببنائها اللغويّ الأصليّ من غير تغيير، أي بسبائكها النحويّة القرآنيّة كما هي، ولكن بألفاظنا البشريّة:

> إنّ الذين عصَوا لا فرق عليهم أعاقبتموهم أم لم تعاقبوهم لا يطيعون. أغلق الزمن على عقولهم وعلى فهمهم، وعلى نظرهم غطاءٌ ولهم سجنٌ طويل. ومن الأشخاص من يقول صدّقنا بالحاكم وبالمحكمة وما هم بمصدّقين. يحتالون على الحاكم والمواطنين وما يحتالون إلّا على أنفسهم وما يُحسّون. في عقولهم علّةٌ فزادهم الزمن علّةً ولهم عقوبةٌ مؤلمةٌ بما كانوا يخدعون. وإذا قيل لهم لا تهدموا

في البلاد قالوا إنّما نحن بانون. ألا إنّهم هم المهدِّمون ولكن لا يميّزون. وإذا قيل لهم أطيعوا كما أطاع الآخرون قالوا أنطيع كما أطاع الحمقى، ألا إنّهم هم الحمقى ولكن لا يفهمون. وإذا قابلوا الذين أطاعوا قالوا أطعنا وإذا انفردوا إلى زعمائهم قالوا نحن بصفّكم إنّما نحن ساخرون. نحن نسخر منهم ونسهّل لهم في انحرافهم يتخبّطون. أولئك الذين استبدلوا الشرّ بالخير فما وُفِّقوا في صفقتهم وما كانوا رابحين.

تصوّروا لو أنّ بياناً حكوميّاً صدر صباح أحد الأيام وأذيع على الناس بهذه الصيغة، فماذا تتوقّعون أن تكون ردّة فعلهم؟ لقد ألغينا معظم الألفاظ القرآنيّة من الآيات الإحدى عشرة، وأحللنا مكانها ألفاظنا العاديّة، فهل استطعنا بذلك أن نُخفي حقيقة أصلها القرآنيّ؟ ألا تنطق كلّ جملةٍ، بعد أن "زوّرنا" تسعين بالمئة من الكلمات الأصليّة، بحقيقة هذا الأصل، وبانتمائها إلى السبيكة القرآنية المستعصية على التقليد؟ ومع ذلك نجد أنفسنا في النهاية أمام الحقيقة العارية، وهي أنّنا أخفقنا في سَحب "قارب" النصّ لإدخاله بأمانٍ في المياه الإقليميّة للّغة البشريّة، ولم نتمكّن من إقناع الآخرين بتقبّله والاعتراف به، فتحوّل إلى نصٍّ مثيرٍ للنفور وباعثٍ على السخرية إلى حدّ الإشفاق.

إنّني أعترف، بعد هذه المحاولات التبديليّة المتشابكة، والمناورات التجريبيّة المكثّفة، بأنّني أشعر وكأنّما أدرك أوّل مرّةٍ معنى الكلمات القرآنيّة الثلاث، وقد طالما قرآناها ولم ندرك عظمة معناها وما ترمي إليه من تحدٍّ مثير، وذلك قوله تعالى: ﴿لا مبدّل لكلماتِه﴾ [الأنعام: 115، والكهف: 27].

السبيكة النبويّة:

ولماذا نذهب بعيداً جدّاً؟ هذا حديث رسول الله ﷺ أمامنا، فهل ينطبق على لغته ما ينطبق على لغة السماء؟ هل سنواجه معه المشكلة التي واجهناها مع الآيات؟ وهل ستبقى سبائكه ناطقةً بحقيقة أصله النبويّ لو بدّلنا ألفاظه الأصليّة بألفاظٍ من عندنا، حتّى إن حافظنا على سبائكه كما هي؟

هل سنجد أمامنا في النهاية نصّاً مثيراً للسخرية والإشفاق كما حصل معنا في التجربة السابقة؟ وكيف نتأكّد من أنّ لغة النبيّ الكريم، على عظمتها وتفوّقها وتفرّد أسلوبها، هي أيضاً، خلافاً للغة السماء، لغةٌ بشريّةٌ قابلةٌ للاختراق أو التزوير، بحيث يصعب على غير المتمرّسين بهذا العلم اكتشاف ما يمكن أن يدخلها من وضعٍ أو إضافاتٍ أو تحريف؟

ومرّةً أخرى، ودفعاً لمنزلق "الانتقائيّة" في دراستنا، وعملاً بمبدأ (الأوائل) الذي أخذنا به في دراستنا حين درسنا سبائك الصفحة الأولى من القرآن الكريم، ثمّ حين اخترنا لتطبيقاتنا العمليّة، في هذا القسم من الكتاب، إحدى أوائل السوَر التي تنزّلت من القرآن (المدّثر)، نضع أمامنا الآن على طاولة الدراسة الأحاديث الخمسة الأولى من أشهر مجموعةٍ مختارةٍ لأحاديث الرسول ﷺ، وهي (رياض الصالحين) للإمام النوويّ، محاولين وضع أصابعنا على حقيقة الفرق، الذي لا يمكن أن يَخفَى على ذي نظر، بين اللغة الإلهيّة واللغة النبويّة:

1 - عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: "إنّما الأعمالُ بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومن كانت هجرتُه لِدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها فهِجرتُه إلى ما هاجرَ إليه"[8].

2 - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "يغزو جيشٌ الكعبةَ، فإذا كانوا ببيداءَ من الأرضِ يُخسَفُ بأوّلِهم وآخرِهم". قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، كيف يُخسَفُ بأوّلِهم وآخرِهم وفيهم أسواقُهم ومَن ليس منهم؟! قال: "يُخسَفُ بأوّلِهم وآخرِهم، ثمّ يُبعثون على نيّاتِهم"[9].

3 - عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبيّ ﷺ: "لا هجرةَ بعدَ الفتح، ولكنْ

(8) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج1، ص3. وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج3، ص1515.

(9) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج2، ص746. وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج4، ص2208.

جهادٌ ونيّةٌ، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا"[10].

4 - عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ﷺ قال: كنّا مع النبيّ ﷺ في غَزاةٍ فقال: "إنّ بالمدينةِ لَرجالاً ما سِرتُم مَسِيراً ولا قَطعتُم وادياً إلّا كانوا معكم، حبَسَهم المرض"[11].

5 - عن أبي يزيدَ معنِ بن يزيدَ بن الأخنس ﷺ، وهو وأبوه وجَدُّه صحابيّون، قال: كان أبي يزيدُ أخرجَ دنانيرَ يتصدّقُ بها، فوضَعَها عند رجلٍ في المسجدِ، فجئتُ فأخذتُها، فأتيتُه بها، فقال: "واللهِ ما إيّاكَ أردتُ، فخاصمتُه إلى رسولِ الله ﷺ فقال: "لكَ ما نوَيتَ يا يزيدُ، ولك ما أخذْتَ يا معْن"[12].

كنت أودّ أن أسترسل مع الأحاديث النبويّة، فأستشهد بالعشرة أو العشرين أو الخمسين، لولا خشية الإطالة، ولولا اطمئناني إلى النتيجة المؤكّدة في النهاية، قلّتِ الأحاديث التي أستشهدُ بها أو كثرت، إلى أنّ سبيكة الحديث الشريف في وادٍ وسبيكة القرآن الكريم في وادٍ بعيدٍ آخر.

حاولوا الآن معي أن نُجري على هذه الأحاديث النبويّة العمليّات الاستبداليّة نفسها التي أجريناها على الآيات القرآنيّة، وسوف تكتشفون أنّ الحدود مفتوحةٌ بين لغتنا ولغة الرسول ﷺ، إذ لا عائق أمامنا للعبور بلغتنا إلى السبيكة النبويّة، أو عبورها هي إلينا. إنّ بإمكاننا أن نستعيرها كاملةً، أو أن نُلبِسها بعض ألفاظنا، إذا أردنا لعبارتنا أن تكتسب القوّة والفصاحة التي تقدّمها لنا المدرسة النبويّة فائقة التميّز، لكن المحتفظةُ بأسلوبها النبويّ الخاصّ والمختلفِ تماماً عن الأسلوب القرآنيّ، وكذلك عن أسلوبنا البشريّ، بل التي يتميّز فيها أيضاً، وبشكلٍ واضح، أسلوب الحديث النبويّ العاديّ عن أسلوب الحديث القدسيّ كما أكّدنا دائماً.

---

(10) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج3، ص1025. وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج3، ص1488 .

(11) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج3، ص1518 .

(12) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج2، ص517.

إنّ من السهل لأيٍّ منّا أن يبني لنفسه عبارته الخاصّة مستخدماً أرضيّة السبيكة النبويّة الواردة في الحديث الأوّل "إنّما الأعمالُ بالنيّات" فيقول مثلاً: (إنّما العبرة بالنتائج) من غير أن يخشى الخروج على أعرافنا اللغويّة البشريّة أو أن يجد نفسه في موضع سُخريّةٍ أو اعتراضٍ من أحد.

ومن السهل أن تبني جملتك البشريّة الخاصّة على أساس السبيكة النبويّة التي تلي الأولى "وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى" فتقول مثلاً: (وإنّما لكلّ متسابقٍ ما أحرز) من غير أن تستشعر حرجاً لغويّاً، أو أن تخشى تعليقاً ساخراً من أحدهم أو اعتراضاً على عبارتك بقوله: (بل نقول كذا..) كما حصل معنا في العبارات القرآنيّة.

ومن السهل أيضاً أن تبني بلغتك العاديّة جملةً على نسَق بقيّة هذا الحديث، فتقول: (فمن كانت غايته الجهاد فأجره عظيم، ومن كانت غايته مالاً يربحه أو شهرةً ينالها فأجره هو ما اختار لنفسه) من غير أن تثير السخريّة أو النفور عند من يقرأونك أو يسمعونك..

وهذا ما يمكن أن نفعله مع السبائك النبويّة الواردة في الحديث الثاني، فنقول مثلاً في عباراتٍ توازي تلك السبائك من غير أن يثير عملُنا أيّ نفور أو اعتراض:

يَخطَف لصوصٌ طفلاً، فإذا اختبأوا بكهفٍ من الكهوف يُقبَض عليهم بقضّهم وقضيضهم...

وأترك للقرّاء أن يُتابعوا بأنفسهم هذا الاختبار مع بقيّة الأحاديث ليتبيّنوا صحّة ما نقول، مع اعترافنا بصعوبة تطبيق مثل هذه التجربة على لغةٍ كاللغة النبويّة التي تقترب بعبقريّتها من درجة الإعجاز، ولكن مع الاعتراف والتأكيد مرّةً أخرى أنّ البلاغة النبويّة، على هذا الجمال والفصاحة والتميّز، تظلّ، أوّلاً وأخيراً، لغةً بشريّةً وغير معجزةٍ أو مستحيلةٍ على الاختراق والتقليد مهما بلغت درجة بيانها أو تفوّقها.

إنّ لغة الحديث الشريف، بمعنىً آخر، لغةٌ لم تحصّنها السماء، فما

دامت غير إلهيّةٍ، وما دامت تتعامل مع الحياة اليوميّة والتفصيليّة للبشر، فهي في النهاية لغةٌ بشريّةٌ قابلةٌ للاختراق اللغويّ الذي يستحيل وقوعه مع القرآن.

لقد اختُرِقت لغة الحديث النبويّ حقّاً بآلاف الأحاديث الموضوعة، ولكن من غير أن يعني هذا أنّ علماءنا عجزوا عن ملاحقة تلك الأحاديث الدخيلة المنحولة. إنّهم استطاعوا، بمناهجهم التوثيقيّة المتفوّقة التي لم يعرف تاريخ البحث والتوثيق، في الشرق أو الغرب، وفي الماضي أو الحاضر، مثيلاً لها حتى الآن، أن يميّزوا، على نحو شبه مؤكّدٍ ونهائيّ، بين الحديث الصحيح والحديث الموضوع[13].

ولو لم يكن ذلك الاختراق اللغويّ حقيقةً واقعةً يؤكّدها العلماء المسلمون وغير المسلمين على السواء لما كان لدينا الآن علمٌ مختصٌّ بالحديث الصحيح والحسن والضعيف والموضوع. ثمّ إنّ علينا أن نتذكّر أن حديثاً له، مثلاً، ثلاث روايات، لا بدّ أن تعود روايتان منها على الأقلّ إلى أصولٍ غير نبويّةٍ اقترحها أو تصوّرها الرواة، من غير أن يشكّل ذلك ثلماً أو اختلالاً في سياق اللغة النبويّة.

أمّا لغة القرآن الكريم فقد أثبتت، من كلّ ما بيّناه حتّى الآن وما سنبيّنه من بعد، أنّها محصّنةٌ في تركيبها بما هو أشبه بجدارٍ مشفّرٍ واقٍ، فهي غير قابلةٍ للاختراق أو التقليد، بحيث ينكشف أيّ تزييفٍ تتعرّض له، مهما صغر، حتّى لأقلّ الناس معرفةً بلغة القرآن، ومن غير أن يحتاج الأمر إلى عالمٍ متخصّص.

---

(13) نبّه الرسول ﷺ في أحاديث عدّة إلى احتمال وقوع هذا الاختراق، ووضع للمسلمين أكثر من قاعدةٍ لتمييز أقواله عمّا يمكن أن يضعه الناحلون والمُغْرضون، كما في الحديث النبويّ: حدّثنا أبو عامر حدّثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد عن أبي حميد وأبي أُسيد أن النبيّ ﷺ قال: "إذا سمعتم الحديثَ عنّي تعرفُه قلوبُكم وتلينُ له أشعارُكم وأبشارُكم وترَون أنّه منكم قريب؛ فأنا أوْلاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنّي تُنكره قلوبُكم وتنفرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم (أي يكاد يظهر نفورُكم منه على شَعر جسدِكم وبَشَرَتِكم) وترَون أنّه منكم بعيد؛ فأنا أبعَدُكم منه". الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند أحمد بن حنبل**. القاهرة: مؤسسة قرطبة، (د. ت.)، ج5، ص425.

لقد ظلّت هذه الحقيقة على الزمن حائلاً بين لغة القرآن وأيّة محاولةٍ لاختراقها، مع سهولة انكشاف هذه المحاولات، حتّى للأناس العاديّين، حال ارتكابها، وهذا فرقٌ هامٌّ وجوهريّ بين التعامل مع كلٍّ من لغة القرآن الكريم ولغة الحديث الشريف.

ومن حقّنا أن نَعجب إذن، وربّما أكثر من مجرّد تعجّب، لكلّ روايةٍ قديمةٍ تتحدّث عن خلط بعضهم بين الحديث والقرآن، كالذي يرويه البخاريّ بسنده من طريق عطاءٍ قال:

> سمعتُ ابنَ عبّاسٍ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "لو أنّ لابنِ آدمَ مِثلَ وادٍ مالاً لأحَبَّ أنّ له إليه مثلَه، ولا يملأُ عينَ ابنِ آدمَ إلّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ". قال ابنُ عبّاس: فلا أدري، مِن القرآنِ هو أم لا؟

لا نبالغ إذن حين نقول: إنّ وراء كلّ آيةٍ أو تركيبٍ أو عبارةٍ أو سبيكةٍ لغويّةٍ في القرآن الكريم جديداً لم يعرفه العرب قبل القرآن، كما لن يعرفوا معظمه، من بعده. لقد ظلّت السبيكة القرآنيّة الجديدة عصيّةً على التقليد حتّى الآن، منذ اللحظة الأولى التي تنزّلت فيها الآيات الكريمة على الرسول ﷺ.

وما زال التحدّي الإلهيّ للعرب بأن يأتوا بمثله بل (بسورةٍ مِن مثله) قائماً كأنّما نزل للتوّ، لم ينَل منه شيءٌ أو يقفْ له معاندٌ على توالي العبقريّات ومرور الأحقاب.

الفصل الرابع

التراكيب والتعبيرات القرآنيّة

قبل أكثر من خمسين عاماً قرأت كتاباً جميلاً في الحبّ العفيف لشيخ العربيّة مصطفى صادق الرافعيّ اسمه "أوراق الورد: رسائله ورسائلها"، ثمّ أُنسِيتُ معظم ما قرأته فيه، ولكنّني لم أنسَ أبداً، ولن أنسى، تلك المقدّمة "المفاجأة" التي ابتدأ بها إحدى رسائله الورديّة، حين قلبَ عبارتَنا الافتتاحيّة التقليديّة لرسائلنا وخُطبنا (أمّا بعد..) لتصبح عنده:

(أمّا قبل..)!

إنّها مجرّد عبارةٍ جديدةٍ متميّزةٍ واحدة، افتُتحت بها رسالةٌ طويلةٌ واحدة، بين رسائل عديدةٍ تضمّنها كتابٌ واحدٌ من كتب الشيخ العديدة، فاستطاعت أن تخترق حدودَ الزمان وعواملَ النسيان بما حقّقته من عنصر المفاجأة والخروج على العُرف اللغويّ المتعاهَد.

فكيف بك لو غيّر الرافعيّ كلّ لغة هذه الرسالة، بل لغة كلّ الرّسائل التي ضمّها كتابُه، وأعاد بناء ألفاظها وتراكيبها وعباراتها فجعلها من نوع (أمّا قبل)؟ ماذا سيترك ذلك من أثرٍ في نفس القارئ الذي يقرأها أوّل مرّة؟

من المؤكّد، كما ستتوصّل إليه هذه الدراسة، أنّ عدد (أمّا قبل) في كلّ سورةٍ من سور القرآن -أقصد ما يوازي هذه العبارة من مواقع لغويّةٍ تجديديّة- يفوق عددَ كلمات السورة.

وهذه الكثافة غير العاديّة للّبِنات التجديديّة ترسم لنا خطّاً بيانيّاً لحجم الظاهرة التجديديّة في القرآن الكريم، ومن ثمّ لدرجة الإعجاز التي فاجأ بها

العربَ الأوائل، ولطبيعة الصدمة التي أحدثها فيهم عند اللحظة الأولى للتلقّي، بحيث أدّت بكثيرٍ منهم إلى التسليم والارتماء الفوريّ بأحضان الدين الجديد حال سماعهم للآيات الأولى من الوحي.

وما أحوجنا اليوم إلى دراسةِ ما دخل في العربيّة، وما لم يدخل بعد -وربّما لن يدخل أبداً-، من تعبيراتٍ وتراكيب لغويّةٍ قرآنيّةٍ لم تعرفها قبل الإسلام، فنقوم برصدها وجمعها وتصنيفها تصنيفاً معنويّاً، إذن لحصلنا على معجمٍ فريدٍ يسدّ ثغرةً كبيرةً، لم يَقم لها أحدٌ بعدُ، في معرفة التطوّر التاريخيّ للغتناً العربيّة، وإمكاناتها المستقبليّة.

صدمة الجِدّة في التعبير والتركيب:

إنّ تفرّد التركيب والتعبير القرآنيّين، وجدّة الألفاظ القرآنيّة، وكذلك العلاقات المختلفة التي أوجدها القرآن بين هذه الألفاظ، كثيراً ما كانت تضع العرب مع بداية تنزّل الوحي أمام تساؤلاتٍ عديدةٍ قبل أن يستقرّ قرارهم على معناها أو المراد منها، من غير أن يعني هذا الاستقرار، في كثيرٍ من الأحيان، الخروج بمعنىً نهائيٍّ لها غير قابلٍ للمناورة والحركة، ضمن المعنى الأساسيّ العام، بحيث يظلّ التعبير منفتحاً للأحداث والتطوّرات والظروف المختلفة التي ستمرّ بالمسلمين من بعد، وهذا ما سنفصّل القول فيه عند دراستنا للّغة المنفتحة للقرآن الكريم.

وقد حدث أن وقف الرسول ﷺ نفسه متسائلاً حائراً أمام بعض الآيات لدى تنزُّلها، كما في حديث الشَّعبيّ[1] وفيه:

> لمّا أنزل الله (خذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلين) قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أدري حتّى أسألَ العالِم. فذهب ثمّ رجع فقال: إنّ اللهَ أمرَكَ أن تعفوَ عمّن ظلمك، وتعطيَ من حَرَمَك، وتَصِلَ مَن قَطَعَك.

---

(1) السيوطي، **الدر المنثور**، مرجع سابق، ج3، ص628.

وهكذا فوجئ العرب بفيضانٍ من التراكيب والتعبيرات الجديدة التي تكاد تكون مبثوثةً في كلّ آية، واستطاع بعضها أن يأخذ طريقه بسهولةٍ إلى ألسنة الناس، عن وعي أو عن غير وعي، بحيث اتّخذت العربيّة بعد الإسلام حُلّةً مغايرةً تماماً لما كانت عليه قبل الإسلام. ولا نغالي لو قلنا إنّ كلّ تعبيرٍ أو تركيبٍ في القرآن يكاد يكون جديداً على لغة العرب، وربّما ما يزال يحتفظ بجدّته إلى يومنا هذا، فلم يدخل أكثر هذه التعابير والتراكيب في لغتنا، القديمة منها والحديثة، أبداً.

حدود التركيب والتعبير:

بدهيٌّ، حين ندرس التراكيب والتعبيرات والسبائك والعلاقات اللغويّة في القرآن الكريم، أن نواجه أحياناً بعض الصعوبات في رسم حدودٍ واضحةٍ بين هذه العناصر، ولكنّنا سنحاول ألّا نتجاوز في هذا الفصل المِنطقة التي يتقاسمها التعبير والتركيب، فلا نتراجع مثلاً إلى منطقة اللفظ المفرد المجرّد لأنّ هذه المنطقة مختصّةٌ بالألفاظ والمصطلحات وحدها، ولا نتقدّم إلى منطقة الألفاظ الأربعة فما فوق لأنّنا سنكون معرَّضين بذلك لأن نرتع في تخوم السبيكة، وهي الوحدة اللغويّة الكبرى التي يمكن أن تحتوي أو يدخل تحتها التركيب والتعبير، ولكنها لا تدخل تحتهما أو يحتويانها.

وعلى هذا فلن نرصد في هذا الباب إلّا الصيَغ التي تتألّف على الأغلب من لفظين أو ثلاثة ألفاظٍ، وما يقوم من هذه الصيغ على علاقةٍ لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّةٍ جديدةٍ لم تعرفها اللغة العربيّة قبل القرآن الكريم.

ولكنْ كثيراً ما تتداخل الحدود بين التركيب والتعبير بحيث نواجه صعوبةً في التفريق بينهما، ولهذا اصطلحنا في هذا البحث على أن يكون (التركيب) هو ما يعتمد أساساً على العلاقات بين الأدوات والحروف أكثر منه على العلاقات بين الأسماء والأفعال، وهو لا يقدم لنا على الأغلب معنىً كاملاً، على حين يقوم بناء (التعبير) على الأسماء أو الأفعال أكثر منه على الأدوات أو الحروف، وغالباً ما يقوم وحده بالمعنى كاملاً.

التركيب القرآنيّ:

لقد حمل القرآن الكريم إلى العرب دفعةً واحدة، وخلال فترة السنوات القليلة التي استغرقها تنزّله، آلافاً من التراكيب والتعبيرات الجديدة التي امتلأت بها سوَرُه القصيرة والطويلة على حدٍّ سواء، التي دخل كثيرٌ منها في معاجم لغتهم الأدبيّة واليوميّة، وإنّ ظلّ معظمها مقتصراً على القرآن وحده فلم يسمح تفرّدُه وتميّزُه الشديدان بالتسرّب إلى تلك المعاجم.

قد نقرأ آيات الله تعالى يوميّاً، وقد تمرّ بنا عشراتٌ من هذه التراكيب في كلّ قراءة، ثمّ لا نتوقّف عندها أبداً أو نرى فيها ما هو غير عاديٍّ أو غير مفهوم، ذلك لأنّنا ألِفناها في قراءتنا القرآنيّة واعتدنا ألّا نتوقّع إلّا مثلها. ولكن لو توقّفنا عندها مَليّاً، وفرّغنا ذواكرنا من أُلفتها للغة القرآن الكريم، وعُدنا بها إلى لغتنا العاديّة، الأدبيّة أو اليوميّة، حتّى كأنّنا لم نعرف لغةً غيرها، عندها سنجد أنفسنا وجهاً لوجهٍ أمام هذه الأسئلة الخطيرة: هل هذه هي لغة حديثي؟ وهل هي لغة كتابتي؟ وهل هي لغة كتابة أو حديث أيٍّ من الآخرين حولي؟

اقرأوا معي التراكيب التالية، ومعظمها ممّا يتردّد بكثرةٍ في القرآن، وسوف تتبيّنون باستعراضٍ سريعٍ لها تميّزها الواضح عن تراكيبنا البشريّة، وقد وضعتها بإزائها:

- ﴿مَن ذا الذي﴾: مَن الذي
- ﴿هل عسَيتُم﴾: هل يُنتظَر منكم
- ﴿فإذْ لم يَأتُوا﴾: فما داموا عاجزين عن أن يأتوا
- ﴿بَعْدَ إذْ﴾: بعد أن
- ﴿وكذلكَ جَعلْنا﴾: وهكذا جعلنا
- ﴿وإنّ كُلّاً لمّا﴾: وكلُّ واحدٍ منهم
- ﴿أوَلَمْ تكونوا أقسَمْتُمْ﴾: ألم تُقْسِموا
- ﴿إنْ كادَ لَيُضِلُّنا﴾: كاد أن يُضِلّنا
- ﴿أفَأنتَ تكون﴾: فكيف تكون

- ﴿أَوَلو جئتُكَ﴾: حتّى إن جئتُك
- ﴿فلمّا أنْ جاء﴾: فلمّا جاء
- ﴿إنّا لَنحن الغالبون﴾: إنّنا سنغلبهم
- ﴿فيما ههنا آمنين﴾: آمنين هنا
- ﴿قليلاً ما﴾: ما أقلّ
- ﴿إنّ هذا لَهو﴾: إنّه حقّاً
- ﴿أإنّكَ لأنتَ﴾: لا شكّ أنّك
- ﴿أإنّا لَمُخْرَجون﴾: هل سنُخرَج
- ﴿وَيْكأنّه﴾: عجباً لهذا
- ﴿أثُمّ إذا ما وقع﴾: فإذا وقع بعد ذلك
- ﴿ثمّ أنتمْ هؤلاء﴾: وها أنتم الآن
- ﴿ها أنتم أُولاءِ﴾: انظُروا كيف
- ﴿ومِنْ قَبْلُ ما فَرّطْتُم﴾: وقد فرّطتم قبل ذلك
- ﴿وما كان لكمْ أنْ﴾: لا يجوز لكم
- ﴿ما يكونُ ليْ أنْ﴾: لا يجوز لي
- ﴿وكأيِّنْ مِنْ نبيٍّ﴾: وكم من نبيّ
- ﴿إنّما ذلكُمُ الشيطان﴾: إنّه الشيطان
- ﴿أوَلَمّا أصابَتْكُم﴾: فإذا أصابتكم
- ﴿لم يَكنِ اللهُ لِيَغفِرَ﴾: لن يغفر الله
- ﴿ولو أنّهمْ إذْ ظَلَموا﴾: ولو أنّهم حين ظلموا
- ﴿فلا وربِّكَ لا يُؤمنون﴾: أُقسِمُ إنّهم لن يؤمنوا
- ﴿إلّا تَنْفِروا﴾: إنْ لم تَنفروا
- ﴿هل لكَ إلى أنْ﴾: أدعوكَ إلى أنْ

وبدهيٌّ أن يقلّ عدد التراكيب القرآنيّة الجديدة، شأنها شأن التراكيب

الأخرى غير الجديدة، عن عدد التعبيرات. إنّ التراكيب، كما أوضحنا، مبنيّةٌ على العلاقات بين الأدوات، وهذه الأدوات في العربيّة، وفي غير العربيّة أيضاً، محدودة العدد، مع التجديد القرآنيّ وتوسّعه وتنوّعه المذهل في استخدامها، أمّا التعابير فتقوم على الأسماء أو الأفعال، وهذه أكثر من أن تُحصى.

ولتكون الصورة أمامنا أكثر وضوحاً سنتوقّف عند عشرين تركيباً قرآنيّاً جديداً اخترناها عشوائيّاً، وسنكون فيها أكثر حرصاً على وضعها ضمن سياقاتها في الآيات لتعيننا بوضوح على تقدير حجم المفاجأة التي أحدثتها في نفوس العرب ساعة نزل الوحي عليهم، وسيساعدنا عرض معانيها بجانبها على تصوّر الفرق بين التركيب القرآنيّ والتركيب البشريّ. وسيكون من المفيد جدّاً أن نطرح على أنفسنا بعد قراءة كلّ تركيبٍ الأسئلةَ الأربعة التالية:

1 - هل حدث، أو يمكن أن يحدث، أن أعبّر أنا عن هذا المعنى بهذه الطريقة؟

2 - وهل وجدت، أو يمكن أن أجد، مثل هذا التركيب عند الأدباء والشعراء العرب؟

3 - ولو حدث أن استخدم بعضُ هؤلاء واحداً منها فهل ستَفوت علينا قرآنيّتُه، أم سيبدو لنا وكأنّه يصيح بصوتٍ مرتفع: إنّني تركيبٌ قرآنيّ؟

4 - ومهما اجتهدتُ لإيجاد خياراتٍ أخرى، وطرقٍ للتعبير عن هذا المعنى بأسلوبي الخاصّ، فهل سيوافق تركيبي، ولو بالمصادفة، التركيبَ القرآنيّ؟

ربّما ترون في طرح أربعة أسئلة أمام كلّ نموذجٍ من النماذج العشرين أمراً مرهِقاً وطويلاً، ولكنّني متأكّدٌ من أنّكم ستستمتعون بالنتائج المفاجِئة التي ستحصلون عليها بعد الإجابة عن كلّ سؤال.

لنبدإ المحاولة إذن مع التراكيب القرآنيّة التالية، وقد ميّزت التركيب المقصود عن تتمّة الآية بالحرف الداكن:

1 - ﴿**لو أنّ لنا** كرّةً﴾ (أي لو أُتيحَت لنا)

2 - ﴿**ولهمْ فيها** ما تشتهي أنفسُهم﴾ (أي سينالون فيها)

3 - ﴿**همْ فيها** خالدون﴾ (أي سيكونون فيها)

4 - ﴿**وإذْ قلنا** للملائكة﴾ (أي ذكّرهم أو نبّئهم بما قلنا)

5 - ﴿**ذلكَ بأنّهم** كانوا يكفُرون بآيات الله﴾ (أي فعلنا ذلك بهم لأنّهم)

6 - ﴿لا فارضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ **بينَ ذلك**﴾ (أي هي متوسّطة بين العمرين)

7 - ﴿**إنّه كان** وعْدُه مَأْتِيّاً﴾ (أي إنّه دائماً)

8 - ﴿**حتّى إذا** بلغَتِ التراقيَ﴾ (أي فإذا جاء الوقت المقرّر)

9 - ﴿**إلاّ أنْ** تأتيَهم سُنّةُ الأوّلين﴾ (أي إلّا بعدَ أنْ)

10 - ﴿**لَمَا** آتَيْتُكُمْ.. **لتُؤمِنُنّ**﴾ (أي إذا آتيتكم - أعطيتكم - ستؤمنون)

11 - ﴿**ولو** تَرى **إذْ** يَتوَفّى﴾ (أي فكيف لو رأيتَهم حين)

12 - ﴿**ألا ساءَ ما** يَزِرون﴾ (أي ما أسوأ ما)

13 - ﴿**فلولا إذْ** جاءهمْ بأسُنا﴾ (أي فهلّا فعلوا ذلك عندما)

14 - ﴿**ثُمّ إذا أنتم** بشَرٌ تنتشرون﴾ (أي ثمّ تتحوّلون بعد ذلك)

15 - ﴿**إذَا لهمْ** مَكْرٌ في آياتِنا﴾ (أي فكانت النتيجة أن وقع منهم)

16 - ﴿**هل لكَ إلى أنْ** تَزَكّى﴾ (أي إنّني أدعوكَ إلى أن)

17 - ﴿**فيمَ أنتَ مِنْ** ذِكراها﴾ (أي أين أنت من العلم بهذا الأمر)

18 - ﴿**واجعلْ لنا مِن لدُنْكَ** سلطاناً﴾ (أي وامنحنا من عندك)

19 - ﴿**أوَلو كان** الشيطانُ﴾ (أي هل كانوا سيفعلون هذا لو أنّ)

20 - ﴿**أئنّا لَفي** خَلْقٍ جديدٍ﴾ (أي هل سنعود بعدها)

هه؟ هل استمتعتم بهذه المغامرة اللغويّة؟ وهل تأكّدتم أنّ معظم هذه التراكيب ظلّ قاصراً على الاستعمال القرآنيّ حتّى اليوم، وأنْ لا مجال للمقاربة أو المشابهة بينها وبين تراكيبنا البشريّة، مهما تنوّعت أساليبنا، شأنها في هذا شأن التعبيرات القرآنيّة أيضاً؟

التعبير القرآنيّ:

يتكوّن التعبير من نشوء علاقةٍ بين لفظين أو أكثر من أسماءٍ أو أفعال. وتنعقد هذه العلاقة مباشرة بين اللفظين، أو مستعينةً أحياناً بالأدوات والحروف. وبدهيٌّ بهذا، كما سبق أن ذكرنا، أن تزداد كثافة استعمالها في القرآن على نسبة استعمال التراكيب بوضوح. ويتراوح عدد أجزاء التعبير على الأغلب بين لفظين وثلاثة ألفاظ، ونادراً ما يكون أربعة، وقد يتخلّل هذه الألفاظ أداةٌ أو أكثر. ولا يمكن أن يقتصر التعبير على لفظٍ واحد، إلّا أن يكون هذا اللفظ مركّباً من أكثر من جزءٍ (حين يتّصل بالضمائر أو الأدوات).

والتعبيرات الجديدة كثيرةٌ جدّاً في القرآن الكريم تكاد لا تخلو منها آية، ولنا أن نتبيّن كثافتها من استعراضٍ سريعٍ لهذه النماذج التي اختيرت عشوائيّاً وعلى عجل، ومن صفحاتٍ محدودة من القرآن:

بادِيَ الرأي - عُمِّيَتْ عليكم - فلا تبتئس - وكان في مَعْزِلٍ - اعتَراكَ بسوءٍ - أَوْجَسَ منهم خَيْفَةً - هذا بيانٌ للناس - مِن فَورِهم هذا - ولا تَلْوُون على أَحدٍ - ضاقَ بهم ذَرْعاً - يومٌ عَصيب - اتّخذتُموهُ وراءَكُم ظِهْرِيّاً - اِعمَلوا على مَكانتِكم - الآن حَصحَص الحقُّ - إلّا بشِقِّ الأنفُس - فأَلْقَوُا السَلَمَ - المَثَلُ الأعلى - شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً - بالتي هي أحسن - تَوَلّى كِبْرَه - ليس عليكم جُناحٌ - دَعَوا ثُبوراً - هَباءً مَنثوراً - تحيّةً وسَلاماً - صَديقٌ حَميم - ما ينبغي لهم - وقع القَولُ عليهِم - بَلَغَ أَشُدَّه - خائفاً يترقّب - خَيرٌ وأبْقَى - قد أُوتِيْتَ سُؤلَكَ - يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ - جَزاءُ الضِّعْف - مَثْنَى وفُرادَى - مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ - يُبْدِئُ ويُعيدُ - أَنَّى لهمُ التناوُشُ - عَذْبٌ فُراتٌ - مِلْحٌ أُجاجٌ - ما يَملِكون مِن قِطْمير - يوم القيامة - ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير - سِرّاً وعَلانِيَةً - دارُ المُقامَة - ذات الصدور - طَمَسْنا على أَعْيُنِهم - قاصراتُ الطَّرْف - ولاتَ حِيْنَ مَناصٍ - وعَزّني في الخِطاب - ورجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ - آسَفُونا - فتوَلَّى برُكْنِه - إنّك بأعيُنِنا - سِدْرَةُ المُنتَهَى - يَحْلِفون على الكَذِبِ - ناشئة الليل - أشدُّ وَطْأً - أَقْوَمُ قِيلاً - سَبْحاً طويلاً..

وللمساعدة على استيعاب طبيعة التعبير القرآنيّ وتميّزه عن التعبير البشريّ، لنقفْ وقفةً أخرى مع خمسةٍ وعشرين نموذجاً ظلّ معظمها حتى الآن

خاصّاً بالقرآن الكريم ولم يتسرّب إلى لغتنا، على حين وَجد بعضها طريقه حقّاً إلى ألسنتنا وأقلامنا، وبصورةٍ أوسع وأسرع بكثيرٍ ممّا حدث مع التراكيب، مع استمرار احتفاظه، مع ذلك، بالهُويّة القرآنيّة التي تميّزه عن لغتنا.

ومرّةً أخرى، لا بدّ من طرح الأسئلة الأربعة نفسها أمام كلّ تعبيرٍ، لتَبيُّن قرآنيّته، ولمعرفة مدى تسرّبه إلى لغتنا، أو انحصاره حتّى الآن في لغة القرآن الكريم، مع تأكيدنا على أنّها جميعاً، أوّلاً وأخيراً، تركيباتٌ قرآنيّةٌ لم يعرفها العرب قبل الإسلام:

1 - ﴿**تصريف الرياح**﴾ (أي إثارتها وتوجيهها)

2 - ﴿**تقطّعت بهمُ الأسباب**﴾ (أي تفرّقوا)

3 - ﴿**في شِقاقٍ بعيد**﴾ (أي على عداوةٍ شديدة)

4 - ﴿**الرَفَثُ إلى نسائكم**﴾ (أي الاتصال بهنّ)

5 - ﴿**أخذَتْه العزّةُ بالإثم**﴾ (أي استكبر ورفض التسليم بالحقّ)

6 - ﴿**خاويةٌ على عروشها**﴾ (أي متهدّمة، أو مقفرة)

7 - ﴿**على شَفا حُفْرة**﴾ (أي وشيك الحدوث أو السقوط)

8 - ﴿**مِن عَزْمِ الأمور**﴾ (أي ممّا يتطلّب العزيمة والقوّة)

9 - ﴿**وأُحضِرتِ الأنفسُ الشُحَّ**﴾ (أي جُبِلَ الإنسانُ على البُخل)

10 - ﴿**سَفِهَ نفسَه**﴾ (أي ضيّع عقله)

11 - ﴿**هُدنا إليك**﴾ (أي تُبْنا أو مِلْنا أو عُدْنا إلى هَدْيك)

12 - ﴿**أرأيتَكُم**﴾ (أي ما رأيكم لو حدث)

13 - ﴿**أكادُ أُخفيها**﴾ (أي قريبةٌ جدّاً)

14 - ﴿**حتّى تكون حَرضاً**﴾ (أي حتّى تمرض أو تَهلك)

15 - ﴿**فاصدعْ بما تُؤمَر**﴾ (أي نفّذْ ما أُمِرتَ به)

16 - ﴿**حمأٍ مسنون**﴾ (أي وحْلٍ آسِن)

17 - ﴿**قَصْدُ السبيل**﴾ (أي الهداية إلى الطريق الصحيح)

18 - ﴿**إلى أجلٍ مسمّىً**﴾ (أي في موعدٍ محدّد)

19 - ﴿**مِن بين يديه**﴾ (أي في الماضي، أو في المستقبل)

20 - ﴿**مِن خَلْفِه**﴾ (أي في المستقبل، أو في الماضي)

21 - ﴿**خَلَتْ مِن قبلِكم**﴾ (أي عاشت في العصور القديمة)

22 - ﴿**مَجْمَعَ البحرَين**﴾ (أي مكان التقائهما)

23 - ﴿**أرذَل العمُر**﴾ (أي الشيخوخة)

24 - ﴿**فأَجمِعوا أمْرَكُم**﴾ (أي اتّفِقوا على رأي)

25 - ﴿**فادّارَأْتُم فيها**﴾ (أي اتّهم كلٌّ منكم الآخَر).

إنّني واثقٌ من أنّ انطباعكم عن قائمة التعبيرات هذه سيكون مختلفاً عن انطباعكم الذي خرجتم به عن قائمة التراكيب. لقد كانت التعبيرات دائماً أكثر قدرةً وقابليّةً على التسرّب إلى لغتنا البشريّة من التراكيب القرآنيّة، والسبب في ذلك أنّ التراكيب أقرب، بطبيعتها النحويّة، إلى السبيكة، فهي تقوم مثلها، ولو جزئيّاً، على علاقاتٍ بنائيّةٍ تركيبيّةٍ متّسعة الخيارات وغنيّة الاحتمالات بين الأدوات النحويّة والكلمات، وهو ما يجعل أمر تقليدها أقلّ احتمالاً وأبعد منالاً، على حين يتراجع دور هذه العلاقات البنائيّة بين أجزاء التعبير ليتقدّم عليها دور الكلمة، اسماً أو فعلاً، ودور العلاقات المعنويّة والبيانيّة الفائقة الخصوبة بين الحشد الهائل لألفاظ هذين العنصرين.

وهكذا نرى أنّ معظم التراكيب أو التعبيرات القرآنيّة أبلغ قرآنيّةً وأشدّ تفرّداً وأكثر جهراً بسماويّته من أن يتسرّب إلى لغتنا، الرسميّة المكتوبة منها أو اليوميّة العاديّة، فظلّ بهذا بعيداً عن منافذ الدخول إليها أو احتمالات استعمالنا له، شأنه شأن السبائك القرآنيّة.

ومع هذا فإنّ كثيراً من التعبيرات القرآنيّة، وكذلك بعض التراكيب أيضاً، دخل معجم لغتنا المتداولة فأصبح جزءاً منها، بحيث نكاد ننسى أصوله القرآنيّة، وأركّز على كلمة (نكاد)، وبحيث يصعب أن نستغني عنه في كتاباتنا وأحاديثنا، كالتعبيرات (5 و6 و7 و18 و23) من النماذج التي أوردناها.

وما يزال هناك الكثير من التعبيرات والتراكيب القرآنيّة مرشَّحاً للدخول إلى لغتنا في المستقبل، الرسميّة منها والمحكيّة، لو عرفنا كيف نفتح أبواب هذه اللغة على نحو أوسع أمام التأثير القرآنيّ.

التراكيب القرآنيّة في (المدّثّر):

ولأنّ سورة (المدّثّر) هي إحدى أوائل السور التي أُنزلت على الرسول ﷺ، إن لم تكن أوّلَها على الإطلاق، فمن المهمّ أن نقف عندها في دراستنا للظواهر اللغويّة الجديدة المختلفة في القرآن، كما سبق أن وعدنا، حتّى نضع أيدينا من خلالها على مساحة هذه الظواهر كما ظهرت في الدفقات الأولى من الوحي وهي تتنزّل ملء سمع وبصر العربيّ الأوّل في مكّة.

ورغم محدوديّة حضور التركيب مقارنة بحضور التعبير في اللغة العربيّة، أو في أيّة لغةٍ أخرى كما سبق أن أوضحنا، فبإمكاننا العثور في سورة (المدّثّر) على التراكيب الجديدة الاثني عشر التالية:

1 - فذلكَ يومَئذٍ

2 - كلّا إنّهُ

3 - فقُتِل كيفَ

4 - ثمّ قُتِلَ كيف

5 - إنْ هذا إلّا

6 - وما أدراكَ ما

7 - كذلكَ يُضِلُّ

8 - كلّا والقمر

9 - لم نَكُ مِن

10 - فما لَهمْ عن

11 - كلّا بل لا

12 - إلّا أنْ يشاء

ولو اقترحنا البدائل البشريّة لهذه التراكيب الاثني عشر فستكون شيئاً من هذا القبيل:

1 - فإنّ ذلك اليوم سيكون

2 - ليس الأمر كذلك، بل هو

3 - فقاتلَه الله جزاء فَعله

4 - وقاتلَه الله أكثر وأكثر

5 - وما يزيد هذا عن أنّه مجرّد

6 - (من التعبيرات القرآنيّة السائرة اليوم)

7 - هكذا تتبيّن كيف يُضِلّ

8 - دعْك من كلّ ذلك فأنا أُقسِم بالقمر

9 - لم نكُنْ في الحياة الدنيا بينَ من

10 - فما بالُهم منصرفين عن

11 - بل هذا غير ممكنٍ أو صحيح، وإنّما الأمر أنّهم لا

12 - إلّا في حالةٍ واحدة: أن يشاء الله

ولأنّنا حريصون على ألّا تختلط عندنا التعبيرات بالسبائك، فالحدود بينهما هشّةٌ ورقيقةٌ كما ألمحنا، مثلها مثل الحدود بين التراكيب والتعبيرات، ومع اضطرارنا أحياناً إلى أن نجعل بين التعبيرات ما يقوم على أربعة ألفاظٍ قد تتخلّلها أداةٌ أو أداتان، كالتعبير القرآنيّ (يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ) مثلاً، فسنحصر أنفسنا في هذه الدراسة، ما استطعنا، بالتعبيرات التي تقتصر على لفظين، وقد يكون معهما أداةٌ أو أداتان على الأكثر، بحيث تتميّز التعبيرات التي نختارها هنا عن السبائك، وهي التي يُفترض فيها ألّا تقلّ عادةً عن أربعة ألفاظٍ أو خمسةٍ، وقد تمتدّ لتستغرق سطراً كاملاً، مع اعترافنا دائماً بحتميّة وجود مناطق حدوديّةٍ رخوةٍ بين التعبير والسبيكة يصعب فيها تحديد مواطَنة كلٍّ منهما على نحو قطعيّ.

التعبيرات القرآنيّة في (المدّثّر):

ربّما كان من الأجدر بنا، ونحن نحصي التعبيرات الجديدة في (المدّثّر)، أن نسأل أنفسنا: وهل هناك أصلاً أيّ تعبيرٍ غير جديدٍ في السورة؟

تتألّف (المدّثّر) من 56 آيةً في أقلّ من صفحتين، ومعظم آياتها (ثلاثون آية على الأقلّ) لا تتجاوز مساحتها كلمتين أو ثلاثاً، ومع ذلك فإنّ بإمكاننا أن نحصي فيها ما لا يقلّ عن 65 تعبيراً قرآنيّاً جديداً.

هل تصوّرتم حجم الكتلة التعبيريّة الجديدة في السورة؟ 65 تعبيراً جديداً في 56 آيةً لا يزيد ألفاظ معظمها على كلمتين أو ثلاث، ممّا يعني أنّ التعبير الواحد غالباً ما يستغرق الآية بكاملها، من ناحية، وأنّ التعبيرات الجديدة، من ناحيةٍ أخرى، لم تترك مكاناً يُذكر، إن تركت أيّ شيءٍ على الإطلاق، للتعبيرات التي عرفها العرب قبل القرآن.

لقد ظلّ استعمال معظم هذه التعبيرات مقتصراً حتّى الآن على القرآن الكريم وحده، فلم يتسرّب أكثرها إلى لغتنا اليوميّة أو الرسميّة، شأنها شأن السبائك القرآنيّة أيضاً، وهذه الحقيقة تعطينا فكرةً مبسّطةً أخرى عن حجم وقوّة الإعصار اللغويّ الذي كان يواجهه المعجم العربيّ الجاهليّ منذ اللحظات الأولى لتنزّل الوحي من السماء.

لن تجدوا أيّاً من هذه التعبيرات في تراثنا الجاهليّ، ولن تجدوا معظمها حتّى في الحديث النبويّ، ولا في التراث العربيّ الذي بين أيدينا الآن، الذي يمتدّ منذ عصر النبوّة حتّى اليوم، بل، وما هو أبعد وأغرب وأكثر إثارةً من ذلك، إنّ اثنين وخمسين من هذه التعبيرات (52 من أصل 65) تقتصر على (المدّثّر) وحدها ولا تتكرّر في أيّةِ سورةٍ أخرى.

إنّ هذه الحقيقة تؤكّد لنا هنا ليس جدّة اللغة القرآنيّة فحسب، بل فكرة تفرّد كلّ سورةٍ بشخصيّتها اللغويّة المستقلّة أيضاً، وهذا أمرٌ سنتوقّف عنده باستمرار عند دراستنا لقصار السور في القسم الثاني من الكتاب. وهذه هي التعبيرات الجديدة الخمسة والستّون في السورة:

1 - ﴿يا أيّها المدّثّر﴾

2 - ﴿قُمْ فأنذِرْ﴾

3 - ﴿وربَّكَ فكبِّرْ﴾

4 - ﴿وثيابَك فطهِّرْ﴾

5 - ﴿والرُجزَ فاهجُرْ﴾

6 - ﴿ولا تَمْنُنْ تَستكثِر﴾

7 - ﴿ولربِّكَ فاصبِرْ﴾

8 - ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾

9 - ﴿يومٌ عسير﴾

10 - ﴿على الكافِرين غَيْرُ يسير﴾

11 - ﴿ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيدا﴾

12 - ﴿وجَعلتُ له مالاً﴾

13 - ﴿مالاً ممدوداً﴾

14 - ﴿بنين شُهوداً﴾

15 - ﴿مهّدتُ له تمهيداً﴾

16 - ﴿يَطمَعُ أنْ أزيد﴾

17 - ﴿كان لآياتِنا عنيداً﴾

18 - ﴿سأُرهقُه صَعوداً﴾

19 - ﴿فَكَّرَ وقَدَّر﴾

20 - ﴿فقُتِل كيفَ قَدَّر﴾

21 - ﴿عَبَسَ وبَسَر ﴾

22 - ﴿أَدْبَرَ واستَكبر﴾

23 - ﴿سِحْرٌ يُؤثَر﴾

24 - ﴿سأُصْلِيه سَقَر﴾

25 - ﴿لا تُبْقي ولا تَذَر﴾

26 - ﴿لَوّاحَةٌ للبَشَر﴾

27 - ﴿أصحابَ النار﴾

28 - ﴿وما جَعَلْنا عِدّتَهم﴾

29 - ﴿فِتنةً للّذين كَفَروا﴾

30 - ﴿الذين أوتوا الكتابَ﴾

31 - ﴿يزدادَ الذين آمَنوا إيماناً﴾

32 - ﴿في قلوبِهم مرضٌ﴾

33 - ﴿أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً﴾

34 - ﴿يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاء﴾

35 - ﴿ويَهدي مَن يشاء﴾

36 - ﴿جُنودَ ربِّك﴾

37 - ﴿ذكرَى للبشَر﴾

38 - ﴿والقمرِ﴾

39 - ﴿والليلِ إذْ أدْبَر﴾

40 - ﴿والصبحِ إذا أَسفَر﴾

41 - ﴿لَإحدى الكُبَر﴾

42 - ﴿نذيراً للبشَر﴾

43 - ﴿أنْ يتقدّمَ أو يتأخّر ﴾

44 - ﴿بما كَسَبَتْ رَهينة﴾

45 - ﴿أصحابَ اليمين﴾

46 - ﴿في جَنّاتٍ يتساءلون﴾

47 - ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾

48 - ﴿ما سَلَككُم في سَقَر﴾

49 - ﴿لم نَكُ منَ المُصَلِّين﴾

50 - ﴿ولم نكُ نُطعِمُ المِسكين﴾

51 - ﴿نخوضُ مع الخائضين﴾

52 - ﴿يوم الدين﴾

53 - ﴿نُكذِّبُ بيومِ الدِّين﴾

54 - ﴿ أتانا اليقين﴾

55 - ﴿شفاعةُ الشافعين﴾

56 - ﴿عنِ التَذْكرةِ مُعرِضِين﴾

57 - ﴿حُمُرٌ مستنفِرة﴾

58 - ﴿فَرّتْ مِن قَسْوَرَة﴾

59 - ﴿يُؤتَى صُحُفاً منشَّرَة﴾

60 - ﴿لا يخافون الآخرة﴾

61 - ﴿إنّه تَذْكِرة﴾

62 - ﴿فمَن شاءَ ذَكَرَه﴾

63 - ﴿يشاءَ الله﴾

64 - ﴿أهلُ التقوى ﴾

65 - ﴿أهلُ المغفِرة﴾

وفيما عدا التعبيرين: رقم (25 و63) ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ و﴿يشاء الله﴾ اللذين أصبحا حقّاً جزءاً من معجم لغتنا الرسميّة، وربّما اليوميّة، فإنّ التعبيرات الأخرى تكاد تكون إلى يومنا هذا مختصّةً بالقرآن الكريم وحده.

وفي الفصل التالي سنتوقّف عند جانبٍ هامٍّ آخر من جوانب التجديد الذي أحدثه القرآن الكريم في اللغة العربيّة لا يقلّ أهمّيةً عن جانب التركيب والتعبير، وهو جانب الألفاظ والأدوات القرآنيّة.

الفصل الخامس

الألفاظ والأدوات الجديدة

كان إيجاد لفظٍ جديدٍ واحدٍ من قبل شاعرٍ أو أديبٍ عند العرب يُعدّ بمثابة فتحٍ كبير، ولا سيّما إذا وقع هذا اللفظ موقعه في العقول والقلوب فسار على ألسنة الناس وتناولته أقلام الكتّاب والشّعراء.

وكان ورود مثل هذا اللفظ في شعر الشاعر، ولو مرّةً واحدة، كافياً لأن يلتقطه العرب فيطلقوه على الشاعر فيغلب على اسمه الأصليّ. وهكذا اكتسب النابغة الذبيانيّ اسمه من استخدامه اللفظ (نبغَتْ) في قوله:

فقد نبغتْ لنا منهمْ شؤونُ

واستحقّ المرقِّش الأكبر هذا الاسم لقوله:

الدارُ قَفرٌ والرسومُ كما　　رَقَّشَ في ظَهْرِ الأديمِ قَلَمْ

واكتسب المتلمِّس اسمَه من بيته المشهور:

فهذا أوانُ العِرضِ حَيّا ذُبابَهُ　　زنابيرُهُ والأزرقُ المتلمِّسُ

ولُقِّب المُسَيَّب بنُ عَلَس بهذا اللقب لقوله:

فإنْ سَرّكُمْ ألّا تَؤوبَ لِقاحُكمْ　　غِزاراً فقولوا للمُسَيَّبِ يَلْحَقِ

ومع هذا فإنّ الإعجاز الحقيقيّ في القرآن لا يكمن في جدّة اللفظ وحده، بل في تلك الصدمة النوويّة المركّبة والشاملة التي صَدمت بها العاصفةُ اللغويّة القرآنيّة نواةَ اللغة العربيّة التقليديّة، في زمنٍ قياسيٍّ عجيب.

لقد حدث الانفجار في ليلةٍ واحدةٍ، ليلة حِراء، واكتمل في بضع سنين.

ولم تكن اللغة الجديدة قادرةً على انتزاع القبول من العرب واعترافهم بها فحسب، ثمّ فهمِهم لها وإدراكِهم لمعانيها وأبعادها بسهولة، بل تجاوزت كلّ ذلك إلى انتزاع إعجابهم وانبهارهم، بغضّ النظر عن تصديقهم أو إنكارهم للدين الجديد، واستسلامهم، المصدِّق منهم والمنكِر، لحقيقة أنّهم أمام نصٍّ "يعلو وما يُعلى" و "يَحْطِم ما تحته" كما صرّح بذلك أحد كبار المنكِرين الذين ظلّوا على إنكارهم حتّى النهاية.

مقاومة اللغويّين لفكرة اللغة الجديدة:

وربّما كانت تلك الحقيقة هي السرّ الذي دفع بلغويّينا القدماء، الذين فاتتهم لحظة الانفجار، إلى أن يدرأوا عن أذهانهم فكرة أنّ القرآن قد أتى بلغةٍ جديدة، أو حتّى بألفاظٍ جديدة، فكيف له، في ظنّهم، أن يفاجئ العربَ بكلّ هذا التجديد اللغويّ الشامل دفعةً واحدة، ثمّ يقبلونه مع ذلك ويفهمونه، ثمّ ينبهرون به ويُقبلون عليه، وهم يرون فيه النموذج البلاغيّ الرفيع الذي لا يجرؤ أن يتطاول إليه متطاول!!

لقد نسي أولئك اللغويّون، ببساطة، أنّهم أمام معجزة، وأنّ المعجزة لا تخضع لأيّة قاعدةٍ أو منطق.

وهكذا قاوم لغويّونا ونحويّونا، وعلى صعيدٍ واحدٍ تقريباً، كلَّ فكرةٍ عن الثورة اللغويّة التجديديّة التي أحدثها القرآن، وامتلأت كتب تراثنا بالحكايات والنوادر التي وضعها الوضّاعون لتَسخر من كلّ من تجرّأ وادّعى أنّ في القرآن لغةً جديدة، سواءٌ في الألفاظ أو التراكيب أو النحو أو البلاغة، بل أنكر بعضهم على القرآن حتّى الإعجاز العلميّ كما سبق أن قدّمنا.

سخّر اللغويّون مناهجهم التوثيقيّة لخدمة نظريّة الإنكار هذه، ظنّاً منهم أنّهم يدافعون بذلك عن القرآن الكريم ويثبتون عروبة لغته وهو الذي أُنزل (قرآناً عربيّاً) و(بلسانٍ عربيٍّ مبين).

وكان للمناهج التي اتّبعها لغويّونا وهم يجمعون شواهدهم من ألسنة الأعراب دورٌ كبيرٌ في إنكار الثورة اللغويّة التي أحدثها القرآن الكريم، فكان

حسبُهم أن يسمعوا كلمةً شاردةٍ من فم أعرابيٍّ شاردٍ في بقعةٍ شاردةٍ من صحراء الجزيرة العربيّة المترامية الأطراف لتكون هذه الكلمة بمثابة قاعدةٍ عندهم يؤصّلونها ويبنون عليها في لغتهم ونحوِهم ما شاء لهم البناء، بل ليستشهدوا بهذه الكلمات على عروبة أو عدم عروبة كلمات القرآن، متناسين أن هؤلاء الأعراب، كما أكّدنا دائماً، كانوا باستمرار تحت التأثير اللغويّ القرآنيّ الذي وُلدوا وآباؤهم على صوت تلاوته، وكان يملأ حياتهم اليوميّة ويتنفّسونه مع الهواء. وهكذا صحّ في هؤلاء اللغويّين حكم أحد النحويين المعاصرين حين قال:

> في عصر التدوين كانوا يفرحون بكلّ كلمةٍ يسمعونها من فم العربيّ في البادية، ولا سيّما إذا كانت تفيدهم في وضع قاعدةٍ نحويّةٍ أو لغويّة، وأحياناً كانوا يقدّمونها على أيّ نصٍّ آخر، حتّى لو كان هذا النصّ وارداً في القراءات المُحْكَمة المتواترة[1].

بل نجد هذا النحويّ المخلص نفسه، وقد خبِر مِن تعنُّتِ بعض النحويّين ما خبر، يقف كتاباً كاملاً للدفاع عن القرآن أمام النحويّين، وقد صنّفهم جنباً إلى جنبٍ مع المستشرقين، وانتقد مناهجهم المشوّهة البعيدة عن الموضوعيّة[2].

ومع أنّنا لا نفضّل أن نقف من النحاة هذا الموقف الحادّ، كما لا نحبّ أن نذهب مذهب ضياء الدين بن الأثير في حكمه القاسي عليهم حين كان يتحدّث عن مذاهبهم في إعراب أدوات القرآن بقوله في مؤلَّفه المشهور (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر): "النحاة لا فُتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة"[3] فإنّ من الموضوعيّة أن نعترف بأنّ نحويّتهم كانت تَرجُح غالباً

(1) الأنصاريّ، أحمد مكّي. **نظريّة النحو القرآنيّ**. مرجع سابق، ص14.

(2) الأنصاريّ، أحمد مكّي. **الدفاع عن القرآن ضدّ النحويّين والمستشرقين**. القاهرة: دار المعارف 1973.

(3) ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: كامل عويضة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998. ج2، ص143.

على فصاحتهم حين كانوا يُصدرون أحكامهم بشأن لغة القرآن وما حقّقته من فتوحاتٍ بلاغيّةٍ لا سابقة لها، وما أضافته من جوانب تجديديّةٍ محيِّرةٍ في قاموسنا النحويّ واللغويّ.

المعجزة: فهْمُ ما لا نتوقّع أن يُفهَم:

حين ندرس لغة القرآن الكريم لا بدّ أن نضع في أذهاننا بعض الحقائق عن الألفاظ الجديدة فيه بخاصّة.

لقد سبق أن أكّدنا أنّ من السهل حتّى على الطفل أن يخترع لفظاً، بل ما شاء من ألفاظٍ جديدة، ما دام يملك تسعةً وعشرين حرفاً بين يديه. إنّه يستطيع أن يعيد تشكيل هذه الحروف كما يشاء ليكوّن ملايين الكلمات الجديدة، ولكن السؤال المهمّ هو: من سيَفهم هذه الكلمات بعد ذلك؟ وما قيمتها الأدبيّة؟

هنا تتجلّى لنا بوضوحٍ حقيقة الإعجاز القرآنيّ؛ إذ لم يقتصر الأمر فيه على فهم العرب للنصّ الجديد من أول لحظةٍ سمعوه بها، أو لنقُل من ثاني لحظةٍ إذا تذكّرنا قصة عُتبة بن ربيعة مع سورة (فُصّلت)، مع أنّه كان يحمل لهم لغةً جديدةً بكلّ عناصرها وأبعادها الأساسيّة: الألفاظ والأدوات والمصطلحات والتراكيب والتعابير والسبائك والعلاقات اللغويّة والأعراف النحويّة والأفكار والتشريعات الجديدة والأخبار التاريخيّة والحقائق العلميّة. لقد تجاوز الأمر معهم مجرّد الفهم لما يسمعون، إلى الإعجاب الشديد البالغ حدَّ الذهول، واعترافِهم، الكافرِ منهم قبل المؤمن، بتفوّقه واستحالة الوصول إلى مَراقيه. فأيّ سرٍّ يختفي وراء هذا التأثير الخطير؟

طبيعة الألفاظ الجديدة:

من السهل ملاحظة أنّ أيّ لفظٍ قرآنيٍّ جديدٍ لا بدّ أن يكون قد توفّر فيه شرطٌ أو أكثر من الشروط الثلاثة التالية؛ بحيث نال القبول والاعتراف من جمهوره اللغويّ، بغضّ النظر عن نَيل تقديرهم وإعجابهم:

1 - أن يكون اللفظ موجوداً هو نفسه من قبل، ولكنّ القرآن أعطاه معنىً اصطلاحيّاً جديداً يُفهَم من خلال السياق الخاصّ، اللغويّ أو البيانيّ، الذي جاء فيه.

2 - أن يكون اللفظ غير موجودٍ ولكن القرآن يشتقّه من جذرٍ موجودٍ ومتداوَلٍ ومألوف المعنى، فيعطيه، من خلال صياغته الجديدة، معنىً مختلفاً، ليس هو معنى اللفظ أو الجذر المتداول، وإن كان يمتّ إليه بصلةٍ يقرّرها السياق الذي يأتي فيه.

3 - ألّا يكون اللفظ ولا جذره موجودَين أو متداولَين أصلاً، فأوجده القرآن، ثم جاء في سياقٍ لغويٍّ يوجّه السامع أو القارئ نحو المعنى الجديد، تحديداً أو تلميحاً.

هذه الأنواع الثلاثة هي التي تشكّل الخزّان الأكبر للألفاظ الجديدة في القرآن الكريم. ولكنّ هذه الحقيقة لا تكفي للإجابة عن تساؤلاتنا وكشف السرّ الإعجازيّ وراء قبول العرب للّغة الجديدة، ثمّ انبهارهم ببلاغتها وجمالها.

ومع ذلك، فإنّنا لم نعوّل كثيراً في إثبات الإعجاز التجديديّ للغة القرآن، كما يتبيّن للقارئ بسهولة، على كميّة "الألفاظ الجديدة" فيه، مثلما لم ننتهج الوقوف على مَواطن الجمال في لغته وإبراز هذه المواطن، فالدراسة الجماليّة من عمل البلاغيين وقد أدّوا واجبهم فيها خير أداء، ووظّفوا في عملهم، على نحو مدهش، كلّ ما بين أيديهم من علومٍ لغويّةٍ ونحويّةٍ وبلاغيةٍ لإلقاء الضوء على ما خفي علينا من روعة التعبير القرآنيّ.

لقد جاء القرآن الكريم بألفاظه الخاصّة مثلما جاء بسبائكه وتراكيبه وعلاقاته اللغويّة الخاصّة أيضاً. ولكن يجب أن نكون واعين بالفرقين الهامّين بين موقعَي كلٍّ من اللفظ القرآنيّ والسبيكة القرآنيّة.

لم تكن كلمات القرآن كلّها، أو معظمها، جديدةً على اللغة العربيّة كما هو الحال في سبائكه، من ناحية، ولم تكن عصيّةً كلّها على الاقتباس والاستخدام في لغتنا البشريّة، على عكس السبائك أيضاً، من ناحيةٍ أخرى.

وهذه الميزة الأخيرة هي التي فتحت الباب واسعاً أمام العربيّة لتنهل من لغة القرآن وتَثرى بألفاظه ومصطلحاته الجديدة.

وإذا عرفنا مثلاً أنّ سورة (الفاتحة) ليس فيها أكثر من ثلاثة ألفاظ جديدة من أصل 58 موقعاً لغويّاً جديداً أضافته إلى معجمنا، أدركنا أن مسألة صحّة أو عدم صحّة الشعر الجاهليّ، ومن ثمّ وجود الألفاظ القرآنيّة الجديدة في هذا الشعر أو عدم وجودها، مسألةٌ ثانويّةٌ في تقييمنا ومحاولتنا إثبات جدّة اللغة القرآنيّة وخصوصيّتها الفنّية.

ولكنّ إثباتنا لجدّة هذه الجوانب اللغويّة جميعاً في القرآن لا بدّ أن يلقي بظلّه على ألفاظه أيضاً، ليزيدنا اقتناعاً، من غير الحاجة إلى مرجعيّة الشعر الجاهليّ وتوثيقه، بحتميّة وجود أعدادٍ كبيرةٍ من الألفاظ الجديدة في كلّ سورةٍ من سوَره.

أنواع اللفظ الجديد:

قد تأتي خصوصيّة اللفظ القرآنيّ من جِدّته اللفظيّة والمعنويّة معاً إذا لم يكن أحدٌ من العرب قد سبق إلى استعماله قبل نزول الوحي. ويكون هذا النوع من الألفاظ جديداً بجَذره وباشتقاقه، وغالباً ما يكون معرَّباً عن لغاتٍ أخرى، ولا سيّما الفارسيّة واليونانيّة والحبشيّة والنبطيّة والسريانيّة والعِبريّة والقبطيّة، كمثل هذه الألفاظ:

الصراط، سبحانك، أبّ، قَسْوَرة، سِجِّين، بَرزَخ، سِجّيل، السِجِلّ، التَنُّور، ضِيزَى، قَمْطَرير، سُنْدُس، إستَبْرَق، أباريق، القِسط، القِسطاس، الفِردَوس، المِشكاة، طُوبَى، قَراطيس، سُرادِق، تَنّور، إلّ، كُرسيّ، الأرائك، الجِبْت، الطُّور، اليَمّ..

أو قد يكون جديداً باشتقاقه ولكنّه مأخوذٌ من جذرٍ لغويٍّ عرفه العرب من قبل، وهذا أكثر، مثل:

آتاه، ملكوت، طاغوت، الجاهليّة، صَلوات، هادُوا، مَقامِع، الفُرقان، الرقيم، مَرْقوم، المحراب، القَصَص، غُزَّى، المُحتظِر، الأَنعام، دَحاها،

سُعُر، تَزاوَرُ، مُلتَحَد، العادُون، رَبّانيّون، قانِتون، المنافقون، عِلِّيُّون، شُكُور، الحَيَوان، السُّوأَى، السَلسبيل، تِلقاء، واعَدْنا..

وقد تأتي خصوصيّته من جدّته المعنويّة دون اللفظيّة، إذا كان العرب قد عرفوه بهذا الشكل ولكن لم يعرفوه بهذا المضمون الجديد، وهذا كثيرٌ جدّاً في القرآن. وتتحقّق خصوصيّة هذا النوع من جِدّة استعمال ألفاظه وطريقة ارتباطها مع الأدوات أو الألفاظ، قبلها أو بعدها، بحيث تكتسب في السياق الجديد معنىً آخر جديداً مختلفاً عن المعنى القديم، كالألفاظ:

سلطان، مَرَض، تولّى، أسلَم، الدنيا، الصالحات، الشاهدين، الشهّداء، الرُّوح، خاشعِين، نبتهل، إصْر، كتاب، البيّنة، البِرّ، عِوَج، الحَرْث، يَنظُرون، يَسْطُون، المُهتدون، البُروج، القَدْر، يَقْدِر، يُقَدِّر..

وربّما تجاوز اللفظ مرحلة الجِدّة والابتكار إلى مرحلةٍ أكثر غنىً وتفاعلاً مع الحياة اليوميّة، وهي مرحلة الاستقرار والشيوع وكثرة التداول، فيرتقي بهذا إلى مستوى (مصطلح) وهذا يعبّر، بلفظه المفرد وحده أو مرتبطاً بلفظٍ آخر أحياناً، عن معنىً أكبر من حجمه بكثير، مثل:

المؤمن، الكافر، الذِّكر، المَساجد، الساعة، الأجر، التقوى، الحَسَنة، السيّئة، النِّكاح، الغيب، الشهادة، الصلاة، الزكاة، الإيمان، الجهاد، الشرك، الآخرة، القيامة، النار..

وقد تأتي الخصوصيّة أيضاً من المعنى المجازيّ الجديد الذي أضفاه القرآن على اللفظ فمنحه بذلك قوّة الصورة البيانيّة. وربّما خَفي علينا مع الزمن أصلُ هذه الصورة حتى لنظنّ أنّ اللفظ وُلد وهو يحمل هذا المعنى. إنّه نوعٌ من توالُد الألفاظ معروفٌ في كلّ اللغات، وبه تَغنى اللغة وتزدهر، ويقوم بابتكاره الشعراءُ بشكلٍ خاصٍّ ثم الأدباء والكتّاب المبدعون.

فاللفظ (سفينة) مثلاً وُلد في الأصل من الفعل (سَفَن) أي (قَشَر) فشبّهوها وهي تشقّ البحر بسكّينٍ تقشره، ولفظ (الغابِر) جاء من قولهم (غَبَر الفارس) إذا ابتعد فلم يظهر منه إلّا ما يثير فرسُه من غبار، واللفظ (جِنّيّ) جاء من

الفعل (جَنّ) أي (غطَّى) فكأنّ هذا المخلوق قد غُطّي فامتنعت علينا رؤيته، واللفظ (شكر) جاء من (الشَكور) وهي الناقة التي يظهر سِمنُها فوق ما تُعطَى من علف، ووصفُ المسألة المعقّدة بأنّها (مُعضِلة) جاء من قولهم (عَضَلت الدجاجة) أي احتبس بَيضُها عن الخروج لضيقِ عضلاتها فهي مُعضِلة، ولفظ (التابوت) جاء من (التَوب) أي (العودة) لأنّه مَركبةٌ للرجوع إلى الله، ولفظ (الشورى) وهو (استخراج الرأي السليم) جاء من (شِرتُ العسل) إذا استخرجتَه من خلاياه، وقولنا (كظم غيظه) جاء من قولهم (كظم البعيرُ جِرّتَه) إذا ردّ ما يجترّه إلى جوفه، وقولنا (فلانٌ سفيهٌ) جاء من قولهم (ثوبٌ سفيهٌ) أي ضعيف النسج، وقولنا (غُلوٌّ) من قولهم (غَلا بالجارية لحمُها وعظمُها) أي أسرعت في النموّ حتّى جاوزت لِداتِها، وقد سُمّي (الحصان) هكذا لأنّه يُحصن من يركبه ويحميه، وقالوا (حِكمة) تشبيهاً لها بـ (الحَكَمَة) وهي ما يُحيط بالحنك من اللجام ليمنع الفرس من الاضطراب..

إنّها في الحقّ طريقة ميلادِ معظم الألفاظ التي تملأ معاجم لغاتنا. وقد أغنى القرآن لغتنا العربيّة بمئاتٍ من مثل هذه الألفاظ الجديدة لم تعرفها العربيّة من قبل، حتّى أضحى من الصعب على القارئ العاديّ أن يميّز اليوم بين ما هو قرآنيٌّ منها وما عرفته العربيّة قبل الوحي.

ومن هذه الكلمات المجازيّة القرآنيّة الألفاظ التالية، وهي غيضٌ من فيض، وكلّها يحمل معنىً جديداً لم يكن يحمله قبل نزول القرآن الكريم:

الإسلام، الكُفْر، يتزكّى، السِدرة، المِيزان، الحَرْث، الهُدى، الضَلالة، التقوى، الأمّة، اللباس، المُحصَنات، الآية، الأوّاب، الأجَل، الوازِرة، الحافِرة، الساهِرة، الخُنَّس..

طبيعة التجديد اللفظيّ:

لقد تناول الدارسون، القدماء منهم والمحدثون، هذا النوع من الألفاظ الجديدة في القرآن، وإن اختلفوا فيها اختلافاً لم يكن أساسَه إلّا خوفٌ غير مسوَّغٍ أُثير بين اللغويّين من أن يقال إنّ لغة القرآن الكريم مختلفةٌ عن لغتنا،

كيف وهو الذي يؤكّد بإلحاح، وفي أكثر من عشر آياتٍ، على أنّه أُنزِل عربيّاً وبلسانٍ عربيٍّ مبين.

وقد وجدنا من تجرّأ وجاهر بحقيقة اللغة الجديدة هذه، وهو يتحسّب للمعارضة الشديدة من اللغوييّن والنحوييّن، فلا يجد بدّاً من أن يقسم بالله تعالى على جدّة لغة القرآن، كما حصل حين نزلت آية سورة (الأعراف): ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً إنّا هُدْنا إليكَ﴾ [الآية 156] فقال أبو وجزة السعديّ حين سمع الآية، تبعاً لرواية ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ: "لا والله ما أعلمُها في كلامِ العرب (هُدْنا)، قيل: فكيف؟ قال: (هِدْنا) بكسر الهاء، يقول: مِلْنا".

وعبقريّة هذا التجديد، كما أكّدنا دائماً، تكمن في أنّه جاء من داخل اللغة وليس من خارجها، فالقرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدةٍ غير اللغة العربيّة، بل بَعث في هذه اللغة القديمة، مستنِداً إلى قواعدها/أعرافها الأساسيّة نفسها، روحاً جديدةً، وأحدث فيها ثورةً من نوعٍ فريد، بحيث لا تقارَن، في سرعة تحقّقها، وحجم إنجازاتها، ومساحة تأثيرها، وشمولها لمختلف أبعاد اللغة، وعمق فاعليّتها في هذه الأبعاد، مع أيّة ثورةٍ لغويّةٍ حدثت لأيّة لغةٍ أخرى في التاريخ القديم أو الحديث على الإطلاق، ومن ضمنها الثورة الحاليّة الهائلة التي تشهدها اللغة الإنكليزيّة مع انتشار الحاسوب وأدواتِه وأنظمته ومصطلحاته.

وبقدر ما كنتُ في الماضي غير مدركٍ لحقيقة الإعجاز اللغويّ في القرآن، محيَّراً في أمر التحديّ الإلهيّ الفائق الجرأة للعرب بأن يأتوا بمثله، ومحيَّراً أكثر في أمر عجزهم عن الوقوف أمام هذا التحدّي، مع سهولته في نظري آنذاك، غدوت بعد ذلك، وقد أعانني الله على اكتشاف بعض مظاهر هذا الإعجاز التجديديّ، أستَهْوِلُ وأستعظِم خطيئة مَن تَشكَّك من العرب الأوائل، ولو للحظةٍ واحدةٍ بسماويّة القرآن، كما غدوت أقلّ استغراباً ودهشةً بإزاء الروايات التي تتحدّث عمّن أسلموا أو صُعقوا، أو ربّما ماتوا، حال سماعهم للقرآن الكريم.

لقد سمعوه آنذاك وهم يملكون ما فقدناه نحن اليوم: عذريّةَ الأذن التي حَظيت بسماع لغة السماء قبل أن يذهب بعذريّتها بعد ذلك عاملُ الأُلفة، وهو العامل الفتّاك الذي يقتل الإحساس بالمعجزة وهي تتكرّر أمام أعيننا أو على أسماعنا مرّةً بعد مرّة. وإذن فلا عُذر لأحدٍ في عدم التصديق بالرسالة وهو يتلقّى أوّل مرّةٍ تلك المعجزة اللغويّة المدهشة والمستمرّة ملء السمع والبصر.

معجزة الجمع بين الجِدّة والوضوح:

لقد شُحنت سوَر الكتاب الكريم بعددٍ كبيرٍ من الألفاظ الجديدة، بأنواعها المختلفة. وهذا أمرٌ دفع بكثيرٍ من المشكّكين الغربيّين إلى الادّعاء أنّ لغة القرآن ليست عربيّة، وكأنّ القرآن نفسه لم ينصّ صراحةً وأكثر من مرّةٍ على أنّه نزل "بلسانٍ عربيٍّ مبين". وكان أحدَ آخر من أسرفوا في هذا الادّعاء المستشرق الألمانيّ كريستوف لوكسنبرغ الذي زعم في كتابه "القراءة السريانيّة - الآراميّة للقرآن" الصادر بالألمانيّة عام 2000 أنّ القرآن قد "وضعه" محمّد ﷺ وقد استمدّه من خلفيّةٍ مسيحيّةٍ[4] وأنّ لغته ليست عربيّةً بل سريانيّةٌ / آراميّةٌ وهي لغة التجّار الذين كانوا يفدون على مكّة ويختلطون بأهلها، وذهب إلى أنّ معاني القرآن ستختلف كلّياً، على ضوء هذه "الحقيقة"، عمّا ذهب إليه المفسّرون المسلمون[5]

ولكنّ الإعجاز اللفظيّ لا يكمن في جِدّة كلمات القرآن فحسب، وقد عرفنا أنّ جدّتها، خلافاً لما يدّعيه لوكسنبورغ، جاءت على صيغٍ ومقاييس هي من صُلب قواعدنا اللغويّة العربيّة، لا يكاد يخرج عن هذه الصيغ لفظٌ قرآنيٌّ واحد، وإنّما تكتسب إعجازها من وضعها ضمن سياقاتٍ لغويّةٍ متفوّقةٍ تتيح للناس أن يدركوا معانيها مع جدّتها، ومن ثمّ، أن يفهموا الجمل والعبارات التي تضمّنتها.

(4) قصّة الخلفيّة المسيحيّة ما فتئت تتردّد باستمرار عند المستشرقين وعند المبشّرين على السواء.

(5) Christoph Luxenberg. *The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran*. English Edition. Germany: 2007.

وهكذا، قد يكون العرب قد عرَفوا قبل القرآن اللفظ (بارك)، ولكنّهم لم يعرفوا اللفظ المشتقّ منه (تبارك) كما جاء في القرآن، ومع هذا تقبّلوه وفهموه،

ولعلّهم قد عرفوا لفظ (العالي)، ولكنّهم لم يعرفوه صفةً للّه عزّ وجلّ وقد وردت في صورةِ فعلٍ ماضٍ (تعالَى)، ولم يعرفوه ظرفاً للمكان (عاليَهم) كما ورد في القرآن، وقد تقبّلوا اللفظين الجديدين مع ذلك وفهموهما،

ولعلّهم عرفوا الاسم (لقاء) ولكنّهم لم يعرفوا الظرف (تِلقاء)،

أو عرفوا الفعل (يرائي) ولكنّهم لم يعرفوا المصدر (رِئاء)،

وعرفوا اللفظ (كذلكَ) ولكنّهم لم يعرفوه بالكسر (كذلكِ)،

وعرفوا اللفظ (هؤلاء) ولم يعرفوا (هاؤم)،

وعرفوا (أولئك) ولم يعرفوا (أولئكم)،

وعرفوا (الجهل) ولم يعرفوا (الجَهالة) ولا (الجاهليّة)،

وعرفوا (اتّقى) ولم يعرفوا (التقوى)،

وعرفوا (القراءة) ولم يعرفوا (القرآن)،

وعرفوا (السُوْر) ولم يعرفوا (السُورَة)،

وعرفوا (الفَرْق) ولم يعرفوا (الفُرْقان)،

وعرفوا (الغَسل) ولم يعرفوا (الغِسْلِين)،

وعرفوا (الكَذّاب) ولم يعرفوا (الكِذّاب)،

وعرفوا (العَجَب) ولم يعرفوا (العُجاب)،

وعرفوا (الشُّكْر) ولم يعرفوا (الشُّكُور)،

وعرفوا (السُّوء) ولم يعرفوا (السُّوأى)،

وعرفوا (الكبير) ولم يعرفوا (الكُبّار)،

وعرفوا (الحياة) ولم يعرفوا (الحَيَوان)،

وعرفوا (العالَم) ولم يعرفوا (العالَمين)،

وعرفوا (الشاهد) ولم يعرفوا (الأشهاد) أو (الشهداء). .

لقد فهم العرب كلّ هذه الألفاظ، ومعها مئاتٌ أخرى من الألفاظ القرآنيّة الجديدة المبتكرة، العربيّة، أو المعرّبة وفقاً للقواعد اللغويّة العربيّة.

إنّ هذا الجمع بين الجِدّة والإفهام هو جانبٌ آخر من جوانب الإعجاز التجديديّ المحيِّر في القرآن الكريم.

الاستعمالات الجديدة للأدوات القديمة - (كان) و(ما زال):

ويدخل في الألفاظ القديمة - الجديدة ما يفوق، بدرجته التجديديّة وامتناعه على التقليد، النوعَ الآخر من الكلمات التي استحدثها القرآن، بألفاظها ومعانيها، أو بمعانيها وحدها، أو باشتقاقها القرآنيّ الخاصّ، ذلك هو الاستعمال الجديد للأدوات القديمة.

لقد سبق أن عرفنا المعنى القرآنيّ الجديد الذي حمله الفعل الناقص (كان)، والذي ظلّ حتّى الآن مستعصياً على الاستعمالات البشريّة. وحاولْ أن تصوغ، لو استطعت، جملةً عربيّةً واحدةً تأتي فيها (كان) بالمعنى القرآنيّ (إنّ)، ولا تُتعب نفسك فلن تصل إلى نتيجة. لقد خَلتِ العربيّة تماماً، ومعها الحديث الشريف، وستظلّ خاليةً أبداً، من هذا الاستعمال القرآنيّ المحيِّر، شأنها مع كثيرٍ من الاستعمالات القرآنيّة المحيِّرة الأخرى.

لربّما اقترح أحدنا أن يصوغ جملةً مثل (وكانت الحكمة ضالّةَ المؤمن) بمعنى (إنّ الحكمة ضالّة المؤمن) ولكنّ من يقرأ هذه الجملة سيدرك حالاً أنّها جملةٌ بشريّةٌ أُلبِسَت لباساً قرآنيّا بأن بُنيت على أساس سبائك قرآنيّةٍ من مثل (كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً - وكان وعدُ ربّي حقّاً - وكان الشيطان للإنسان خَذولاً) وستبقى العبارةُ بهذا غريبة الزمرة الدمويّة ومفصحةً عن لباسها القرآنيّ، وغير قادرةٍ على تمويه نفسها والتسرّب إلى ألسنتنا على أنّها جزءٌ من

لغتنا العاديّة، وإلّا لم يكن مصيرها في ساحة لغتنا المتداولة إلّا الرفض، وربّما إثارة السخريّة لدى السامعين، شأنها شأن أيّة محاولةٍ لتقليد لغة القرآن.

إنّ الصيغة البشريّة المتوقَّعة لهذا المعنى هي شيءٌ ما على نمط الصيغة النبويّة التي جاءت فيها هذه الحكمة أصلاً، وهي قوله ﷺ: "الحكمةُ ضالّةُ المؤمِن". أمّا لو قلنا: (وكانت الحكمة دائماً ضالّة المؤمن) فستعود الجملة إلى بشريّتها لأنّ الظرف (دائماً) أخرج (كان) من وعائها الزمنيّ المعتاد ذي البعد الواحد (الماضي) إلى الوعاء الزمنيّ الشامل ذي الأبعاد الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فأضحت هنا بمعنى (إنّ) ليس بفضل شحنتها المعنويّة الذاتيّة، التي تتمتّع بها في السياق القرآنيّ، بل باتّكائها على الظرف المساعد (دائماً) الذي يغطّي في لغتنا أصلاً الأبعاد الزمنيّة الثلاثة.

وهذا الاستعمال الجديد لـ (كان) أشكَل مرّةً حتى على الصحابة كما نتبيّن من حديثٍ طويلٍ لعبد الرزّاق في تفسيره. وفيه أنّ رجلاً سأل ابن عبّاسٍ رضي الله عنه أسئلةً عديدةً في لغة القرآن كان آخرها سؤاله: "وأسمعه (تعالى) يقول: (وكان اللهُ) ما شأنه يقول (وكان الله)"؟ بل وصل الأمر ببعض العرب من اليهود إلى السخرية من هذا المعنى، الجديد عليهم كلّياً، كما تدلّنا رواية ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس: "أنّ يهوديّاً قال لابن عبّاس: إنّكم تَزعُمون أنّ الله (كان) عزيزاً حكيما، فكيف هو اليوم؟"[6].

واختلف استعمال القرآن للفعل (ما زال) أيضاً عن استعمالنا له. فحين نقول: ما زال المطر يهطل، سيفهم السامع أنّ المطر كان يهطل من قبل وهو مستمرٌّ في الهطول إلى الآن؛ أي إنَّ الفعل يستغرق الزمنين (الماضي والحاضر) معاً. هذا هو شأننا مع الفعل في استعمالاتنا البشريّة.

ولكنّنا نجد في القرآن صيغتين مختلفتين لهذا الفعل: صيغة الماضي، وتستخدم أداة النفي (ما) فقط، أي (ما زال)، وصيغة المضارع، وتستخدم

---

(6) انظر هذه الروايات وغيرها في: السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ص52-53.

أداة النفي (لا) فقط، أي (لا يزال)، وهذا يعني أنّنا لن نجد في القرآن الصيغتين المتداولتين في لغتنا العاديّة (ما يزال) و(لا زال) خلافاً لما ذهب إليه صديقنا المستشرق البريطانيّ ممّا ذكرناه في المقدّمة.

ولكنّ الأهمّ من ذلك هو أنّ الصيغتين القرآنيّتين كلتيهما لهما وظيفتان تختلفان تماماً عن وظيفتيهما في لغتنا البشريّة.

إنّ صيغة الماضي للفعل (ما زال) تحمل في القرآن معنىً يختلف عن المعنى الذي درجنا عليه في لغتنا. فالفعل، في الآيتين الوحيدتين اللتين يرِد فيهما، يغطّي الزمن (الماضي دون الحاضر). إنّه هناك بمعنى: (ظلّ) أو (بقي) أو (استمرّ) فيما مضى من الزمان ثمّ لم يعُدْ هكذا الآن:

- ﴿فما زالت تلك دعواهم حتّى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ [الأنبياء: 15]

- ﴿ولقد جاءكم يوسُفُ مِن قبلُ بالبيّناتِ فما زِلتُم في شكٍّ مّما جاءكمْ به حتّى إذا هَلَك قلتُم لن يَبعثَ اللهُ مِن بَعدِه رسولا﴾ [غافر: 34]

فالآية الأولى تعني: لقد استمرّوا بهذه الدعوى (في الماضي) حتّى قُضي عليهم وانتهوا (في الماضي). والآية الثانية تعني: حافظتم (في الماضي) على الشكّ في رسالة يوسف حتّى مات (في الماضي). وهكذا بدأ زمن الفعلين وانتهى في الزمن الماضي من غير أن يدخل في منطقة (الحاضر).

أمّا صيغة المضارع فقد اقتصرت في الاستعمال القرآنيّ، حقّاً، على (لا يزال) ولكن، ويا للمفاجأة، جاء الفعل هنا أيضاً مخالفاً تماماً لاستعمالاتنا البشريّة. إنّه يستغرق (الماضي والحاضر والمستقبل) معاً، أي: كان الأمر في الماضي، وهو كذلك الآن، وسوف يستمرّ هكذا في المستقبل، وهو ما توضّحه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دِينِكم﴾ [البقرة: 217]
- ﴿ولا يزالُ بنيانُهمُ الذي بنَوا رِيبَةً في قلوبِهم إلّا أنْ تَقَطّعَ قلوبُهم﴾ [التوبة: 110]
- ﴿ولو شاءَ ربُّكَ لجعلَ الناسَ أمّةً واحدةً ولا يزالون مختلفين. إلّا مَن رَحِمَ ربُّكَ﴾ [هود: 118-119]

- ﴿ولا يزالُ الذين كفروا تُصيبُهُم بما صنعوا قارعةٌ أو تَحُلُّ قريباً مِن دارِهم حتّى يأتيَ وعدُ الله﴾ [الرعد: 31]

فالمشركون، في الآية الأولى، قاتَلوا، ويقاتلون المسلمين الآن، وسوف يظلّون يقاتلونهم في المستقبل. والبنيان، في الآية الثانية، كان في الماضي، وهو إلى الآن رِيبةٌ في قلوبهم، وسوف يبقى كذلك في المستقبل. والناس في الآية الثالثة كانوا وما زالوا وسوف يستمرّون مختلفين. والكفّار، في الآية الرابعة، أصابتهم قارعةٌ، وتصيبهم الآن، وسوف تظلّ تصيبهم في المستقبل.

إنّها استعمالاتٌ ظلّت حتّى الآن، في صيغتيها الماضي والمضارع، مقتصرةً بمعنييها الجديدين على القرآن الكريم، مع تأثّر الحديث الشريف بالاستعمال القرآني لصيغة المضارع خاصّةً من هذا الفعل، ومن ذلك قوله ﷺ:

- وإنّكم لن تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتم الصلاة.
- لا تزالُ طائفةٌ من أمّتي على الحقّ حتّى يأتيَ أمرُ الله.
- ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، إلى يوم القيامة.

استعمالاتٌ جديدةٌ للأدوات الأخرى:

هذه الثورة اللغويّة من الاستعمالات الجديدة للأدوات القديمة شملت عشرات الأدوات في القرآن الكريم، منها هذه الأدوات التي سنتحدّث عنها بعد قليل، وهي على سبيل المثال وليس الحصر:

أمْ - كأنّ - لا - هل - قد - ربّما - لمّا - ما - لو - لولا - كما - ثُمّ - حاشا - لئلّا - إذنْ - إذا - إذْ - ذلك - إلّا - حتّى - ما برح - ما فتئ - صار - أمسى - بات - على - إنْ - عن - إنّ..

بل نستطيع القول إنّ هذه الثورة قد غطّت معظم الأدوات النحويّة المستعملة في لغتنا العربيّة كما سيتّضح لنا في دراستنا التطبيقيّة للسوَر.

وسنتوقّف عند بعض هذه الأدوات ليتّبيّن لنا من خلال السياق القرآنيّ كيف اختلفت معانيها واستعمالاتها في القرآن الكريم عمّا هي عليه في لغتنا منذ نصوصها الأولى في العصر الجاهليّ حتّى يومنا هذا:

فما أكثر ما يتحوّل معنى (لا) في القرآن إلى (نَعَم) أو إلى التأكيد بدلاً من النفي، كما في قوله تعالى:

- ﴿فلا أُقسِمُ بمَواقعِ النجوم﴾ [الواقعة: 75]
- ﴿فلا أُقسِمُ بما تُبصِرون﴾ [الحاقّة: 38]

أو يتحوّل معنى (هل) الاستفهاميّة إلى (قد) التحقيقيّة:

- ﴿هل عَلِمْتُمْ ما فعلتُم بيوسُفَ وأخيه إذْ أنتمْ جاهلون﴾ [الكهف: 89]
- ﴿هل أتى على الإنسانِ حِينٌ من الدهرِ لم يكنْ شيئاً مذكوراً﴾ [الإنسان: 1]

أو يتحوّل معنى (قد) التقديريّة (وهي التي تسبِق الفعل المضارع وتفيد الاحتمال والتشكيك) إلى (قد) التحقيقيّة (وهي التي تسبق الماضي وتفيد القطع والتأكيد):

- ﴿قد نَرى تَقلُّبَ وجهِكَ في السماء﴾ [البقرة: 144]
- ﴿قد يعلمُ اللهُ المعوِّقِين منكمْ﴾ [الأحزاب: 18]

وكذلك (ربما) التي نراها تدخل في القرآن على المضارع، وليس على الماضي كما هي في لغتنا، فيتحوّل معناها من التقدير أو الاحتماليّة إلى التحقيق والتأكيد:

- ﴿رُبَما يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مُسلمين﴾ [الحِجر: 2]

أو يتحوّل معنى (لمّا) إلى (إلّا) الاستثنائيّة أحياناً:

- ﴿وإنْ كلٌّ لمّا جميعٌ لدَينا مُحضَرون﴾ [يس: 32]
- ﴿وإنْ كلُّ ذلكَ لمّا مَتاعُ الحياةِ الدّنيا﴾ [الزُّخرُف: 35]

وأحياناً أخرى إلى (ثُمّ) فلا نجد بعدها أو قبلها فعلاً أو اسماً يحمل معنى الفعل ويصلح أن نعلّقها به كما نفعل مع ظروف الزمان والمكان:

- ﴿فلمّا ذهَبوا به وأجْمعوا أنْ يَجعَلوه في غَيابَة الجُبِّ وأوحَينا إليه لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِمْ هذا وهمْ لا يَشعرون﴾ [يوسُف: 15]
- ﴿ولمّا دخلوا مِن حيثُ أمَرَهمْ أبوهمْ ما كانَ يُغْني عنهمْ مِنَ اللهِ مِن شيءٍ إلّا حاجةً في نفْسِ يعقوبَ قَضاها﴾ [يوسف: 68]

أو تأتي (أنْ) زائدةً بعد (لمّا):

- ﴿فلمّا أنْ جاءَ البشيرُ ألقاهُ على وجهِهِ فارتدَّ بصيراً﴾ [يوسف: 96]

أو تأتي (ما) زائدةً بعد (لو):

- ﴿لو ما تأتينا بالملائكةِ إنْ كنتَ منَ الصادقين﴾ [الحِجر: 7]

أو تتحوّل (لو) عن وضعها الشرطيّ إلى وضع (لو) التي للتمنّي، فتتخلّى عن جواب الشرط:

- ﴿ولو أنّ قرآناً سُيِّرتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى بل للهِ الأمرُ جميعاً﴾ [الرعد: 31]

أو يتحوّل معنى (لولا) التحضيضيّة إلى معنى (ما) النافية بحيث يتلوها استثناءٌ، ومن غير أن تفقد معنى الحضّ، وربّما التوبيخ، كما في قوله تعالى:

- ﴿فلولا كانتْ قريةٌ آمنتْ فنفعَها إيمانُها إلّا قومَ يونُسَ لمّا آمنوا كشَفْنا عنهمْ عذابَ الخِزْيِ﴾ [يونس: 98]
- ﴿فلولا كان مِن القرونِ مِن قبلِكمْ أولُو بقيّةٍ يَنهَونَ عن الفسادِ في الأرضِ إلّا قليلاً ممّن أنجَينا منهمْ﴾ [هود: 116][7]

أو يتحوّل معنى (لولا) الشرطية الامتناعيّة (امتناع شيء لوجود غيره) إلى معنى التذكير أو الإشارة:

- ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكمْ ورحمتُه وأنّ اللهَ توّابٌ حكيمٌ﴾ [النور: 10]

---

(7) مع ملاحظة أنّ (لولا) التحضيضيّة، على ذلك، نادرة الاستعمال في الشعر الجاهليّ، ولكنّها تصبح ظاهرةً لغويّةً بارزةً في القرآن الكريم

- ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليكمْ ورحمتُه وأنّ اللهَ رَؤوفٌ رحيمٌ﴾ [النور: 20]

فيذكّرنا تعالى بفضله ورحمته وكأنّه يقول لنا في الآيتين: وهذا فضله عليكم وتوبته وحكمته ورأفته فاذكروها. وبهذا لا تحتاج (لولا) إلى الجواب المقترن باللام والذي تتطلّبه عادةً أختُها الشرطيّة.

أو يتحوّل معنى الأداة المركّبة (كما) إلى ما يشبه معنى (لقد):

- ﴿ولأُتِمَّ نِعمتي عليكمْ ولعلّكمْ تَهتدون. كما أرسلْنا فيكمْ رسولاً منكمْ يتلو عليكمْ آياتِنا ويُزكّيكمْ ويُعلّمُكمُ الكتابَ والحكمةَ ويعلّمُكمْ ما لم تكونوا تَعلمون﴾ [البقرة: 150-151]

- ﴿أولئكَ همُ المؤمنون حقّاً لهمْ درجاتٌ عند ربِّهم ومغفِرةٌ وأجرٌ كريم. كما أخرجكَ ربُّك مِن بيتِكَ بالحقّ..﴾ [الأنفال: 4-5]

أو تتحوّل أداة العطف (ثمّ) عن وظيفتها الأساسيّة لتفيد زيادة التأكيد:

- ﴿وما أدراك ما يومُ الدِّين. ثمّ ما أدراك ما يومُ الدِّين﴾ [الانفطار: 17-18]

- ﴿كلّا سوف تعلمون. ثمّ كلّا سوف تعلمون﴾ [التكاثر: 3-4]

أو تتحوّل (حاشا) الاستثنائيّة - المنتهية بالألف - حيثما وقعت في القرآن (مرّتين) لتصبح (حاشَ) التنزيهيّة - ومن غير ألِف -:

- ﴿وقُلْنَ حاشَ للهِ ما هذا بشراً﴾ [يوسف: 31]

- ﴿قُلْنَ حاشَ للهِ ما عَلِمْنا عليه مِن سُوء﴾ [يوسف: 51]

أو تصبح (لئلّا) بمعنى (لكي):

- ﴿لِئلّا يَعلمَ أهلُ الكتابِ ألّا يَقدِرون على شيءٍ﴾ [الحديد: 29]

أو تفقد (إذَنْ/ إذاً) الناصبة للمضارع فاعليّتها فتتوقّف في القرآن عن النصب حيثما وردت:

- ﴿وإذاً لا يَلبثون خِلافَكَ إلّا قليلاً﴾ [الإسراء: 76]

- ﴿وإذاً لا تُمَتَّعون إلّا قليلاً﴾ [الأحزاب: 16]

أو تقترن (إذا) الشرطيّة بـ همزة الاستفهام ليتكوّن منهما معاً أداةٌ جديدةٌ

للإنكار، بل لتتخصّص بإنكار البعث دون غيره كما يرصد لنا عبد الخالق عضيمة[8].

- ﴿وقالوا أئِذا كُنّا عِظاماً ورُفاتاً أئِنّا لَمبعوثون خَلْقاً جديداً﴾ [الإسراء: 49]
- ﴿ويقولُ الإنسانُ أئِذا ما مِتُّ لسَوفَ أُخرَجُ حَيّاً﴾ [مريم: 66]
- ﴿قالوا أئِذا مِتنا وكُنّا تُراباً وعِظاماً أئِنّا لَمَبعوثون﴾ [المؤمنون: 82]

أو تتخلّى (إذا الشرطيّة) هذه عن وظيفتها التقليديّة لتعمل عمل (لو) فيرتبط بذلك جوابُها باللام:

- ﴿ويقولُ الإنسانُ أإذا ما مِتُّ لَسوف أُخرَجُ حيّاً﴾ [مريم: 66]

أو تتخلّى (إذا) الشرطيّة هذه عن جوابها فتصبح بمعنى (كم) التكثيريّة فلا تحتاج إلى جواب:

- ﴿وإذا قيلَ لهمُ اتّقُوا ما بينَ أيديْكُمْ وما خَلْفَكُمْ لعلّكُمْ تُرحَمون. وما تأتيْهِمْ مِنْ آيةٍ مِنْ آياتِ ربِّهِمْ إلّا كانوا عنها مُعْرِضِين﴾ [يس: 45-46]

أو ينصرف معنى (إذا) الزمانيّة هذه إلى الماضي بدلاً من زمنها التقليديّ - المستقبل فتكون بمعنى (أمّا وقد):

- ﴿إذا جاء نصرُ اللهِ والفتحُ﴾ [النصر: 1]

وقد نزلت هذه الآية بعد أن جاء نصر الله وفتحُ مكّة وليس قبلهما.

أو تتحوّل (إذْ) الظرفيّة عن معناها التفسيريّ كما هو في لغتنا (كقولنا: كافأته إذ تبيّنت بطولته) إلى معنى (قد) التأكيديّ:

- ﴿وإذِ ابتلَى إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمّهُنّ﴾ [البقرة: 124]
- ﴿وإذْ جَعلْنا البيتَ مَثابةً للناسِ وأمْناً واتّخِذوا مِن مَقامِ إبراهيمَ مُصَلّىً﴾ [البقرة: 125][9]

---

(8) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج1، ص151.

(9) وقد طرح النحويّون لهذه الأداة القرآنيّة حلّاً ينسجم مع قواعدهم النحويّة، =

أو يأتي اسم الإشارة (ذلك) أو (ذلِكُمْ) بمعنى: (هذا من جهة) أو (بالإضافة إلى هذا)، كما نعبّر عنه بلغتنا المعاصرة:

- ﴿وما رَمَيتَ إذْ رَمَيتَ ولكنّ اللهَ رَمَى وليُبْلِيَ المؤمنين منه بَلاءً حَسَناً إنّ اللهَ سميعٌ عليمٌ. ذلكُمْ وأنّ اللهَ مُوهِنُ كَيدِ الكافرين﴾ [الأنفال: 17-18]

- ﴿أولئكَ الذين كَفَروا بآياتِ ربِّهمْ ولِقائِه فحَبِطَتْ أعمالُهمْ فلا نُقيمُ لهمْ يومَ القيامةِ وَزْناً. ذلكَ جزاؤُهمْ جهنّمُ بما كَفَروا واتَّخَذوا آياتي ورُسُلي هُزُواً﴾ [الكهف: 105-106]

أو تتحوّل (إلّا) عن استثنائيّتها لتصبح اسماً بمعنى (سوى) أو (غير) فتكون في موقع الصفة من غير أن تعمل فيما بعدها:

- ﴿لو كان فيهما آلِهةٌ إلّا اللهُ لَفسَدتا﴾ [الأنبياء: 22]

أو لتقترب من الظرفيّة فتتخلّى عن معنى الاستثناء لتصبح بمعنى (بَعْدَ) كقوله تعالى في وصف أهل الجنّة:

- ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلّا الموتةَ الأولى ووقاهم عذابَ الجحيمِ﴾ [الدخان: 56][10].

أو تكتسب (لا) النافية قوّة (لا) الناهية فتَدخل نون التوكيد على المضارع المنفيّ بها، ومن شأن هذه ألّا تدخل عادةً إلّا على المضارع المنهيّ بها:

- ﴿واتّقوا فِتنةً لا تُصيبَنَّ الذين ظَلَموا منكمْ خاصّةً﴾ [الأنفال: 25]

أو ينقلب معنى (لا) من النفي إلى الإيجاب والتأكيد فتصبح بمعنى (نعم) أو (حقّاً):

= فاقترحوا إبقاءها على معناها الأصلي على أن تعلَّق بفعلٍ محذوفٍ تقديره (واذكر)، ولكنّ اقتراحهم هذا لا يعيد إليها على أيّة حال معناها التفسيريّ الذي فقدته في الاستعمال القرآنيّ.

(10) وقد تنبّه الطبري في تفسيره إلى هذا المعنى القرآنيّ لأداة الاستثناء، ولكنّ الجمهور رفض رأيه بحجّة "أنّ مجيء (إلّا) بمعنى (بعد) لم يثبُت". الدرويش، محيي الدّين. **إعراب القرآن الكريم**. دمشق: اليمامة ودار ابن كثير، 1999. ج7، ص133.

- ﴿فلا أُقسِمُ بما تُبصِرون. وما لا تُبْصِرون. إنّه لَقَولُ رسولٍ كريمٍ﴾ [الحاقّة: 38-40]

- ﴿فلا أُقْسِمُ بالشَّفَقِ. والليلِ وما وَسَقَ. والقَمَرِ إذا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: 16-18]

أو تتخلّى (حتّى) عن عطفيّتها لتقتصر على معنى الزمنيّة، فلا يقع بعدها إلّا فعلٌ ماضٍ أو مضارعٌ أو ظرفٌ أو اسمٌ للزمان(11):

- ﴿فما اختَلفوا حتّى جاءهمُ العِلمُ﴾ [يونس: 93]

- ﴿حتّى إذا رَكِبا في السفينةِ خَرَقَها﴾ [الكهف: 71]

- ﴿تمَتّعوا حتّى حِينٍ﴾ [الذاريات: 43]

- ﴿سلامٌ هي حتّى مَطْلَعِ الفجرِ﴾ [القَدْر: 5]

أو تتحوّل الأفعال الناقصة (ما برِح) و(ما فَتِئ) و(صار) و(أمسى) و(بات) عن طبيعتها في لغتنا فلا تقع في القرآن إلّا تامّة(12):

- ﴿لا أبْرَحُ حتّى أَبلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَين﴾ [الكهف: 60]

- ﴿قالوا تاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يوسُفَ﴾ [يوسف: 85]

- ﴿ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمورُ﴾ [الشُورى: 53]

- ﴿فسُبحان اللهِ حينَ تُمْسُون وحينَ تُصْبِحون﴾ [الروم: 17]

- ﴿والذين يَبِيتُون لربِّهم سُجَّداً وقِياماً﴾ [الفرقان: 64]

أو ترتبط (على) بـ (أنْ) فتكتسب معنى الزمنيّة:

- ﴿قالَ أبشَّرتُمونيْ على أنْ مَسّنِيَ الكِبَرُ فبِمَ تُبشِّرونَ﴾ [الحِجر: 54]

أو تتخلّى (إنْ) عن شرطيّتها فتغدو حرفاً زائداً للتوكيد:

- ﴿ولقد مكّنّاهمْ فيما إنْ مَكّنّاكُمْ فيه﴾ [الأحقاف: 26]

أو تكتسب (عن) معنى السببيّة (من أجل) ولم يعرفها العرب بهذا المعنى قبل القرآن:

---

(11) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج8، ص9-10.

(12) المرجع السابق، ج8، ص319-321.

- ﴿وما نحن بتاركِي آلهتِنا عن قولِكَ﴾ [هود: 53]

أو تتحوّل الأداة المشبّهة بالفعل (إنّ) عن حرفيّتها لتصبح بمعنى فعلٍ حقيقيّ، فتتخلّى عن خبرها وتأخذ معنى الفعل (أَنذِر) أو (سأعاقب):

- ﴿إنّ الذين كَفَروا بالذِّكْرِ لمّا جاءهم وإنّه لَكتابٌ عزيزٌ﴾ [فُصِّلَت: 41]

أو تأخذ الأداة المشبّهة بالفعل (كأنّ) دور أداةٍ أخرى من أخواتها المشبّهات بالفعل فيتحوّل معناها إلى (إنّ):

- ﴿وأصبحَ الذين تمَنَّوا مَكانَه بالأمسِ يقولون وَيْكأنّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لمَن يشاءُ مِن عبادِهِ ويَقْدِرُ لولا أنْ مَنَّ اللهُ علينا لَخَسَفَ بنا وَيْكأنّهُ لا يُفلِحُ الكافرون﴾ [القَصَص: 82]

أو يتحوّل معنى (أَمْ) إلى (بَلْ):

- ﴿ونادى فِرعَونُ في قومِهِ قال يا قومِ أليس لي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهارُ تَجري مِن تحتي أفَلا تُبْصِرون. أمْ أنا خيرٌ مِن هذا الذي هو مَهِيْنٌ ولا يكادُ يُبِينُ﴾ [الزُّخرُف: 51-52][13]

إنّه غيضٌ من فيض المعاني المبتكرة التي أعطاها القرآن لعديدٍ من الأدوات والألفاظ ممّا عرفه العرب قبل القرآن الكريم، ولكن في معانٍ واستعمالاتٍ مختلفةٍ عن المعاني والاستعمالات القرآنيّة.

والقرآن الكريم لم يتوقّف عند مثل هذه الاستعمالات الجديدة للأدوات، بل تجاوزها إلى حذف هذه الأدوات حيث اعتدنا أن نجدها في لغتنا التقليديّة. ويعدّد السيوطي أكثر من عشرة أنواع لهذا الحذف، منها حذف همزة الاستفهام، وحذف الموصول الحرفيّ (أنْ المصدريّة)، وحذف الجارّ، وحرف العطف، وفاء جواب الشرط، و(قد)، و(لا) النافية، ولام التوطئة للقسَم،

(13) مع تذكيري دائماً بأنّ هذه التأويلات، أو أيّ اجتهادٍ أو رأيٍ يرد في هذا الكتاب، لا يمكن أن تُعدّ نهائيّةً أو قطعيّة، بل يبقى مثل هذه الأحكام مفتوحاً للزمن ولاجتهادات العلماء، وأظنّه سيبقى على ذلك إلى الأبد.

ولام (لقد)، ولام الأمر، ونون التوكيد[14].

وإضافةً إلى الوقفات الفرعيّة عند سورة (المدّثّر) التي وعدنا بأن نقفها في ثنايا الكتاب؛ سنتوقّف في الفصل التالي وقفةً متأنّية عند هذه السورة لدراسة ألفاظها دراسةً تفصيليّة، ومن ثَمّ لتقدير حجم الجرعة اللفظيّة المبكّرة من لغة الوحي التي كان على العرب أن يجترعوها منذ الأيّام الأولى للدعوة الجديدة.

---

(14) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص123 - 124.

الفصل السادس

الألفاظ الجديدة في بواكير الوحي
سورة المدّثّر

في عام 1996 دعوتُ في أكاديمية أوكسفورد إلى مؤتمرٍ أقمناه في كوالالامبور بالاشتراك مع الجامعة الإسلاميّة العالمية في ماليزيا تحت عنوان (اللغة العربيّة أمام تحدّيات القرن الحادي والعشرين)، وعرضتُ في الورقة التي قدّمتها للمؤتمر نصّاً مأخوذاً من مقالٍ منشورٍ في صحيفة الشرق الأوسط، لأثبت أنّ معظم كلمات هذا النصّ غير موجود في معاجمنا، القديمة منها أو الحديثة.

وكان بين المشاركين في المؤتمر الدكتور عبد الله الدنان[1]. وأذكر أنّه عرض علينا مقطعاً صغيراً آخر متحدّياً لغويّينا القدماء، لو بُعثوا من قبورهم، أن يفهموا منه شيئاً. ومن وحي النصّين، ومن واقع حياتنا اللغويّة اليوميّة، وضعتُ الإعلان الافتراضيّ التالي الذي أقترح أن نقرأه معاً قبل أن أخوض معكم في أعماق هذا الفصل:

تعلن مصلحة المواصلات والبرق والهاتف عن تعيين موظَّفين إداريّين

---

(1) هو عبقريّةٌ لغويّةٌ نادرة، أشرف على تحرير لغة البرنامج العربيّ - الأمريكيّ (افتح يا سمسم) ثمّ صدمته رغبة الشركة المنتجة في إصدار القسم الثاني من البرنامج باللهجات العربيّة العامّية الأربع، بحجّة أنّ الفصحى صعبةٌ على الطفل، فقرّر بعد ذلك إنجاب ابنٍ آخر نشّأه منذ ولادته على ألّا يكلّمه إلا بالفصحى وترك لأمّه أن تخاطبه بالعامّية، وأثبت بهذه التجربة، وبشكلٍ مذهل، سهولة تعلّم الفصحى على الأطفال وحبّهم وإتقانهم لها وشغفهم بعد ذلك بقراءة كلّ ما يُنشر بها.

وفنّيّين ومهندسين مدنيّين واختصاصيّين كهربائيّين من حمَلة الدرجات والشهادات الجامعيّة لوظيفة (مدير عامّ) في إداراتها ومكاتبها بالمحافظات. وعلى المرشَّحين تقديم أوراقهم الثبوتيّة ومعها طابعٌ ماليٌّ بمائة ريال/ جنيه/ ليرة، وذلك لأمين سرّ لجنة المقابلات الأستاذ جورج طربوش.

ينشر الإعلان في الصحف والمجلّات وفي مديريّات المصلحة والمؤسّسات الرسميّة ومجالس البلديّات والشركات الخاصّة والجامعات والمعاهد التطبيقيّة.

حاولوا معي الآن، بعد قراءتكم الأولى للإعلان، أن تضعوا أنفسكم مكان أولئك اللغويّين الكبار، واقرأوا الإعلان من جديدٍ، وبتأنٍّ وتمعّنٍ شديدين، مستحضرين في خيالكم مفردات اللغة التي عرفوها في عصرهم، وهي عمليّةٌ لن تكون بالسهولة التي تتصوّرونها، وأنا واثقٌ من أنّكم لن تفهموا منه في النهاية، لو نجحتم نجاحاً تامّاً في عمليّة الاستحضار، إلّا بضع أدواتٍ أو حروف جرٍّ وردت فيه.

الإعلان القرآنيّ:

وخلافاً لإعلان "مصلحة المواصلات"؛ لم يكن "الإعلانُ الإلهيّ" أو "البيان القرآنيّ" الذي طلع على العرب بين ليلةٍ وضحاها مجرد سيلٍ ضخمٍ من الألفاظ الجديدة داهمتهم وهم ينامون على ثروةٍ من المفردات التي لم تكن قد تغيّرت أو تجدّدت على مدى عقودٍ، وربّما قرون.

لقد كان الإعلان القرآنيّ يحمل لهم في تركيبته، إلى جانب المعجم اللفظيّ الجديد، سبائك لغويّةً لم يعرفوها من قبل، ولن يعرفوا مثلها من بعد، وتراكيبَ وتعبيراتٍ مختلفةً كلّياً عمّا ألِفوه، وأدواتٍ نحويّةً تحمل معاني واستعمالاتٍ جديدةً عليهم، وعلاقاتٍ لغويّةً لم يعهدوها في لغتهم، وصوراً بلاغيّةً وعلاقاتٍ بيانيّةً غريبةً على خيالهم، وأفكاراً تحمل أبعاداً تجاوزت بكثيرٍ حدود بيئتهم الثقافيّة المتوارثة.

كلّ هذا التغيير الدراميّ المثير لم يستغرق أكثر من الوقت الذي استغرقه انصرافُ رجلٍ أمّيٍّ بسيطٍ من بيته، لم يكن قد سبق له طوال سنوات عمره الأربعين، أنْ قرأ أو كتب أو ألّف شيئاً، حتّى إن كان هذا الشيء مجرّد كلماتٍ أو أسطرٍ قليلةٍ بسيطة، ليخلو إلى نفسه سحابة يومٍ أو بعض يومٍ في غار حِراء على بُعد أميالٍ من مكّة، ثمّ يعود إلى قومه حاملاً إليهم القطرات الأولى من غيث الإعلان الإلهيّ الجديد وهو يقرأ عليهم بواكير سوَره المُنزَلة: ﴿اقرأ باسم ربِّكَ الذي خَلَق﴾ و﴿يا أيُّها المُدَّثِّرُ قُمْ فأَنْذِرْ﴾ و﴿يا أيُّها المُزَّمِّلُ قُمِ الليلَ إلّا قليلا﴾...

ما الأصداء التي يمكن أن نتوقّعها في نفوس العرب الجاهليّين أمام هذا "الفيضان اللغويّ" المفاجئ الذي دهمهم من حيث لا يتوقّعون؟ وكيف ستتعامل مخابرهم اللغويّة والثقافيّة المحدودة مع هذه الجرعة الهائلة من "الكمّ" و"النوع" التي تتكوّن منها طبقات النيزك اللغويّ الهابط عليهم من السماء؟

هل سيتوقّفون حائرين مرتبكين أمام نصوص "الإعلان الجديد" كما كان يمكن لسيبويه أن يتوقّف أمام إعلان مصلحة المواصلات وقد ألَبس عليه بخزّانه اللفظيّ الجديد والمحيِّر؟ أم أنّ مشكلتهم ستكون أكثر عمقاً وأخطر أبعاداً وهم يواجهون "إعلاناً" تجاوزت خزّاناتُه حدود الألفاظ وحدها إلى آفاقٍ لا حدود لها من السبائك والتراكيب والتعبيرات والأدوات والعلاقات والصور والأفكار والبِنية الحضاريّة الجديدة؟

الألفاظ الجديدة في (المدّثّر):

وعلى خطورة أن يواجِه الإسلامُ العربَ، منذ الأيّام الأولى من الرسالة، بألفاظٍ لم يسمعوا بها من قبل، وما قد تحمله هذه الصدمة من نتائج ربّما تنعكس سلباً على فهمهم للدّين، وعلى تَقبُّلِهم للعبارات الأولى من رسالة السماء، فإنّ القرآن، وبثقةٍ لا نظير لها، لم يتجنّب مثل هذه الألفاظ الجديدة والمصطلحات الغريبة على العرب حتى في تلك الآيات والسوَر المبكّرة التي نزلت على نبيّه الكريم.

وهكذا نجد سورة (المدّثّر)، وهي إحدى السوَر الأوائل التي واجه بها الوحيُ العرب، مشحونةً بمثل هذه الألفاظ والمصطلحات والأدوات الجديدة.

ومن السهل علينا أن نعثر فيها، وهي تقلّ عن صفحتين ولا تزيد عن 256 كلمة، على ما لا يقلّ عن 84 لفظاً جديداً، أي ما يقرب من ثلث ألفاظها.

من هذه الألفاظ ما لا يقلّ عن 14 لفظاً جاءت جديدةً تماماً على العربيّ، إمّا كلّيّاً، بجَذرها وبنائها ومعناها معاً، وإمّا جزئيّاً؛ أي ببنائها ومعناها مع معرفة العرب لجذر هذا البناء من قبل، وهي:

- **الرُجْز** (مصطلحٌ جديد: أي الأصنام، أو العذاب)
- **الناقور** (صيغةٌ جديدة: وهو الصُوْر الذي يَنفُخ فيه إسرافيل)
- **صَعُودا** (صيغةٌ جديدةٌ ومعنىً جديد، وقيل إنّه اسمٌ لجبلٍ في جهنّم)
- **بَسَرَ** (لفظٌ جديد: أي كَلَح وجهُه وتَغيّر)
- **لوّاحةٌ - للبَشَر** (معنىً جديد، أي: مُغيِّرةٌ للون الجلد "البَشَرة"، أو: ظاهرةٌ للناس "البَشَر")
- **ملائكة** (لفظٌ جديد، من: أَلَكَ، أي أرسَلَ)
- **أوتوا** (صيغةٌ جديدةٌ ومعنىً جديد: أي أُعطُوا)
- **الكُبَر** (جمعٌ جديدٌ لكُبرى)
- **المجرمين** (صيغةٌ لم يعرفها الشعر الجاهليّ بهذا المعنى)
- **سَلَكَكم** (صيغةٌ جديدة: أي أدخَلكم)
- **سَقَر** (لفظٌ جديد: أي جهنّم)
- **مستَنفِرة** (صيغةٌ جديدةٌ ومعنىً جديد: أي هاربةٌ أو مذعورة)
- **قَسْوَرَة** (لفظٌ جديد: أي أسد، أو: رماة القِسيّ أو الأقواس)
- **المَغفِرة** (صيغةٌ جديدة)

الألفاظ القديمة في معنىً جديد:

أمّا لو بحثنا في السورة عن الألفاظ التي عرفها العرب قبل الوحي ولكنّها حملت في القرآن معنىً جديداً، أو استُعملت استعمالاً مخالفاً، أو حلّت محلّ ألفاظٍ أخرى، فسنجد منها ما لا يقلّ عن 38 لفظاً، وهي:

- قُم (أي ابدأ وباشِر)
- فأنذِرْ (أي بَلِّغ الرسالة)
- فكبِّر (أي اعبدْه وعظِّمه)
- ولربِّكَ (أي من أجل حمل دعوته)
- نُقِرَ (أي أُحدث صوتٌ هائل)
- وحيداً (حلّت محلّ: وحيدَين)
- ممدوداً (حلّت محلّ: كثيراً)
- ومَهّدتُ (أي جعلتُ حياته سهلة، حُذِف المفعول)
- عنيداً (حلّت محلّ: معانداً)
- فقُتِل (صيغةٌ دعائيّةٌ جديدةٌ، أو: إنباءٌ مُسبَقٌ بقتله أو عذابه)
- قَدَّر (حلّت محلّ: أعطى رأياً، أو: أصدرَ حُكماً)
- يُؤْثَر (حلّت محلّ: يُدرَس، أو يُتوارَث)
- لا تُبقي (أي لا تُبقي شيئاً، حُذف مفعوله)
- ولا **تَذَرُ** (أي لا تترك أيّ شيء، حُذف المفعول)
- **عليها** تسعةَ عشَر (حلّت "على" محلّ: يتولّى أمرَها)
- أصحابَ النار (حلّت "**أصحاب**" محلّ: خَزَنة أو حرّاس)
- عِدَّتَهم (حلّت محلّ: عددهم)
- فِتنةً (حلّت محلّ: اختباراً صعباً، وقيل: عذاباً)
- ليستيقن (أي يؤمن بالإسلام)
- مرضٌ (أي شكٌّ، أو: نفاق)

- مَثَلاً (أي: عِظةٌ أو حديث)
- ذكرَى (حلّت محلّ: تذكير)
- يتقدّم (حلّت محلّ: يؤمن، أو: ينجو)
- يتأخّر (حلّت محلّ: يَكفُر، أو: يَهلك)
- كَسَبَتْ (حلّت محلّ: عملتْ أو ارتكبت)
- رهينةٌ (حلّت محلّ: مسؤولة، أو محاسَبة)
- أصحابَ **اليمين** (حلّت "اليمين" محلّ: الحقّ، أو الفوز)
- جَنّاتٍ (أي: جنّة الله أو الفردوس، وليس حدائق الدنيا)
- يتساءلون (حلّت محلّ: يسألون، أو يوجّهون سؤالاً)
- المِسكين (معنىً جديد، وقد عرفها العرب بمعنى: شديد السكون)
- نخوضُ (أي: نتحدّث بالسوء)
- الخائضين (معنىً جديد، أي: المتحدّثين بالسوء)
- **نكذِّبُ بيومِ** الدِّين (حلّ "نكذّب بـ" محلّ: نكذّبه أو ننكره)
- بيومِ **الدِّين** (أي: الحساب)
- أتانا **اليقين** (أي: الموت، أو: القيامة)
- عن **التذكِرة** (حلّت محلّ: السماع للدعوة الجديدة)
- هو **أهلُ** التقوى وأهلُ المغفِرة (حلّ "**أهل**" في المرّتين محلّ: أهلٌ لـ، أو: صاحب)

وحين نتفحّص هذه الألفاظ، الجديدةَ بمعناها والقديمة بلفظها، نجد أنّ كثيراً منها قد اكتسب معناه الجديد من علاقته بالألفاظ التي تحيط به، أو من السياق الذي أتى فيه والذي لا يمكن تجريده منه أو فصله عنه.

فما كنّا لنعرف أن معنى (لربِّكَ) في السورة هو (من أجل دعوة الإسلام) لولا دلّ عليه السياق (ولربِّكَ فاصبِر).

وما كنّا لنعرف أنّ معنى (أصحاب) في السورة هو (حرّاس) أو (خزَنة)،

وليس المالكين والمتصرّفين كما هي في لغتنا، لولا السياق الذي وردت فيه: (وما جعلنا أصحاب النار إلّا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتَهم إلّا فتنةً).

ولو جُرِّد اللفظ (مرضٌ) من سياقه ما كنّا لنعرف أنّه جاء بمعنى (الشكّ أو ضعف الإيمان) وليس المعنى المعروف للمرض.

وما كنّا لنعرف أنّ معنى (اليمين) هو (الحقّ) أو (الفوز) لو تجرّد هذا اللفظ من الآية التي ورد فيها، وهكذا..

وإذا كان للّغويّين أن يختلفوا حول حقيقة إيجاد القرآن لألفاظٍ جديدةٍ بلفظها ومعناها، وقد عرفنا كيف كان خلافهم مبنيّاً على مخاوف وهميّةٍ أثارها المنكِرون لحقيقة التجديد القرآني، فكيف يمكن أن يختلفوا في حقيقة إيجاد القرآن لهذا النوع الآخر من الألفاظ؛ أي الألفاظ القديمة التي أعطاها القرآن معنىً جديداً. بل، إذا كان لهم أن يختلفوا على هذا الجانب التجديديّ الآخر، فكيف لهم أن يختلفوا على حقيقة استقلاليّة التعبير القرآنيّ، أو على فَرادة السبائك اللغويّة القرآنيّة وجدّتِها واستعصائها على التقليد؟

المصطلح الجديد في (المدّثّر):

وكثيراً ما تدخل الألفاظ القرآنيّة الجديدة في مرحلةٍ أكثر تطوّراً واستقراراً بحيث تأخذ شكل المصطلح، وهي ألفاظٌ قد تَخفى علينا، أوّل وهلة، حقيقةُ جِدّتها وقرآنيّتها نتيجةً لتداولها الواسع اليوم وشيوعها على ألسنتنا. فقد غدت هيكلاً أساسيّاً في بناء لغتنا الإسلاميّة الجديدة التي هيمنت منذ ذلك الوقت المبكّر على لغتنا الرسميّة واليوميّة.

وفي سورة (المدّثّر) العديد من المصطلحات القرآنيّة المبتكرة التي لم يعرفها العرب قبل القرآن، مع التأكيد من جديدٍ على ضرورة تجريد ذاكرتنا من تأثير القرون المتوالية من الاستعمال إذا كان لنا أن نكتشف كيف استقبل العرب الأوائل مجيء الوحي بمثل هذه الأعداد الكبيرة من المصطلحات الجديدة، وكيف استطاعوا بعد ذلك أن يفهموها من خلال سياقها مع حداثة المفهومات الإسلاميّة الطارئة عليهم. ولو لم نقم بمثل هذه العمليّة التجريديّة

لسقطنا في مصيدة الألفة، ولقلنا لأنفسنا: وأين الجديد في هذا المصطلح أو اللفظ؟ أو أين المشكلة في فهمه؟

وبإمكاننا العثور في (المدّثّر) على ما لا يقلّ عن أحد عشر من هذه المصطلحات الإسلاميّة الجديدة، وهي:

- المدّثّر (لقبٌ للنبيّ، وهي في الأصل اللغويّ بمعنى: الملتفّ بثيابه)
- كفروا (أي رفضوا دعوة الإسلام، وهي في الأصل اللغويّ بمعنى: غطّوا، أي أغلقوا عقولهم وقلوبهم)
- آمنوا (أي اعتنقوا الإسلام، وهي في الأصل اللغويّ بمعنى: صدّقوا)
- إيماناً (أي إسلاماً، وتعني في الأصل: تصديقاً)
- المؤمنون (أي المسلمون، وتعني في الأصل: المصدِّقون)
- الكافرون (أي المشركون، وتعني في الأصل: المنكرون، أو الذين غُطّيت عقولهم)
- يُضِلّ اللهُ (يمنع عنه الإيمان، وتعني في الأصل: يضيّعه)
- ويَهدي (ينعم عليه بالإيمان، وتعني في الأصل: يدلّه على الطريق)
- جنود ربِّك (مصطلحٌ بمعنى الملائكة)
- المُصَلّين (وهم المؤمنون، أي المؤدّون لصلواتهم الخمس)
- التقوى (مراقبة الله لاتّقاء عذابه، وهي في الأصل بمعنى التجنّب واتّقاء الأذى)

اللفظ البيانيّ في (المدّثّر):

وهناك أخيراً الألفاظ التي اكتسبت جِدّتَها من الشحنة البيانيّة أو التصويريّة التي تضمّنتها، وهي شحنةٌ قوامها التشبيه أو العلاقة المجازيّة بين الكلمة وما حولها من الكلمات. وفي سورة (المدّثر) من هذا النوع سبعة ألفاظٍ على الأقلّ:

- وثيابَكَ فطَهِّرْ (أي: نفسَك أو روحك، يُقال: فلانٌ نقيّ الثوب، أي عفيف)

- سأُرهِقُه **صَعودا** (أي عذاباً كالصُعود في الجبل، أو الجبل شديد الصعود)
- ﴿**والرُجْزَ** فاهجُرْ (أي الأصنام التي تؤدّي إلى الرُجز، وهو العذاب)
- ﴿ثمّ **أَدبَر** (أي غيّر رأيه وكفرَ بعد تصديق، فكأنّما رجع إلى الوراء)
- ﴿سأُصليه **سَقَر** (أي أعذّبه بالنار الموجودة في سَقَر أي في جهنّم)
- ﴿كَفروا (بمعنى: غطّوا، أي كأنّما غُطِّي على عقولهم. ويدخل مع مشتقّاته في باب المصطلح الجديد أيضاً كما سبق أن رأينا)
- ﴿والصبحِ إذا **أَسفَر** (كأنّ الفجر استتر بالليل ثم كشف عن وجهه)

الاستعمال الجديد للأدوات في (المدّثّر):

وإلى جانب الألفاظ الجديدة التي شُحنت بها سورة (المدّثّر)، وبأنواعها المختلفة، من السهل أن نكتشف فيها ما لا يقلّ عن أربعة عشر استعمالاً جديداً للأدوات القديمة، كما رأينا في استعمال (كان) و(ما زال).

فحرف العطف (الفاء) لم يأتِ في مكانه كما عهدناه في لغتنا؛ أي بين فعلين أو اسمين ليَعطف ثانيَهما على أوّلهما، بل جاء، وفي ثلاث آياتٍ متتالية (3 - 5)، بين المفعول المتقدّم وفعلِه المتأخّر عنه: (وربّكَ فكبِّر. وثيابَكَ فطهِّر. والرُجْزَ فاهجُر)، ثمّ مرّةً أخرى بين المتعلِّق والمتعلَّق به: (ولربك فاصبِر).

وأداة الجواب (كلّا) التي نعهدها في لغتنا العاديّة بمعنى (لا) جاءت بمعنى الزجر أو الردع أو ربّما (حقّاً) في أربع آياتٍ من السورة: (16، 32، 53، 54).

وحرف العطف (ثمّ) جاء، أوّل مرةٍ في لغتنا، يحمل معنى المبالغة والتأكيد وليس مجرّد ربط كلمةٍ أو جملةٍ لاحقةٍ بأخرى سابقة، وذلك في الآية (20): (فقُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ قُتِلَ كيف قَدَّر).

ثمّ لاحظ أنّ اسم الاستفهام (كيف) في الآيتين لا يحمل، في رأينا، معنى الاستفهام، كما هو في لغتنا العاديّة، ولا معنى الحاليّة الذي يتضمّنه

عادةً، بل جاء أقرب إلى الحرف المصدريّ، فكأنّه يؤوَّل مع الفعل بعده بمصدرٍ في موضع نائب فاعلٍ، والتقدير: (قُتِل تقديرُه)، أو في تأويلٍ آخر: (قُتِل جزاء تقديره)، فلا مكان، على هذا، لمعنى الحاليّة أو الاستفهام في الآيتين.

والأداة (إنْ) تأتي بمعنى (ما) أو (ليس) في الآيتين (24 – 25): (فقال إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البَشَر) أي: (ما هذا)، وهي ظاهرةٌ فريدةٌ وكثيرة الانتشار في القرآن تشبه في حجمها وغرابتها ظاهرة (كان)، ولم أجدها في الشعر العربيّ مطلقاً، وكلّ ما استشهد به النحاة لإثبات وجودها في لغتنا العاديّة كان جملةً أو جملتين نسبوهما إلى بعض العرب. يقول ابن هشام "وسُمع من أهل العالية (إنْ أحدٌ خيراً من أحدٍ إلّا بالعافية) و(إنْ ذلك نافعَكَ ولا ضارَّك)"[2].

ولا يمكننا الأخذ بجدّية مثل هذه الشواهد القليلة التي لا تُنسب موثقة إلى أشخاصٍ محدّدين، ولا سيّما أنّ النحويّين لم يأتوا، فيما أعلم، بشاهدٍ واحدٍ من الشعر أو الحديث النبويّ أو أقوال الصحابة على هذا الاستعمال، مع تأكيدنا من جديدٍ على تأثُّر العرب الحتميّ، بَدْواً وحَضَراً، بلغة القرآن الكريم، فلا يُعتدّ بما جاء على لسانهم بعد الإسلام من شواهد في معرض إثبات جِدّة لغة القرآن أو عدم جِدّتها.

وهكذا يتغيّر أيضاً معنى أداة الجرّ (عن) في الآية (41): (في جنّاتٍ يتساءلون. عن المجرمين. ما سَلَكَكُم في سَقَر). إنّ (عن) تبدو هنا وكأنّها زائدة، ومعنى الفعل (يتساءلون) قبلها يبدو أقرب إلى (يَسألون)، فغدا المعنى،

(2) الأنصاريّ، ابن هشام. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**. تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. بيروت: دار الفكر، 1985، ص36. ومن المهم ملاحظة أنها تختلف عن (ما) النافية بارتباطها في القرآن دائماً بالأداة (إلّا) بعدها. والغريب أن عبد الخالق عضيمة في موسوعته الإحصائيّة اللغويّة والنحويّة الضخمة، وقد جاءت في 11 مجلّداً، أغفل تماماً الحديث عن وجود أو عدم وجود (إنْ) النافية خارج القرآن الكريم، إذ كان كلّ همّه في الكتاب هو رصد وإحصاء الحالات النحويّة في القرآن بغضّ النظر عن وجودها أو عدم وجودها في غيره.

وقد التفتَ الحديث بعدها من الغائب إلى المخاطب، أقرب إلى التعجّب منه إلى السؤال، أي: يسألون المجرمين: ما سلككم؟ ولم تُستعمل هذه الأداة قطّ على هذا النحو في لغتنا العاديّة.

ولا شكّ في أن وجود 84 لفظاً أومصطلحاً جديداً في سورةٍ قصيرة ومبكِّرة النزول كهذه، سيُحدث في نفوس من سمعوها أوّل مرّة ارتجاجةً شبيهةً بتلك التي أصابت عُتبة بن ربيعة وقد سمع من الرسول ﷺ الآيات الثلاث عشرة الأولى من سورة (فُصِّلت) فعاد إلى قومه، وهو اللغويّ البليغ، ذاهلاً لا يكاد يفقه شيئاً ممّا سمع.

فكيف لو أضفنا إلى هذه الشحنة الثقيلة من الألفاظ العناصرَ اللغويّة الأخرى الجديدة على عُتبة في السورة، ومنها عشرات التركيبات والتعبيرات والسبائك اللغويّة القرآنيّة، وعشرات الصور البلاغيّة والعبارات المنفتحة وجوامع الكَلِم، فضلاً عن الأبعاد الفكريّة والثقافيّة الجديدة التي تتقاطع مع كلّ هذه المستجدّات اللغويّة والبلاغيّة؟

الفصل السابع

العلاقات اللغويّة الجديدة

عرفت اللغة الشعريّة في العصور الحديثة مذاهب تعبيريّةً شتّى، ومدارس لغويّةً وتصويريّةً متتاليةً تحوّلت باللغة الأدبيّة إلى أنماطٍ جديدةٍ من التعبير لم تكن معروفةً من قبل، وكان ذلك تحت تأثير الغزو الفلسفيّ المكثّف لثقافتنا الحديثة، والتطوّر السريع لأنماط الحياة الصناعيّة والاجتماعيّة والفكريّة، فخرجت العلاقات اللغويّة والتصويريّة فيما بين الألفاظ إلى آفاقٍ جديدةٍ فتحت الأبواب واسعةً لخيال القارئ وتفكيره.

وهكذا وجدنا العلاقات بين الألفاظ تتباعد وتتنافر ليكون لنا من هذا التنافر، وربّما التناقض، إيحاءاتٌ وانعكاساتٌ فكريّةٌ وخياليّةٌ لم تكن لتتاحَ لنا من خلال العلاقات التقليديّة التي اعتدناها بين هذه الألفاظ.

فلم تعد الروابط اللغويّة الجديدة تلتزم بالأبعاد العقليّة أو الحسّية أو المنطقيّة التي كانت تربط بين الكلمة والأخرى ضمن العبارة الواحدة، أو بين المشبّه والمشبّه به ضمن الصورة البيانيّة الواحدة. فقد ينتمي اللفظ إلى حاسة السمع ثمّ يفاجئنا الكاتب أو الشاعر بأن يربطه بلفظٍ ينتمي إلى حاسّة البصر أو الشمّ أو اللمس أو الذوق. أو ربّما يتباعد اللفظان من الناحية العقليّة بحيث يصعب ربط معنى أحدهما من الناحية المنطقيّة بمعنى الآخر، كمثل قولهم: "مرفأ الذاكرة - لحم زنابق - عصير قنابل - شوارع الأيّام - جثّة المكان - قطار الدهشة - عظام السفر - زهر الصمت - شمسٌ سوداء - ضوءٌ مسموع - الصاعقة الخضراء - الوقت المكبّل.. "[1].

---

(1) ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية**، مرجع سابق، ص307-327.

وقد انتشر هذا النوع من العلاقات اللفظيّة الجديدة في شعرنا بخاصّة بعد ظهور المدرستين الرمزيّة والسرياليّة في الأدب الغربيّ، وتأثُّر الشعراء العرب بهما منذ بدايات القرن العشرين.

هذه الانتفاضة اللغويّة الحديثة التي تبلورت على الأخصّ في النصف الأوّل من القرن العشرين، وهيّأت لها موجاتٌ فلسفيّةٌ وفكريّةٌ وصوفيّةٌ عارمةٌ اجتاحت المساحة الثقافيّة للعالم، كانت قد سبقتها بما لا يقلّ عن ثلاثة عشر قرناً ثورةٌ لغويّةٌ عاصفةٌ وقعت في منطقةٍ نائيةٍ عن الحضارات، وفي بيئةٍ لغويّةٍ لم تكن تملك أيّة مؤشّراتٍ تمهّد لهذه الثورة، وفي جوٍّ ثقافيٍّ لم يكن يُرجى منه أن يتمخّض عن أيّة حركةٍ لغويّةٍ من هذا النوع، مهما كان شكلها أو طبيعتها أو حجمها.

لقد كانت تلك الثورة مفاجِئةً في الزمان؛ إذ بدا عصرها الخامل، ولا سيّما في تلك البقعة من العالم، وكأنّه ليس عصرها، ومفاجِئةً في المكان، فأعماق الجزيرة العربيّة، حيث مكّة والمدينة، كانت أبعدَ ما تكون عن التفاعل والاتصال مع ثقافات العالم حين بدأ الوحي يتنزّل تباعاً ويُفجّر ذلك البركان اللغويّ والحضاريّ الذي استمرّ في التأجُّج والتدفّق على عرب الجزيرة، ومن غير توقّف، على مدى أكثر من عشرين عاماً.

وكانت العلاقات اللغويّة بين الألفاظ أو العبارات من أبرز معالم هذه الثورة، فضلاً عن المعالم الأخرى التي سبق أن فصّلنا القول فيها وسنأتي على المزيد فيما يلي من صفحات.

ربّما لم يكن العربيّ الأوّل، بثقافته الفطريّة اللغويّة والنقديّة، واعياً لأبعاد هذه الثورة أو لنوعيّة العلاقات الجديدة التي فاجأته ودخلت عليه حياته اللغويّة من غير إنذارٍ مسبق، ولكنّه كان واعياً تماماً بأنّ بركاناً لغويّاً، لا يعرف طبيعتَه وكيميائيّته بعدُ، يثور الآن أمامه ويملأ عليه سمعه وبصره.

إعادة تكوين الوحدة اللغويّة:

ومرّت العاصفة بالعرب الأوائل تاركةً ردود فعلٍ عميقةً تتناسب مع

حجمها الهائل. ولكنّ أبناء الجيل الثاني ثم الثالث، وما تتابع بعد ذلك من أجيال، بدأوا يعتادون اللغة القرآنيّة، ومن ثمّ، يفقدون الإحساس بالصدمة التي أحدثتها اللغة الجديدة في نفوس الجيل الأوّل، فلم تعد تستوقفهم كثيراً الظواهر اللغويّة القرآنيّة الجديدة.

لم تعد تستوقفهم كثيراً ظاهرة "الآية"، وهي التي أسّست لمفهومٍ جديدٍ بمقابل مفهوم "الجملة" - وهي الوحدة اللغويّة التي عرفها النثر العربيّ - وبمقابل مفهوم "البيت" - الذي يشكّل الوحدة اللغويّة للشعر العربيّ -.

فقد فصلت الوحدة الجديدة بين ما اعتادوا أن يربطوه، وربطت بين ما اعتادوا أن يفصلوه، وأوجدت بذلك خلخلةً في أساس البناء اللغويّ العامّ استطاعت أن تنفذ معها باللغة العربيّة إلى أبعادٍ وآفاقٍ جديدةٍ أضافتها إلى حدودها التقليديّة السابقة.

واقرأوا معي هذه الكلمات القليلة من مطلع سورة (آل عمران):

- ﴿وأَنزَلَ التوراةَ والإنجيلَ (3) مِن قبلُ هدىً للناسِ وأنزَلَ الفُرقانَ إنّ الذين كَفروا بآياتِ اللهِ لهمْ عذابٌ شديدٌ. ﴾ (4)

أرأيتم كيف توقفت الآية (3) قبل أن تنتهي الجملة؛ أي قبل مجيء شبه الجملة (مِن قبلُ) الذي يتعلّق بالفعل (أنزل) الوارد في تلك الآية (أي: أنزَلَ التوراةَ مِن قبلُ)؟ ثمّ كيف حصل العكس في الآية (4) حين استمرّت الآية وامتدّت مع انتهاء الجملة عند لفظ (للناس) وابتداءِ جملةٍ جديدة (وأنزل الفرقان)، ثمّ تستمرّ الآية في التدفّق مع انتهاء الجملة عند لفظ (الفرقان) وابتداء جملةٍ جديدةٍ كلّياً لا علاقة نحويّةً تربطها بالجملة السابقة: "إنّ الذين كفروا بآياتِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ"؟

ولو تُركت الآيات التالية من سورة (الروم) لتقاليدنا اللغويّة لأعدنا ترقيمها من جديد بحيث تنتهي الآيات عند الخطوط // التي اقترحناها هنا لتكون فواصل بشريّةً تنسجم مع مفهومنا التقليديّ للوحدة اللغويّة:

- ألم(1) غُلِبَتِ الرومُ(2) في أدنى الأرضِ // وهمْ مِن بَعدِ غَلَبِهم

سَيَغلِبون(3) في بِضعِ سنينَ // للهِ الأمرُ مِن قبلُ ومِن بَعدُ // ويومَئذٍ يَفرحُ المؤمنون(4) بنصرِ اللَهِ // يَنصرُ مَن يشاءُ // وهو العزيزُ الرحيم(5)

ومن الواضح أن الفواصل القرآنيّة لهذه الآيات الخمس، والفاصلة هنا هي النقطة التي تتوقّف عندها الآية السابقة لتبدأ الآية اللاحقة، لم يعد لها وجود في تقسيماتنا الجديدة التي اعتمدت على النظام الجملويّ التقليديّ (نظام الجملة).

الوضع الجديد لأدوات الربط التقليديّة:

والنظام الجديد في (الفصل والوصل) الذي استحدثته اللغة الجديدة هو من أكثر الظواهر اللغويّة شيوعاً في القرآن. وأهمّ ما يميّز هذه الظاهرة هو إسقاط أدوات الربط اللغويّة من مثل (الواو والفاء وإذْ وإنّ وإنّما وقد والضمائر المنفصلة) من مواضعها التقليديّة بين الجمل أو العبارات، بحيث يصدمنا اختفاء الحدود الإقليميّة المتعارَف عليها، التي اعتدنا أن تحتلّ مكانها بين جملتين أو عبارتين، اختفاءً أدّى تَواليه وتكراره في القرآن، ثمّ اعتيادُنا عليه مع ابتعادنا عن لحظة الصدمة الأولى، إلى أن تَغفل آذانُنا وسلائقنا اللغويّة الراهنة عن الوعي بحقيقة ما يحدث في لغةٍ أصبحت تعايشنا ونعايشها في كلّ يومٍ وفي كلّ لحظة.

والنماذج القليلة التالية شريحةٌ صغيرةٌ من هذه الظاهرة الأسلوبيّة التي تنتشر في كلّ صفحةٍ من صفحات الكتاب الكريم، وقد أشرنا بخطٍّ تحت المواقع التي تمثّل هذا النوع الجديد من العلاقات اللغويّة. وليحاولْ أحدنا أن يستحضر بذهنه أداة الربط المختفية في كلّ موقعٍ من المواقع المُشار تحتها بخطٍّ في الآيات:

- ﴿وقال الذين لا يَعلمون لولا يُكلّمُنا اللهُ أو تأتيْنا آيةٌ كذلكَ قال الذين مِن قبلِهم مثلَ قولِهم تشابهتْ قلوبُهم قد بيّنّا الآياتِ لقومٍ يوقنون﴾ [البقرة: 118].
- ﴿قُلْ إنّي على بيّنةٍ مِن ربّي وكَذّبتُم به ما عندي ما تَستعجِلون به إنِ الحُكْمُ إلّا للهِ يَقُصُّ الحقَّ. .﴾ [الأنعام: 57].

- ﴿وقال الآخرُ إنّي أَراني أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزاً تأكلُ الطيرُ منه نبِّئنا بتأويلِه إنّا نراكَ من المحسنين﴾ [يوسف: 36].

- ﴿وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلٌّ يَجري لأجَلٍ مُسمّىً يُدبِّرُ الأمرَ يُفصِّلُ الآياتِ لعلّكم بلقاءِ ربِّكم توقنون﴾ [الرعد: 2].

- ﴿وأْمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ واصطبرْ عليها لا نسألُكَ رزقاً نحن نرزُقُكَ والعاقبةُ للتقوى﴾ [طه: 132].

- ﴿ألم تَعلمْ أنّ اللهَ يعلمُ ما في السماءِ والأرضِ إنّ ذلك في كتابٍ إنّ ذلك على الله يسيرٌ﴾ [الحجّ: 70].

- ﴿.. ثلاثَ مرّاتٍ مِن قبلِ صلاةِ الفجرِ وحين تضعون ثيابَكم من الظَهيرةِ ومِن بَعدِ صلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عوراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناحٌ بَعدَهُنّ طوّافون عليكم بعضُكم على بعضٍ كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكمُ الآياتِ﴾ [النور: 58].

- ﴿وقالتِ امرأةُ فِرعَونَ قُرّةُ عَينٍ ليْ ولكَ لا تقتلوهُ عسى أن يَنفعَنا﴾ [القَصص: 9].

- ﴿إنّما تَعبُدون مِن دونِ اللهِ أوثاناً وتَخلُقون إفكاً إنّ الذين تعبُدون مِن دونِ اللهِ لا يَملِكون لكمْ رِزقاً فابتغوا عندَ الله الرزقَ واعبدوه واشكُروا له إليه تُرجَعون﴾ [العَنكبوت: 17].

- ﴿وأُمِرْتُ لِأعْدِلَ بينَكمُ اللهُ ربُّنا وربُّكمْ لنا أعمالُنا ولكمْ أعمالُكمْ لا حُجّةَ بينَنا وبينَكمُ اللهُ يَجمعُ بينَنا وإليهِ المصير﴾ [الشُورى: 15].

هذا النوع من الحذف ليس مجرّد أسلوبٍ لغويٍّ جديدٍ أضافه القرآن الكريم إلى اللغة العربيّة فحسب، ولكنّه إضافةٌ فكريّةٌ وبلاغيّةٌ هامّةٌ، لأنّه يمنح التعبير أبعاداً معنويّةً وظلالاً خياليّةً لم يكن لِيَملكها من غيره.

وعندما تجتمع أنواعٌ عديدةٌ من هذا الحذف في آيةٍ واحدةٍ نجد الآية وقد اكتسبت بهذا الاجتماع بلاغةً وشفافيةً إضافيّتين. ولنقرأ هذه الآية:

- ﴿أفمَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بما كسبَتْ وجعلوا للهِ شُركاءَ قُلْ سَمُّوهُم أم

تنبّئونه بما لا يعلمُ في الأرضِ أم بظاهرٍ من القولِ بل زُيِّن للذين كفروا مكْرُهم وصَدّوا عن السبيل﴾ [الرعد: 33].

فإذا بحثنا عن المحذوفات في الآية فأعدناها إلى أماكنها، كما يمكن أن تكون في لغتنا البشريّة، فستكون النتيجة شيئاً من هذا القبيل:

أفَـ[هكذا يكون] مَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بما كسبَتْ و[قد] جعلوا للهِ شُركاءَ [فـ]قُلْ [لهم] سَمُّوهُم [إذن] أم [تظنّون أنّكم] تنبّئونه بما لا يعلمُ [بما يوجد] في الأرضِ أم [إنّ هذا] بظاهرٍ من القولِ [منكم] بل [الحقّ أنّه قد] زُيِّن للذين كفروا مكْرُهم وصَدّوا عن السبيل.

فيكون الحذف قد شمل عشرة مواقع على الأقلّ في هذه الآية الواحدة.

ويكثر مثل هذا الحذف في المقاطع القصصيّة من القرآن، ليدلّ أحياناً على وجود حذفٍ إضافيٍّ آخر أكبر منه قد سبقه، وكثيراً ما يكون ذلك المحذوف جزئيّةً أو حركةً من القصّة أوحى بها حذفُ الأداة أو الكلمة. وللقارئ أن يتصوّر الجزئيّات المحذوفة في الآيات التالية، وقد أشير إلى مواقع الحذف بخطوطٍ تحتها:

- ﴿فجاءتْه إحداهما تمشي على استحياءٍ قالت إنّ أبي يدعوكَ ليَجْزيَكَ أجْرَ ما سَقَيتَ لنا فلمّا جاءه وقَصَّ عليه القَصصَ قال لا تَخَفْ نجوتَ من القوم الظالمين. قالت إحداهما يا أبتِ استأجِرْهُ إنّ خيرَ مَنِ استأجَرْتَ القويُّ الأمين. قال إنّي أريدُ أن أُنكِحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تَأجُرَني ثمانيَ حِجَجٍ فإنْ أتمَمْتَ عَشْراً فمِن عِندِكَ وما أريدُ أن أَشُقَّ عليك ستجدُني إن شاءَ اللهُ من الصالحين. قال ذلك بيني وبينَكَ أيَّما الأجَلَين قضيتُ فلا عُدوانَ عليّ واللهُ على ما نقولُ وكيلٌ. فلمّا قضى موسى الأجَلَ وسارَ بأهلِه آنَسَ مِن جانبِ الطُورِ ناراً قال لأهلِه امكُثوا إنّي آنسْتُ ناراً لعلّي آتِيْكُمْ منها بخبرٍ أو جَذْوةٍ﴾ [القصص: 25 - 28].

دور الألُفة في حجب العلاقات الجديدة:

لقد غدت العلاقات اللغويّة الجديدة بين الألفاظ والجمل والعبارات على

مرّ السنين جزءاً من حياتنا اليوميّة بتعايشنا المستمرّ مع القرآن وآياته، بحيث أفقدتنا ألفتُنا لها الشعورَ بجدّتها كما شعر بها العربيّ الأوّل. وهكذا يبتعد العهد بالعرب عن حقبة الصدمة الأولى، فيفقدون مثلاً، وهم يردّدون سورة (الفاتحة) في صلواتهم كلّ يومٍ سبع عشرة مرّةً على الأقلّ، الشعور بتيّار الهزّة اللغويّة التي أصابت آباءهم أوْ أجدادهم حين سمعوها أوّل مرّة، بحيث غدوا غير قادرين على تحسّس خصائصها اللغويّة الجديدة ووضع أيديهم بسهولةٍ على الفوارق المدهشة التي تميّز لغتهم البشريّة عن لغة السماء.

لقد غدا العرب شبه عاجزين، إن لم يكونوا عاجزين تماماً، عن أن يدركوا ما في سورتهم اليوميّة هذه من علاقاتٍ لغويّةٍ مباينةٍ لِما عهدوه من علاقات. فالروابط بين الجمل/ الآيات كثيراً ما تختفي حيث اعتادوا أن تظهر، والفواصل بين أجزاء الجملة الواحدة كثيراً ما تظهر حيث اعتادوا أن تختفي، والعلاقة بين اللفظ والآخر قد تتحوّل، إذا قيست بمقاييسنا الأسلوبيّة التقليديّة، إلى لغزٍ محيِّر.

فهذه جملةٌ واحدةٌ، في تعريفهم المتوارَث للجملة، تتوزّع بين ثلاث آياتٍ من السورة، فالتعريف القديم للوحدة التعبيريّة لم يعد يسري على لغة القرآن الكريم؛ إذ حلّت محلّه فيه الوحدةُ اللغويّة الجديدة (الآية):

- ﴿الحمدُ للهِ ربِّ العالمين. الرحمنِ الرحيمِ. مالكِ يومِ الدين﴾.

ألا ترون معي أنّ الآيات الثلاث ما هي إلّا جملةٌ واحدةٌ مؤلّفةٌ من مبتدأ (الحمد) وخبره (لله) ثمّ عدّة صفاتٍ تلحق بهذا الخبر: ربّ العالمين - الرحمن - الرحيم - مالك يوم الدين. وليس لهذه الصفات جميعاً اعترافٌ نحويٌّ بأنّها جملة، فهي لم تُضِف إلى الجملة الأساسيّة، على كثرتها، أيّ (فعلٍ) أو (مبتدأ) أو (خبر) وهذه الشخصيّات الثلاث هي الوحيدة التي تملك بطاقاتٍ عضويّةٍ تسمح لها بدخول نادي الجملة. فأين المفهوم اللغويّ المعروف للجملة إذن؟ وهل حلّت الآية محلّ تلك الوحدة الأساسيّة القديمة؟

ولكنّنا، حين نصل بعد ذلك في السورة إلى الجملة الحقيقيّة التقليديّة، والمؤلّفة من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ (إيّاك نعبد)، نجدها وقد ارتبطت بجملةٍ

أخرى (وإيّاك نستعين) لم تحمل هويّة (آية) بل جاءت تحت مظلّة الآية الخامسة نفسها التي غطّت (إيّاك نعبد).

وإذن فأمامنا الآن جملتان انحصرتا في آيةٍ واحدة، وإن كنّا خرجنا لتوّنا من جملةٍ واحدةٍ استغرقت ثلاث آيات!! فأين ذهب المفهوم القديم للوحدة التعبيريّة الأساسيّة؟ وما سرّ هذه التركيبة القرآنيّة المبتكرة التي ستحلّ محلّ التركيبة القديمة؟

فإذا تجاوزنا هذا المأزق اللغويّ إلى الآية السادسة وجدنا أنفسنا أمام مفاجأةٍ لغويّةٍ أخرى: فأين الرابط التقليديّ الذي يربط الجملة اللاحقة (اِهدنا الصراطَ المستقيم) بالجملة السابقة؟ فلا حرف عطفٍ ولا حرف استئنافٍ ولا أيّ رابطٍ لغويٍّ آخر! ربّما كانت السليقة العربيّة تتوقّع أن تسمع الجملة هكذا: (إيّاك نعبد وإيّاك نستعين [فـ]ـاهدنا الصراط المستقيم).

أترون إلى أساطيل من السفن الضخمة صُنعت من ألواح الحديد الصُلب، وقد ضُمّ فيها اللوح إلى الآخر بمسامير بارزةٍ تصطفّ عند أطراف الألواح لدى التقاء أحدها بالآخر، وفجأةً تنزل إلى البحار سفينةٌ أكثر حداثةً وتطوّراً ليس فيها أثرٌ للمسامير، وقد بدت الألواح المعدنيّة الضخمة فيها وكأنّها قطعةٌ واحدة، فكيف نصنّف السفينة بين السفن الأخرى بمقاييس الجمال وتفوّق الصنع والإتقان؟

ولكم - وأستغفره تعالى من استخدام أيّ مثالٍ بشريٍّ في شرح إعجازه وله دائماً المثل الأعلى - أن تتصوّروا الوحدة اللغويّة القرآنيّة وكأنّها وحدةٌ نقديّةٌ جديدةٌ توشك أن تحلّ في بلدٍ محلّ وحدةٍ نقديّةٍ اعتاد الناس أن يتعاملوا بها لقرونٍ عديدة!

إنّ العربيّ الآن مقبلٌ على أعرافٍ لغويّةٍ جديدة، وتقنيةٍ تعبيريّةٍ متطوّرةٍ يجب أن يكون مستعدّاً لاستقبالها، وربّما لإعادة النظر من خلالها في كلّ أعرافه اللغويّة القديمة المتوارثة، مع أنّ كثيراً منها ظلّ، وسوف يظلّ، مقتصراً على لغة القرآن الكريم، فلا يتجاوزها إلى لغتنا، ولا إلى لغة الحديث الشريف أيضاً.

وأقرب النماذج اللغويّة غير القرآنيّة إلى هذه الظاهرة التعبيريّة التي يختصّ بها القرآن الكريم هو الأذان. فالروابط اللغويّة التقليديّة تنعدم بين عباراته، فلا نجد منها ما يربط بين عبارة (الله أكبر) والعبارة التي تليها مباشرةً (أشهد أن لا إله إلّا الله)، ولا ما يربط بين هذه الأخيرة وعبارة (أشهد أنّ محمّداً رسول الله) ولا ما بين هذه وعبارة (حيّ على الصلاة) ولا ما بين هذه و(حيّ على الفلاح) وهكذا حتّى نهاية الأذان.. مع ضرورة التذكير هنا بأنّ الأذان، وإن لم يكن من القرآن، فإنّه لم يكن من لغة النبيّ ﷺ أيضاً، وهو ما تؤكّده لنا الأحاديث الشريفة[2]..

ويشارك الأذان في هذه الصفة جزءٌ آخر هامٌّ من صلاتنا هو دعاء (التحيّات). وهذا الجزء، في نظري، هو قمّة الصلاة، وكأنّ القراءات التي تسبقه، من تكبيرة الإحرام إلى الفاتحة إلى السورة إلى الركوع والسجود وتسبيحاتهما، كلّ ذلك تمهيدٌ للدخول على الحضرة الإلهية والسماح بإلقاء التحيّة الخاصّة جدا عليها (التحيّات لله والصلوات والطيّبات)، التي يتبعها مباشرةً تحيّةٌ للرسول ﷺ ولكنّها من نوعٍ آخر مختلف، ثم تحيّتنا لأنفسنا

(2) ورد في سنن أبي داود، عن عبد الله بن زيد قال: لما أمر رسول الله ﷺ بالناقوس يُعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة؛ طاف بي وأنا نائمٌ رجلٌ يحمل ناقوساً في يده، فقلت: يا عبد الله، أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلّك على ما هو خيرٌ من ذلك؟ فقلت له: بلى، قال: فقال: تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنّ محمداً رسول الله أشهد أنّ محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. قال: ثم استأخر عنّي غير بعيد، ثمّ قال: وتقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أنّ محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. فلما أصبحت؛ أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت، فقال: إنّها لرؤيا حقٍّ إن شاء الله، فقم مع بلالٍ فألقِ عليه ما رأيت فليؤذّن به، فإنه أندى صوتا منك. فقمتُ مع بلال، فجعلت ألقيه عليه ويؤذّن به. قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجرّ رداءه ويقول: والذي بعثك بالحقّ يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد.

ولعباد الله الصالحين في السماء والأرض. إنّنا، مرّةً أخرى، لا نجد أيّ رابطٍ لغويٍّ يربط بين العبارات الأربع التي تتكوّن منها هذه التسبيحة:

التحيّاتُ للهِ والصلواتُ والطيّبات.

السلامُ عليكَ أيّها النبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.

السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحين.

أشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا الله، وأشهدُ أنّ محمّداً عبدُه ورسولُه.

وبدهيٌّ أنّه لو أُوكل الأمر إلى لغتنا لكان هناك (واوٌ) على الأقلّ في مطلع كلٍّ من العبارات الثلاث الأخيرة. ولا بدّ من التذكير هنا أيضاً بأنّ أركان الصلاة، ومنها هذه التسبيحة، كانت جزءاً من الأمر الإلهيّ الذي تلقّاه الرسول ﷺ خلال رحلة المعراج إلى السماء. إنّها إذن ليست من القرآن الكريم، ولكنّها أيضاً ليست جزءاً عادياً من الحديث الشريف.

العلاقات الجديدة بين الألفاظ:

هذا كلّه يأخذ مكانه بين الآيات أو الجمل، فماذا عن الألفاظ وعلاقتها بعضها ببعض؟

إنّ في الآية الرابعة من الفاتحة أمراً غريباً لم يع العربيّ الأوّل - بطبيعة الحال - (ميكانيكيّته)، ولكنه استشعر، دون أيّ شكٍّ، طبيعته المختلفة عن طبيعة تعبيره، وهَزّتْه قوّةُ الصدمة التي تلقّاها وهو يسمع الآية أوّل مرّة، من غير أن يُدخل هذه الآية إلى مخبره اللغويّ النقديّ - وهو مَخبرٌ كان ما يزال فطريّاً وبدائيّاً ومفتقراً إلى أبسط أدوات البحث والتحليل المتطوّرة التي نملكها اليوم - فيعاين أبعاد هذه الصدمة ويكتشف كيميائيّة تركيبتها الغريبة.

فهذه العلاقة الجديدة بين اللفظين (مالك) و(يوم) لم يكن يعرفها قاموس العربيّ - ولا غير العربّي - حتّى تلك اللحظة.

لقد اعتدنا إسنادَ (المُلك) إلى محسوسٍ يمكن أن يُمتلَك، فنقول: مالك العقار، ومالك الدراهم، ومالك الدرّاجة، ومالك السيّارة، ومالك الباخرة..

فكيف إذن يُملك اليوم؟! وهل للزمن مُلكيّة؟ وهل تقبل البنوك والسجلّات العقاريّة والماليّة فتح حساباتٍ وأرصدةٍ من الساعات والأيّام؟!

إنّها مفاجأةٌ لغويّةٌ ذات مذاقٍ خاصٍّ جدّاً لدى العربيّ الأوّل، ولكنّ مفاجأةً أخرى تنتظره عند المنعطف، فحالما يجتاز هذه الإشارة المروريّة المُربِكة تضيء له إشارةٌ أخرى خارجةٌ عن حساباته، وتنتصب له بين اللفظين (يوم) و(الدين).

لقد اعتاد العربي، وكذلك غير العربيّ، أن يضيف الزمن دائماً لحدثٍ يحدث في هذا الزمن، فيقول:

دقيقة صمتٍ،

وساعة عملٍ،

ويوم المعركة،

وشهر الصيام،

وعام الحزن،

وفترة الحرب،

وعصر النهضة..

فالصمت والعمل والمعركة والصيام والحزن والحرب والنهوض كلّها أحداثٌ تقع في حيّز الزمن الذي ورد لفظُه قبل هذه الأحداث فأضيفت إليه. والمفاجأة هنا أنّ لفظ (الدين) في قاموس العربيّ الأوّل، حتّى تلك اللحظة على الأقلّ، لم يكن فيه معنى الحدث، لأنّ الدين عنده ليس أمراً يَحدُث بل أمرٌ يُعتَقَد، فإضافته إلى الزمن (يوم) ستوقع تشابكاً مروريّاً أو إرباكاً لغويّاً جديداً في رأسه، وهو لمّا يصْحُ بعدُ من الإشكال المروريّ الذي تجاوزه لتوّه في إسناد المُلك إلى اليوم.

وهكذا تتزاحم المنعطفات/ المفاجآت واحداً تلو الآخر أمام العربيّ وهو يشقّ طريقه داخل السورة، وكذلك في باقي سوَر الكتاب الكريم، ليستوعب

ذوقُه البشريّ القاصر هذه الرسائل "البرقيّة" القصيرة والمركّزة وغير العاديّة تتتالى عليه تباعاً من السماء، فتعرض أمامه شريطاً لم يألفه من العلاقات اللغويّة الجديدة: فيما بين الجمل، وفيما بين العبارات، وفيما بين الألفاظ.

ولنتوقّف عند نموذجٍ آخر من هذه "المنعطفات المروريّة" وهو ذلك الاقتران العجيب بين (الخلْق) و(الموت) في قوله تعالى:

- ﴿الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ﴾ [تبارك: 2].

قد لا يثير دهشتَنا كثيراً قولُه تعالى (خَلقَ الحياة) فالحياة وجودٌ والخلق إيجاد، ولا تعارض بين الإيجاد والوجود، بل تكاملٌ وتتابُعٌ وتكامُل، ولكنّ المفاجأة هي في قوله تعالى (خلقَ الموت)!

فالخلق إبداعٌ وحياة، والموتُ إفناءٌ وخراب، فكيف يجتمع الخلق مع الموت؟ إنّنا لن نجد غرابةً في قول أحدنا: بنيت جداراً، أو: بنيت بناءً، ولكنّنا سنستغرب كثيراً لو قال: بنيتُ هَدْماً، أو: أسّستُ دماراً. وواضحٌ أنّ في هذا الاجتماع الغريب بين المتناقضين في الآية إشعاراً إلى البشر بضرورة الموت وحتميّة وجوده، جنباً إلى جنبٍ مع الحياة، وإلى أنّه عنصرٌ من عناصر البقاء لا يكتمل الكون إلّا به، ولا تكون حياةٌ من غيره. إنّه بمعنىً آخر صنوٌ متمّمٌ للحياة.

هذه العلاقات الجديدة بين الألفاظ سمةٌ بارزةٌ تميّز لغة القرآن الكريم، ولها وجوهٌ متعدّدةٌ تتجاوز بكثيرٍ ما سقناه حتّى الآن من أمثلة. وفي الآيات التالية نماذج مختلفةٌ من هذه الوجوه، تمثّل بعضَها وليس كلّها، ولكنّها تستطيع أن تقدّم لنا، لو نزعنا أنفسنا من ثيابنا ونزلنا في ثياب العربيّ الأوّل، فكرةً عن حجم الصدمة التي تعرّض لها ذلك العربيّ وهو يتلقّى، ولله المثل الأعلى، هذه الصعقات الكهربائيّة المنهالةَ عليه من السماء:

- ﴿ثمّ استوَى إلى السّماءِ وهْي دخانٌ فقال لها ولِلأرضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرْهاً﴾ [فُصِّلَت: 11]

(كيف استقبل العربيّ يا ترى هذا "الاستواء" إلى السماء، ثمّ هذا

الحوار الإلهيّ مع السماء والأرض! و"مجيئهما" طائعتين أو كارهتين وهما على تلك الحالة "الدخانيّة" العجيبة التي كانتا عليها، والبعيدة عن حدود الخيال العربيّ؟)

- ﴿وقالوا لجلودِهمْ لِمَ شَهِدْتُمْ علينا قالوا أنْطَقَنا اللهُ الذي أَنْطَقَ كُلَّ شيءٍ﴾ [فُصِّلَت: 21]

(وكيف استقبل هذا العربيّ فكرة الجلود التي تتكلّم و"تشهد" ضدّ أصحابها؟!)

- ﴿وتَرى كلَّ أمّةٍ جاثيةً كلُّ أمّةٍ تُدعَى إلى كِتابِها اليومَ تُجزَوْنَ ما كنتمْ تَعمَلون﴾ [الجاثية: 28]

(وكيف استقبل صورة أممٍ وشعوبٍ كاملةٍ وهي راكعةٌ تنتظر "سجلّها" الضخم - أيّة ضخامةٍ هذه؟! - ليُعرض عليها يومَ الحساب؟!)

- ﴿وانشقّت السماءُ فهي يومَئذٍ واهية﴾ [الحاقّة: 16]

(وكيف استقبل صورة السماء وهي تنشطر وتتمزّق؟!)

- ﴿والمَلَكُ على أرجائِها ويَحمِلُ عرشَ ربِّكَ فوقَهم يومَئذٍ ثمانيةٌ﴾ [الحاقّة: 17]

(وكيف تلقّى مشهد عرش الرحمن تحمله الملائكة وتحفّ به في كلّ أطراف السماء)

- ﴿وإذا البحارُ سُجِّرَت﴾ [التكوير: 6]

(وكيف استوعب صورة احتراق البحار، واشتعال المياه فيها؟!)

- ﴿فإذا النجومُ طُمِسَت﴾ [المرسَلات: 8]

(وانمحاء النجوم والكواكب؟!)

- ﴿وجُمِعَ الشمسُ والقمر﴾ [القيامة: 9]

(والتحام الشمس بالقمر؟!)

- ﴿وفُتحتِ السماءُ فكانت أبوابا﴾ [النبأ: 19]

(وانفتاح بوّاباتٍ في السماء؟!)

-﴿وسُيِّرتِ الجبالُ فكانت سَرابا﴾ [النبأ: 20]

(وتحرّك الجبال ثمّ تبخّرها كالسّراب؟!)

- ﴿وإذا القبورُ بُعثِرتْ﴾ [الانفطار: 4]

(وانتفاض القبور بأهلها، وانبعاثهم إلى الحياة من جديد؟). . .

ولا تتوقَف الغرابة في العلاقات الجديدة عند مجرّد الحديث عن الحقائق الكونيّة الكبرى، والمشاهد المذهلة التي تصاحب الأحداث العظيمة ليوم القيامة ويوم الحساب، كما في الآيات السابقة، بل تتجاوز ذلك إلى الربط غير التقليديّ للكلمة، أيّة كلمة، بالأخرى، وهو ربطٌ لم يمارسه العربيّ في لغته قطّ، لا قبل القرآن ولا بعده، إلّا أن يستشهد بآيةٍ أو يقتبس مصطلحاً قرآنيّاً تَحقّق فيه مثلُ ذلك الأسلوب من العلاقات، كما في الآيات:

-﴿صِبغةَ اللهِ ومَن أحسنُ من اللهِ صِبغةً﴾ [البقرة: 138]

(لاحظ اللقاء الفريد وغير العاديّ بين اللفظين "صبغةَ" و"الله")

- ﴿لَفي شِقاقٍ بعيد﴾ [البقرة: 176]

(والجمع غير المتوقَّع بين الاسم "شقاق" والوصف "بعيد")

- ﴿أخَذَتْه العِزّةُ بالإثم﴾ [البقرة: 206]

(والعلاقة غير التقليديّة بين لفظَي"الأخذ" و"العزّة"، ثمّ بين هذا الأخير و"الإثم")

- ﴿منه آياتٌ مُحكَماتٌ هنّ أمُّ الكتاب﴾ [آل عمران: 7]

(والإضافة الغريبة للفظ "الأمّ" إلى "الكتاب")

- ﴿فئةٌ تقاتِلُ في سبيلِ الله﴾ [آل عمران: 14]

(والعلاقة الخياليّة المحيِّرة بين "القتال" و"السبيل"، ثمّ بين "السبيل" و"الله")

وبإمكان القارئ أن يُجري بنفسه مثل هذه التحليلات في الآيات التالية

لاكتشاف أنواعٍ جديدةٍ من هذه العلاقات، وقد أشرنا بخطوطٍ تحت الألفاظ المعنيّة، والتي كانت غايةً في البعد عن ذهن العربيّ الأوّل، وربّما عن أذهاننا نحن أيضاً رغم مرور أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول الوحي:

- ﴿مِن عَزْمِ الأمور﴾ [آل عمران: 186]
- ﴿أو نَلعَنَهم كما لَعَنّا أصحابَ السبتِ﴾ [النساء: 47]
- ﴿إنّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصدور﴾ [المائدة: 7]
- ﴿وأُحضِرتِ الأنفُسُ الشُحَّ﴾ [النساء: 128]
- ﴿أو يَلبِسَكُم شِيَعاً ويُذيقَ بعضَكم بأسَ بعضٍ﴾ [الأنعام: 65]
- ﴿لقد تَقَطَّعَ بينَكم وضَلَّ عنكم ما كنتُم تَزعُمون﴾ [الأنعام: 94]
- ﴿أفأَمِنوا مَكْرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلّا القومُ الخاسرون﴾ [الأعراف: 99]
- ﴿وإنّه لَحَقُّ اليقين﴾ [الحاقّة: 51]
- ﴿وأنّه تعالى جَدُّ ربِّنا﴾ [الجنّ: 3]
- ﴿وأنّا كُنّا نقعُدُ منها مَقاعدَ لِلسَمْعِ﴾ [الجنّ: 9]
- ﴿إنّ ناشئةَ الليلِ هي أشدُّ وَطْأً﴾ [المزّمّل: 6]
- ﴿بلى قادرينَ على أنْ نُسوّيَ بَنانَه﴾ [القيامة: 4]
- ﴿ويَذَرونَ وراءَهم يوماً ثقيلاً﴾ [الإنسان: 27]
- ﴿والمُرسَلاتِ عُرفاً﴾ [المرسَلات: 1]
- ﴿ذلك اليومُ الحقُّ﴾ [النبأ: 39]
- ﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾ [النازعات: 1]
- ﴿فأخذه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأولى﴾ [النازعات: 25]

الروابط الجديدة بين الأداة والفعل:

ومن أهمّ العلاقات الجديدة التي أضافها القرآن إلى المعجم اللغويّ للعربيّة ربطُ الأفعال بغير ما اعتاد العرب أن يربطوها به من أدوات، مّما يعطيها، بالربط الجديد، معاني جديدةً مغايرةً لم تكن لها من قبل.

واقرأوا معي هذه الآيات، وتفحّصوا كلّ فعلٍ عَلَّقتُ عليه فوضّحته بما يقابله عادةً في لغتنا اليوميّة، وأشرتُ تحته وتحت ما تعدّى به أو إليه بخطّ، وقارنوا بين معناه التقليديّ كما نجده في معاجمنا ولغتنا العاديّة، ومعناه القرآنيّ الجديد الذي اكتسبه من خلال تعْديته الجديدة إلى مفعوله، أو ربطِه بما بعده بغير الأداة أو الرابط الذي تعارف العرب عليهما، وقد وضعت المعنى القرآنيّ للّفظ والأقرب إلى لغتنا في الاستعمال الجديد بين تنصيصين " " :

- ﴿تلك حدودُ اللهِ فلا تعتدوها (أي تعتدوا عليها وتخالفوها، أو "تتجاوزوها" معتدين﴾ [البقرة: 229]
- ﴿لَيَجمَعَنّكم إلى يومِ القيامةِ لا ريبَ فيه (أي "يُحضركم في" يوم القيامة﴾ [الأنعام: 12]
- ﴿وتَنحِتون الجبالَ بيوتاً (أي تنحتون منها، أو "تجعلونها بالنحت"﴾ [الأعراف: 74]
- ﴿وعَتَوا عن أمرِ ربِّهم (أي انحرفوا بعُتوٍّ عنه، أو"خرجوا"﴾ [الأعراف: 77]
- ﴿ثمّ بَعَثنا مِن بَعدِهم موسى بآياتِنا إلى فِرعَونَ ومَلَئِهِ فظَلموا بها (أي "كذّبوا" بها ظلماً﴾ [الأعراف: 103]
- ﴿قال أغيرَ اللهِ أبغيكمْ إلهاً (أي "أبغي لكم"﴾ [الأعراف: 140]
- ﴿قال أعَجِلْتُم أمْرَ ربِّكم (أي عجلتم عنه، أو "خالفتم" أمره بسرعة﴾ [الأعراف: 150]
- ﴿واقعُدوا لهم كلَّ مَرصَدٍ (أي اقعدوا مترصّدين لهم، أو "ترصّدوا" لهم﴾ [التوبة: 5]
- ﴿إنِ استحبّوا الكُفرَ على الإيمان (أي اختاروه، أو "فضّلوه" على الإيمان﴾ [التوبة: 23]
- ﴿أرضِيتُم بالحياةِ الدنيا من الآخرة (أي قبلتم بها "بدلاً" من الآخرة﴾ [التوبة: 38]
- ﴿واستبقا البابَ (أي تسابقا إليه أو "ابتدراه"﴾ [يوسف: 25]

- ﴿وقد أَحسَنَ بي إذْ أخرَجَني من السِجنِ (أي أحسن إليّ، أو "اعتنى" بي﴾ [يوسف: 100]
- ﴿ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم (أي لا تتجاوزهم، أو "تنصرف" عنهم﴾ [الكهف: 28]
- ﴿فلْيَحذَرِ الذين يُخالفون عن أمرِه (أي يخالفون أمره، أو "يخرجون" عنه﴾ [النور: 63]
- ﴿وكم أهلكْنا مِن قريةٍ بَطِرَتْ معيشتَها (أي بطِرت بها، أو "جحدتها"﴾ [القصص: 58]
- ﴿والذين يَمكُرون السيّئاتِ (أي يمكرون بارتكابها، أو "يأتونها" بمكرٍ﴾ [فاطر: 10]
- ﴿إنّي أحببتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكرِ ربّي (أي "آثرتُه" عنه﴾ [ص: 32]
- ﴿فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم مِن ذِكرِ الله (أي المتّصفة "بقسوةٍ تفرّغها" من الذّكر﴾ [الزُمر: 22]
- ﴿ثمّ تَلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكرِ الله (أي تسكُن وتلين "مستسلمةً" إليه﴾ [الزُمر: 23]
- ﴿ويستجيبُ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ (أي يقبل عبادتَهم، أو "يسمعهم"﴾ [الشورى: 26]
- ﴿ومَن يبخلْ فإنّما يَبخَلُ عن نفْسِه (أي "يُمسِك الثواب" عنها، أو يبخل عليها﴾ [محمّد: 38]
- ﴿وأنفِقوا خيراً لأنفُسِكم (أي أنفقوا عليها، أو "قدِّموا" لها بالإنفاق خيراً﴾ [التغابن: 16]
- ﴿عَيناً يَشربُ بها عبادُ الله (أي منها، أو يشربون "منعَّمين بها"﴾ [الإنسان: 6]

العلاقات اللغويّة الجديدة في (المدّثّر):

ولأخذ فكرةٍ تقريبيّةٍ عن مدى سعة هذه الظاهرة من العلاقات اللغويّة الجديدة في لغة القرآن الكريم نتوقّف في نهاية المطاف عند سورة (المدّثّر) - وقد اخترناها، كما أسلفنا، لإجراء تطبيقاتنا اللغويّة في بعض الفصول،

بوصفها إحدى السوَر المبكّرة في النزول - فنبحث في آياتها عن المواقع التي تتكرّر فيها هذه العلاقات بأنواعها المختلفة.

ويبرز في السورة بوضوحٍ عجيبٍ ظاهرةُ التخلّي عن مفهوم الوحدة اللغويّة التقليديّة، وهي الجملة. فعلى حين تتميّز آيات السورة بالقصر الشديد، فضلاً عن وجود ثلاثة مواقع في السّورة انتهت فيهما الآية قبل أن تنتهي الجملة (الآيات: 1 و38 و40)، نجد أنّ آيةً واحدةً منها قد اشتملت على ما لا يقلّ عن عشر جملٍ كاملةٍ (الآية: 31)، كما سنجد في السورة ما لا يقلّ عن 20 موقعاً اختفى منها الرابط اللغويّ التقليديّ الذي يربط الكلمة أو العبارة أو الجملة (أو الآية) بما قبلها، أو توزّعت الجملة الواحدة فيها بين آيتين. ولنقرأ السورة معاً، وقد أشرت إلى هذه المواقع بخطوطٍ تحتها:

> يا أيّها المدّثّر. قُمْ فأنذِر. وربَّكَ فكبِّرْ. وثيابَكَ فطهّر. والرُجْزَ فاهجُر. ولا تَمنُنْ تستكثِرْ. ولربِّكَ فاصبر. فإذا نُقِرَ في الناقور. فذلك يومَئذٍ يومٌ عسيرٌ. على الكافرين غيرُ يسيرٍ. ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيداً. وجعلتُ له مالاً ممدوداً. وبنينَ شُهوداً. ومهّدْتُ له تمهيداً. ثمّ يَطمعُ أن أزيدَ. كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً. سأُرهقُه صَعوداً. إنّه فكَّرَ وقَدَّر. فقُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ قُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ نَظَر. ثمّ عبَسَ وبَسَر. ثمّ أدبَرَ واستَكبَر. فقال إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البشر. سأُصْلِيْه سَقَر. وما أدراكَ ما سَقَر. لا تُبْقي ولا تَذَر. لَوّاحةٌ للبَشَر. عليها تسعةَ عشَر. وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً وما جَعلْنا عِدّتَهم إلّا فتنةً للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبِهمْ مرضٌ والكافرون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً كذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاءُ وما يَعلمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هوَ وما هي إلّا ذكرى للبشَر. كلّا والقمر. والليلِ إذْ أدبَر. والصبحِ إذا أسفَر. إنّها لَإحدى الكُبَر. نذيراً للبشَر. لِمَن شاءَ منكمْ أنْ يتقدَّمَ أو يتأَخَّر. كلُّ نفْسٍ بما كسَبَتْ رهينةٌ. إلّا أصحابَ اليمينِ. في جَنّاتٍ يتساءلون. عن المجرمين. ما سلككُمْ في سقَر. قالوا لم نَكُ من المُصلِّين. ولم نَكُ نُطعِمُ المِسكين. وكُنّا

نخوضُ مع الخائضين. وكنّا نُكذِّبُ بيومِ الدِّين. حتّى أتانا اليقين. فما تَنفعُهمْ شفاعةُ الشافعين. فما لهم عنِ التذكرةِ مُعْرِضين. كأنّهمْ حُمُرٌ مستنفِرةٌ. فرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ. بل يُريدُ كلُّ امرئٍ منهم أنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرةً. كلّا بل لا يخافون الآخرة. كلّا إنّه تذكرةٌ. فمن شاء ذَكَرَه. وما يَذْكرون إلّا أن يشاءَ اللهُ هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرة.

كما نجد ما لا يقلّ عن 60 موقعاً آخر اجتمع في كلٍّ منها لفظان أو أكثر، لم تعتد الأذن العربيّة تَجاورَها قبل القرآن، أو تَجاورَها بهذه الطريقة أو السياق على الأقلّ. وقد عمدنا إلى وضع خط تحت هذه المواقع لإبرازها للقارئ. ونذكّر من جديدٍ بضرورة التخلّص من ذاكرتنا اللغويّة الحاليّة إذا أردنا الإمساك بجدّة الموقع وإدراك تميّزه عن لغتنا البشريّة :

يا أيّها المدّثّر. قُمْ فأنذِر. وربَّكَ فكبِّرْ .وثيابَكَ فطهّر. والرُجْزَ فاهجُر. ولا تَمنُنْ تستكثِرْ. ولربِّكَ فاصبِر. فإذا نُقِرَ في الناقور. فذلك يومَئذٍ يومٌ عسيرٌ. على الكافرين غيرُ يسيرٍ. ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيداً. وجعلتُ له مالاً ممدوداً. وبنينَ شُهوداً. ومهّدْتُ له تمهيداً. ثمّ يَطمعُ أن أزيدَ. كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً. سأُرهقُه صَعوداً. إنّه فكَّرَ وقَدَّر. فقُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ قُتِلَ كيف قَدَّر. ثمّ نَظَر. ثمّ عبَسَ وبَسَر. ثمّ أدبَرَ واستَكبَر. فقال إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البشر. سأُصْلِيْه سَقَر. وما أدراكَ ما سَقَر. لا تُبْقي ولا تَذَر. لَوّاحةٌ للبَشَر. عليها تسعةَ عشَر. وما جَعَلْنا أصحابَ النارِ إلّا ملائكةً وما جَعلْنا عِدّتَهم إلّا فتنةً للذين كفروا ليستيقنَ الذين أوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبِهمْ مرضٌ والكافرون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً كذلكَ يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاءُ وما يَعلمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هوَ وما هي إلّا ذكرى للبشَر. كلّا والقمر. والليلِ إذْ أدبَر. والصبحِ إذا أسفَر. إنّها لَإحدى الكُبَر. نذيراً للبشَر. لِمَن شاءَ منكمْ أنْ يتقدَّمَ أو يتأخَّر. كلُّ نفْسٍ بما كَسَبَتْ رهينةٌ. إلّا أصحابَ اليمينِ. في جَنّاتٍ يتساءلون. عن المجرمين. ما سلككُمْ في سَقَر. قالوا لم نَكُ

من المُصلِّين. ولم نَكُ نُطعِمُ المِسكين. وكُنّا نخوضُ مع الخائضين.
وكنّا نُكذِّبُ بيوم الدِّين. حتّى أتانا اليقين. فما تَنفعُهمْ شفاعةُ
الشافعين. فما لهم عنِ التذكرةِ مُعْرِضين. كأنّهمْ حُمُرٌ مستنفِرةٌ. فرّتْ
مِن قَسْوَرَةٍ. بل يُريدُ كلُّ امرئٍ منهم أنْ يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرةً. كلّا بل
لا يخافون الآخرة. كلّا إنّه تذكرةٌ. فمن شاء ذَكَرَه. وما يَذْكرون إلّا
أن يشاءَ اللهُ هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرة.

ومع التقاء كلّ هذه الجوانب الجديدة التي بذّ بها القرآن الكريم لغة العرب، بأطرافها المتنوّعة، فإنّ الثورة التجديديّة لم تقتصر على اللغة وحدها، بل تجاوزتها إلى الجانب الخيالي، متمثّلاً في الصورة البيانيّة والاستعمالات المجازيّة والأساليب البلاغيّة الجديدة في التعبير، وهو ما سيكون موضوع دراستنا في الباب التالي.

الباب الثاني

البلاغة القرآنيّة الجديدة

الفصل الأوّل

البناء الجديد للصورة القرآنيّة

لم يتوقّف أمر التجديد في التعبير القرآنيّ عند حدود اللغة، بل تجاوزها إلى فنون البلاغة، فأدخل القرآن على قواعد الصورة والعلاقةِ بين أطرافها أبعاداً لم تكن معروفةً من قبل، وأوجد من الفنون البيانيّة ما لا قِبَلَ للعرب به، وما لم يستطيعوا تقليده في شعرهم أو نثرهم بعد ذلك أبداً.

والصورة أمرٌ أساسيٌّ في الشعر، فإذا فقدها كاد أن يفقد شعريّته. ولأنّ القرآن جاء حافلاً بالصور الفنّية الجديدة كان ذلك أحد الأسباب الهامّة التي دفعت المشركين إلى وصفه بالشعر، وإلى وصف الرسول ﷺ بأنّه شاعر.

سيطرة الصورة الجاهليّة على الشعر:

كانت الصور البيانيّة تتردّد هي نفسها عند الشعراء العرب قبل الإسلام، فما أن تُعجِب أحدَهم صورةُ صاحبه حتى يعمد إليها فيعيد صياغتها ويصبّها في قالَبٍ شعريٍّ جديد، بل ربّما حافظ عليها كما كانت في قالبها الأوّل.

وقد استمرّ هذا التأثير الجاهليّ في الخطّ الشعريّ العربيّ قروناً عديدةً بعد ذلك، وربّما تسرّب إلى بعض الشعراء والكتّاب المعاصرين، بل إلى العامّة من الناس في أحاديثهم وصورهم.

فمدائحهم لملوكهم وأمرائهم، وما يَصدر عن خيالاتهم في وصفهم لهؤلاء من تشبيهاتٍ واستعارات، ووصفهم للحبيبة وتشبيهاتُهم لأعضائها، وكذلك وصفهم للطبيعة بعناصرها المختلفة، من جمادٍ أو حيوانٍ أو نبات، وما فجّرت هذه العناصر في خيالاتهم من صور، كلّ ذلك كوّن للعربيّة قاموساً

من الصور البيانيّة قلّ أن خرج عنه الشعراء أو أضافوا إليه مادّةً جديدة.

وكانت هذه الصور مستمَدّةً من البيئة العربيّة المحدودة، فالشجاع أسدٌ، والجبان نعامةٌ، والكريم بحرٌ، والبخيل أرضٌ مجدِبةٌ، والحَقود جملٌ، والأكول فيلٌ، والرزين جبلٌ، والجميل شمسٌ أو قمرٌ، والرفيع نجمٌ، والذليل وتِدٌ، والطائش فَراشٌ، والوديع حَمَلٌ، واللَّجوج خُنفَساء، والمزهوّ طاووسٌ، والمراوغ ثعلبٌ، والقاسي حديدٌ أو صخرٌ، والشَّعر ليلٌ، والشَّيب نهارٌ، وأسنان الحبيب بَرَدٌ، وفمه خاتمٌ أو أقحوانٌ، وشفاهه عقيقٌ، وخدوده وردٌ أو تفّاحٌ، ودموعه لؤلؤٌ، وأنامله عُنّابٌ، وعيونه نَرجسٌ، وقدّه رمحٌ، وثغره أقحوانٌ، وجبينه صباحٌ، وحواجبه قِسيٌّ، وسوالفه عقارب أو صَوالج... إلخ.

القاموس القرآنيّ الجديد للصور:

لقد تجاوز القرآن الكريم هذه الصور الكثيرة المتوارَثة فأهملها وأسقطها من مخزونه التعبيريّ، ثمّ جاء بقاموسه البيانيّ الخاصّ المفعم بالصور الجديدة. ومع أنّني لم أقم بدراسة شاملة تمسح الصور القرآنيّة بكاملها؛ أكاد أجزم، من خلال مسحي للآيات التي درستها في مختلف جوانب هذا البحث، بأنّ البركان البلاغيّ للقرآن الكريم لم يقتصر على إيجاد خزّانٍ تصويريٍّ جديدٍ ضخمٍ ومحيِّرٍ أضافه إلى قاموسنا الخياليّ أو البلاغيّ، بل جاء بما هو أعظم من ذلك حين هجر تماماً، كما فعل بالسبائك اللغويّة التقليديّة، كلّ الصور البيانيّة، المشهور المتداول منها وغير المشهور، تلك التي نجدها مبثوثةً في تراثنا الشعريّ الضخم قبل الإسلام، فلا نكاد نعثر، بل لا نعثر مطلقاً، على أيٍّ منها في القرآن الكريم.

والأهمّ من ذلك كلّه، على أهمّية ما ذكرنا وخطورته، أنّ القرآن قد أحدث ثورةً أساسيّةً في البناء الفنّيّ للصورة التقليديّة، ففاجأ العرب بأنواعٍ من العلاقات المتطوّرة والبعيدة والمتنوّعة بين الأطراف التي تتكوّن منها الصورة، تلك التي تجاوزت عصرها بمسافاتٍ شاسعة.

فبعد أن كانت الصور محدودة النوعيّة، محدودة العدد، محدودة الخيال،

محدودة العلاقات بين أطرافها، وتكاد تقتصر على الشعر دون النثر، خرج القرآن عن هذه الحدود جميعاً، فلا الصور هي الصور، ولا أبعادها هي الأبعاد، ولا أطرافها هي الأطراف، فدخل بالخيال العربيّ حِقبةً جديدة، ووضع العرب مرّةً واحدةً أمام عالمٍ كاملٍ من الصور لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم بهذه الأبعاد والأطراف والعلاقات الجديدة.

وحاولوا أن تستمتعوا معي ببطءٍ، وتتمَلَّوا بخيالكم وأذواقكم وأحاسيسكم كلّ صورةٍ من الصور القرآنيّة التالية، لتجدوا أنّ معظمها ممّا لا يمكن لقواعدنا البلاغيّة التقليديّة أن تحيط بأبعاده، أو أن تسمح لنا بالاستناد إليها في تحليله:

- ﴿فما أصبَرَهمْ على النار﴾ [البقرة: 175]
- ﴿هُنّ لباسٌ لكمْ وأنتم لباسٌ لهنّ﴾ [البقرة: 187]
- ﴿ويسألونكَ ماذا يُنفقون قُلِ العَفْوَ﴾ [البقرة: 219]
- ﴿نساؤكمْ حَرْثٌ لكم فأْتُوا حَرْثَكم أنَّى شئتُم﴾ [البقرة: 223]
- ﴿ولستمْ بآخِذيهِ إلّا أنْ تُغمِضوا فيه﴾ [البقرة: 267]
- ﴿ضُرِبَتْ عليهِمُ الذِلَّةُ أينَ ما ثُقِفوا إلّا بحَبْلٍ من اللهِ وحَبْلٍ منَ الناس﴾ [آل عمران: 112]
- ﴿فلا تَميلوا كلَّ المَيلِ فتذَروها كالمعلَّقة﴾ [النساء: 129]
- ﴿مُذَبذَبين بينَ ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ [النساء: 143]
- ﴿فمَثَلُه كمَثَلِ الكلبِ إن تَحمِلْ عليه يَلهَثْ أو تترُكْه يَلهَثْ﴾ [الأعراف: 176]
- ﴿وتَوَدُّون أنّ غيرَ ذاتِ الشَّوكةِ تكونُ لكم﴾ [الأنفال: 7]
- ﴿واعلموا أنّ اللهَ يَحُولُ بينَ المرءِ وقلبِه وأنّه إليه تُحشَرون﴾ [الأنفال: 24]
- ﴿ولا تَنازَعوا فتفشلوا وتَذهبَ ريحُكمْ﴾ [الأنفال: 46]
- ﴿وإذْ زَيَّنَ لهمُ الشيطانُ أعمالَهم﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿وإنْ جَنَحوا للسَّلْمِ فاجنَحْ لها وتوكَّلْ على الله﴾ [الأنفال: 61]
- ﴿يُرضونكم بأفواهِهم وتأبَى قلوبُهم﴾ [التوبة: 8]

- ﴿وأموالٌ اقترفتُموها﴾ [التوبة: 24]
- ﴿وجَعلَ كلمةَ الذينَ كفَروا السُّفلَى وكلمةُ اللهِ هي العُليا﴾ [التوبة: 40]
- ﴿وارتابتْ قلوبُهمْ فهم في رَيبِهم يتردّدون﴾ [التوبة: 45]
- ﴿وخُضْتُمْ كالذي خاضوا﴾ [التوبة: 69]
- ﴿ أولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهم﴾ [التوبة: 69]
- ﴿وطُبعَ على قلوبِهم﴾ [التوبة: 87]
- ﴿حتّى إذا أَخذتِ الأرضُ زُخرُفَها وازّيّنتْ وظَنَّ أهلُها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾ [يونس: 24]
- ﴿ثمّ يأتي مِن بَعدِ ذلك سبعٌ شِدادٌ يأكُلْن ما قدّمتمْ لهنّ﴾ [يوسف: 48]
- ﴿غاشيةٌ مِن عذابِ الله﴾ [يوسف: 107]
- ﴿قُلْ كُونوا حِجارةً أو حديداً. أو خَلْقاً ممّا يَكبُرُ في صُدورِكم﴾ [الإسراء: 50 – 51]
- ﴿وقُلْ جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطلُ إنّ الباطلَ كان زَهوقا﴾ [الإسراء: 81]
- ﴿ولا تَجعَلْ يَدَكَ مَغلولةً إلى عُنُقِك﴾ [الإسراء: 29]
- ﴿واشتعلَ الرأسُ شَيباً﴾ [مريم: 4]
- ﴿وهو الذي جَعلَ لكمُ الليلَ لباساً والنومَ سُباتاً وجَعلَ النهارَ نُشوراً﴾ [الفرقان: 47]
- ﴿ووقَعَ القولُ عليهم بما ظَلَموا﴾ [النمل: 85]
- ﴿جَعلنا الليلَ ليَسكُنوا فيه والنهارَ مُبْصِراً﴾ [النمل: 86]
- ﴿لولا أن رَبَطْنا على قلبِها﴾ [القَصص: 10]
- ﴿مَثَلُ الذين اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ كمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَتْ بيتاً وإنّ أوهَنَ البيوتِ لبيتُ العَنكَبوت﴾ [العنكبوت: 41]
- ﴿ضَربَ لكمْ مَثَلاً مِن أنفُسِكم هل لكمْ مِن ما مَلَكتْ أيمانُكم مِن شُركاءَ في ما رزقناكُمْ فأنتمْ فيه سَواءٌ تخافونهمْ كخِيفتِكمْ أنفُسَكم﴾ [الروم: 28]
- ﴿فإنّكَ لا تُسْمِعُ المَوتَى ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوا مُدْبِرين﴾ [الروم: 52]

- ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُقسِمُ المجرمونَ ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ﴾ [الإسراء: 55]
- ﴿يا بُنَيَّ إنّها إنْ تَكُ مِثقالَ حبّةٍ مِن خَردلٍ فتكَنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأْتِ بها اللهُ﴾ [لقمان: 16]
- ﴿ومَنْ يُسْلِمْ وجهَه إلى اللهِ وهو مُحسِنٌ فقدِ استمسَكَ بالعُروةِ الوُثْقى﴾ [لقمان: 22]
- ﴿ولو أنّ ما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ مِن بَعدِهِ سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلِماتُ الله﴾ [لقمان: 27]
- ﴿أفرأيتَ مَنِ اتَّخذَ إلهَه هواه﴾ [الجاثية: 23]
- ﴿ولا يَغْتَبْ بعضُكم بَعضاً أيُحِبُّ أحدُكمْ أنْ يأكلَ لحمَ أخيه مَيْتاً﴾ [الحُجرات: 12]
- ﴿ونحن أقربُ إليه من حَبلِ الوريد﴾ [ق: 16]
- ﴿ولا يَأتِينَ ببُهتانٍ يفترِينَهُ بينَ أيدِيْهِنَّ وأرجُلِهِنّ﴾ [الممتحنة: 12]
- ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراةَ ثمّ لم يَحمِلوها كمَثل الحمارِ يحملُ أسفاراً﴾ [الجمعة: 5]
- ﴿كأنّهم خُشُبٌ مسنَّدةٌ يَحسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم﴾ [المنافقون: 4]
- ﴿إذا أُلقُوا فيها سَمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ [المُلك: 7]
- ﴿تكادُ تَمَيّزُ من الغَيظ﴾ [المُلْك: 8]
- ﴿هو الذي جَعل لكمُ الأرضَ ذَلولاً فامشُوا في مناكبِها﴾ [المُلك: 15]
- ﴿فطاف عليها طائفٌ من ربِّكَ وهم نائمون. فأصبحتْ كالصريم﴾ [القلم: 19 – 20]
- ﴿فترى القومَ فيها صَرعَى كأنّهمْ أعجازُ نخلٍ خاوية﴾ [الحاقّة: 7]
- ﴿يومَ يَخرُجون منَ الأجداثِ سِراعاً كأنّهمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضون﴾ [المعارج: 43]
- ﴿واللهُ أنْبَتَكمْ من الأرضِ نباتاً﴾ [نوح: 16]
- ﴿واللهُ جَعلَ لكمُ الأرضَ بِساطاً﴾ [نوح: 19]
- ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّمَ حَطباً﴾ [الجنّ: 15]
- ﴿إنّ ناشئةَ الليلِ هي أشَدُّ وَطْأً وأقْوَمُ قِيلاً﴾ [المزّمّل: 6]

- ﴿وأقرِضوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [المزّمّل: 20]
- ﴿إنّا نخافُ مِن ربِّنا يوماً عَبوساً قَمْطَريراً﴾ [الإنسان: 10]
- ﴿ويطوفُ عليهم وِلدانٌ مُخلَّدون إذا رأيتَهمْ حسِبْتَهمْ لؤلؤاً منثوراً﴾ [الإنسان: 19]
- ﴿ألم نجعلِ الأرضَ مِهاداً. والجبالَ أوتاداً﴾ [النبأ: 6 -7]
- ﴿فصَبَّ عليهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذاب﴾ [الفجر: 13]
- ﴿يومَ يكونُ الناسُ كالفَراشِ المبثوث﴾ [القارعة: 4]
- ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنفوش﴾ [القارعة: 5]
- ﴿فجعلَهمْ كعصفٍ مأكول﴾ [الفيل: 5]

وكثيراً ما وقف البلاغيّون حائرين وهم يرون إلى هذا الخزّان العجيب من الصور وقد تجاوز حدود نظريّاتهم التي قبسوا معظمها عن أرسطو، ولذلك تجد الاستشهاد بالشعر في كتبهم البلاغيّة يطغى على الاستشهاد بالآيات، لأنّهم وجدوا فيه ما يناسب مقاييسهم الأرسطوطاليّة، ولم يجدوا ذلك في الآيات.

بل إنّ حجم الفنون البيانيّة، أو البديعيّة كما يطلقون عليها أحياناً، كان وحده فوق ما اعتادوه في أيّ نوعٍ من أنواع الأدب، شعراً أو نثراً، حتى كانوا يكتشفون في الآية الواحدة عشرات الفنون. واسمع ما يقوله ابن أبي الأصبع - كما يروي السيوطي - في شأن آيةٍ واحدة:

> ولم أرَ في الكلام مثل قوله تعالى ﴿يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سماءُ أَقْلِعي. .﴾ [هود: 44] فإنّ فيها عشرين ضرباً من البديع وهي سبعَ عشرة لفظة[1].

بناءٌ جديدٌ للصورة القرآنيّة:

ولم تتوقّف الصور القرآنيّة عند حدّ الكثافة والتنوّع بل تجاوزته إلى نوعٍ من الصور لا ينضوي تحت قواعد البلاغيّين التقليديّة التي اعتادت أن تقسّم

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص187.

الصورة البيانيّة إلى مجرّد مشبَّهٍ ومشبَّهٍ به وأداة تشبيهٍ ووجه شبه، ثمّ تتفرّع الصورة عندهم إلى أبوابٍ وتصنيفاتٍ عديدةٍ، بحسب حذفِ أو ذِكرِ واحدٍ أو أكثر من هذه العناصر الأربعة.

لقد سبق أن أكّدتُ في كتاب "الصورة بين البلاغة والنقد" حقيقةً محبطةً في علومنا البلاغيّة فقلت:

إنّ التراث العربيّ عرف كثيراً من الصور الرائعة التي لا تخضع لقواعد البلاغيّين، ولكنّ هؤلاء تجاهلوها مكتفين من صور التراث بما استطاعوا إخضاعه لتقسيماتهم وتفريعاتهم الموضوعة، فكانت النتيجة إلغاء أكثر الصور الأدبيّة طرافةً وإبداعاً، ولا سيّما صور القرآن الكريم، معجزة العربيّة الكبرى.
والقرآن الكريم كان مصدراً ثرّاً لمثل هذه الصور، لم يستطع البلاغيّون الإحاطةَ بفتوحاته في هذا المجال، مثلما عجز النحويّون عن الإحاطة بفتوحاته النحويّة واللغويّة، فظلّت بعيدةً عن متناول دراساتهم، لا لشيءٍ إلّا لأنّهم لم يجدوا في تقسيماتهم المنطقيّة التعميميّة ما يتّسع لخصوصيّات القرآن الرفيعة، فبقيت هذه الخصوصيّات بمنأىً عن أيديهم وعن قواعدهم الصارمة.
فما القاعدة البلاغيّة التي يمكن أن تلمّ بهذه الصورة القرآنيّة وهي تمثّل لنا المنافقين الخائفين من الجهاد وقد اندفعت أرجلهم بقوّةٍ وراء ظهورهم هاربين إلى أوّل ملجأ يحميهم من القتل: ﴿لو يجدون ملجأً أو مَغاراتٍ أو مُدَّخَلاً لَولَّوا إليه وهم يَجمَحون﴾ [التوبة: 57]. إنّ قواعدنا البلاغيّة لن تعثر في هذه الآية على مشبَّهٍ أو مشبّهٍ به، ولن تجد فيها أيّة علاقةٍ مجازيّةٍ تربط بين كلماتها، وستقف عاجزةً عن اكتشاف البلاغة القرآنيّة في كلمة (مُدَّخَلاً) الموحية المتفرّدة، وعن قياس الصورة التجسيميّة المتحرّكة للمنافقين وهم في ذروة خوفهم "يولّون جامحين" نحو أقرب وكرٍ يختبئون فيه.
ومثلها أيضاً صورة نبيّ الله موسى وهو يولّي مدبراً لا يلتفت وراءه، بعد أن خُيّل إليه أنّ عصاه قد انقلبت إلى حيّةٍ كبيرة: ﴿وأن ألْقِ

عصاك، فلمّا رآها تهتزُّ كأنّها جانٌّ ولّى مُدْبِراً ولم يُعقِّب﴾ [القَصص: 31]. إنّها صورةٌ حركيّةٌ دراميّةٌ حيّة، رغم أنّها تخلو من العناصر التقليديّة التي تقوم عليها قواعد البلاغيين العرب[2] .

ولو جرّبنا إخضاع صور القرآن الكريم لقواعدنا البلاغيّة التقليديّة لعجزنا عن ذلك في كثيرٍ منها. فأيّة قاعدةٍ يمكن أن تساعدنا في تحليل مثل هذه الصور القرآنيّة المكثّفة:

- ﴿ولكمْ في القِصاصِ حياةٌ﴾ [البقرة: 179]
- ﴿ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ﴾ [الحجّ: 73]
- ﴿وأفئدتُهم هَواءٌ﴾ [إبراهيم: 43]
- ﴿ويَقذِفون بالغَيبِ مِن مكانٍ بعيدٍ﴾ [سبأ: 53]

الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة:

وبنزول القرآن عرف العرب أوّل مرّةٍ الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة، ولم يعد أمام البلاغيّين من خيار، عندما بدأوا يضعون للبلاغة العربيّة قوانينها ويحلّلون أجزاء الصور البيانيّة فيها، إلّا غضُّ النظر عن تلك الصور القرآنيّة الجديدة، وتجاهُلُها في دراستهم لأنّها لا تستجيب لقواعدهم، أو بالأحرى لأنّ قواعدهم البشريّة المحدودة لم تستطع الإحاطة بأبعادها واستيعابَها.

والأخطر من هذا أنّ منّ أراد أن ينال من الإسلام ومن القرآن وجد في غرابة الصور القرآنيّة وخروجها عن المقاييس التقليديّة ما ظنّ أنّه ثغرةٌ ينفُذ منها إلى عقيدة المسلمين، كما فعل ابن الراوندي، المتزندق المشهور، وهو الذي يتغنّى أصحابه اليوم بعقليّته التجديديّة وتجاوزِه بأفكاره للعصر الذي عاش فيه، وذلك حين علّق على قوله تعالى: ﴿فأذاقها اللهُ لباسَ الجوعِ والخوف﴾ [النحل: 112] فقال لابن الأعرابيّ، إمام اللغة والأدب: "هل يُذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابيّ: لا بأس أيّها النَسناس، هَبْ أنّ محمّداً ما كان نبيّاً،

---

(2) ساعي، أحمد بسام. **الصورة بين البلاغة والنقد**، مرجع سابق، ص21 - 22.

أما كان عربيّاً؟ كأنّه طَعنَ في الآية بأنّ المناسب أن يُقال: فكساها اللهُ لباسَ الجوع، أو: فأذاقها اللهُ طعمَ الجوع"[3].

أرأيت كيف أنّ خيال العرب، حتّى عند أولئك الذين تأخّروا قروناً بعد عصر الوحي، ومن نُسب منهم إلى الحداثة والثورة والتجديد خاصّةً، لم يكن حتّى ذلك الحين مهيّأً للصدمة البلاغيّة الكبيرة التي أحدثها القرآن في الصورة البيانيّة؟ فأدبهم عامّةً، وشعرهم خاصّةً، لم يعرف للصورة أكثرَ من بُعدٍ واحدٍ، أو جسرٍ واحدٍ، يصل بين طرفين اثنين لا ثالث لهما: المشبّه والمشبّه به؟

إنّهم لم يعرفوا من قبلُ كيف يتعاملون مع صورةٍ ثلاثيّة الأطراف، كآية سورة (النحل)، فيَعبُرون بين الأطراف الثلاثة على جسرين متواليين، أو يقفزون قفزتين واحدةً بعد أخرى:

1 - الجوع والخوف هما كاللباس المحيط بالجسم من كلّ الجهات،

2 - والإحساس بهذا اللباس الصعب يشبه الإحساس بمَذاق الطعام المرّ.

وهكذا يصبح الجوع والخوف لباساً، واللباسُ طعاماً يُذاق أو يؤكَل.

الصورة المتحرّكة:

وتجاوزَ القرآن الكريم بالعرب أيضاً الصورة التقليديّة الثابتة إلى الصورة المتحرّكة، فلم تعد العدسة البيانيّة آلة تصويرٍ قديمةً بصورٍ ذاتِ لونين: أبيض وأسود، فتكتفي بالتقاط مناظر مؤلَّفةٍ من مشبّهٍ ومشبّهٍ به. إنّ الآلة الجديدة تتحرّك بنا من مسرحٍ إلى آخر، لتضيف إلى المشهد مزيداً من العناصر والألوان والحركة والحياة.

فالصورة التي تشبّه أعمال الكفّار بالسراب لم تتوقّف عند هذا التشبيه، بل تتحرّك بالسراب وتتحرّك معه بالظامئ وهو يبحث فيه جاهداً عن الماء، فإذا انتهى إليه لم يجد هنالك إلّا الله، أو يجد بالأحرى مصيرَه البائس، وقد

---

(3) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير**، مرجع سابق، ج3، ص200.

كان يظنّ أنّ عمله سيغنيه عن الإيمان بالله:

- ﴿والذين كفروا أعمالُهم كسَرابٍ بقِيعةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتّى إذا جاء لم يجدْه شيئاً ووجد اللهَ عنده فوفّاه حسابَه﴾ [النور: 39]

ولا تتوقّف الصورة القرآنيّة الأخرى عند تشبيه الليل بوعاءٍ يحتوي النهار، أو عند تشبيه النهار بوعاءٍ يحتوي الليل، بل تتحرّك بكلٍّ منهما حركةً إيلاجيّةً التفافيّةً تصوّر التداخل المستمرّ والمتدرّج للّيل والنهار في تباعدهما وتقاربهما بين الشروق والغروب، وفي تطاولهما وتقاصرهما بين الشتاء والصيف:

- ﴿يولجُ الليلَ في النهارِ ويولجُ النهارَ في الليل﴾ [لقمان: 29]

وهكذا في الصور القرآنيّة المتحرّكة الأخرى:

- ﴿مثَلُهم كمَثَلِ الذي استوقدَ ناراً فلمّا أضاءتْ ما حولَه ذهبَ اللهُ بنُورِهم وتركهمْ في ظُلُماتٍ لا يُبصِرون﴾ [البقرة: 17]
- ﴿أو كصيِّبٍ من السماءِ فيه ظُلُماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعَهم في آذانِهم من الصواعقِ حَذَرَ الموت﴾ [البقرة: 19]
- ﴿وكُلوا واشرَبوا حتّى يتبيّنَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسوَدِ من الفجر﴾ [البقرة: 187]
- ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تُبطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي يُنفِقُ مالَه رِئاءَ الناسِ ولا يؤمنُ بالله واليومِ الآخِرِ فمَثَلُه كمَثَلِ صفْوانٍ عليه ترابٌ فأصابَه وابلٌ فتركَه صَلْداً﴾ [البقرة: 264]
- ﴿ومَثَلُ الذين يُنفِقون أموالَهمُ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ وتثبيتاً مِن أنفُسِهم كمَثَلِ جَنّةٍ بربوةٍ أصابَها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضِعفَين فإنْ لم يُصِبْها وابلٌ فطَلٌّ﴾ [البقرة: 265]
- ﴿أيودُّ أحدُكم أن يكونَ له جَنّةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ له فيها مِن كلِّ الثمراتِ وأصابَه الكِبَرُ وله ذُرّيّةٌ ضعفاءُ فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ﴾ [البقرة: 266]
- ﴿واقعُدوا لهم كلّ مَرصَد﴾ [التوبة: 5]
- ﴿يُريدون أن يُطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهِمْ﴾ [التوبة: 32]

- ﴿والذين يَدْعُون مِن دونِه لا يستجيبون لهم بشيءٍ إلّا كباسطِ كفَّيْه إلى الماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وما هو ببالِغِه﴾ [الرعد: 14]
- ﴿أعمالُهمْ كرمادٍ اشتدّت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ﴾ [إبراهيم: 18]
- ﴿ضَربَ اللهُ مَثَلاً كلِمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفَرعُها في السماء تُؤتي أُكُلَها كلَّ حِينٍ بإذْنِ ربِّها﴾ [إبراهيم: 24 - 25]
- ﴿ولا تمْشِ في الأرضِ مرَحاً إنّكَ لن تَخرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طولاً﴾ [الإسراء: 37]
- ﴿قُلْ لو كان البحرُ مِداداً لكلماتِ ربّي لنَفِدَ البحرُ قبلَ أنْ تَنفَدَ كلماتُ ربّي ولو جئنا بمِثْلِه مَدَداً﴾ [الكهف: 109]
- ﴿بل نَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدمَغُه﴾ [الأنبياء: 18]
- ﴿ومَن يُشرِكْ باللهِ فكأنّما خَرَّ مِن السماءِ فتَخْطَفُه الطيرُ أو تَهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ﴾ [الحجّ: 31]
- ﴿يَخافون يوماً تتقلّبُ فيه القلوبُ والأبصار﴾ [النور: 37]
- ﴿أو كظُلُماتٍ في بحرٍ لُجّيٍّ يَغْشاهُ مَوجٌ مِن فوقِه موجٌ مِن فوقه سَحابٌ ظُلُماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ إذا أَخرَجَ يدَه لم يَكَدْ يراها﴾ [النور: 40]
- ﴿اللهُ الذي خَلَقَكمْ مِن ضَعْفٍ ثم جَعَلَ مِن بَعدِ ضَعفٍ قوّةً ثمّ جَعلَ مِن بَعدِ قوّةٍ ضَعْفاً وشَيبةً﴾ [الروم: 54]
- ﴿وتَرى الجبالَ تَحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السَحاب﴾ [النمل: 88]
- ﴿تتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجِعِ يَدْعُون ربَّهمْ خَوفاً وطمَعاً﴾ [السجدة: 16]
- ﴿كمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفّارَ نباتُه ثمّ يَهيجُ فتراهُ مُصفرّاً ثمّ يكونُ حُطاماً﴾ [الحديد: 20]
- ﴿لو أنزَلْنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيتَه خاشعاً متصدِّعاً مِن خَشيةِ الله﴾ [الحشر: 22]
- ﴿يومَ يَخرجون من الأجداثِ سِراعاً كأنّهم إلى نُصُبٍ يُوفِضون﴾ [المعارج: 43]

- ﴿فما لَهم عن التذكرةِ مُعْرِضين. كأنّهم حُمُرٌ مستنفِرة. فرّت مِن قَسْوَرة﴾ [المدّثّر: 49 - 51]

توليد الصورة من المعنى الجديد للفعل:

وكثيراً ما تكون وسيلة القرآن إلى الصورة الجديدة هي تغيير معنى الفعل المستخدَم وإعطاءه معنىً جديداً، كما نرى حين يأخذ الفعل (يشتري) معنى (يبدّل) لتتكوّن لنا الصورة القرآنيّة التي يشبّه فيها تعالى الدنيا بسلعةٍ تُشترى:

- ﴿أولئك الذين اشترَوا الحياةَ الدنيا بالآخرة﴾ [البقرة: 86]

وهكذا في قوله تعالى:

- ﴿والذين يمكرون السيّئاتِ لهم عذابٌ شديد﴾ [فاطر: 10]

فأعطى الفعل (يمكر) معنى (يرتكب) ولكن (بمكرٍ). ومثله قوله تعالى:

- ﴿إن تُقرِضوا اللهَ قرضاً حَسناً يُضاعفْه لكم﴾ [التغابن: 17]

فأعطى الفعل (يُقرض) معنى (يعمل) أو (يقدّم) ولكن (منتظراً الأجر). وكذلك قوله تعالى:

- ﴿(وذُلِّلتْ قُطوفُها تذليلا)﴾ [الإنسان: 14]

فأعطى الفعل (ذلّل) معنى(قرّب) ولكن (مع سهولة القطاف). .

الصورة الافتراضيّة:

ومن أهمّ ما أضافه القرآن إلى المعجم البيانيّ ما يمكن أن أطلق عليه اسم (الصور الافتراضيّة). إنّها ذلك النوع من الصور التي تترك للخيال الإنسانيّ أن يكمّلها، لأنّها تضع المشبّه أمام ما لا يمكن أن تدركه حواسّنا البشريّة العاديّة من المشبّهات به، أو تشبّه ما هو معروفٌ بما ليس معروفاً أو مُشاهَداً، كتلك الصورة التي استأثرت طبيعتها باهتمام البلاغيّين القدماء، وقد شبّه فيها تعالى ثمارَ شجرة الزقّوم في جهنّم برؤوس الشياطين:

- ﴿طَلْعُها كأنّه رؤوسُ الشياطين﴾ [الصافّات: 65]

فلأنّ أحدنا لم ير الشياطين قطّ، ولا رؤوسها، فمن شأن هذه الصورة أن تطلق لخياله العنان في افتراض الصورة التي تجسّم بشاعة تلك الشجرة وقد أخذت شكل أبغض مخلوقٍ على وجه الأرض. إنّها ذلك النوع من الصور الذي يهدم الحواجزَ والحدود التي تضعها عادةً الصورةُ العقليّة المنطقيّة المحدودة في طريق الخيال، ليجد نفسه أمام آفاقٍ لا حدود لامتدادها من التصوّرات والألوان، كأمثال هذه الصور:

- ﴿لا تدركُه الأبصارُ وهو يُدركُ الأبصارَ﴾ [الأنعام: 103]
- ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ﴾ [إبراهيم: 48]
- ﴿وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغاً﴾ [القَصص: 10]
- ﴿ولو أنّما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِن بَعدِه سبعةُ أبحُرٍ ما نَفِدَتْ كلِماتُ الله﴾ [لقمان: 27]
- ﴿والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامةِ والسمواتُ مَطوِيّاتٌ بيمينِه﴾ [الزُمَر: 67]
- ﴿فإذا انشقّت السماءُ فكانت وردةً كالدِهان﴾ [الرحمن: 37]
- ﴿نُورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانِهم﴾ [التحريم: 8]
- ﴿ولقد زيّنّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ [المُلك: 5]
- ﴿وإنْ يكادُ الذين كفروا لَيُزْلِقونكَ بأبصارِهم﴾ [القلم: 51]
- ﴿من اللهِ ذي المعارج﴾ [المعارج: 3]
- ﴿إنّها ترمي بشَرَرٍ كالقَصْر. كأنّه جِمالَةٌ صُفْر﴾ [المرسَلات: 32 - 33]
- ﴿والصبحِ إذا تنفَّس﴾ [التكوير: 18]

أنواع الصور في سورة (المدّثر):

ولو عدنا إلى سورة (المُدّثّر)، وقد سبق أن طبّقنا عليها دراستنا عن الألفاظ في الفصل السابق، لوجدنا فيها من كلّ الأنواع المذكورة للصور، بعلاقاتها المختلفة، مع تأكيدنا على جِدّة هذه الصور وعدم معرفة العرب لها

قبل الإسلام، سواءٌ ما قام منها على الأبعاد المعروفة للصورة قبل الإسلام، أو ما خرج عن هذه الأبعاد.

وعلينا أن ننبّه إلى أنّ النوع البيانيّ الذي سنعرّف هذه الصور به ونذكره إلى جانب كلّ صورة ليس هو بالضرورة النوع النهائيّ، أو النوع الوحيد، الذي تنتمي إليه، ما دام كثيرٌ من هذه الصور خارجاً عن الحدود المتعارف عليها للأنواع البيانيّة التي كرّستها علومُ البلاغة العربيّة.

ويمكن أن نحصي في (المدّثّر) أكثر هذه الصور وضوحاً لنا، وهي لا تقلّ عن 31 صورةً تتكوّن من مزيجٍ من الألفاظ والتعبيرات والعلاقات البيانيّة الجديدة التي نسردها فيما يلي:

- **المدّثّر** (رمزٌ أو كنايةٌ عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم)
- **وثيابَك فطهّر** (مجاز: أراد بالثياب نفسَ صاحبها)
- **والرُجزَ فاهجُر** (مجاز: أراد بالرُجز - وهو العذاب - الأصنام التي تؤدّي إليه)
- **نُقِر في الناقور** (كناية: إشارةٌ اصطلاحيّةٌ إلى النفخ في الصُّوْر ومن ثمّ قيام القيامة)
- **ذَرْني ومن خلقتُ** (مجاز: فعل الأمر هنا موجَّهٌ، أو قد يكون موجّهاً، من الآمر إلى المأمور الذي هو الآمر نفسه، أي الله، وقد جلّ أن يأمره أو يذرَه أحدٌ)
- **مالاً ممدوداً** (مجاز: وصف المال بالامتداد، فكأنّه شيءٌ متطاول الشكل)
- **ومهّدتُ له تمهيداً** (كنايةٌ أو رمز: إشارةٌ إلى معنى الاختبار بالاستدراج)
- **كان لآياتِنا عنيداً** (كنايةٌ أو مجاز: ذكر العناد وأراد التكذيب والكفر)
- **سأرْهقُه صَعوداً** (كنايةٌ أو رمزٌ عن شدّة العذاب من غير تحديد طبيعته)
- **أدبرَ واستكبر** (كنّى بالإدبار عن الإنكار)
- **سأُصليهِ سَقَر** (رمز: جِدّة المصطلَح "سقر" تشحنه بمعانٍ غير محدّدةٍ من العذاب)

- **لا تُبقي ولا تَذَر** (كنايةٌ عن شدّة النار ووطأة العذاب)
- **لوّاحةٌ للبَشَر** (كنايةٌ عن شدّة الإحراق)
- **كفَروا - الكافرون** (صورتان بيانيّتان: شبّه الامتناع عن الإيمان بغطاءٍ يغطّي العقل، أو بالجحود)
- **في قلوبِهم مرضٌ** (صورةٌ بيانيّة: شبّه الشكّ وضعف الإيمان بالمرض في القلب)
- **يُضِلُّ اللهُ من يشاء** (صورةٌ بيانيّة: شبّه الكفر بالضياع)
- **يَهدي من يشاء** (صورةٌ بيانيّة: شبّه المؤمن بالمسافر أو المتنقّل الذي يعرف طريقه، أو شبّه الإيمان بالمعرفة ووضوح الطريق)
- **والصبح إذا أسفَر** (صورة بيانيّة: شبّه الفجر بإنسانٍ يكشف غطاء الليل عن نفسه، أو عن الحياة)
- **أن يتقدّم أو يتأخّر** (كنايةٌ عن الإيمان أو الكفر)
- **كلُّ نفْسٍ بما كسبَتْ رهينةٌ** (صورةٌ بيانيّة: شبّه الإنسان بسجينٍ وراء قضبان أعماله)
- **أصحابَ اليمين** (كنايةٌ عن أهل الجنّة)
- **نخوضُ مع الخائضين** (صورةٌ بيانيّة: شبّه التحدّث في حقّ الله بالسقوط في مخاضة)
- **يوم الدّين** (اصطلاح: رمَزَ به إلى القيامة والحساب)
- **أتانا اليقين** (اصطلاح: رمَزَ إلى الموت أو الحساب باليقين، لحتميّة وقوعهما)
- **كأنّهمْ حُمُرٌ مستنفِرة. فرّت من قَسْوَرة** (صورتان بيانيّتان: شبّههم بالحمير، ثمّ شبّه إعراضهم عن الإيمان بالحيوانات الفارّة من الأسُود أو الرّماة)
- **الآخرة** (رمزٌ أو كناية: مصطلحٌ إسلاميٌّ جديدٌ للحياة بعد الموت)
- **التقوى** (رمزٌ أو كناية: مصطلحٌ يرمز للخوف من عذاب الله فكأنّما يُتّقى بالعمل الصالح)

- **هو أهلُ التقوى وأهلُ المغفِرة** (صورتان بيانيّتان: ضمّن "أهلُ" معنى "الصاحب" أو "المَرجِع").

ومن المهمّ أن أؤكّد هنا من جديدٍ أنّنا أمام نوعٍ من الصور كثيراً ما يتجاوز الحدود المتعارف عليها للصورة البيانيّة، فبعضها أكثر من مجرّد صورةٍ عاديّة، ومن أجل هذا لم أحاول تحليل كلٍّ منها التحليل البيانيّ المعتاد في دراساتنا البلاغيّة، إذ ليس لديّ إلّا طرائق البلاغيّين المعهودة، وليس في تلك الطرائق ما يكفي من القواعد لدراسة كثيرٍ من هذه الصور وتحليلها، ثم إنّه، كما وعدت دائماً، لا موضع للتحليلات البلاغيّة والنحويّة المفصّلة في مثل هذا البحث، وليست في الأصل هدفاً من أهدافه.

ومن الواضح أنّني اكتفيت، على الأغلب، باقتراح معنىً واحدٍ لكلّ صورةٍ أو تعبير، وذلك تجنّباً للتفصيل الذي ليس هو غرضنا في النهاية، وحذراً من الانزلاق إلى ما لا تُحمد عقباه من محاولة التوفيق الخطرة بين هذه المعاني وفنونها التصويريّة بأبعادها الجديدة، من جهة، والاصطلاحات والقواعد البلاغيّة التقليديّة للصورة الفنّية، من جهةٍ أخرى. فحين يطرح المفسّرون لبعضها أكثر من معنىً فإنّهم يتيحون لنا، بذلك، أكثر من طريقةٍ واحدةٍ لطرح الحالة البيانيّة أو البلاغيّة لها.

وأؤكّد من جديد أنّ الأنواع البيانيّة التي اقترحتها لهذه الصور ليست نهائيّةً، وليست بالضرورة هي النوع الذي اخترته لكلّ صورة، ما دام كثيرٌ من هذه الصور خارجاً عن الحدود التقليديّة التي تعارف عليها البلاغيّون في مؤلّفاتهم.

وسوف نظلّ في مسيس الحاجة إلى إعادة النظر في تلك القواعد، أو إفراد القرآن الكريم بدراساتٍ بلاغيّةٍ تخرج لنا بقواعد خاصّةٍ به، معتمدين في ذلك على الأمّهات من المؤلّفات القديمة الضخمة التي وُضعت في الإعجاز البلاغي للقرآن، التي وفّرت لنا موادّ أوّليّةً دسمةً وثمينةً يمكن أن نبني قواعدنا الجديدة عليها.

الفصل الثاني

الفنُّ القرآنيّ الجديد: الالتفات

تحدّث البلاغيّون كثيراً عن ظاهرةٍ لغويّة أدخلوها في علم المعاني عُرفت بفنّ (الالتفات)، وهو أن يتحوّل المتكلّم فجأةً من صيغة خطابٍ إلى صيغة خطابٍ أخرى، كأن يلتفت من الغائب إلى المخاطب، أو من المخاطب إلى المتكلِّم، أو من المفرد إلى الجمع. وربما أدخلوا فيه الانتقالَ من ماضٍ إلى مضارعٍ إلى أمرٍ، أو من اسمٍ إلى فعل، أو غير ذلك، كقوله تعالى:

- ﴿بلى من أسلمَ وجهَه لله وهو محسنٌ فله أجرُه عند ربّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون﴾ [البقرة: 112]

فتحوّل الخطاب هنا فجأةً من صيغة المفرد الغائب (فله أجره عند ربّه) إلى صيغة جمع الغائبين (ولا خوفٌ عليهم) مع أنّ المقصود في كليهما واحد.

بين (الالتفات) في القرآن و(التجريد) في الشعر:

ولكنّ البلاغيّين، للأسف، لم يفرّقوا في طبيعة هذا الفنّ بين الآيات والأشعار الجاهليّة حين أتوا بشواهدهم في هذا الباب.

حقّاً لقد طغت الآيات في هذه الشواهد على الأشعار، وهذا اعترافٌ غير مباشرٍ بأسبقيّة القرآن في هذا المجال، ولكنّ هذه الأشعار لم تكن تصلح من الناحية العلميّة لأن توضع على صعيدٍ واحدٍ مع الآيات للتمثيل لهذا الفنّ.

ولنلقِ نظرةً سريعةً على هذا المقطع لأحد أهمّ من شرّعوا لِعلم البلاغة وهو السكّاكيّ (ت626هـ) لنتبيّن الفجوة الكبيرة بين شواهدهم الشعريّة وشواهدهم القرآنيّة. يقول السكّاكيّ:

قال ربيعة بن مقروم (شاعرٌ جاهليٌّ / إسلاميّ):

بـانـت سـعـادُ فـأمـسـى الـقـلـبُ مـعـمـودا

وأخـلـفـتـكَ ابـنـةُ الـحُــــرِّ الـمـواعـيـدا

فالتفتَ كما ترى، حيث لم يقُل: وأخلفتْني. ثم قال:

مــا لــم ألاقِ امـرءاً جَــزْلاً مــواهـبُـهُ

سـهـلَ الـفِـنـاءِ رحـيـبَ الـبـاعِ مـحـمــودا

وقـد سـمـعـتُ بـقـومٍ يُـحـمَـدون فـلــم

أسـمـعْ بـمـثـلِـكَ لا حِـلـمـاً ولا جــــودا

فالتفتَ كما ترى، حيث لم يقُل: بمثلِه. وقال:

تـذكّـرتَ، والـذكـرى تَـهِـيـجُـكَ، زيـنـبـا

وأصـبـحَ بـاقـي وصْـلِـهـا قـد تَـقـضَّـبــا

وحَــلَّ بــفَــلْــجٍ والأبــاتِــرِ أهــلُــنــــا

وشـطّـتْ فـحَـلّـتْ غَـمـرةً فـمُـشـقّـبــــا

فالتفتَ في البيتين[1].

ومن الواضح أنّ الشاعر لم يفعل في الشاهد الأوّل أكثر من التحدّث إلى نفسه في أثناء تذكّره لسعاد، فجرّد حديثه من الضمير العائد عليه في صدر البيت (أمسى القلب) قبل أن يفصح عن نفسه في عجز البيت فيُظهر ضميرَ المخاطَب الذي يعني به نفسه (وأخلفتكَ) وهو أمرٌ عاديٌّ ومألوفٌ جدّاً لدى كلّ إنسان عند حديثه مع نفسه، ولا يستحقّ أن ينتمي إلى الفنّ البلاغيّ الذي نحن بصدده.

ولم يفعل في الشاهد الثاني أكثر ممّا تُمليه طبيعة اللغة الإنسانيّة، أيّة

(1) السكّاكيّ، أبو يعقوب يوسف. **مفتاح العلوم**، مرجع سابق، ص296 - 297.

لغةٍ، حين يجد أحدُنا أخيراً النموذج الإنسانيّ الذي كان يبحث عنه، فيقول له: كنت أبحث عن إنسانٍ عظيمٍ فوجدتُك. وهل أمام الشاعر خيارٌ آخر هنا غير الانتقال من صيغة الغائب (عن إنسانٍ) إلى صيغة المخاطَب (فوجدتُك) فأين الالتفات، وأين البلاغة أيّاً كان نوعها؟

وفي الشاهد الثالث يعود الشاعر فيتحدّث، هنا أيضاً، إلى نفسه في البيت الأول، ولكنّ الحديث يتوسّع في البيت الثاني ليشمل أهله وأهل صاحبته (زينب). وبدهيٌّ أن يستخدم هنا صيغة الجماعة (أهلنا)؛ إذ لا خيار أمامه غير هذه الصيغة حين تتوسّع حلقة الحديث، وهو مثل قولك: رأيت صديقي إبراهيم فتذكّرت أيّام طفولتنا، فهل يدخل اجتماعُ ضمير المتكلم المفرد في (صديقي) وهو (الياء) مع ضمير جماعة المتكلّمين في (طفولتنا) وهو (نا) تحت فنّ الالتفات؟ وماذا يبقى في كلّ كلامنا إذن ممّا ليس هو من باب الالتفات؟!

ومن المؤكّد أنّ ما حوَتْه كتب البلاغة من الشواهد الشعرية على فنّ الالتفات يدخل كلّه، إن كان له أن يدخل في أيّ فنٍّ من فنون البلاغة على الإطلاق، في باب التجريد، وهذا لا يمتّ إلى الفنّ الذي نحن بصدد الحديث عنه بأيّة صلة.

واقرأوا معي هذين البيتين اللذين يستشهد بهما السكّاكي أيضاً في باب (الالتفات)[2]:

طحا بكَ قلبٌ في الحِسانِ طَروبُ
بُعَيدَ الشبابِ عصرَ حانَ مَشيبُ

يكلّفُني ليلَى وقد شَطَّ وَلْيُها
وعادتْ عَوادٍ بيننا وخُطوبُ

علقمة الفحل (ت20 ق.هـ)

---

(2) المرجع السابق، ص298.

هل نستطيع أن نعثر هنا على أيّ نوعٍ من أنواع الالتفات، أو ما يمتّ إلى الالتفات بصلة؟ لقد أصرّ أكثر البلاغيين، إن لم يكن كلّهم، على ذلك، والحقّ أنّنا لا نرى فيه، مهما تكلّفنا، إلّا حديثاً عاديّاً مع النفس. فعلى عادة الشعراء، بل عادة أيٍّ منّا، يجرِّد علقمة من نفسه إنساناً يتوجّه إليه بضمير المخاطَب (بك) فيحدّثه حديث النفس للنفس وكأنّه شخصٌ آخر أمامه، قبل أن يعود إلى نفسه فيتحدّث بضمير المتكلّم (يكلّفني).

وغالباً ما يقع هذا النوع من الخطاب في مطلع القصيدة، فيتحدّث الشاعر إلى نفسه بضمير المخاطَب (أنت)، قبل أن يثوب إلى نفسه فيتحدّث بلسانه هو مستخدماً ضميرالمتكلّم (أنا)، ثمّ يستمرّ عليه حتى النهاية. إنّه أسلوبٌ إنسانيٌّ معروفٌ في العربية وفي غيرها من اللغات، ليس لدى الشعراء والكتّاب فحسب، بل لدى الأناس العاديّين أيضاً.

كم يقول أحدنا لنفسه: ماذا جرى لك يا بسّام؟ إنّ قلبي غير مطمئنٍّ لما تعمله لنفسك، سأغيّر قراري، نعم هذا أفضل لك يا بسّام.. أترون كيف تنقّلت في حديثي مع نفسي من المخاطب (لك يا بسّام) إلى المتكلّم (قلبي) إلى المخاطب مرّةً أخرى (تعمله لنفسك) إلى المتكلّم من جديد (سأغيّر قراري) ثم إلى المخاطب مرّةً ثالثة (لك يا بسّام).. فهل من حقّي أن أسميّ كلامي هذا مع نفسي (التفاتاً) وهل من حقّي أن أضعه جنباً إلى جنب مع الفنّ القرآنيّ المعروف بهذا الاسم؟ أم هو ببساطة: مجرّد (تجريد) يدخل تحته الكثير من أحاديثنا اليوميّة؟

خلط البلاغيّين في تعريف (الالتفات):

لقد انعكس خلط البلاغيّين بين (الالتفات) و(التجريد) على فهمهم لهذا الفنّ القرآنيّ، فخلطوا، حتّى في شواهدهم القرآنيّة، بين الالتفات الحقيقيّ والتحوّل الطبيعيّ للحديث بين ماضٍ ومضارعٍ وأمر، تحوّلاً لا مفرّ منه أحياناً حتّى في أحاديثنا العاديّة.

وهذا جلال الدين السيوطي، وقد صحّح أخطاء الكثيرين ممّن ألّف قبله

في كتابه المرجعيّ "الإتقان في علوم القرآن"، يقع في هذا المحذور عندما يعدّد أنواع الالتفات فيأتي من ضمنها بأمثلةٍ على (الالتفات بين الأفعال) فيقول:

مثاله من الماضي إلى الأمر: ﴿وأُحِلَّتْ لكمُ الأنعامُ إلّا ما يُتلَى عليكمْ فاجتنبوا..﴾ [الحجّ: 30].

ومن المضارع إلى الأمر: ﴿قالَ إنّي أُشهِدُ اللهَ واشهَدوا أنّي بريء﴾ [هود: 54].

ومن الأمرِ إلى الماضي: ﴿واتّخِذوا مِن مقامِ إبراهيمَ مُصَلًّى وعَهِدْنا﴾ [البقرة: 125].

وإلى المضارع: ﴿وأن أقيموا الصلاةَ واتقُّوه وهو الذي إليه تُحشَرون﴾ [الأنعام: 72][3].

والواضح أنّ الحالة في الآية الأولى لا تخرج عن مثل قولنا: أعطيتك أوامري فأسرِع بتنفيذها،

والحالة في الآية الثانية لا تخرج عن مثل قولنا: أنا أعرف الحقيقة فاعرفوها أنتم،

والحالة في الآية الثالثة لا تخرج عن مثل قولنا: زوروا صديقكم فقد أخبرناه بنيّتكم لزيارته،

والحالة في الآية الرابعة لا تخرج عن مثل قولنا: اقرأوا الكتاب جيداً فمنه ستُسألون في الامتحان.

ولو قارنّا هذه الآيات، وكذلك الجمل التي مثّلنا بها، بأيّ شاهدٍ نستشهد به في هذا الفصل، فسوف يتبيّن لنا بسهولة أن لا علاقة لكلّ هذا بفنّ الالتفات.

---

(3) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص169 - 170. ولعلّ السيوطي انزلق إلى هذا الخطأ مستنداً إلى من نقل عنهم في هذا الباب، ولا سيما التنوخي وابن الأثير.

إنّ من العبث محاولة البحث عن مثل هذا الفنّ في الشعر أو في أيّ فنٍّ قوليٍّ آخر؛ إذ لا تدخل أمثلتها وشواهدها في هذا الباب، والفجوة كبيرةٌ بينه وبينها. ومن السهل أن نتبيّن مدى نضج هذا الفنّ وسهولتِه ووضوحه، وكذلك مدى تميّزه وتنوّعه، لو عدنا إلى الآيات القرآنيّة التي تتضمّنه، بأنواعه الكثيرة المختلفة، وهي بالمئات؛ إذ لا تكاد تخلو صفحةٌ واحدةٌ من القرآن الكريم من عددٍ من الالتفاتات قلّ أو كثر.

تفرّد القرآن بفنّ (الالتفات):

إنّ (الالتفات) في القرآن الكريم فنٌّ جديدُ كلّياً لم يعرفه الأدب العربيّ قبل القرآن ولا بعده، وهو ما يزال حتّى الآن بعيداً عن متناول أقلامنا، بل لا أعلم له شبيهاً في أيّة لغةٍ أخرى.

وهو ليس مجرّد حالةٍ عرَضيّةٍ تمرّ مصادفةً هنا أو هناك، بل يشكّل ظاهرةً بيانيّةً اختصّ بها القرآن وحده. وعندما أقول (ظاهرة) فإنّما أشير إلى الكثافة التي يتردّد بها هذا الفنّ، بأنواعه المختلفة، في القرآن الكريم، وهي ليست كثافةً عاديّة.

اقرأوا معي هذه الآيات الثلاث الأولى من سورة (الإسراء) لنرى كيف تنقّل الضمير العائد على ذي الجلالة ستّ مرّاتٍ في الآيات الثلاث، بين: هو، وأنا، ونحن:

﴿سبحان الذي أَسْرَى [هو] بعبدِهِ ليلاً مِن المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركْنا [نحن] حولَهُ لِنُرِيَهُ مِن آياتِنا إنّه [هو] هُوَ السميعُ البصيرُ. وآتَينا [نحن] موسى الكتابَ وجعلناهُ هُدىً لبني إسرائيلَ ألّا تتّخِذوا مِن دوني [أنا] وكيلا. ذُرّيّةَ مَن حَمَلْنا [نحن] معَ نُوحٍ إنّه كان عبداً شَكوراً﴾

وهكذا انتقل تعالى في خطابه عن نفسه من صيغة الغائب المفرد (هو أسرى) إلى صيغة المتكلّمين (نحن باركنا) إلى صيغة الغائب المفرد من جديد (إنّه هو) إلى صيغة المتكلّمين مرّةً أخرى (آتينا نحن) إلى صيغة المتكلّم المفرد

(من دوني أنا) إلى صيغة المتكلّمين من جديد (حمَلنا نحن). وحين تتكرّر الحالة اللغويّة بمثل هذه الكثافة في نصٍّ أدبي لا يعدو بضعة أسطر، فمن العبث أن نتردّد في أن نطلق عليها اسم (ظاهرة) وأن نكتفي بالنظر إليها على أنّها مجرّد "حادثةٍ لغويّةٍ" عفويّةٍ صادف ورودها هنا أو هناك.

ولو نظرنا في الآيات التالية لبرزت لنا حقيقة هذا الفنّ البيانيّ الجديد: واضحاً أشدّ ما يكون الوضوح، ومتنوّعاً أكثر ما يكون التنوّع، وعميقاً لا يتردّد الناقد الحصيف في الحكم بأنّه حقّاً فنٌّ جديدٌ ومختلف، لم يعرفه العرب، وربّما لم تعرفه أيّة لغةٍ أخرى، قبل القرآن الكريم ولا بعده. وقد أشرنا إلى مواضع الالتفات بخطوطٍ تحت الكلمات:

1. ﴿مَثَلُهم كمَثَلِ الذي استوقدَ ناراً فلمّا أضاءتْ ما حولَه ذهب الله بنورِهم﴾ [البقرة: 17]

2. ﴿كُلوا مِن طيّبات ما رزقْناكُم وما ظَلَمونا ولكنْ كانوا أنفسَهمْ يظلِمون﴾ [البقرة: 57]

3. ﴿وإذ جَعَلْنا البيتَ مَثابةً للناسِ وأمْناً واتّخِذوا مِن مَقام إبراهيمَ مُصلًّى﴾ [البقرة: 125]

4. ﴿وما جَعَلْنا القِبلةَ التي كنتَ عليها إلّا لنَعْلمَ مَن يتّبعُ الرسولَ ممّن ينقلبُ على عَقِبَيه﴾ [البقرة: 143]

5. ﴿يُخرجُ الحيَّ من الميّتِ ومُخرجُ الميّتِ من الحيّ﴾ [الأنعام: 95]

6. ﴿إنْ كنتُم آمنتُم بالله وما أَنزلْنا على عبدِنا﴾ [الأنفال: 41]

7. ﴿حتى إذا كنتم في الفُلْكِ وجرَينَ بهِم﴾ [يونس: 22]

8. ﴿مَن كان يريدُ الحياةَ الدنيا وزينتَها نُوَفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبخَسون﴾ [هود: 15]

9. ﴿قال اذهب فمَن تَبِعَكَ منهم فإنّ جهنّمَ جزاؤكم﴾ [الإسراء: 63]

10. ﴿وشارِكْهمْ في الأموالِ والأولادِ وعِدْهُم وما يَعِدُهمُ الشيطانُ إلّا غروراً﴾ [الإسراء: 64]

11. ﴿وأَنزَلَ لكم من السماءِ ماءً فأنبَتْنا به حدائقَ ذاتَ بهجةٍ﴾ [النمل: 60]

12. ﴿ويومَ يُنفَخُ في الصُوْرِ ففَزِعَ مَن في السموات ومَن في الأرض﴾ [النمل: 87]

13. ﴿وما كان ربُّكَ مُهلِكَ القُرى حتّى يَبعَثَ في أُمِّها رسولاً يتلو عليهمْ آياتِنا﴾ [القَصص: 59]

14. ﴿والذين كَفروا بآياتِ اللهِ ولِقائِه أولئكَ يَئسوا مِن رحمتي﴾ [العَنكبوت: 23]

15. ﴿واللهُ الذي أرسلَ الرياحَ فتثيرُ سَحاباً فسُقناه إلى بلدٍ ميّت﴾ [فاطر: 9]

16. وأَوحَى في كلّ سماءٍ أمرَها وزيّنّا السماءَ الدنيا بمصابيحَ﴾ [فُصِّلت: 21]

17. ﴿ومن يَعصِ اللهَ ورسولَه فإنّ له نارَ جهنّمَ خالدين فيها أبدا﴾ [الجنّ: 23]

18. ﴿وكنّا نكذِّبُ بيومِ الدِّين. حتّى أتانا اليقين. فما تنفعُهم شفاعةُ الشافعين﴾ [المدّثّر: 46 - 48]

19. ﴿يا أيّتها النفْسُ المطْمئنّة. اِرجِعي إلى ربِّكِ راضيةً مَرْضِيَّة. فادخلي في عِبادي﴾ [الفجر: 27 - 29]

20. ﴿وإنّ لنا لَلآخرةَ والأولى. فأنذرتُكم ناراً تَلَظَّى﴾ [الليل: 13 - 14]

أترون كيف انتقل تعالى في الآية الأولى فجأةً من المفرد الغائب (ما حوله) إلى جمع الغائبين (بنورهم) رغم أنّ من يتحدّث عنه، أو عنهم، هو نفسه لم يتغيّر!

وكيف انتقل في الآية الثانية من جمع المخاطَبين (كُلوا) إلى جمع الغائبين (ظلمونا) رغم أنّ من يتحدّث عنهم لم يتغيّروا!

وكيف انتقل في الآية الثالثة من جمع الغائبين (الناس) إلى جمع المخاطَبين (واتّخِذوا) والحديث ما يزال عن هؤلاء الناس أنفسهم!

وكيف انتقل في الآية الرابعة من المفرد المخاطب (كنتَ) إلى المفرد الغائب (يتّبعُ الرسولَ) رغم أنّ الحديث بدأ وانتهى عن الرسول نفسه ﷺ!

وكيف انتقل في الآية الخامسة من الفعليّة (يُخرج) إلى الاسميّة (مُخرج) والحديث ما يزال متّصلاً عن الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية السادسة من صيغة المفرد الغائب (آمنتم بالله) أي (هو) إلى صيغة جمع المتكلّمين (أنزلنا) أي (نحن) مع أن الحديث ما يزال عن الله تعالى ومن قِبَل الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية السابعة من جمع المخاطبين (كنتم) إلى جمع الغائبين (بهم) وكلا المخاطَبين والغائبين واحد!

وكيف انتقل في الآية الثامنة من صيغة المفرد الغائب (يريد) إلى صيغة جمع الغائبين (إليهم) مع أنّ من تتحدّث عنهم الآية هم أنفسهم لم يتغيّروا!

وكيف انتقل في الآية التاسعة من جمع الغائبين (منهم) إلى جمع المخاطَبين (جزاؤكم) والمعنيّون هم أنفسهم في الحالَين!

وكيف انتقل في الآية العاشرة من المفرد المخاطَب (وشاركْهم) إلى المفرد الغائب (يعِدُهم) ومحور الحديث ما يزال هو الشيطان لم يتغيّر!

وكيف انتقل في الآية الحادية عشرة من صيغة المفرد الغائب (وأنزل) إلى صيغة جمع المتكلّمين (فأنبتنا) مع أن الحديث ما يزال عن الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية الثانية عشرة من صيغة المضارع المبنيّ للمجهول (يُنفخ) إلى صيغة الماضي المبني للمعلوم (ففزِع) مع أن الحدثين كليهما في المستقبل!

وكيف انتقل في الآية الثالثة عشرة من صيغة المفرد الغائب (ربُّك) إلى صيغة جمع المتكلّمين (آياتنا) والحديث ما يزال عن الله تعالى ومنه!

وكيف انتقل في الآية الرابعة عشرة من صيغة المفرد الغائب (بآيات الله) إلى صيغة المفرد المتكلّم (رحمتي) والمقصود بالحديث في الحالين هو الله تعالى!

وكيف انتقل في الآية الخامسة عشرة من صيغة المفرد الغائب (أرسل)

إلى صيغة جمع المتكلّمين (فسُقناه) والحديث ما يزال عنه تعالى ومنه!

وكيف انتقل في الآية السادسة عشرة من المفرد الغائب (أوحى) إلى جمع المتكلّمين (زيّنّا) والحديث هو أيضاً ما يزال عنه تعالى ومنه!

وكيف انتقل في الآية السابعة عشرة من المفرد الغائب (له) إلى جمع الغائبين (خالدِين) مع أنّ الحديث ما يزال عمّن يعصي الله ورسوله!

وكيف انتقل في الآية الثامنة عشرة من صيغة جمع المتكلّمين (أتانا) إلى صيغة جمع الغائبين (تنفعهم) مع أنّ الحديث ما يزال عن الكفّار أنفسهم!

وكيف انتقل في الآية التاسعة عشرة من صيغة المفرد الغائب (هو) في قوله تعالى (ربّك) إلى صيغة المفرد المتكلّم (أنا) في قوله تعالى (عبادي) والمتحدّث هو هو لم يتغيّر!

وكيف انتقل في الآية العشرين من صيغة جمع المتكلّمين (لنا) إلى صيغة المفرد المتكلّم (فأنذرتكم) مع أنّ الحديث ما يزال عن الله تعالى ومنه!

التفات المشهد:

ومن الالتفات القرآنيّ ما يمكن أن نطلق عليه (التفات المشهد). فكثيراً ما يحدث أن يلتفت السياق في القرآن من مشهدٍ إلى آخر مختلفٍ عنه دون سابق إنذارٍ، وبغير إشارةٍ لفظيّةٍ تمهّد لهذه الانتقالة. ومنه قوله تعالى:

> ﴿الذين إذا أصابتْهُمْ مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون. أولئكَ عليهِمْ صلَواتٌ مِن ربِّهِمْ وأولئكَ همُ المهتدُون. إنّ الصَفا والمَرْوَةَ مِن شَعائرِ اللهِ فمَن حَجَّ البيتَ أوِ اعتَمرَ فلا جُناحَ عليه أنْ يَطَّوَّفَ بهما ومَن تَطَوَّعَ خَيراً فإنّ اللهَ شاكرٌ عليم. إنّ الذين يَكْتُمون ما أنزَلْنا مِن البَيِّنات والهُدى مِن بَعْدِ ما بَيّنّاه للناسِ في الكتابِ أولئكَ يَلعنُهمُ اللهُ ويَلعنُهمُ اللاعنون﴾ [البقرة: 156 - 159].

فقد انتقل بنا المشهد هنا من وصف مواجهة المؤمنين لمصائبهم بالصبر والإيمان ووصف أجرهم الكبير عند الله، في الآيتين الأوليين، إلى وصف

شعائر الطواف في الحجّ بين الصفا والمروة، في الآية الثالثة، ثمّ إلى الحديث في الآية الرابعة عمّن كتموا بعض ما أنزل الله على الأنبياء من كتبٍ، وعقابِهم الكبير عند الله، وهي ثلاثة مشاهد متباعدة الموضوعات، وإن كانت جميعاً تصبّ في محورٍ عامٍّ هو تأسيس عقيدة المسلم، وموقع الدين الجديد من العقائد الأخرى، وتهيئته لمواجهة التحدّيات ممّن حوله، وهذا في الحقيقة هو المحور العامّ للسورة.

هذا النوع من (الشموليّة) في الموضوعات سبق أن تعرّضنا له عند الحديث عن (شموليّة الآية الكريمة) في فصل (الشخصيّة اللغويّة للقرآن). فالصيغة الشموليّة لا تقتصر على الآية الواحدة، وإنّما هي خصيصةٌ أساسيّةٌ في نظام العرض الموضوعيّ للمحاور العامّة في معظم سوَر القرآن الكريم.

فالمشهد يلتفت مثلاً في آيات سورة (الحاقّة) حين ينتقل الحوار على نحو مفاجئ من طرفٍ إلى آخر دون سابق تمهيد:

- ﴿ما أَغنَى عنّي مالِيَهْ. هَلَكَ عنّي سُلطانِيَهْ. خُذوهُ فغُلُّوه. ثمّ الجحيمَ صَلُّوه. ثمّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً فاسلُكوه﴾ [الحاقّة: 28-32].

فبعد أن كان الحديث على لسان أحدِ من أُوتوا كتابهم بشمالهم، فهو يتحسّر على نفسه في الآيتين الأوليين وقد فقد أيَّ أملٍ في ماله وسلطانه لإنقاذه من مصيره البائس، يتوقّف حديث هذا الشخص فجأةً في الآية الثالثة، ونسمع الأمر الإلهيّ الصادر بحقّه من غير أيّ تمهيدٍ أو رابطٍ لفظيٍّ لهذه الانعطافة: خذوه..

التفات الشخصيّات:

ويقترب من التفات المشهد نوعٌ آخر من الالتفات يكاد يتداخل معه وهو التفات الشخصيّات. وفيه ينتقل الحديث فجأةً من شخصٍ إلى آخر دون إنذار، انتقالاً تتداخل معه الشخصيّتان فلا نكاد نتبيّن من منهما المتكلّم. وأوضح نموذجٍ لهذا النوع تلك الآيات التي تظهر فيها براءة يوسف من التهمة التي رمته بها امرأة العزيز:

- ﴿قالتِ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصحَصَ الحقُّ أنا راودتُه عن نفسِه وإنّه لَمنَ الصادقين. ذلكَ ليعلمَ أنّي لم أخُنْهُ بالغَيبِ وأنّ اللهَ لا يَهدي كَيدَ الخائنين. وما أُبرِّيءُ نفْسي إنّ النفْسَ لأَمّارةٌ بالسوءِ إلّا ما رَحِمَ ربّي إنّ ربّيْ غَفورٌ رحيمٌ﴾.

فقد تنقّل الحديث في الآيات الثلاث بين امرأة العزيز وسيّدنا يوسف على نحو تداخلت معه شخصيّتاهما. إنّ من الواضح لنا أنّ المتحدّث في الآية الأولى هو امرأة العزيز، لكن من الصعب أن نقطع بحقيقة المتحدّث في الآية الثانية، وربّما الثالثة أيضاً: أهو يوسف، أم هو امرأة العزيز؟

التفات الحدث:

وكثيراً ما يقع الالتفات في القرآن من حدثٍ إلى آخر متجاوزاً حدثاً آخر تخلّل الحدثين بحيث يُفهم هذا الحدث المختفي من خلال سياق الآيات. ومن ذلك آية سورة (البقرة):

- ﴿فقلنا اضرِب بعصاكَ الحَجَرَ فانفجرتْ منه اثنتا عشْرةَ عيناً﴾ [البقرة: 60].

ففي التعبير البشريّ كان يمكن لسرد هذا الحدث أن يكون على النحو التالي: فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فضربه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً. فهناك إذن ثلاثة أحداثٍ مفترضةٍ في الآية: (أ) أمر الله تعالى لموسى بأن يضرب الحجر بعصاه (ب) تنفيذ موسى للأمر الإلهيّ وقيامه بضرب الحجر (ج) انفجار العيون الاثنتي عشرة منه. ولكنّ الحدث الثاني (ب) اختفى تماماً من الآية وكان علينا أن نقدّره من خلال مجرى السياق إذا أردنا لأحداث القصّة أن تكتمل.

التفات الزمن:

ومن الالتفات القرآنيّ كذلك تداخلُ الأزمان، فيتوحّد الماضي والحاضر والمستقبل في زمنٍ واحد. إنّها الأبعاد الإلهيّة الخاصّة للزمان والمكان، وهي لا تدخل تحت تعريفاتنا البشريّة القاصرة، فإذا كانت السَنَة عند الله كألف سَنةٍ أو كخمسين ألف سنةٍ في حساباتنا البشريّة؛ فكيف تكون حسابات الزمن إذن في المقياس الإلهيّ:

- ﴿وإنّ يوماً عند ربّكَ كألفِ سَنةٍ ممّا تَعُدّون﴾ [الحجّ: 47].
- ﴿تَعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليه في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنةٍ﴾ [المعارج: 4].

أين تنتهي عنده تعالى إذن حدودُ الزمن الماضي لتبدأ حدود الزمن المستقبل، وهل الماضي هو ماضٍ، والحاضر هو حاضرٌ، والمستقبل هو مستقبلٌ حقّاً كما هي في مفهوماتنا البشريّة؟

إنّ العبارات القرآنيّة كثيراً ما تتنقّل بين الأزمان البشريّة الثلاثة غير آبهةٍ بمقاييسنا الدنيويّة لها، فتتحرّر من قيودنا وتخرج عن الأبعاد التي رسمناها لها في أذهاننا المحدودة. ولنقف معاً عند هذه الآيات لنرى كيف تتماهى الحدود وتتشابك بين الماضي والحاضر والمستقبل:

- ﴿إذ تبرّأَ الذين اتُّبِعوا مِنَ الذين اتَّبَعوا ورأَوُا العذابَ﴾ [البقرة: 166] (أي سيتبرّأ وسيَرَون في مفهومنا البشريّ)
- ﴿ولو تَرى إذ وُقِفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذِّبُ بآياتِ ربِّنا﴾ [الأنعام: 27] (أي سيوقَفون يوم الحساب فيقولون)
- ﴿وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السمواتِ والأرض﴾ [الأنعام: 75] (أي أرَيناه)
- ﴿ويَصنعُ الفُلْكَ وكلّما مَرَّ عليه مَلأٌ مِن قَومِه سَخِروا منه﴾ [هود: 38] (أي وصنَعَه)
- ﴿وقال المَلِكُ إنّي أَرى سبعَ بقَراتٍ سِمانٍ﴾ [يوسف: 43] (أي رأيتُ)
- ﴿يا أبَتِ استأجِرْهُ إنّ خَيرَ مَنِ استأجَرْتَ القويُّ الأمين﴾ [القَصص: 26] (أي مَن ستستأجره)
- ﴿ويومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغَمامِ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً﴾ [الفرقان: 25] (أي ستُنَزَّل)
- ﴿هذا يومُ الفصلِ جمعناكمْ والأوّلِين﴾ [المرسَلات: 38] (أي سنجمعكم)
- ﴿يومَ يُنفَخُ في الصُورِ فتأتُون أفواجاً. وفُتِحتِ السماءُ فكانت أبواباً. وسُيِّرَتِ الجبالُ فكانت سَراباً﴾ [النبأ: 18 - 20] (أي ستُفتَح فتكون، وتُسَيَّر فتكون)

- ﴿يومَ يتذكّرُ الإنسانُ ما سَعَى. وبُرِّزتِ الجحيمُ لمَن يَرَى﴾ [النازعات: 35 - 36] (أي ستُبَرَّز)

- ﴿فاليومَ الذين آمنوا من الكفّارِ يَضحكون﴾ [المطفّفين: 34] (أي فغداً)

- ﴿فالمُورِياتِ قَدْحاً. فالمُغِيراتِ صُبحاً. فأثَرْنَ به نَقْعاً. فوَسَطْنَ به جَمْعاً﴾ [العاديات: 2 - 5] (أي فالمثيرات والمُوسِطات)

ومن يتأمّل في آيات القرآن الكريم يجد الكثير من هذا التداخل الزمنيّ، بل التداخل المكانيّ في بعض الأحيان. وقد غابت حقيقة هذا التداخل عن العلّامة الراحل محمّد عبد الخالق عضيمة حين انزلق إلى محاولة إثبات أنّ أداة النفي (لم)، وخلافاً لقواعدنا، لا تقلب معنى المضارع إلى ماضٍ في بعض الآيات، فقال: "في القرآن آياتٌ بقي معنى المضارع بعد (لم) فيها على معنى الاستقبال ولا يراد بالمضارع بعدها معنى المضيّ، ولم أجد للمُعْرِبين ولا للمفسّرين أقوالاً في هذه الآيات، وهي:

- ﴿ونادَوا أصحابَ الجَنّةِ أنْ سَلامٌ عليكمْ لم يَدخُلوها وهم يَطمَعون﴾ [الأعراف: 46].

- ﴿ويومَ نُسيِّرُ الجبالَ وتَرى الأرضَ بارزةً وحَشرناهمْ فلم نُغادرْ منهمْ أحَداً﴾ [الكهف: 47].

- ﴿ويومَ يقولُ نادُوا شُرَكائيَ الذين زَعَمتُمْ فدَعَوهُمْ فلم يَستجيبوا لهمْ﴾ [الكهف: 52].

- ﴿ورأى المجرمون النارَ فظَنُّوا أنّهمْ مُواقِعوها ولم يَجِدوا عنها مَصْرِفاً﴾ [الكهف: 53].

- ﴿وقِيلَ ادْعُوا شُركاءَكُمْ فدَعَوهمْ فلم يستجيبوا لهمْ ورأَوُا العذابَ﴾ [القَصص: 64].

- ﴿ويومَ تقومُ الساعةُ يُبْلِسُ المُجرمون. ولم يكنْ لهمْ مِن شُرَكائهِم شُفَعاءُ وكانوا بشُرَكائهِمْ كافرين﴾ [الروم: 12-13].

- ﴿فيهِنّ قاصراتُ الطَّرْفِ لم يَطْمِثْهُنّ إنْسٌ قبلَهمْ ولا جانٌّ﴾ [الرحمن: 56]"[4].

والواضح أنّ هذه الآيات تدخل كلّها تحت الظاهرة الزمنيّة القرآنيّة حيث يكثر الحديث عن أحداث المستقبل، ولا سيّما يوم القيامة، بصيغة الماضي وكأنّها قد حدثت حقاً.

إنّ هذا يقرّب إلى أذهاننا بعض الشيء ما يؤكّده علماء الرياضيّات والفضاء اليوم من تداخل الزمان والمكان في الفضاء الخارجيّ تداخلاً يَخرج بهما عن تعريفاتنا الأرضيّة، وهو ما لا يدخل تفصيله في مجال بحثنا.

التفات الجنس:

وكثيراً ما يأخذ فنُّ الالتفات في القرآن أشكالاً أكثر تطوّراً ممّا ذكرنا من أمثلة. ومن أشدّ هذه الأشكال بروزاً ولفتاً للنظر التذكيرُ حيث نتوقّع التأنيث، والتأنيثُ حيث نتوقّع التذكير. ويتكرّر هذا الشكل، على قلّته مقارنةً بالأشكال السابقة، مرّاتٍ عديدةً في القرآن، هذا بعضها:

- ﴿إنّ رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنين﴾ [الأعراف: 56].
- ﴿وقطّعناهمُ اثنتَي عشْرةَ أسباطاً أُمماً﴾ [الأعراف: 160][5].
- ﴿ومِن النخلِ مِن طَلعِها قِنوانٌ دانيةٌ﴾ [الأنعام: 99].
- ﴿وقالوا ما في بطونِ هذه الأنعامِ خالصةٌ لذكورِنا ومحرّمٌ على أزواجِنا﴾ [الأنعام: 139].
- ﴿مَن جاءَ بالحسَنةِ فله عَشْرُ أمثالِها﴾ [الأنعام: 160][6].

---

(4) عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج2، ص505.

(5) لاحظ أنّ الآية، خلافاً لأعرافنا اللغوية، أنّثت العدد بدلاً من تذكيره، كما جمعت المعدود "أسباطاً" بعد العدد (12) بدلاً من إفراده.

(6) ويورد محمد عبد الخالق عضيمة قاعدةً لهذه الحالة القرآنيّة اقترحها الرضي في شرح الكافية فيقول: "إن كان المميّز -في العدد- صفةً نائبةً عن موصوفها روعي الموصوف في التذكير والتأنيث" فيكون التقدير على هذا: عشر حسناتٍ أمثالها. عضيمة، محمّد =

- ﴿وما كان صلاتُهمْ عندَ البيتِ إلّا مُكاءً وتصْدِيةً﴾ [الأنفال: 35].
- وإن جَنَحوا للسَلْمِ فاجنَحْ لها﴾ [الأنفال: 61].
- ﴿مِن بَعدِ ما كاد يَزيغُ قلوبُ فريقٍ منهم﴾ [التوبة: 117].
- ﴿مُسوَّمةٌ عند ربِّكَ وما هي من الظالِمين ببعيد﴾ [هود: 83].
- ﴿أوَلم يَرَوا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِن شيءٍ يَتفيّأُ ظِلالُه﴾ [النحل: 48][7].
- ﴿وإنّ لكمْ في الأنعامِ لَعبرةً نُسْقيكُم ممّا في بُطونِه﴾ [النحل: 66].
- ﴿ومِن ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ تتّخذون منه سَكَراً﴾ [النحل: 67].
- ﴿وجَعلْنا جهنّمَ للكافرين حصيراً﴾ (أي حاصِراً) [الإسراء: 8].
- ﴿لِنُحْيِيَ به بلدةً مَيْتاً﴾ [الفرقان: 49][8].
- ﴿فظلّتْ أعناقُهمْ لها خاضعين﴾ [الشعراء: 4].
- ﴿كذّبَتْ قومُ نوحٍ المرسَلين﴾ [الشعراء: 105].
- ﴿وما يُدريكَ لعلّ الساعةَ قريبٌ﴾ [الشورى: 17].
- ﴿والنخلُ ذاتُ الأكمامِ﴾ [الرحمن: 11].
- ﴿لآكلون مِن شجرٍ مِن زَقّومٍ. فمالئون منها البطونَ﴾ [الواقعة: 52 - 53].
- ﴿والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظَهيرٌ﴾ [التحريم: 4].
- ﴿فلمّا رأَوهُ زُلفةً﴾ [المُلك: 27].
- ﴿السماءُ منفطِرٌ به﴾ [المزّمّل: 18].
- ﴿بلِ الإنسانُ على نفسِه بصيرةٌ﴾ [القيامة: 14].

= عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج10، ص176 و191. مع التذكير هنا بأنّ النحويّين لم يألوا جهداً في إيجاد حلولٍ للمآزق النحويّة التي وضعهم فيها القرآن الكريم، حتّى إن لم يوفَّقوا في كثيرٍ من الأحيان إلى إخضاع لغة القرآن المتفرّدة إلى قواعدهم القاصرة.

(7) وتفيّؤ الظلال: رجوعها بعد انتصاف النهار، فالفيء لا يكون إلّا بعد الظهر، وما كان في الصباح فهو الظلّ.

(8) وتتكرّر الحالة نفسها في (الزخرف: 11)، وفي (ق: 11).

- ﴿كلّا إنّها تَذكِرة. فمَن شاءَ ذَكَره﴾ [عبس: 11 - 12].

وكعادتهم دائماً، أصرّ النحويّون على إيجاد مسوّغ نحويٍّ يستند إلى قواعدهم البشريّة المحدودة لمعالجة هذه الحالات القرآنيّة الفريدة. ومن الواضح أنّ تسويغاتهم سادها غالباً الافتعال والتكلّف وليّ عنق القاعدة أو المعنى على السواء، وظلّ معظمهم يلهث، عبثاً، راكضاً خلف الآية وهو يحاول أن يمسك بتلابيب الإعجاز القرآنيّ المحيِّر ويطوّعه لقواعده النحويّة القاصرة التي وُضعت بعد نزول القرآن الكريم بعشرات السنين، وليس قبله، وكان من المفروض أن تستند قواعدهم إلى لغته أوّلاً، وليس إلى لغة الشعر، بوصفه أهمّ نصٍّ عرفه العرب حتى وقت كتابة هذه القواعد، ولكنّهم عجزوا، وهذا بدَهيّ، عن الإحاطة به وبلغته الجديدة المعجزة.

التفات العدد (المفرد والمثنّى والجمع):

ومن هذا الباب أيضاً ما يتبادل فيه المفرد والمثنّى والجمع مواقعهما اللغويّة أو النحويّة، فيحلّ الواحد في اللغة القرآنيّة محلّ الآخر من غير أيّ ارتباطٍ أو استنادٍ إلى أعرافنا البشريّة المتعاهَدة، أو في الأعراف اللغويّة للحديث النبويّ أيضاً، كما توضّحه لنا الآيات التالية، وهي غيضٌ من فيض الحالات الكثيرة التي تشكّل ظاهرةً شديدة الوضوح في لغة القرآن الكريم:

- ﴿ثمّ استوى إلى السماءِ فسوّاهنّ سبعَ سمواتٍ﴾ [البقرة: 29] (فلم يقل: فسوّاها)
- ﴿أولياؤهمُ الطاغوتُ﴾ [البقرة: 257] (فلم يقل: وليُّهم، أو: الطواغيت)
- ﴿إنْ يكنْ غنيّاً أو فقيراً فاللهُ أَولى بهما﴾ [النساء: 135] (فلم يقل: به)
- ﴿حتّى إذا أقلَّتْ سَحاباً ثِقالاً وسُقْناهُ لبلدٍ ميّتٍ﴾ [الأعراف: 57] (فلم يقل: ثقيلاً)
- ﴿واذكروا إذ أنتمْ قليلٌ مستضعَفون في الأرضِ﴾ [الأنفال: 26] (فلم يقل: قليلون)
- ﴿وأنشأْنا مِن بَعدِهم قَرناً آخَرين﴾ [الأنعام: 6] (فلم يقل: آخر)

- ﴿ولكلٍّ درجاتٌ ممّا عَمِلوا﴾ [الأنعام: 132] (فلم يقل: عَمِلَ)
- ﴿قُل أرأيتُم إنْ أَخَذَ اللهُ سمْعَكُمْ وأبصارَكُمْ وخَتمَ على قلوبِكمْ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكُمْ به﴾ [الأنعام: 46] (فلم يقل: بها)
- ﴿واللهُ ورسولُه أحقُّ أنْ يُرضوهُ إنْ كانوا مؤمنين﴾ [التوبة: 62] (فلم يقل: يرضوهما)
- ﴿وما قومُ لوطٍ منكمْ ببعيدٍ﴾ [هود: 89] (فلم يقل: ببعيدين)
- ﴿شَرابٌ مختلِفٌ ألوانُه﴾ [النحل: 69] (فلم يقل: مختلفةٌ)
- ﴿ذلكَ جزاؤهمْ جهنّمُ بما كَفروا﴾ [الكهف: 106] (فلم يقل: أولئك)
- ﴿فلا يُخْرِجَنّكما منَ الجَنّةِ فتَشْقَى﴾ [طه: 117] (فلم يقل: فتشقَيا)
- ﴿ثمّ نُخرِجُكم طِفلاً﴾ [الحجّ: 5] (فلم يقل: أطفالاً)
- ﴿أوِ الطفلِ الذين لم يَظهَروا على عوْراتِ النساءِ﴾ [النور: 31] (فلم يقل: الأطفال، أو: الذي لم يظهر)
- ﴿إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِهِ لِيَحْكُمَ بينَهمْ﴾ [النور: 48 و51] (فلم يقل: ليحْكما)
- ﴿واجعلْنا للمُتّقِين إماماً﴾ [الفرقان: 74] (فلم يقل: أئمّة)
- ﴿فظلَّتْ أعناقُهمْ لها خاضعِين﴾ [الشعراء: 4] (فلم يقل: خاضعةً)
- ﴿فقُولا إنّا رسولُ ربِّ العالَمِين﴾ [الشعراء: 16] (فلم يقل: رسولا)
- ﴿وكان في المدينةِ تسعةُ رَهْطٍ﴾ [النمل: 48] (فلم يقل: أرهاط)
- ﴿فأخرجْنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها﴾ [فاطر: 27] (فلم يقل: مختلفةً)
- ﴿وهل أتاكَ نبأُ الخصمِ إذْ تَسَوَّروا المحرابَ﴾ [ص: 21] (فلم يقل: تسوّر، أو تسوّرا)
- ﴿نحن جميعٌ منتصِرٌ﴾ [القمر: 44] (فلم يقل: منتصرون)
- ﴿والله يُقدِّرُ الليلَ والنهارَ عَلِمَ أنْ لن تُحصُوهُ فتابَ عليكم﴾ [المزّمّل: 20] (فلم يقل: تُحصوهما)

هذا التداخل بين الأجناس لا يمكن أن يصدر إلّا عمّن خلقها، فالحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل تبهت وتضمحلّ عند من خلق الزمن وعرّفه في القرآن بغير تعريف البشر له. والفوارق بين المفرد والمثنّى والجمع يمكن أن تأخذ أيضاً شكلاً مختلفاً، أو تتداخل أو تتفاعل عند من خلق هذه الأجناس ثمّ ميّز بينها.

التفات العاقل وغير العاقل:

إنّ الحدود اللغويّة المطلوبة في التعبير البشريّ يمكن أن تختفي بين العاقل وغير العاقل عند من يعلم أنّ جميع هؤلاء، بطريقةٍ أو بأخرى، عاقلون، وهو الذي يقول: ﴿وإنْ مِنْ شيءٍ إلّا يُسبِّحُ بحمدِه ولكنْ لا تَفقَهون تسبيحَهم﴾ [الإسراء: 44]، ويقول أيضاً: ﴿وقالوا لجلودِهمْ لِمَ شَهِدْتُمْ علينا قالوا أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كلَّ شيءٍ﴾ [فُصّلت: 21]. وهكذا يتحوّل غير العاقل في كثيرٍ من الآيات إلى عاقلٍ يتكلّم أو يُخاطَب أو يستجيب أو يسجد أو يسبّح لله:

- ﴿وقِيلَ يا أرضُ ابلَعي ماءَكِ ويا سماءُ أَقلِعي﴾ [هود: 44].
- ﴿وأوحى ربُّكَ إلى النحْلِ أنِ اتّخِذي منَ الجبالِ بيوتاً﴾ [النحل: 68].
- ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وسَلاماً على إبراهيمَ﴾ [الأنبياء: 69].
- ﴿ألم تَرَ أنّ اللهَ يَسجُدُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ منَ الناس﴾ [الحجّ: 18].
- ﴿قالت نملةٌ يا أيُّها النمْلُ ادخُلوا مَساكنَكم﴾ [النمل: 18].
- ﴿إنّا عَرضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ﴾ [الأحزاب: 72].
- ﴿ولقد آتينا داوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبي معه والطيرُ﴾ [سبأ: 10].
- ﴿إنّا سَخّرْنا الجبالَ معَه يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشراق﴾ [ص: 18].
- ﴿ثمّ استوَى إلى السماءِ وهِيَ دُخانٌ فقال لها وللأرْضِ ائتِيا طَوعاً أو كَرْهاً قالتا أتَينا طائِعِين﴾ [فُصّلَت: 11].

وهكذا يتداخل في لغة القرآن الكريم استعمال ضمائر العاقل وغير العاقل، فلا نجد في بعض الآيات حدوداً واضحةً بينها، مثلما اعتدنا في لغتنا البشريّة، كما في الآيات التالية:

- ﴿ولا تَنكِحوا ما نَكَحَ آباؤُكمْ مِن النساءِ﴾ [النساء: 22] (فلم يقل: مَن)
- ﴿إنّي رأيتُ أحدَ عشَرَ كَوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهمْ لي ساجدِين﴾ [يوسف: 4] (فلم يقل: رأيتها ساجدة)
- ﴿وهو الذي خَلقَ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ كلٌّ في فلكٍ يَسبَحون﴾ [الأنبياء: 33] (فلم يقل: يسبَح)
- ﴿إلّا على أزواجِهم أو ما ملَكَتْ أيمانُهم﴾ [المؤمنون: 6] (فلم يقل: مَن)
- ﴿أوَليس الذي خَلقَ السمواتِ والأرضَ بقادرٍ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم﴾ [يس: 81] (فلم يقل: مثلها)
- ﴿وقالوا لجلودِهم لمَ شَهدْتُم علينا قالوا أنطَقَنا الذي أنطَقَ كلَّ شيءٍ﴾ [فُصّلت: 21] (فلم يقل: شهدتِ، ولم يقل: قالت، ولم يقل: أنطقني)
- ﴿والسماءِ وما بناها. والأرضِ وما طَحاها. ونفسٍ وما سَوّاها﴾ [الشمس: 5 - 7] (فلم يقل: ومَن)
- ﴿وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأنثى﴾ [الليل: 3] (فلم يقل: ومَن)
- ﴿ولا أنتمْ عابدون ما أعبُد﴾ [الكافرون: 3] (فلم يقل: مَن)

وهذا كلّه نوعٌ من الالتفات اللغويّ، بما يمثّله من خروج على المألوف، وما يحقّقه من التفاتٍ في أذهاننا؛ من المتوقَّع إلى غير المتوقَّع، ومن العُرف والمعهود إلى ما ليس معروفاً ولا معهوداً في لغتنا البشريّة.

التفات النصب:

ولكنّ أكثر ما يشدّنا فيما يمكن انضواؤه في القرآن تحت هذا الفنّ هو ما أستطيع أن أسمّيه (الالتفات النحويّ).

ويتمثّل هذا النوع بشكلٍ خاصٍّ في حالات النصب الطارئة والمفاجئة

للقارئ، وهي حالاتٌ أربكت النحويين على مدى العصور، وحاولوا جهدهم، كما هو شأنهم مع أيّة حالةٍ قرآنيّةٍ مستعصيةٍ مخالفةٍ لقواعدهم البشريّة القاصرة، أن يوجدوا المسوّغات النحويّة لحالات النصب هذه، حتّى إن اضطرّهم الأمر إلى توسيع القاعدة النحوية بحيث تستجيب للوضع الجديد للآية، أو إلى الابتعاد بهذه الآية، أحياناً، عن المعنى المباشر المطلوب، كما فعلوا مع قوله تعالى:

- ﴿لكنِ الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ مِن قبلِكَ والمقيمينَ الصلاةَ والمُؤْتُونَ الزكاةَ والمؤمنون بالله واليومِ الآخِرِ أولئكَ سنُؤتيهِم أجراً عظيماً﴾ [النساء: 162].

فمجيء لفظ (المقيمين) في الآية منصوباً، بين عدّة مرفوعاتٍ قبله وبعده، حاصر النحويّين ولم يدَع أمامهم فضاءً يتحرّكون فيه لتسويغ هذا النصب المفاجئ وغير المتوائم مع قواعدهم البشريّة المحدودة، فكان لهم هذه التسويغات العجيبة التي يسوق لنا الشوكانيّ بعضها:

واختُلِفَ في وجه نصبِه على قراءة الجمهور على أقوال:

الأوّل قول سيبويه إنّه نُصب على المدح: أي: وأعني المقيمين. . .

وقال الكسائيّ والخليل: هو معطوفٌ على قوله (بما أُنزِل إليك) قال الأخفش: هذا بعيدٌ لأنّ المعنى يكون هكذا: ويؤمنون بالمقيمين. ووجّهه محمّد بن يزيد المبرِّد بأنّ المقيمين هنا هم الملائكة، فيكون المعنى: يؤمنون بما أُنزل إليك وبما أُنزِل من قبلِك وبالملائكة.. وحَكَى أنّ النصب على المدح بعيدٌ لأنّ المدح إنّما يأتي بعد تمام الخبر، وخبرُ (الراسخون) هو قوله (أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما).. وقيل: إنّ (المقيمين) معطوفٌ على الضمير في قوله (منهم) وفيه أنّه عطفٌ على مضمرٍ بدون إعادة الخافض[9].

(9) الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير**، مرجع سابق، ج1، ص537. وإن كان لي أن أخوض مع النحويّين خوضاتِهم، في هذه الحالة خاصّةً، من غير أن ينطبق هذا بالضرورة على حالات النصب الأخرى غير العاديّة في القرآن، فأرى أنّ كتابتَها بالياء جاءت =

وبدهيٌّ أن يجد النحويّون في النهاية تسويغاً نحويّاً لكلّ حالات النصب؛ حتّى إن لوَوا، أحياناً، عنق المعنى أو عنق القاعدة، من غير أن يتذكّروا أنّ القرآن نزل قبل قواعدهم، وأنّ أيّة أمّةٍ تُقرّر أن تضع القواعد للغتها لا بدّ أن تنطلق أوّلاً من أقدم وأوّل كتابٍ وُضع بهذه اللغة، فلا تفرض ما تقترحه

= نتيجةً لتقارب لفظ الألف والواو والياء إلى درجةٍ كثيراً ما تتداخل معها هذه الحروف الثلاثة عند العرب. ففي بيئةٍ واحدةٍ كبيئة البلاد الشاميّة مثلاً تقترب الألف من الياء في عامّية الساحل السوريّ واللبنانيّ ومنطقة حلب فتُنطق الألف في ألفاظٍ مثل (رِجال، حِبال، جِمال) بما يقترب من الياء المخفّفة (رْجيل، حْبيل، جْميل) وتقترب الألف من الواو عند أبناء مدن جبلة وطرطوس وطرابلس خاصّةً، فتنطق الألف في كلماتٍ مثل (نهار، مبارَك، صِغار) هكذا بما يشبه الواو المخفّفة (نهور، مبورك، صغور) وكثيراً ما تقترب الياء من الألف عند أهل جزيرة أرواد فتُلفظ في كلماتٍ مثل (زيت وبيت) وكأنّها ألفٌ، هكذا (زات وبات). وتتردّد هذه الظاهرة في كثيرٍ من ألفاظ المنطقة، وعلى الأخصّ عند اجتماع أكثر من حرفٍ منها في كلمةٍ واحدة كما وقع في لفظ (المقيمين) هنا. إنّ هذا كلّه قد يغيّر من لفظ الحروف الثلاثة، في النبر أو المدّ أو الإمالة، تغيّراً قد ينعكس على كتابتها أيضاً عند النسّاخ الأوائل، ولا سيّما أنّ قواعد الإملاء العربيّة لم تكن قد استقرّت بعد في تلك المرحلة المبكّرة جداً من تاريخ الإملاء العربيّ، فكتبوا ألفاظاً في القرآن مثل (الصلاة والزكاة والغداة والحياة والنجاة والرِّبا) هكذا بالواو (الصلوة، الزكوة، الغدوة، الحيوة، النجوة، الرِّبوا)، ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أنّ المسلمين الناطقين بالفارسيّة اليوم يلفظون الألف في مثل هذه الألفاظ، أو في غيرها أيضاً، أقرب إلى الواو. كما تجدر الإشارة هنا إلى أنّ لفظ (المقيمين) قرئ بالواو أيضاً من قِبل الحسن ﷺ ومالك بن دينار وآخرين. وممّا يدعّم وجهة نظرنا هذه عن تداخل لفظ الحروف الثلاثة، ومن ثمّ اختلاط كتابتها عند الكتّاب، ما أورده السيوطي في (الإتقان) عن عروة. قال: سألتُ عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى (إنّ هذان لساحران) وعن قوله تعالى (والمقيمين الصلاة والمؤتُون الزكاة) وعن قوله تعالى (إنّ الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئون) فقالت: يا ابن أخي هذا عملُ الكتّاب، أخطأوا في الكتاب (أي الكتابة). انظر: السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص371. وينقل عبد الخالق عضيمة عن اختلاف القرّاء السبعة في حركة التنوين، بين فتحٍ أو ضمٍّ أو كسر، في حالاتٍ خاصّةٍ من مثل قوله تعالى "فتيلاً" (النساء: 49) و"بأسَ بعضٍ" (الأنعام: 65) و"غيرَ متشابهٍ" (الأنعام: 99) وحالاتٍ عديدةٍ أخرى، وكذلك عن اختلافهم، عند التقاء الساكنين في بعض الحالات، بين تحريك نون (أنْ) بالكسرة أو الضمة، وبين ضمّ لام (قُلْ) أو كسرها، وبين تحريك دال (قد) بالكسرة أو الضمّة. انظر: عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، مرجع سابق، ج4، ص32.

طاقاتها البشريّة المحدودة من قواعد على هذا الكتاب، بل تفرض على نفسها ما يقترحه هو من قواعد. وقد أوجد عملهم هذا ثغرةً كبيرةً في هذا الباب ينفذ منها المستشرقون إلى الطعن في القرآن، فيصدّقهم من يجهل أبسط الأسس في التعامل مع المصادر الأوّليّة الضروريّة في عمليّة تأسيس القواعد النحويّة والإملائيّة لأيّة لغةٍ بشريّة دون استثناء.

وإذا كنّا ندرك أن الواضع الأوّل للّغة، الذي علّم آدم الأسماء والكلمات كلّها، هو الله، فهل نستغرب إذا خرج علينا هذا الصانع الأوّل يوماً بلغةٍ يخالف بها الأعراف التي تواضع عليها البشر، حتّى ذلك الوقت، فيها؟

وحتى لا نغمط النحويّين الأوائل حقّهم علينا أن نعترف بأنّه لم يكن أمامهم، حين بدأوا يضعون الخطوط التفصيليّة لقواعد اللغة العربيّة، إلا خياران لا ثالث لهما: سهلٌ، وصعب. أمّا الصعب، وربّما "المستحيل"، فهو أن يجعلوا القرآن مصدرهم الأوّل الذي يرجعون إليه في وضع قواعدهم، بوصفه، على الأقلّ، أوّل كتابٍ وُضع باللغة العربيّة.

إنّهم كمن يقود سيّارته في طريقٍ معبّد؛ فيعترض طريقه جبلٌ شاهقٌ ووعرٌ يخترقه نفقٌ مخصّصٌ لمرور القطارات، فإمّا أن يتسلّق بسيّارته ذلك الجبل متحمّلاً مشاقّ صعوده ومخاطر مسالكه وصخوره وحُفره، وربّما خطر السقوط عنه، وإمّا أن يختار الطريق الآخر، الصعب ولكن الأقلّ خطورةً، فيَدخل بسيّارته نفقَ القطارات، من غير أن يأبه بما قد يصيبها، ويصيب سكّة القطار أيضاً، من أذىً شديد.

ولأنّ للقرآن لغته الإلهيّة التي يعجز عنها البشر، أو لأقُلْ لغته "المستحيلة" كما أثبتنا حتّى الآن، فمن الخطورة على النحويّين محاولة تسلّق لغته الشاهقة بقواعدهم البشريّة المحدودة القاصرة، وإذن فلم يكن أمامهم إلّا القبول بالأذى الأقل خطورةً، والذهاب إلى الخيار الثاني: الدخول بالآيات في نفق قواعد أعرافهم اللغويّة التقليديّة الجاهزة، والمستمَدّة من الشعر الجاهليّ أوّلاً، حتّى إن لحق الضرر ببعض تلك القواعد، وفي بعض

الأحيان، بمعاني الآيات التي حاولوا أن يُرغموها على الخضوع لتلك القواعد.

ومع هذا فقد فتح النصب غير العاديّ في القرآن آفاقاً واسعةً أمام النحويّين لتفتيق قواعد جديدةٍ أغنت أبواب النصب في النحو العربيّ، ولكنّ اجتهاداتهم في هذا الباب، على كثرتها وغناها، لم تكن كافيةً للإحاطة بطبيعة النصب القرآنيّ. وإلى أن يتوصّل النحويّون، إذا توصّلوا، إلى صيغةٍ نحويّةٍ وإعرابيّةٍ دائمةٍ لهذا النوع من النصب، فإنّنا نقترح، بدلاً من الضياع في المتاهات النحويّة، أن ندخله في أبواب الإعراب تحت اسم (المنصوب القرآنيّ) أو (النصب الالتفاتيّ).

وتتلخّص حالات النصب الالتفاتيّ في القرآن، وهي كثيرةٌ، في النماذج التالية التي تمثّل معظم أنواع هذا النصب وليس كلّها:

- ﴿وهو السميعُ العليمُ. صِبغةَ الله ومَن أحسنُ من اللهِ صِبغةً﴾ [البقرة: 137-138].
- ﴿والمُوفُون بعهدِهم إذا عاهَدوا والصابرين في البأساءِ والضَرّاءِ﴾ [البقرة: 177].
- ﴿خالدِين فيها أبداً وعْدَ اللهِ حقّاً﴾ [النساء: 4].
- ﴿وللنساءِ نصيبٌ ممّا تركَ الوالدان والأقربُون ممّا قلّ منه أو كثُر نصيباً مفروضاً﴾ [النساء: 7].
- ﴿والمُحْصَناتُ من النساءِ إلّا ما مَلَكَتْ أَيمانُكمْ كِتابَ اللهِ عليكمْ وأُحِلَّ لكمْ ما وراءَ ذلكُمْ﴾ [النساء: 24].
- ﴿فآمِنوا خيراً لكمْ﴾ [النساء: 170].
- ﴿قُلْ إنّي هَدانيْ ربّيْ إلى صراطٍ مستقيمٍ دِيناً قِيَماً مِلّةَ إبراهيمَ حنيفاً﴾ [الأنعام: 61].
- ﴿فإنّه رِجْسٌ أو فِسْقاً أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بهِ﴾ [الأنعام: 145].
- ﴿ومِن قبْلِه كتابُ موسى إماماً ورحمةً﴾ [هود: 17].

- ﴿وإنْ[10] كُلّاً لمّا لَيُوفِّيَنّهمْ ربُّكَ أعمالَهمْ﴾ [هود: 111].
- ﴿ولقد جاءتْ رُسُلُنا إبراهيمَ بالبُشرَى قالوا سَلاماً قال سلامٌ﴾ [هود: 69].
- ﴿ذُرّيّةَ مَن حَمَلْنا مع نوحٍ إنّه كان عبداً شَكوراً﴾ [الإسراء: 3].
- ﴿وكلَّ إنسانٍ ألزمْناه طائرَه في عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13].
- ﴿ذلكَ عيسى بنُ مريمَ قولَ الحقِّ﴾ [مريم: 34].
- ﴿إنّ هذه أمّتُكمْ أمّةً واحدةً﴾ [الأنبياء: 92].
- ﴿وما جَعلَ عليكم في الدِينِ مِن حَرَجٍ مِلّةَ أبيكم إبراهيمَ﴾ [الحجّ: 78].
- ﴿وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السحابِ صُنعَ اللهِ الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ﴾ [النمل: 88].
- ﴿فأقِمْ وجهَكَ للدينِ حنيفاً فِطرةَ اللهِ التي فَطَرَ الناسَ عليها﴾ [الروم: 30].
- ﴿إنّكَ لَمِنَ المُرْسَلين. على صراطٍ مستقيمٍ. تنزيلَ العزيزِ الرحيمِ﴾ [يس: 3-5].
- ﴿سلامٌ قَولاً مِنْ ربٍّ رحيمٍ﴾ [يس: 58].
- ﴿ثمّ لَقطعْنا منه الوَتين. فما منكم مِن أحدٍ عنه حاجزِين﴾ [الحاقّة: 46 - 47].
- ﴿كلّا إنّها لَظَى. نزّاعةً للشَوَى﴾ [المعارج: 15 - 16].
- ﴿إنّها لإحدى الكُبَر. نذيراً للبَشَرِ﴾ [المدّثّر: 35 - 36].
- ﴿أيَحسَبُ الإنسانُ أنْ لنْ نَجمَعَ عِظامَهُ. بَلَى قادرينَ على أن نسوّيَ بَنانَهُ﴾ [القيامة: 3 - 4].
- ﴿ومِزاجُه مِن تسنيم. عَيناً يشربُ بها المقرّبون﴾ [المطفّفين: 27-28].
- ﴿فقال لهم رسولُ اللهِ ناقةَ اللهِ وسُقياها﴾ [الشمس: 13].
- ﴿سيَصلَى ناراً ذاتَ لَهب. وامرأتُه حَمّالةَ الحطبِ﴾ [المسد: 3-4].

وقد بذل النحويّون جهوداً فوق التصوّر، ولم يكونوا مضطرّين إلى ذلك أصلاً، لإيجاد مخارج نحويّةٍ تلائم قواعدهم لحالات النصب المحيّرة هذه، فحالفهم الحظّ والمنطق في بعضها، وأخطأهم، كما هو منتظر، في كثيرٍ منها.

---

(10) بتخفيف النون على قراءة نافع.

أمّا أولئك المشكّكون في سماويّة القرآن الكريم، ويدّعون أنّ حالات النصب هذه، أو غيرها من أنواع الالتفات النحويّ واللغويّ، إنّما هي "أخطاءٌ" نحويّةٌ لا أكثر ولا أقلّ، فيكفي لدحض اتّهاماتهم، واتّهامات كلّ متشكّك، أن أعرض ما يلي:

أولاً - القرآن الكريم أقدم من القواعد، بل كان هو الحافز للنحويّين واللغويّين والبلاغيّين على وضع قواعدهم، ومن غير القرآن ما كان لهم أن يضعوا قواعدهم في تلك المرحلة المبكّرة من عمر اللغة العربيّة، فالقرآن هو الرقيب على تلك القواعد، وليست القواعد هي الرقيبة على القرآن.

ثانياً - إذا أخطأ محمّدٌ في القرآن، وهو الذي اعتاد المشكّكون أن يَنسبوا القرآن إليه، فلماذا لم يخطئ في الحديث الشريف؟ وهل كان في حديثه أكثر عنايةً وتنقيحاً منه في قرآنه، مع أنّ حجم حديثه يزيد عشرات الأضعاف على حجم القرآن، وأنَّ حديثه هو حصيلة كلامه اليوميّ والعاديّ والمرتجل مع الناس؟ وهل تَسْلَم لغته من الأخطاء إذا ارتجل، ثم تمتلئ بهذه الأخطاء إذا انفرد إلى نفسه وعكف، بعيداً عن أعين الناس، على تأليف نصٍّ سينسبه بعد قليلٍ إلى إلهه؟

ثالثاً - الأخطاء اللغويّة والنحويّة تقع عادةً في مواقع قد يلتبس أمرها على المبتدئين أو الضعاف في الكتابة أو الخطابة أو النَّظم، فيرفعون مثلاً اسم (إنّ) لو تأخّر مع تَقدُّم شبه جملةٍ عليه، فيقولون: (إنّ فيها سرٌّ) بدلاً من (سرّاً)، ولكن ما من مبتدئ يخطئ فيقول: (الشمسَ مشرقةٌ) هكذا بنصب (الشمس).

إنّ كثيراً من حالات الالتفات النحويّ القرآنيّ أقرب، لو قسناها إلى مقاييسنا النحويّة، إلى حالة (الشمسَ مشرقةٌ) التي لا يمكن أن يخطئ بها حتّى المبتدئ. وأعد النظر إلى هذه الألفاظ في الآيات السابقة: (صبغةَ، وعدَ، نصيباً، كتابَ، خيراً، دِيناً، فِسقاً، إماماً، سلاماً، ذرّيةَ، قولَ، مِلّةَ، صُنعَ، فِطرةَ، تنزيلَ، قولاً، حاجزين، نزّاعةً، قادرين، عيناً، ناقةَ، حمّالةَ) لتتبيّن الإصرار على التميّز والتفرّد اللغويّ لحالات النصب القرآنيّ.

رابعاً - إذا كانت هناك أخطاءٌ حقاً أفلم يكن الشعراء والفصحاء من الصحابة قادرين على تداركها وتصحيحها ثم كتابة القرآن من غيرها، فيصلنا بهذا سليماً معافىً من تلك الأخطاء؟ بل، وهو الأهمّ، أفلم يكن في مثل هذه الأخطاء ما يكفي لصرف أولئك الصحابة عن الدين الجديد الذي "يخطئ" إلهُه في أبسط قواعد الكتابة؟[11]

والنصب ليس هو الظاهرة النحويّة الوحيدة التي فاجأ القرآن بها العرب. فمخالفة القرآن لأعراف العرب النحويّة مبثوثةٌ في كلّ مكانٍ من كتاب الله العزيز، ولكنّ الحديث عن هذه المخالفات، وإحصاءها وتفصيلها وتحليلها، موضعه كتابٌ متخصّصٌ في اللغة أو النحو، وموجّهٌ إلى شريحةٍ محدودةٍ من القرّاء، وليس كتاباً في الإعجاز اللغويّ التجديديّ للقرآن الكريم موجَّهاً إلى عامّة الناس، كما وعدتُ القارئ ووعدت نفسي دائماً أن يكون.

التفات (الحذف والإثبات):

مع أنّ علم التجويد قد وضع إطاراً عامّاً لقراءتنا للقرآن، فإنّه لم يُفسّر لنا كثيراً من الأعراف اللغويّة الجديدة التي سنّها القرآن لنفسه، ولا بد للقارئ المتقِن للقرآن من أن يلتزم بها، غير مكتفٍ في ذلك بالعودة إلى النصّ المكتوب الذي بين أيدينا، بل لا بدّ له من السماع والمناقلة الشفهيّة المتّصلة الرواية حتّى تنتهي إلى الرسول ﷺ. وجانب السماع هذا لا يقلّ أهميّةً عند العلماء في توثيقنا للنصّ القرآنيّ عن جانب التوثيق الكتابيّ، بل قد يفوقه أهمّيةً.

(11) المؤلم في أمر هؤلاء المشكّكين أنّ كثيراً منهم يتحدّث عن هذه "الأخطاء" وهم يجهلون حتّى قواعدنا النحويّة البشريّة أيضاً. وكم أثار سخريتي وإشفاقي معاً ذلك الذي أطلّ علينا من نافذة إحدى الفضائيّات المشبوهة ليسخر من "أخطاء" القرآن قائلاً: تصوّروا أنّ القرآن يقول حيناً، وفي سورةٍ واحدة، (**ليس البرَّ**) بالنصب، ثم يعود فيقول بعد قليل (**ليس البرُّ**) بالضمّ، ثمّ يصرّون بعد ذلك أنّه كتاب الله، فما هذا الإله الذي يُخطئ في اللغة! ولم يدرك هذا الجاهل، وهو ما يدركه حتّى تلاميذ المرحلة الإعداديّة، أنّ الآية الأولى (البقرة: 177) جاء فيها اللفظ (البرَّ) منصوباً لأنه خبرٌ للفعل الناقص ﴿ليسَ البرَّ أن تولّوا وجوهكم..﴾ ولكنّ دخول حرف الجرّ (الباء) في الآية الثانية (البقرة: 189) قلب الأمر فأصبح (البِرُّ) اسماً لذلك الفعل ﴿وليس البِرُّ بأن تأتوا البيوتَ..﴾.

إنّ حذف الياء مثلاً من آخر الكلمة، أو إثباتها، لا يخضع في القرآن لأيّة قاعدةٍ معروفةٍ لدينا، وليس هناك من تفسيرٍ إلّا تأويلات القرّاء واللغويّين التي كثيراً ما تصيب أو تخطئ. وهو نوعٌ عجيبٌ من الالتفات يجعل القارئ منشدّاً باستمرار إلى ما يقرأ، ليفرّق، على مدى قراءته، بين القاعدة التقليديّة للّفظ والعُرف القرآنيّ الجديد.

ولم أحاول إحصاء عدد الحالات التي أسقط فيها القرآن ياء المتكلّم من آخر الكلمة، ولكنّها بالتأكيد حالاتٌ كثيرةٌ خالف فيها الأعرافَ اللغويّة المتداوَلة، فأسقط الياء لفظاً لا تقديراً. ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿فلا تخافوهمْ وخافونِ إن كنتمْ مؤمنين﴾ [آل عمران: 175].
- ﴿أنا أنبّئُكمْ بتأويلِه فأرسِلونِ﴾ [يوسف: 45].
- ﴿لئنْ أخّرتَنِ إلى يومِ القيامةِ﴾ [الإسراء: 62].
- ﴿إنْ تَرَنِ أنا أقلَّ منكَ مالاً وولَداً﴾ [الكهف: 39].
- ﴿إنّ هذه أمّتُكم أمّةً واحدةً وأنا ربُّكمْ فاعبُدونِ﴾ [الأنبياء: 92].
- ﴿قال ربِّ انصُرني بما كَذّبونِ﴾ [المؤمنون: 26 و39].
- ﴿قلْ يا عِبادِ الذين آمنوا اتّقُوا ربّكمْ﴾ [الزُمر: 10].
- ﴿قلْ يا قومِ اعملوا على مكانتِكم إنّي عاملٌ﴾ [الزُمر: 39].

وفي الآيات الأولى والثالثة والرابعة والسابعة والثامنة ردٌّ على من قال إنّ سبب إسقاط الياء في القرآن هو مراعاة السجعة أو الفاصلة في الآيات التي قبلها أو بعدها، فقد وقع الإسقاط هنا في وسط الآيات الخمس (وخافونِ، أخّرتنِ، تَرَنِ، عبادِ، قومِ) وليس في نهايتها، فلا دور للفاصلة إذن في حذف الياء أو إثباتها.

وإذا كانت الياء في الآيات الثماني السابقة ليست من أصل الكلمة (وقد كانت في جميع هذه الآيات ياء المتكلّم) فإنّ الإسقاط كثيراً ما يصيب ياءً أصليّة، ومّما لا تُختم به الآية أيضاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿واستمع يوم ينادِ المُنادِ مَن مكانٍ قريب﴾ [ق: 41].
- ﴿قال ذلكَ ما كنّا نبغِ فارتدّا على آثارِهما قَصَصا﴾ [الكهف: 64].

ولا أكاد أعرف مثل هذا الإسقاط في أيٍّ من نصوصنا التراثيّة، الشعريّة أو النثريّة، ولا سيّما الياء الأصليّة حين تقع في وسط العبارة. والشاهد الوحيد الذي عثرت عليه جاء في بيتٍ لشاعرٍ نجهل عصره وإن قيل إنّ له قصّةً مع الشاعر الأمويّ الفرزدق (ت110هـ)، وهومُضَرِّس بن رِبعِيّ الأَسْديّ:

وطِـرْتُ بـمُـنْـصُـلـيْ فـي يَـعْـمَـلاتٍ

دَوامــي الأيْــدِ يَــخْــبِــطْــنَ الــسَّــرِيــحــا

والشاهد هو في إسقاطه الياء من (الأيدي) وهذا إسقاطٌ استدعته ضرورة الوزن، وهو ممّا تبيحه الضرورات الشعريّة للشاعر. علماً أنّ للبيت روايةً أخرى تخلو من هذه الضرورة: (خِفافُ الوَطْءِ يَخْبِطْنَ الَّسريحا) فيسقط بذلك الشاهد فيه.

وبإمكاننا أن نتصوّر الوضع المحيّر لهذا الجانب الالتفاتيّ في القرآن، بما يتضمّنه من التفاتٍ من العرف إلى غير المتعارف عليه، لو عرفنا إلى أيّ مدىً تتجاور وتتداخل حالات الحذف والإثبات، دون أي تفسيرٍ نهائيٍّ بين أيدينا لأسباب حذف هذه أو إثبات تلك، وذلك من خلال النموذج التالي المقتطع من سورة (الكهف):

- ﴿قال له موسى هل أتّبعُكَ على أنْ تُعلّمَنِ ممّا عُلِّمْتَ رُشْدا (66). قال إنّكَ لن تستطيعَ معيَ صَبْراً (67). وكيف تَصْبِرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً (68). قال ستجدُني إن شاءَ اللهُ صابراً ولا أعصيْ لكَ أمْراً (69). قال فإنِ اتّبعتَني فلا تسألْني عن شيءٍ حتّى أُحْدِثَ لكَ منه ذِكْراً (70)﴾.

فقد حُذفت الياء، كتابةً ولفظاً، في الآية (66) فقال (تعلّمنِ)، وقد سبق أن حُذفت قبلها في الآية (64) أيضاً، كما رأينا قبل قليل، ولكنّها أُثبتت في الحالات الأربع الأخرى التي تلت في الآيتين (69 و70): (ستجدني، أعصي، اتّبعتني، تسألني). وإذا استطعنا تعليل بقاء الياء في الفعل (ستجدني)

بأنّها جاءت في الآية متلوّةً بهمزة (إنْ) فقواعد التجويد تقتضي مدّ الياء قبل الهمز فلزم عدم حذف هذه الياء، فليس لدينا ما نعلّل به بقاءها في الأفعال الثلاثة الأخرى.

وقارن بين الفعل (يَهديني) في كلٍّ من الآيتين الكريمتين التاليتين لترى كيف حذفت ياؤه في الأولى، كتابةً ولفظاً، ولم تُحذف في الثانية، ومن غير أيّ سببٍ ظاهر فيما عدا أنّهما أنزِلتا هكذا:

- ﴿وقل عسى أن يَهدِينِ ربّي لأقربَ مِن هذا رَشَداً﴾ [الكهف: 24].
- ﴿قالَ عسَى ربّيْ أنْ يَهْديَنيْ سَواءَ السبيلِ﴾ [القَصص: 22].

ويتكرّر النموذج نفسه مع الفعل (اخشَوني) في آيتين أخريين، وقد جاء في إحداهما بالياء، لفظاً وكتابةً، وفي الأخرى من غيرها:

- ﴿إلّا الذين ظَلَموا منهمْ فلا تَخشَوهمْ واخشَوني﴾ [البقرة: 15].
- ﴿اليومَ يئس الذين كفروا مِن دِينِكمْ فلا تَخْشَوهم واخشَونِ﴾ [المائدة: 3].

ولكنّ الأغرب من هذا أن يصيب الإسقاطُ الواوَ أيضاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿فتولَّ عنهمْ يومَ يدعُ الداعِ إلى شيءٍ نُكُر﴾ [القمر: 6].
- ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَه. سَنَدْعُ الزَبانِيَه﴾ [العلق: 17 - 18].

وقد يقال إنّ الإسقاط الكتابيّ هنا كان مراعاةً للإسقاط اللّفظيّ؛ إذ تختفي الواو لفظاً في قراءتنا لكلٍّ من الآيتين بسبب وجود ألف الوصل بعدها فنقرأها هكذا (يَدْعُد - سَنْدعُز) ولكنّ الياء، شأنها شأن الألف أو الواو، لم تكن لتختفي لفظاً، في معظم الآيات الأخرى التي أُسقطت فيها، لو لم تختفِ كتابةً أيضاً.

ومن خلال مقارنةٍ سريعةٍ بين ثبوت الياء كتابةً في الفعل (نبغي) في قوله تعالى:

- ﴿ولمّا فَتحوا مَتاعَهمْ وَجدوا بِضاعتَهُمْ رُدَّت إليهمْ قالوا يا أبانا ما نَبغي هذه بِضاعتُنا رُدَّتْ إلينا﴾ [يوسف: 65]

وبين حذفها في الفعل (نبغِ) في آية سورة (الكهف) التي وردت قبل قليل؛ من السهل أن نتبيّن خروجَ القراءة القرآنيّة، وأحياناً الكتابة القرآنيّة، عن الالتزام بقاعدةٍ ثابتةٍ معروفةٍ تنضوي تحتها جميع الحالات اللغويّة المشابهة.

ومع كثرة حالات الحذف هذه في القرآن وتوزّعها على مختلف السوَر؛ فإنّها تكاد تقتصر على الأسماء والأفعال المضارعة، وقلّ أن يلحق الحذف الفعلين الماضي والأمر ولكنّه موجودٌ مع ذلك، كما في الفعلين (وخافونِ، كذّبونِ).

هذه الظاهرة تأخذ شكلاً بارزاً في سورة (الكهف) فيقع فيها الحذف ستّ مرّاتٍ. وعلى عادة القرآن الكريم في كثير من ظواهره اللغويّة، تتساوى في السورة حالات الحذف وحالات الإثبات للياء في الأسماء وأفعال المضارع، فنجد ستّ حالاتٍ للحذف في: (فهو المهتدِ - أن يَهديَنِ ربّي - إنْ تَرَنِ أنا - أنْ يُؤتِيَنِ خيراً - ما كنّا نبْغِ - على أنْ تُعلّمَنِ) مقابل ستّ حالاتٍ للإثبات في: (ستجدني إن شاءَ الله - ولا أعصي لكَ - فلا تسْألْني - لا تُؤاخِذْني - ولا تُرهقْني - فلا تُصاحبْني).

ولكنْ ما هو أغرب من ظاهرة حذف الياء أن يصيب الإسقاط حرفَ الألف أيضاً، كما في قوله تعالى، وقد حُذفت الألف كتابةً ولفظاً من الفعل (حاشا):

- ﴿فلمّا رأيْنَه أكْبَرْنَهُ وقَطّعْنَ أيْديَهُنَّ وقُلْنَ حاشَ للهِ ما هذا بشراً إنْ هذا إلّا مَلَكٌ كريم﴾ [يوسف: 31].

مع إقرارنا بأنّ (حاشَ) القرآنيّة، وقد وردت في الكتاب الكريم مرّتين فقط كلتاهما في هذه السورة، قد اختلفت عن (حاشا) في لغتنا البشريّة، سواءٌ في معناها أو في عملها.

وفي آيةٍ أخرى من سورة (الكهف) تحذف الألف لفظاً من غير أن تُحذَف

كتابةً كما في اللفظ (لكنّا) من قوله تعالى:

- ﴿لكنّا هو اللهُ ربّي ولا أُشْرِكُ بربّي أَحدا﴾ [الكهف: 38]

وقد تثبت في مواضع أخرى كتابةً من غير إثباتها لفظاً، كما في اللفظين (سلاسلا) و(قواريرا)، من قوله تعالى:

- ﴿إنّا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيراً﴾ [الإنسان: 4].

- ﴿وأكوابٍ كانتْ قواريرا. قواريرا مِن فضّةٍ﴾ [الإنسان: 15 - 16].

وهذا يعني عدم تلازم الحذف اللفظيّ بالضرورة مع الحذف الكتابيّ. ولا أعرف لمثل هذه الأنواع من الحذف، ولا سيّما في دَرَج الكلام، شبيهاً في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث الشريف، ولا في أيّة صفحةٍ أخرى من سجلّ تراثنا العربيّ حتى اليوم.

لقد تردّدت كثيراً قبل أن أُدرج هذه الظواهر الأخيرة تحت باب الالتفات، والحقّ أنّها أدخَلُ في باب الالتفات اللغويّ المحض، أو الفكريّ، منها في باب الالتفات البلاغيّ، ولكنّها تحقّق في النتيجة ما يحقّقه الالتفات الفنّيّ من حركةٍ في النصّ المقروء، حين "تَلفِتُ" القارئ فجأةً وتهزّه بالتغيير، فتنقله من حالةٍ راتبةٍ مستسلمةٍ ومنسجمةٍ مع العرف أو القاعدة؛ إلى حالةٍ طارئةٍ لم يكن يتوقّعها. إنّها انتقالةٌ من المتوقَّع إلى غير المتوقَّع، وهو انتقالٌ يكسر الرتوب الذي يؤدّي بالقارئ إلى الخَدَر وربّما إلى الشرود عمّا يقرأ.

وبمثل هذه الفلسفة يدافع النقّاد المحدثون اليوم عن ثورة التحرّر من القافية الموحّدة والرويّ الواحد، والخروج في أوزان الشعر الحديث عن قواعدها الخليليّة ورتوبها وعن الالتزام الصارم بعدد تفعيلاتها[12].

---

(12) راجع فصل (الأنواع العروضيّة الحديثة) من كتابنا:

- ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية**، مرجع سابق.

مواقع الالتفات في (المدّثّر):

ولو فتّشنا عن جوانب الالتفات الجديدة هذه، بأنواعها المختلفة، في أوائل السوَر التي تنزّلت من السماء، والتي اخترنا منها لبحثنا سورة (المدّثر)، فسوف نتوقّف عند خمسة عشر موقعاً على الأقلّ تتوزّع بين أنواعٍ شتّى من هذا الفنّ، وهي:

- ﴿فقال إنْ هذا إلّا سِحرٌ يُؤْثَر. إنْ هذا إلّا قَولُ البَشَر. سأُصْلِيه سَقَر﴾ (التفات الحوار: انعطف الحديث فجأةً من الوليد بن عُتبة، وهو يُصدر أحكامه على القرآن، إلى الله تعالى وهو يصدر حكمه الإلهيّ على الوليد: سأُصْليه سَقَر).
- ﴿فذلكَ يومَئِذٍ يومٌ عسير. على الكافرين غيرُ يَسير. ذَرْني ومَن خَلَقْتُ وحِيدا﴾ (التفات الزمن: انتقل من الحديث عن الزمن المستقبل، يوم الحساب، إلى الزمن الحاضر: ذَرْني "الآن"، وكأنّ "ذلك" اليوم قد أصبح "هذا" اليوم).
- ﴿ثمّ يطمعُ أن أزيد. كلّا إنّه كان لآياتِنا عنيدا﴾ (التفات الخطاب: انتقل الخطاب من المتكلّم المفرد: أزيد، أنا، إلى جمع المتكلّمين: لآياتنا، نحن، رغم أنّ المتكلّم هو الله تعالى في الحالين).
- ﴿كلّا إنّه كان لآياتِنا عنيدا. سأُرهِقُهُ صَعودا﴾ (التفات الخطاب: عاد الخطاب من جمع المتكلّمين: لآياتنا، نحن، إلى المتكلّم المفرد: سأرهقه، أنا، رغم أنّ المتكلّم هو الله تعالى في الحالين).
- ﴿سأُصلِيْه سَقَر... وما جعلنا أصحابَ النار إلّا ملائكةً﴾ (التفات الخطاب: انتقل الحديث من المفرد المتكلّم: أُصليه، أنا، إلى جمع المتكلّمين: جعلنا، نحن، رغم أنّ المتكلّم هو الله تعالى في الحالين).
- ﴿ولِيقولَ الذين في قلوبِهِمْ مرضٌ والكافرون ماذا أرادَ اللهُ بهذا مثلاً. كذلكَ يُضِلُّ اللهُ من يشاء﴾ (التفات الحوار: انتقل الحديث من ضفّةٍ إلى الضفّة المقابلة، وذلك بالانتقال من حديث الكافرين عن الله إلى حديث الله عنهم).

- ﴿كذلكَ يُضِلُّ اللهُ من يشاءُ ويَهدي من يشاء وما يَعلمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هو﴾ (التفات الخطاب: انتقل من الغائب، المجرّد من الضمير: الله، هو، إلى الغائب المسند إلى المخاطَب: ربّك، وقد توقّعنا أن يقول: جنوده).
- ﴿وما يعلمُ جنودَ ربِّكَ إلّا هو. وما هي إلّا ذكرى للبشَر﴾ (التفات الجنس: أعاد ضمير المؤنّث (هي) على مذكّر (القرآن أو الإسلام)، أو على غير مذكورٍ على الأقلّ، وقارن هذا مع الآية 54 في السورة حيث ذكّر الضمير: كلّا إنّه تذكرة).
- ﴿والليلِ إذْ أدبَر. والصبحِ إذا أسفَر﴾ (التفاتٌ لفظيّ: توقّعنا أن تتكرّر "إذ" في الآية الثانية توازياً مع الأولى، ولكن، خلافاً لتوقّعاتنا، تحوّل السياق إلى "إذا").
- ﴿إنّها لَإحدى الكُبَر. نذيراً للبَشَر﴾ (التفات النصب: ظهر النصب في غير موقعه النحويّ المعتاد).
- ﴿نذيراً للبشَر. لِمَن شاء منكمْ أنْ يَتقدّمَ أو يتأخّر﴾ (التفات الخطاب: انتقل من جمع الغائبين: البشر، هم، إلى جمع المخاطَبين: منكم، أنتم، فلم يقل: منهم).
- ﴿كلُّ نفْسٍ بما كَسَبَتْ رهينة. إلّا أصحابَ اليمين. في جنّاتٍ يتساءلون﴾ (التفات الزمن: انتقل الحديث من الزمن الحاضر، المسؤوليّة في الحياة الدنيا: بما كسبت رهينة، إلى مشهدٍ قادمٍ في اليوم الآخِر: يتساءلون في الجنّات).
- ﴿يتساءلون عن المجرمين. ما سلككم في سَقَر﴾ (التفات الخطاب: انتقل من جمع الغائبين: هم، المجرمين، إلى جمع المخاطَبين: ما سلككم، أنتم؟ فلم يقل: ما سلكهم؟).
- ﴿حتّى أتانا اليقين. فما تنفعُهمْ شفاعةُ الشافعين﴾ (التفات الخطاب: انتقل من جمع المتكلّمين: أتانا، نحن، إلى جمع الغائبين: تنفعهم، هم، ولم يقل: تنفعنا).
- ﴿فما تَنفعُهمْ شفاعةُ الشافعين. فما لهمْ عنِ التَذكِرةِ مُعْرِضِين﴾ (التفات

عكسيٌّ في الزمن: انتقل الحديث من الزمن المستقبل، حين لا تنفعهم شفاعةٌ يوم الحساب، عائداً إلى الزمن الحاضر: فما لهم "الآن" مُعْرِضين؟).

إنّ وجود خمسة عشر موقعاً للالتفات، على الأقلّ، وبأنواعٍ مختلفة، في سُورةٍ صغيرةٍ ومبكّرة النزول مثل (المدّثّر)، دلالةٌ واضحةٌ على حجم هذه الظاهرة الفنيّة وأهمّيتها بين الظواهر الجديدة التي فاجأ بها القرآن العرب، ودلالةٌ على حجم الصدمة اللغويّة والبلاغيّة التي تلقّاها العربيّ الجاهليّ وهو يستمع إلى كلمات الوحي أوّل مرّة.

الفصل الثالث

اللغة المنفتحة في القرآن الكريم

كان من أهمّ الجوانب اللغويّة الأخرى التي اخترق بها القرآن الكريم المؤسّسة الشعريّة العربيّة ثمّ ترك فيها آثاراً لا تُمحى؛ ذلك النوعُ الجديد من اللغة ذات الأبعاد المتعدّدة والطبيعة المرنة التي تترك اللفظة أو التركيب أو العبارة القرآنيّة مفتوحةً لعديدٍ من الاحتمالات.

وكانت هذه المرونة اللغوية عنصراً هامّاً في أيدي المسلمين يفهمون به القرآن في كلّ عصرٍ تِبعاً لعلوم ذلك العصر وتَقدُّم مكتشفاته العلميّة وتطوّر ظروفه الاجتماعيّة والسياسيّة والحضاريّة، وهو ما أعطى التشريع القرآنيّ، ومن ثمّ الفقه الإسلاميّ، قوّة الاستمرار على توالي العصور، وعلى تلوّن البيئات الزمانيّة والمكانيّة والثقافيّة.

وقد تنبّه القدماء إلى أهمّية هذا الجانب الإعجازيّ في لغة القرآن الكريم، وإلى تفرّد القرآن بهذا النوع من اللغة، وأنّها ليست في لغة البشر. ويورد السيوطي مجموعةً من أقوالهم في هذا الباب، منها:

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن، حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقلّ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر..
وذكر مقاتلٌ في صدر كتابه حديثاً مرفوعاً (لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة)..
وأخرج ابن سعد من طريق عِكرِمة عن ابن عبّاس: أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أرسله إلى الخوارج، فقال: (اذهب إليهم فخاصمهم،

ولا تُحاجِّهم بالقرآن فإنّه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسُنّة)[1].

اللغة الشعريّة واللغة المنفتحة:

وكثيراً ما تُنسب اللغة الانفتاحيّة إلى الشعر، فيقولون حيث يجدونها إنّها "لغةٌ شعريّة". والحقّ أنّ الشعر إنّما قَبس شُعلتهَا الأولى من القرآن، وربّما من الكتب السماويّة الأخرى أيضاً .فاللغة المنفتحة أو المشعّة ذات الظلال والألوان خَصيصةٌ هامّةٌ في لغة السماء، ولا سيّما في الأمور التشريعيّة التي تحتاج إلى أن تُفهم بأكثر من طريقةٍ تِبعاً لاختلاف العصور والأمصار، وكذلك في وصف الأمور الغيبيّة، تلك التي ترتفع فوق مستوى التفكير البشريّ.

ويكاد يكون هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات مبثوثاً في آيات ما يطلق عليه مصطلح (المتشابه) من القرآن، ولكن ليس في (المُحْكَم) من آيات العقيدة والتوحيد، وقليلاً ما يَرد في آيات الأمر والنهي والإخبار.

إنّ من السهل على المفسّرين أن يختلفوا مثلاً في معنى اللفظ القرآنيّ المنفتح (الصَمَد) في سورة (الإخلاص): (اللهُ الصَمد) لأنّ معانيه المحتمَلة، على تعدّدها، لا تخرج به عن جوهر التوحيد، ولكن لا مجال للاختلاف أو لتعدّد الاحتمالات فيما يسبقه أو يليه من ألفاظٍ وتعبيرات: (أحد، لم يلد، ولم يولَد) لأنّ الأمر هنا دخل في صُلب التوحيد ولا يتحمّل الجدل أو تعدُّد الآراء، مهما توالت العصور واختلفت الأمكنة وتنوّعت الثقافات.

ولتوضيح ما أريد بـ"اللغة المنفتحة" أذكر ما وقع لي حين سمعتُ أحدهم يترجم عبارة (الله أكبر) إلى *Allah is great* فطلبت إليه؛ إذ لم أكن مقتنعاً بهذه الترجمة، أن يبحث عن عبارةٍ إنجليزيّةٍ أكثر دقّةً، فكان أن ترجمها إلى *Allah is the greatest* .

والحقّ أنّ معظم المترجمين دأبوا على ترجمة هذه العبارة الإسلاميّة الفريدة إلى إحدى هاتين العبارتين. وحين طلبت من صديقنا أن يعيد ترجمة

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص283.

العبارتين الإنجليزيّتين، حرفيّاً، إلى العربيّة، فوجئ بأنّهما أصبحتا هكذا: (الله كبيرٌ) و(الله هو الأكبر). إنّ أيّاً من الجملتين لم تكن ترجمةً دقيقةً لـ (الله أكبر) لأنّ اللفظ (أكبر) يقابله الكلمة الإنجليزيّة *Greater* وإذن فالترجمة الصحيحة لهذه العبارة هي *Allah is greater*.

واعترض صديقنا، كما كنت أتوقّع، بأنّ هذه الكلمة الإنجليزيّة لا تأتي هكذا منفردةً من غير أن تتلوها الأداة *Than* التي تعني (مِن)، فذكّرته بأنّ الأمر كذلك في العربيّة أيضاً، كما في سائر اللغات، فنحن نقول:

أكبر من إخوته

أصغر من النملة

أفقر من جاره

أجمل من بقيّة الحيوانات

أحلى من العسل.

ولكنّ الإسلام ترك العبارة هكذا مفتوحةً، مع مخالفتها لأعرافنا اللغويّة، ليتخيّل قارئها بعدها ما شاء من أشياء:

الله أكبر... من كلّ شيء

الله أكبر... من أيّ حزن

الله أكبر... من أيّ فرح

الله أكبر... من أيّ همّ

الله أكبر... من أيّة شهوة

الله أكبر... من أيّ آخذٍ

الله أكبر... من أيّ مُعطٍ

الله أكبر... من أيّ ظالم... إلخ.

ولو قال (الأكبر) أو (كبير) بدلاً من (أكبر) لانغلقت العبارة وتوقّفت عند انتهاء ألفاظها ولم تُتِح لنا أيّة مسافةٍ للمناورة يتنفّس فيها خيالنا أو تتحرّك خلالها أفكارنا.

والغريب أنّ العرب والمسلمين أنفسهم، وبحكم الألفة، لم يعودوا يرون في هذه العبارة، وهي الأشهر في العالم ارتباطاً بالدّين الإسلاميّ، ما يخرج بها عن العرف اللغويّ عندهم، حتّى غدتْ في مفهوم المسلمين أنفسهم لا تعدو أن تكون بمعنى (الله كبير) أو (هو الأكبر)، فيردّدونها باستمرار بوصفها عبارةً مغلقة، لا عبارةً متميّزةً منفتحةً تذكّرهم بأنّ الله قد ترك لهم أن يملأوا الفراغ بعدها بما يتطلّبه واقعهم وتمليه مشكلات حياتهم اليوميّة، فيستندون إلى هذه العبارة مؤكّدين لأنفسهم أنّه تعالى أقوى وأعظم وأرحم وألطف ممّا وممّن يواجهونه في حياتهم من مصاعب ومغرياتٍ وأفراحٍ وأتراح. ولن نلوم المترجمين بعد ذلك، وقد تحولت العبارة في أذهان المسلمين إلى عبارةٍ مغلقة، لو ترجموها خطأً إلى أيٍّ من ذَينِك اللفظين. لقد أفقدتْنا الألفةُ حقّاً قدرتَنا على الإمساك بأجمل ما في هذه العبارة من جدّةٍ وتفرّدٍ وانفتاح.

اللغة المنفتحة في الكتب السماويّة:

لم يعرف العرب هذا النوع من "اللغة الشعريّة" قبل الإسلام، وكلّ ما في الشعر الجاهليّ من ثنيّاتٍ لغويّةٍ تدعو إلى إعمال الفكر وتقليب الخيال كان بعضَ الكلمات الوحشيّة التي قد تتطلّب العودة إلى القواميس لشرحها، أو ألفاظاً ومصطلحاتٍ جاهليّةً مرتبطةً بأحداثٍ محلّيّةٍ أو ظواهر بيئيّةٍ نحتاج معها إلى إلمامٍ ببيئة الجزيرة العربيّة وتاريخها وجغرافيّة أرضها. ولكنّنا لن نجد في هذا الشعرِ أيّة ألفاظٍ أو تعبيراتٍ يمكن أن تُفهم بأكثر من وجه.

أمّا النصوص السماويّة الأخرى، التوراة والإنجيل، فمن السهل أن نجد فيها مثل هذا النوع من اللغة المنفتحة، ولكنّنا عاجزون عن الخروج بحكمٍ موضوعيٍّ سليمٍ عنها؛ إذ إنّ معظم نصوصها التي بين أيدينا يرويها بشرٌ، أو أنبياءٌ على أبعدِ تقدير، وتندر فيها النصوص التي يتحدّث فيها الله بنفسه، فهي إذن، على الأغلب، ليست لغة السماء بحرفيّتها، بل تفسيرٌ لها في أفضل الأحوال.

ثمّ إنّنا، من ناحيةٍ أخرى، لا نملك تلك النصوص السماويّة بلغتها الأصليّة التي أُنزِلت فيها، فالترجمة، مهما كانت دقيقةً، ما هي إلّا تفسيرٌ شخصيٌّ يعبّر، بمحدودية، عن وجهة نظر المترجِم فيما يترجمه، كما أنّ الترجمات كثيراً ما تضطرب بين يدَي المترجم، ولا سيّما إذا كان من الدقّة والموضوعيّة والإخلاص بحيث يعجز عن وضع ما غمُض عليه من النصّ في لغةٍ علميّةٍ دقيقةٍ واضحة، فيعمد إلى أسلوبٍ محيَّرٍ يُشيع في الترجمة غموضاً يقترب بها ممّا قد نظنّه اللغة المنفتحة.

أضف إلى ذلك ما تسبّبه الفوارق النحويّة واللفظيّة والثقافيّة بين اللغات من صعوبةٍ أمام من يترجمها وهو يحاول أن ينقل المعنى من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى لها قوانينها وثقافتها وأعرافها المختلفة.

إنّ من حقّنا مثلاً أن نتردّد في الحكم على عبارةٍ توراتيّةٍ غامضةٍ مثل "أسّستَ حَمْداً بسببِ أضدادِكَ"[2] بأنّها عبارةٌ منفتحةٌ، إذا عرفنا أنّ العبارة نفسها في النسخة الإنجليزيّة جاءت في غاية الوضوح: Thou ordained strength because of thine enemies[3].

وترجمتُها - وهي ترجمةٌ شخصيّةٌ لي أيضاً لها ما للترجمات الشخصيّة من مساوئ - : "لقد أكسبكَ أعداؤكَ قوّةً"[4].

ونحن لا نواجه مثل هذه المشكلة مع القرآن الكريم الذي يتكلّم الله تعالى فيه بنفسه من أوّل آيةٍ فيه إلى آخر آية، ثمّ إنّ بين أيدينا نصّه الأصليّ الأوّل كما هو، من غير المرور بلغةٍ وسيطةٍ أو أكثر كما هو الحال مع بقيّة الكتب السماويّة.

---

(2) مزامير: 8: 2. نسخة دار الكتاب المقدّس في العالم العربيّ، 1981.

(3) انظر:

- *The Holy Book,. King James Version. Collins' Clear-Type Press, London:1950*

(4) جاءت ترجمة العبارة في نسخة (دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، لبنان: 2004) هكذا: "**تعزّزتَ في وجهِ خصومِك**" وهي أقلّ غموضاً، كما هو واضح، من عبارة النسخة العربيّة الأخرى، ولكنّها، أيضاً، أكثر غموضاً من النصّ الإنجليزيّ.

اللغة المنفتحة في الحديث النبويّ:

وأغلب الظنّ أن لغة السماء، في أيّ كتابٍ نزلت، وربّما لغة الأنبياء في بعض الأحيان، لا بدّ أن تمتاز بهذا الأسلوب المنفتح، لأسبابٍ عديدةٍ لعلّ أهمّها الحفاظ على استمرار النصّ الدّيني، الإلهيّ والنبويّ، حيويّاً وفاعلاً في رحلته الطويلة والبعيدة وهو يخترق الأزمنة والأمكنة والثقافات المختلفة.

ومن السهل أن نجد في الأحاديث النبويّة الكثير من الأمثلة على ذلك، وليس بعيداً عن ذاكرتنا حديث صلاة العصر في بني قريظة الذي اختلف الصحابة في تفسيره، والرسول ما يزال بين ظهرانَيهم، فنفّذوه كلٌّ كما فهمه، ثم لم يعترض الرسول ﷺ على أيٍّ من تفسيراتهم المتباينة:

- "عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ لنا لمّا رجَع من [غزوة] الأحزاب: لا يُصلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلّا في بني قُريظة [منطقة اليهود في المدينة ممّن خانوا العهد وطعنوا المسلمين في الظهر أثناء المعركة]. فأدرك بعضُهم العصرَ في الطريق فقال بعضُهم: لا نصلّي حتّى نأتيَها [أي لا نصلّي إلّا في منطقتهم حتّى لو فاتنا وقت الصلاة]، وقال بعضُهم: بل نصلِّي، لم يُرَد منّا ذلك [أي أراد الرسول استعجالنا للوصول إليهم وليس تأخير صلاة العصر عن وقتها]. فذُكِر [ذلك] للنبيّ ﷺ فلم يُعنّف واحداً منهم"[5].

لقد كانت موافقة الرسول ﷺ لهم، على تباعد تفسيراتهم، إشارةً واضحةً إلى وجود هذا النوع من اللغة المرنة في النصّ المقدّس، إلهيّاً كان أم نبويّاً، وكان سكوته عنهم تأكيداً منه ﷺ على المسلمين بأهمّية وجود هذا النوع من اللغة في التشريع الدينيّ، والذي ينتج عنه بالضرورة اختلاف تفسيرهم لهذه اللغة، ومن ثمّ اختلافٌ في فهم بعض الأحكام الفقهيّة، كما حدث بعد ذلك حقّاً على مدى التاريخ الإسلاميّ، ممّا يدخل فيه بعد ذلك جوانب فقهيّةٌ انفتاحيّةٌ هامّةٌ عُرفت بعلوم (المُحكَم والمتشابه) و(المُجمَل والمُبيَّن) و(العامّ والخاصّ).

وكذلك انتقلوا في تفسير النصّ الدينيّ من خصوص اللفظ أو المناسبة

---

(5) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير الناصر، بيروت: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج2، ص15.

إلى عموم المعنى، وربّما العكس، بحيث استطاعت الشريعة الإسلاميّة أن تلبّي مقاصد الحياة المتجدّدة، فظلّت بهذا قويّةً وحيّةً ومتفاعلةً مع الأحداث والحياة المتطوّرة على مرّ الزمان وتباعد المكان واختلاف الطبائع والثقافات.

انفتاحيّة الأسلوب الفكريّ للقرآن:

ولا تقتصر الصفة الانفتاحيّة في القرآن الكريم على اللفظ أو العبارة أو الجملة، بل تشمل البناء التعبيريّ والفكريّ الكامل للقرآن الكريم.

لقد كان من أهمّ أسرار استقطاب القرآن لأقلام الكتاب والدارسين والمحلّلين على مدى القرون، منذ نزوله من السماء، العنصر الانفتاحيّ الفكريّ فيه. ويقوم عرض القرآن الكريم لكثيرٍ من القصص والأحداث على هذا العنصر المنفتح بحيث حافظ على باب التأويلات والاجتهادات والتحليلات للأفكار والأحداث مفتوحاً على الزمن.

فحين يتحدّث القرآن الكريم، مثلاً، عن العدد الحقيقيّ لأصحاب الكهف يترك ذلك العدد متحرّكاً سابحاً في فضاء الزمن من غير أن يضع له حدوداً نهائيّة. فهل كان عددهم ثلاثةً أم خمسةً أم سبعةً، أو أكثر أو أقلّ؟

- ﴿سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبُهم رجماً بالغيبِ ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبهم قلْ ربّي أعلمُ بعِدّتِهم ما يعلمُهم إلّا قليلٌ﴾ [الكهف: 22].

وكان من المتوقّع - بشريّاً - في هذه الآية أن تَختصر القول فيهم، فتَذكر عددهم وتريحَنا من تخمينات المخمّنين، ولكنّها، بعد أن قدّمت هذا العرض المفصّل من التخمينات، تركتنا من غير إجابةٍ نهائيّةٍ عن العدد الحقيقي لأفراد تلك العصبة.

هذا الأسلوب يميّز بوضوحٍ وإلحاحٍ الخطّ العامّ لعرض الفكرة في القرآن الكريم، كما في الآيات التالية:

- ﴿وما قتلوه وما صلبوهُ ولكنْ شُبِّهَ لهم﴾ [النساء: 157].

فلا تشرح لنا الآية كيف شُبِّه المسيح لهم وماذا حصل بالضبط ساعة الصّلب؟

- ﴿والزّيتونَ والرُّمّانَ متشابهاً وغيرَ متشابهٍ﴾ [الأنعام: 141].

فلم تفصّل الآية طبيعة اجتماع التشابه وعدم التشابه في الوقت نفسه؟

- ﴿فأسْرِ بأهلِكَ بقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتفِتْ منكمْ أحدٌ إلّا امرأتَكَ إنّه مُصِيبُها ما أصابَهم﴾ [هود: 81].

فلم تحدّد الآية ما إذا كانت امرأة لوطٍ من الباقين بعد لوطٍ، أم من السّارِين معه ممّن التفتوا وراءهم، أم أنّها هلكت لسببٍ آخر؟

- ﴿يومَ نطوي السّماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104].

فاختلف المفسّرون: ما حقيقة السجلّ وما طبيعة الكتب وكيف يكون الطيّ؟

إنّ هذا الأسلوب الانفتاحيّ للآيات قد جنّبها التسطّح والانبساط والمحدوديّة ومنحها عمقاً لا قرار له من التقديرات والتصوّرات والتأويلات المحتمَلة.

وبإمكاننا تقدير أهمّية هذا الجانب الأسلوبيّ لو توقّفنا عند أيّ نصٍّ نثريٍّ بشريٍّ، من مقالةٍ أو رسالةٍ أو قصّة أو غير ذلك، لنرى إلى أيّ مدىً يمكن أن ينفتح للتأويلات، إن حدث أن كان هناك أيّ فسحةٍ للاختلاف على تفسيره، وكم من السنين يمكن أن تمتدّ تلك المحاولات قبل أن تتوقّف لتستقرّ في النهاية على رأيٍ أو رأيين، ثمّ لا شيء بعد ذلك؟

الفرق بين اللغة المنفتحة واللغة الجميلة:

ولْنقف الآن عند بعض نصوص الشعر الجاهليّ لنحاول أن نتبيّن الفرق، في هذا الجانب، بين لغته ولغة القرآن. وقد فضّلنا أن نقف عند أبياتٍ اختارها قبل أكثر من ألف عامٍ الناقدُ الذوّاقة ابن قتيبة (ت276هـ) في كتابه الرائد "الشعر والشعراء" علىً أنّها بعض أجملِ ما قاله شعراء الجاهليّة:

- كـأنّ قـلـوبَ الـطـيـرِ رطـبـاً ويـابـسـاً

لـدى وكـرِهـا الـعُـنّـابُ والـحَـشَـفُ الـبـالـي

- مِـكَـرٍّ مِـفَـرٍّ مُـقـبِـلٍ مُـدْبِـرٍ مـعـــاً

كـجُـلـمـودِ صـخـرٍ حَـطّـهُ الـسـيـلُ مِـن عَـلِ

- لـه أيـطَـلا ظـبْـيٍ وسـاقـا نَـعـامــةٍ

وإرخــاءُ سِـرحــانٍ وتـقـريــبُ تَـتْـفُــــلِ

- وقـد طَـوّفـتُ فـي الآفـاقِ حـتّـــى

رضِـيـتُ مِـن الـغـنـيـمـةِ بـالإيــــابِ

- أجــارتَــنــا إنّ الــمَــزارَ قــريـــبُ

وإنّــي مـقـيـــمٌ مـا أقـام عَـســـيـــبُ

امرؤ القيس (ت80 ق.هـ)

كِـلـيــنـي لـهـمٍّ يـا أمـيـمـةُ نـاصــبِ

ولـيـلٍ أقـاسـيـــه بـطـيءِ الـكـواكـبِ

النابغة الذبيانيّ (ت18 ق.هـ)

أيّـتـهـا الـنـفـسُ أجـمِـلـي جَـزَعـــا

إنّ الــذي تَــحــذريــنَ قــد وقــعــــا

أوس بن حجَر (ت2 ق.هـ)

والــنـفـسُ راغـبـــةٌ إذا رغّـبْـتَـهـا

وإذا تُــرَدُّ إلــى قــلـيـــــلٍ تَــقـنــعُ

أبو ذؤيب الهُذَليّ (ت27هـ)

يُغضي حياءً ويُغضَى مِن مَهابَتِهِ
فما يُكلَّمُ إلّا حينَ يبتسمُ

المتوكّل الليثيّ (ت85هـ)

أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا
وسالتْ بأعناقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

كُثيّر عَزّة (ت105هـ)

غَيّضنَ مِن عَبَراتِهِنّ وقُلنَ لي
ماذا لقِيتَ من الهوى ولَقِينا

جرير (ت110هـ)

والشيبُ ينهضُ في الشبابِ كأنّه
ليلٌ يَصيحُ بجانبيهِ نهارُ

الفرزدق (ت110هـ)

هل تستطيعون أن تكتشفوا في أيٍّ من هذه الأبيات، على جمالها ورقّتها وتفوّقها بين أشعار عصرها، لفظاً واحداً، أو تركيباً، أو تعبيراً، يحتمل، في سياق البيت، أكثر من معنىً، أو أكثر من إعرابٍ واحد، بحيث يُغْني هذا التعدّدُ المعنويّ، أو الإعرابيّ، المعنى العامَّ للبيت، ويمنحه أبعاداً إضافيّةً، ومرونةً مُخصِبةً، وقابليّةً للتطوّر والتكيّف مع الزمن والأحداث والأذواق؟

لا أظنّكم ستنجحون في هذا، فقد أخفقت أنا قبلكم، ليس في هذه الأبيات وحدها، بل في كلّ ما قرأته من الشعر الجاهليّ.

ومع أنّ الشعر هو المكان الذي نظنّ أو نتوسّم فيه اليوم وجود مثل هذه الألفاظ أو التعبيرات المشعّة أو ذات الأطياف الموحية، أو المنفتحة، ليحمل لنا أكثر من معنىً، ويؤوَّل بأكثر من وجه، فإنّنا من غير شكٍّ نفتقدها تماماً في الشعر الجاهليّ، وظللنا نفتقدها في الحقب الشعريّة التي تلته حتّى الآن.

نعم، هناك الأبيات الجميلة المتفوّقة بصورها وأفكارها ولغتها وموسيقاها، ولكن علينا أن نفرّق بين الجميل ذي الأطياف الموحية، والمنفتح أو المتجدّد.

إنّ خير مقياسٍ لكشف العبارات أو الألفاظ ذات الأبعاد المتعدّدة هو الإعراب. فكلّما زادت احتمالات إعراب الكلمة أو العبارة ازداد توهّجها وتعدّدت معانيها وغَنِيت بالظلال والإيحاءات والألوان. ولا أجد في الأبيات التي أوردتُها، على جمالها، أيّة عباراتٍ أو ألفاظٍ تتمتّع بأكثر من احتمالٍ إعرابيٍّ واحد، كما لا أجد ألفاظاً تحتمل أكثر من معنىً.

ولعلّ الرشيد كان يبحث في الشعر عن شيءٍ يذكّره بلغة القرآن المنفتحة حين قال مرّةً للمفضّل الضبّيّ:

"اذكُر لي بيتاً جيّدَ المعنى يحتاج إلى مُقارَعَةِ الفِكر في استخراجِ خَبيئه، ثمّ دعْني وإيّاه"[6].

وكان خيرَ ما عند الضبّيّ لتلبية طلب الرشيد هذا البيتُ لجميل بن مَعْمَر (ت82هـ):

ألا أيّـهـا الـرَكْـبُ الـنِـيـامُ ألا هُـبّــوا

أُسـائـلُـكـمْ: هـل يـقـتـلُ الـرجـلَ الـحُـبُّ؟

وواضحٌ أن البيت، على جماله ورقّته، يخلو من أيٍّ من هذه الخصائص التي نتحدّث عنها في اللغة المنفتحة، فلا أطياف من المعاني الإضافيّة تنداح حول المعنى المحوريّ للبيت، ولا مساحة لمزيدٍ من الاحتمالات الإعرابيّة التي يمكن اقتراحها لألفاظه وجمَله، مع أنّ البيت لشاعرٍ عاش بعد فترةٍ من نزول القرآن كافيةٍ لأن يتأثّر به فيغنى شعره بهذه اللغة المنفتحة.

---

(6) ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله. **الشعر والشعراء**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار الحديث، 1996، ج1، ص73 .

الفرق بين الانفتاح والغموض:

وخليقٌ بنا أن نفرّق هنا بين اللغة المنفتحة أو المتجدّدة أو المتعدّدة الأبعاد، والغموض.

فهذا النوع الأخير كثيرٌ في شعرنا العربيّ، قديمه وحديثه، وينتج غالباً عن غرابة الألفاظ ووحشيّتها، وأحياناً عن تعقيدٍ في التركيب اللغوي، وأحياناً أخرى عن جهلنا بالبيئة التي نبعت منها أفكار الشاعر أو صوَرُه. وقد حدث أن "قُرِئ يوماً على الأصمعيّ في شعر أبي ذؤيبٍ الهُذَليّ:

بـأسـفَـلَ ذاتِ الـدَيـرِ أُفْـرِدَ جَـحْـشُـهـا

فقال أعرابيٌّ، كان يحضر المجلسَ، للقارئ: ضُلَّ ضَلالُك، إنما هي "ذاتُ الدَبْرِ" ـ بالباء ـ وهي ثَنِيَّةٌ عندنا"[7].

وفي هذا ما يساعدنا على تلمّس الفرق بين وضوح اللغة القرآنيّة، مع تعدّد أبعادها، وغموض اللغة الشعريّة، أحياناً، مع اقتصارها على بعدٍ واحد، إن كان لها بُعدٌ على الإطلاق.

لقد تجاوز القرآن الكريم الشعر واللغة الأدبيّة لعصر نزوله، ففاجأ العرب بلغةٍ جديدةٍ تستجيب لتقلّب العصور، وتَجدُّد الأحداث، واختلاف الأنفس، وتطوّر الفكر البشريّ وثقافتِه وعلومه واكتشافاته عبر القرون، فيأخذ الناس منه، كلٌّ في زمانه وبيئته ومكانه، ما تتّسع له مفهوماتهم وثقافتهم، ويناسب عصرهم ومَصرهم وفكرهم وحاجاتهم، من غير تناقضٍ في هذه المفهومات، على تباينها واختلافها.

وما تبع نزولَ القرآن الكريم من تأثيرٍ فنّيٍّ في الشعر العربيّ، ولا سيّما شعر القرن الهجريّ الثاني ومابعده حتى اليوم، واتجاه هذا الشعر نحو لغةٍ أكثر إيحائيّةً، كان ثمرةً أخرى من ثمار تفاعل لغة القرآن مع لغتنا، وتأثيراتها المخصبة في آدابنا، حتى حسب أناسٌ أن الأصل في هذه الخصيصة هو

---

(7) ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله. **الشعر والشعراء**، مرجع سابق، ج1، ص83.

الشعر، فقالوا إنّ لغة القرآن لغةٌ شعريّة، وكان الأحرى بهم أن يدركوا أنّ لغة الشعر هي التي تأثّرت بلغة السماء فأخذت عنها طيفيّتها وتلوّنها وانفتاحها.

ومع هذا تبقى لغة الشعر في جانبٍ ولغةُ القرآن في جانبٍ آخر، فلا تلتقيان في هذه الخصيصة الفنّية أبداً.

ولا شكّ في أن الغنى القرآنيّ بهذا النوع من الألفاظ والوحدات اللغويّة ذات الأبعاد المتعدّدة فتح أمام العرب أبواباً واسعةً لإغناء أدبهم وشعرهم بهذه اللغة الثريّة الجديدة.

ولقد رأينا كيف كان الشعر الجاهليّ يفتقر إلى هذا الجانب الإيحائيّ، على جماله وتفوّقه، لغويّاً وبلاغيّاً وفكريّاً، فأحدث نزول القرآن فيه هزّةً وانقلاباً، ودفع به أشواطاً إلى الأمام، حتى وجدنا الشعراء ينتقلون من اللفظ الجميل المجرّد، كما كان عند الجاهليين، إلى اللفظ الجميل ولكن الغنيّ بالأطياف والأبعاد والإيحاءات بعد الإسلام، مع تأكيدنا على التفريق بين اللغة الشعريّة "الموحية" واللغة القرآنيّة "المنفتحة". ولننظر في هذه الأبياتِ المشهورة للبحتريّ (ت284هـ) فهي نموذجٌ واضحٌ لذلك التغيّر الذي طرأ على الشعر العربيّ:

وقد نبّه النيروزُ في غسَق الدجى
أوائلَ وَردٍ كُنّ بالأمسِ نُوّما
يفتّقُها بَرْدُ الندى فكأنّه
يبثُّ حديثاً كان أمسِ مُكتَّما
ومِن شجرٍ رَدّ الربيعُ لِباسَهُ
عليه، كما وشَّيتَ وَشياً مُنَمْنَما
أحَلّ فأبدى للعيونِ بَشاشةً
وكان قَذىً للعَينِ إذْ كان مُحْرِما

ورقَّ نـســيـمُ الـريـحِ حـتّـى حَـسِـبْـتَـهُ
يَـجـيءُ بـأنـفـاسِ الأحـبّـةِ نُـعَّـمـا

إنّ ألفاظاً وتعبيراتٍ مثل (النيروز، غسق الدجى، أوائل ورد، نوّم، يفتّقها، برْد الندى، يبثّ حديثاً، مكتّم، وشيٌ منمنم، أحلَّ، مُحرِم، رقّ نسيم الريح، أنفاس الأحبّة، نُعَّم) ترتفع بالأبيات إلى مستوىً لغويٍّ إيحائيٍّ جديدٍ لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام، ولكنّها لن تصل أبداً إلى مرتبة "اللغة المنفتحة" التي ظلّت دائماً مقتصرةً على القرآن الكريم وحده.

الفرق بين الانفتاح والإيحاء:

إنّ "الإيحائيّة" في الشعر وتعدّد أبعادها وغناها بالظلال والأطياف، مهما بلغت، لا ترقى إلى درجةٍ يمكن معها لكلّ عصرٍ أن يكتشف فيها ما لم تكتشفه العصور التي سبقته، كما يحدث حقّاً مع لغة القرآن الكريم.

إنّ ما نفهمه اليوم من شعر البحتريّ أو المتنبّي أو أبي تمّام، على تعدّد طيوف لغته وإيحاءاتها، لا يمكن أن يزيد عمّا فهمه معاصروهم من هذا الشعر. يأتي هذا خلافاً لما هو الأمر مع لغة القرآن الكريم، التي ما تزال أسرارها ومعانيها تتكشّف لنا يوماً بعد يومٍ مع تكشّف أسرار العلوم الطبيعيّة والحقائق الإنسانيّة، ومع تطوّر الفكر البشريّ وأدواته النقديّة.

فإذا كانت لغة القرآن متعدّدة الجوانب، ويمكن أن تُفهم بأكثر من طريقة، من غير أن يؤدّي هذا التعدّد إلى التناقض أو التباعد بين المعاني المختلفة، فإنّ لغة الشعر، حتّى إن اتّجهت إلى التعبير عن المعنى المراد بطريقةٍ إيحائيّةٍ غير مباشرةٍ، خلافاً للغة النثر، لن تقودنا إيحائيّتها في النهاية إلى أكثر من معنىً واحدٍ أراده الشاعر ولكنّه تعمّد أن يقدّمه لنا داخل غطاءٍ فنّيٍّ يجعله أكثر إثارةً وإمتاعاً ونحن نبحث تحته عن المعنى المراد.

وانظر كيف يعبّر عمر أبو ريشة عن مشاعر الخيبة والألم واليأس وهو يرثي صديقاً شاعراً سبقه إلى العالم الآخر:

وبـيـنَ جَـنْـبَـيـهِ آمـالٌ مُـبـعـثَـرةٌ

تـكـادُ، لـولا بـقـايـا الـصـبـرِ، تـنـتـحـرُ

كـانـت لـه فـي هـضـابِ الـشـرقِ ألـويـةٌ

نَـسْـجُ الـكـرامـةِ مـعـقـودٌ بـهـا الـظَـفَـرُ

فالشاعر ينظر إلى نهاية زميله الراقد تحت التراب فلا يرى فيها، وشمسُ العمر توشك على الأفول، إلّا صورةً لنهايته الموشكة وقد تنكّر له الزمن والحياة وتحطّمت آماله العريضة على صخرة الموت المحتوم، فيحسّ بهذه الآمال وكأنّها توشك أن تنتحر، لولا بقيّةٌ من الصبر، وقد كان يوماً يحمل رايات النصر التي نسجتها يد الكرامة والإباء.

أترون كيف عبّر الشاعر بطريقةٍ غير مباشرةٍ عن معنىً مباشرٍ: اليأس ممّا آلت إليه حياته، يأساً يقترب به إلى درجة الانتحار، لولا بعض الصبر والإيمان، وقد كان يوماً في مقدّمة الصفوف يحمل شعلة المجد ويقود ركب أمّته نحو العلاء.

لقد فضّل أن ينسحب من جزءٍ من المشهد فيزيح آلامه عن كتفيه ليرمي بأثقالها على آماله، فآماله الآن هي التي ستنتحر، وليس هو، ثمّ فضّل أن يتواضع فيواري "الأنا" عنده خلف الرايات المحمولة، فلا يتحدّث إلينا صراحةً عن أمجاده وكرامته "هو" وإنّما هي كرامة الأعلام التي رفعها التي كانت المروءة والإباء لُحمتها وسَداها.

وإذن فلا تعدّد في المعاني، إنّما هو معنىً واحدٌ نجح الشاعر في إلباسه ثوباً من الشفافية والألوان حين عبّر عنه بطريقةٍ ملتويةٍ وذكيّةٍ ليس لها صلةٌ على أيّة حالٍ بما نحن بصدده من الانفتاح اللغويّ.

أمّا ما يُسمّى اليوم بشعر الحداثة، بما فيه من غموضٍ يصل إلى حدّ الإبهام، وتعمُّد شعراء القصيدة الحديثة أن يخرجوا في قصائدهم عن المنطق والواقع والعقل ليقدّموا لنا في "قصيدتهم الكلّية" خيوطاً متشابكةً من الألغاز والهلوسة اللغويّة التي لا تصل بسفينة القارئ إلى أيّ مرفأ، فهذا لا يدخل من قريبٍ أو بعيدٍ في باب الانفتاح اللغويّ.

وفي كتابي "حركة الشعر الحديث" الذي صدر قبل أكثر من ثلاثة عقودٍ حاولت أن أضع أصابعي على مشكلة الضبابيّة في شعرنا الحداثيّ، منطلقاً من الواقع الذي يعيشه هؤلاء الشعراء، فقلت في فصل (القصيدة الحديثة أو الكلّية):

يحسّ الشاعر الحديث بصدمةٍ تجاه خلوّ العالم من حقيقةٍ عليا يلتجئ إليها، بعد أن يئس من إيجاد حقيقةٍ سفلى في الواقع الذي يعيشه. إنّ الشاعر يمدّ يده نحو المطلق ليمسك بالحقيقة، أو ليُوهمنا بأنّه يريد تقديمها لنا، ولكنّ الحقيقة ما تلبث أن تفرّ من يده - ومن أيدينا - بعيداً، فلا نصل معه أخيراً إلّا إلى الرمز والمجهول.. فإذا كنّا في مجتمع الذرّة والفكر المعقّد والضياع والقلق والتمزّق، فهذا لا يستدعي أن يكون الأدب كذلك حتّى يكون ممثِّلاً لعصره حقّاً. إنّ الإنسان يبحث دائماً عمّا يفتقده لا عمّا هو هاربٌ منه: في الجفاف يبحث عن المطر، وفي الصخب عن الهدوء، وفي البرد عن الدفء.. إنّه يبحث إذن، وسط التعقيد والضياع والتمزّق، عن البساطة والوضوح والتآلف. إنّ النفس الإنسانيّة المعاصرة، التي تعاورتها تعقيدات العصر، ولاكتها أحداثه بشراسة، ما زالت تبحث، في الفنّ خاصّةً، عن الخلاص الرّوحيّ الذي ينجو بها، على أجنحة الوضوح والبساطة والاستقامة التعبيريّة، من كلّ ما يحيط بها من ظلامٍ وتعقيدٍ وتشتّت، وهي لن تجد ذلك في القصيدة الكلّية بصورتها الحاضرة[8].

إنّه إذن الانفتاح وليس الغموض ما نتحدّث عنه هنا ونحاول أن نضع أيدينا عليه في لغة القرآن الكريم.

بصيرة عمر رضي الله عنه وكشوف الإعجاز العلميّ:

هذه اللغة السماويّة المرنة، ذات الأبعاد المتعدّدة، من شأنها أن تستمرّ حيّةً مع العصور، فتكتشف فيها الإنسانيّةُ كلّ يوم ما لم يكتشفه السابقون من معانٍ لم

---

(8) ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية**، مرجع سابق، ص154-155.

تسمح حقائق عصرهم ومعارف علمائهم بإظهارها، وهكذا يفهمها كلّ جيلٍ، وربما أهل كلّ أرضٍ أو ثقافة، تبعاً لفكرهم ومكتشفاتهم وعلوم عصرهم.

ويجب أن أعترف بأنني لم أدرك، إلّا متأخّراً، الحكمة من منع عمر بن الخطّاب الناس، في مواقف مشهودةٍ عديدةٍ له، من تفسير القرآن أو السؤال عن معانيه، إلى حدّ ضرْبِهم وجلدهم وحبسهم[9].

فأن تضع تفسيراً للقرآن في تلك الفترة النبويّة/ الصحابيّة يعني -بمفهومنا القاصر- أن يكون بين أيدينا كنزٌ من المفاتيح الذهبيّة للدخول إلى عالم الأسرار اللغويّة للقرآن الكريم - ولكنه في عيني رجلٍ يملك بصيرة عمر ﵁ يعني أن تغلق على الناس عقولَهم بعد ذلك، وتحُدّ من اجتهاداتهم واكتشافهم لأسرار القرآن ومعجزاته، وهو الكتاب الذي "لا تنقضي عجائبه" -كما أنبأنا الرسول ﷺ-.

ومن سيجرؤ، حتى في القرن الهجريّ الثاني، أن يقترح تفسيراً جديداً لأيّة آيةٍ لو كان قد سبق أن وُضع لها تفسيرٌ آخر في القرن الإسلاميّ الأوّل، وفي عصر صحابيٍّ جليلٍ وكبيرٍ مثل عمر ﵁، ولا سيّما إذا كان عمر قد سمع هذا التفسير ثمّ سكت عنه؟

إنّ اكتشافات الإعجاز العلميّ الضخمة اليوم، وقد ظلّت خفاياها مختبئةً تحت أجنحة هذه اللغة المنفتحة قروناً طويلة، ما هي إلّا ثمرةٌ واحدة من ثمار هذه الخصيصة اللغويّة لكتاب الله، وهي أيضاً من ثمار حفاظ الصحابة الكرام على القرآن الكريم غير مشروحٍ أو مفسَّر.

وهكذا يخرج علينا العلماء اليوم بمئاتٍ من الحقائق العلميّة أثبتها القرآن

---

(9) عن أبي العَدَبَّس قال: "كنّا عند عمرَ بنِ الخَطّابِ ﵁ فأتاه رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما "**الجَوارِ الكُنَّس**"؟ فطَعنَ عمرُ بمِخْصرةٍ معه (أي عصاً) في عِمامةِ الرّجل فألقاها عن رأسِه، فقال عمرُ: أحَروريٌّ؟ والذي نفْسُ عمرَ بنِ الخطّابِ بيده، لو وجدتُكَ محلوقاً (أي حليق الرأس) لأنْحَيتُ القَمْلَ عن رأسِك (أي قطعت رأسك)". السيوطي، **الدر المنثور**، مرجع سابق، ج1، ص433؛ وانظر رواياتٍ عديدةً عن عمر ﵁ في هذا الباب في: السيوطيّ، جلال الدين. **جامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل**. جمع وترتيب: أحمد عبد الجواد وعبّاس أحمد صقر. دمشق: مطبعة محمّد هاشم الكتبيّ، 1981، ج2، قسم المسانيد، الصفحات 143-145.

الكريم قبل أربعة عشر قرناً، ثم لم يفهمها العلماء والمفسّرون على مرّ العصور، أو بتعبيرٍ أصحّ: لقد فهموها، ولكن بقدر ما أتاحته لهم ثقافةُ عصرهم، بحيث قدّم لهم هذا الفهمُ الجرعةَ التي كان تحتاج إليها معدةُ زمنهم من معرفةٍ بكتاب الله، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ.

وكان على الأجيال المسلمة أن تنتظر قرناً وراء قرنٍ لتتكشّف لها حقائق الإعجاز الخفيّةُ في القرآن الكريم واحدةً إثر أخرى. وما يزال مسلسل الكشف مستمرّا، وسيظلّ حتى قيام الساعة.

ولننظر، على سبيل المثال، في تفسير القدماء لإحدى هذه الآيات العلميّة، لتكون بين يدي بحثنا نموذجاً لما حدث لمئات الآيات الأخرى. يقول تعالى:

- ﴿وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السحاب﴾ [النمل: 88].

هذه إحدى الآيات المشهورة في مجال الإعجاز العلميّ للقرآن، يثبت القرآن الكريم فيها، منذ أربعة عشر قرناً، دوران الأرض، في وقتٍ كان الناس سيستخفّون فيه بمن يقول بذلك، أو حتّى من يقول بكرويّتها، أو ربّما يقاتلونه إلّا أن يعود عن هذا القول.

فكيف كان لجيل تلك الفترة وما تلاه من أجيال، قبل اكتشاف كرويّة الأرض ثم اكتشاف دورانها بعد ذلك، أن يفهموا الآية؟

لنقف مع القرطبيّ في تفسيره الجامع ونستمع إلى خلاصته المركّزة لفهم القدماء لهذه لآية. يقول القرطبيّ:

قال القتيبيّ: وذلك أنّ الجبال تُجَمَّع وتُسيَّر (يوم القيامة) فهي، في رؤية العين، كالقائمة، وهي تسير. .

قال القشيريّ: وهذا يومَ القيامة، أي هي لكثرتها كأنّها جامدة، أي واقفةٌ في مرأى العين، وإن كانت في أنفُسِها تسير سيرَ السحاب، والسحابُ المتراكم يُظَنّ أنه واقفٌ وهو يسير، أيّ تمرّ مرَّ السحاب حتّى لا يَبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وسُيِّرتِ الجبالُ فكانت سرابا﴾.

ويقال: إنّ الله تعالى وصَف الجبالَ بصفاتٍ مختلفةٍ ترجِعُ كلُّها إلى تفريغ الأرض منها وإبرازِ ما كانت تواريه.

فأوّل الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة.

ثم: تصير كالعِهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماءُ كالمُهْل، وقد جَمع الله بينهما فقال: ﴿يومَ تكونُ السماءُ كالمُهل. وتكونُ الجبالُ كالعِهن﴾.

والحالة الثالثة: أن تصير كالهَباء، وذلك أن تتقطّع بعد أن كانت كالعِهن.

والحالة الرابعة: أن تُنسف، لأنها مع الأحوال المتقدّمة قارّةٌ (أي مستقرّةٌ) في مواضعها، والأرضُ تحتَها غيرُ بارزةٍ فتُنسَف عنها لتَبرز، فإذا نُسفتْ فبإرسال الرياح عليها.

والحالة الخامسة: أنّ الرياحَ تَرفعُها على وجهِ الأرض فتُظهرُها شعاعاً في الهواء كأنّها غبار، فمن نظر إليها من بعيدٍ حَسِبها لتكاثفها أجساماً جامدة، وهي بالحقيقة مارّةٌ، إلّا أنّ مرورها مِن وراء الرياح كأنها مندكّةٌ متفتّتة.

والحالة السادسة: أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مَواضعِها لم يَجدْ فيها (أي في هذه المواضع) شيئاً منها، كالسراب.

قال الماورديّ: وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال:

أحدها أنه مثلٌ ضربه الله تعالى للدنيا، يظنّ الناظرُ إليها أنها واقفةٌ كالجبال، وهي آخذةٌ بحظّها من الزوال، كالسحاب، قاله سهلُ بن عبد الله.

الثاني أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان، تحسبه ثابتاً في القلب، وعمله صاعدٌ إلى السماء.

الثالث: أنه مثلٌ ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش[10].

---

(10) القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ. **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: مصطفى السقّا. بيروت: دار الفكر، 1987، ج13، ص242 - 243.

كانت هذه التفسيراتُ جميعاً قبل أن يُكتشَف دوران الأرض فيفهم الصغيرُ والكبير من الآية أن الجبال تتحرّك حقّا مع حركة الأرض، مثلما يتحرّك السحاب، ونحن نظنّها ثابتةً في مكانها. هل ترون اليوم في الآية أيّ لَبْسٍ على الإطلاق للتعبير عن هذه الحقيقة العلميّة؟

كيميائيّة اللغة الانفتاحيّة:

كيف حقّقت لغة القرآن هذا الهدف "الانفتاحيّ" الفريد؟ وما أهمّ السبل التي نستطيع تلمُّسها ونحن نحاول اكتشاف الأسرار اللغويّة لهذه الخصيصة القرآنيّة؟

لقد استخدم القرآن الكريم وسائل نحويّةً ولغويّةً جديدةً لم يعرفها العرب من قبل لتحقيق هذه الخصيصة المتميّزة، ولتذليل اللغة للمعاني الجديدة، واكتسابها لأبعادها المتعدّدة.

وكان الخروج على أعراف العرب اللغويّة، وتطوير قواعدهم النحويّة تطويراً يغنيها ويضيف إليها من غير أن يلغيها أو يُحلّ محلّها قواعد جديدةً مغايرة، هو البوّابة الواسعة التي عبرت منها لغة القرآن الكريم لتحقيق هذه الغاية.

إنّ هناك المئات من الخصائص الجديدة التي أضافها القرآن إلى اللغة العربيّة ممّا يستحيل إحصاؤه في مثل هذه المرحلة وفي بحثٍ كاشفٍ كهذا ينحصر هدفه في إبراز الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن. ولكنّني سأكتفي هنا، مع ذلك، بعرض مائة حالةٍ من أهمّ ما توصّلتُ إليه من تلك الخصائص، مكتفياً بمثالٍ واحدٍ من كلّ حالة، إلّا في الحالات التي قد يستدعي توضيحها وجود أكثر من مثالٍ واحد، مع التأكيد على توفّر الأمثلة الكثيرة في القرآن لمعظم هذه الحالات:

1 - الابتداء بنكرة (البقرة: 217، 220، 229 ...)

2 - مجيء كلٍّ من المبتدأ والخبر نكرةً (البقرة: 220)

3 - عودة الخبر على غير المبتدأ (البقرة: 234)

4 - حذف خبر (إنّ) من غير وجود ما يدلّ عليه (الحجّ: 25)

5 - تقديم الخبر على الاسم بعد (إذا) الفجائيّة (يونس: 21)

6 - حذف اسم (إنّ) المخفّفة من الثقيلة (البقرة: 143)

7 - حذف المبتدأ المؤخّر (البقرة: 96، النساء: 159)

8 - مجيء خبر (إنّ) طلباً ومقترناً بالفاء (آل عمران: 21)

9 - زيادة الباء في خبر (أنّ) (الأحقاف: 33)

10 - تنكير الاسم بعد (مَن) الاستفهاميّة (القصص: 71)

11 - إعادة المذكّر على مؤنّث (آل عمران: 45، الأعراف: 56)

12 - استخدام ضمير الرفع في محلّ ضمير النصب (آل عمران: 180)

13 - عودة ضمير المفرد على مثنّى (التوبة: 62)

14 - عودة الضمير على غير مذكور (الأحقاف: 24)

15 - عودة الضمير على متأخّر (البقرة: 96)

16 - عدم إعمال (إنْ) الشرطيّة الجازمة (آل عمران: 120)

17 - تنازع شرطين على جوابٍ واحد (النساء: 24)

18 - ارتباط المعطوف بالفاء على جواب أداة الشرط (لو) باللام المؤكّدة أو الرابطة للجواب (النساء: 90)

19 - مجيء جواب (لو) الشرطيّة جملةً اسميّة (البقرة: 103)

20 - بدء جواب الشرط بشرطٍ آخر (الأنعام: 35)

21 - مجيء فعل (لو) وجوابها مضارعين مع تأكيد الجواب بالنون (التكاثر: 4-5)

22 - ارتباط (لا) النافية بـ (إنْ) الشرطيّة (إلّا) بدلاً من (لم) الجازمة (الأنفال: 73)

23 - مجيء فعل الشرط مضارعاً بعد (إذا) الشّرطيّة (الإسراء: 107)

24 - فتح همزة (إنّ) بعد الفاء الرابطة لجواب الشرط (الأنعام: 54)

25 - عدم ارتباط جواب الشرط بالفاء (البقرة: 120)

26 - مجيء جواب (لمّا) مضارعاً لا ماضياً (هود: 74)

27 - مجيء جواب (إذا) مقروناً بلام الابتداء (مريم: 66)

28 - مجيء جواب (إذا) مقترناً بأداة شرط (النساء: 25)

29 - مجيء جواب الشرط حالاً (المعارج: 20)

30 - تقديم جواب الشرط على ما هو معطوفٌ على جزءٍ من فعل هذا الشرط (طه: 130)

31 - ارتباط جواب الشرط الماضي بالفاء (النمل: 90)

32 - خلوّ جواب الشرط ممّا يعود على صاحب الشرط (آل عمران: 76)

33 - مجيء الصفة جملةً شرطيّة (المائدة: 101)

34 - عمَلُ الاستفهام عمَلَ الطلب في جزم المضارع (الصفّ: 10)

35 - حذف أداة الاستفهام (الأعراف: 113)

36 - كسر همزة (إنّ) بعد (إلّا) (الفرقان: 20)

37 - فتح همزة (إنّ) في مطلع جملة جواب الشرط (التوبة: 63)

38 - فتح همزة (إنّ) في ابتداء الجملة (الأنعام: 54)

39 - دخول همزة الاستفهام على (إنّ) التأكيديّة (الأنعام: 19)

40 - دخول همزة الاستفهام على (ثمّ) العطفيّة (يونس: 51)

41 - تكرار همزة الاستفهام (يونس: 77)

42 - عدم إعمال (أنْ) الناصبة قبل (لا) النافية (النجم: 38)

43 - عدم إعمال (إذن) عمل النصب (النساء: 53)

44 - عدم إعمال (لا) النافية للجنس عمل (إنّ) المشبّهة بالفعل (يونس: 62)

45 - النصب بـ(الواو) بدلاً من (فاء) السببيّة (الأنعام: 27)

46 - مجيء (واو المعيّة) بعد الأمر (يونس: 71)

47 - إحلال (إلّا) محلّ (غير) الاستثنائيّة (الأنبياء: 22)

48 - إحلال (إلّا) محلّ (لكنْ) الاستدراكيّة (يونس: 98)

49 - استخدام النفي بمعنى النهي (النساء: 92)

50 - استخدام الاستفهام بمعنى التوكيد (يونس: 77)

51 - زيادة لام التوكيد بعد الاستفهام (النمل: 67)

52 - استخدام (هل) الاستفهاميّة بمعنى (قد) التحقيقيّة (الإنسان: 1)

53 - دخول (هل) الاستفهاميّة على الفعل الناقص (عسى) (البقرة: 246)

54 - استخدام (قد) للتحقيق مع وقوعها قبل المضارع (الصفّ: 5)

55 - عدم العطف على (فلا) أو تكرار (لا) بعدها (البلد: 12)

56 - بدءُ البدل بلام التوكيد (الأنعام: 12)

57 - الفصل بين البدل والمبدل منه بفعلٍ عاملٍ في البدل نفسه (الأنعام: 14)

58 - الفصل بين الصفة والموصوف بالحال (الأعراف: 158)

59 - الفصل بين الفعل ومفعوله بلام التوكيد (الحجّ: 13)

60 - الفصل بين الفعل وفاعله باللام (الكهف: 35)

61 - رفع المستثنى التامّ (النساء: 66)

62 - استثناء اسم (كان) من خبرها (النمل: 56)

63 - مجيء الاستثناء مع عدم ذكر المستثنى منه (المدّثّر: 56)

64 - خلوّ المستثنى من عائدٍ يعود على المستثنى منه (آل عمران: 112)

65 - عطف المرفوع على المنصوب (التوبة: 3)

66 - النصب حيث يُتوقّع الرفع (الحاقّة: 47)

67 - الرفع حيث يُتوقّع النصب (طه: 129)

68 - تعريف كلٍّ من المضاف والمضاف إليه بـ (ال) (الحجّ: 35)

69 - مجيء الظرف (بين) اسماً عاديّاً مضافاً إليه (المائدة: 106)

70 - مجيء الظرف (بينَ) اسماً عاديّاً مفعولاً به (الكهف: 93)

71 - إضافة الظرف المُعرَب إلى جملةٍ (ص: 79)

72 - بناء الضمير المتّصل (الهاء) على الضمّ بدلاً من الكسر (الفتح: 10)

73 - جزم المضارع المعتلّ الآخِر بالسكون وبحذف حرف العلّة معاً (النور: 52)

74 - مجيء جملة الماضي حالاً من غير ارتباطها بـ (قد) (الحجّ: 11)

75 - مجيء الماضي بعد (إلّا) من غير اقترانه بـ (قد) (فاطر: 24)

76 - عدم ارتباط خبر (كان) بـ (قد) عند مجيئه فعلاً ماضياً (يوسف: 27)

77 - حذف المفعول به (البقرة: 118، 221..)

78 - حذف تمييز فعل الذمّ مع إضمار فاعله (الجمعة: 5)

79 - استخدام صيغة (ما أفعَلَه) للتأكيد بدلاً من التعجّب (البقرة: 175)

80 - مجيء (إنّما) الكافّة والمكفوفة مع ما بعدها مصدراً مؤوَّلاً (الأنبياء: 108)

81 - إضافة مصدر مؤوّل إلى اللفظ (مِثْل) (الذاريات: 23)

82 - مجيء اسم (إنّ) مصدراً مؤوّلاً (طه: 118)

83 - إحلال المصدر محلّ الصفة (الجنّ: 1)

84 - إحلال المصدر محلّ اسم الفاعل (البقرة: 240)

85 - مجيء خبر الضمير مصدراً (البقرة: 216)

86 - ظهور ضمير الشأن (يونس: 17)

87 - حذف الأدوات التي تتعدّى بها الأفعال (يونس: 18)

88 - الاستغناء عن فعل القول قبل المقُول (الأنفال: 50)

89 - مجيء المضارع بمعنى الماضي (الأنعام: 75)

90 - مجيء الماضي بمعنى المضارع (النحل: 89)

91 - احتمال (ما) معنى الموصوليّة والنفي معاً (يونس: 66)

92 - تعدّد احتمالات إعراب المصدر المؤوّل (آل عمران: 73)

93 - تحميل الواو معنى العطف والاستفهام معاً (آل عمران: 8)

94 - احتمال صيغة الفعل للماضي والمضارع معاً (آل عمران: 32)

95 - احتمال عودة الكلام إلى الله تعالى أو إلى غيره (آل عمران: 36)

96 - عطف الفعل على الاسم (العاديات: 2 - 5)

97 - إعطاء معانٍ جديدةٍ للأفعال بتغيير الأدوات أو الحروف التي تتعدّى بها (وهو كثير)

98 - حذف فعل القول مع الضمير العائد على القائل (وهو كثير)

99 - حذف المضاف (وهو كثير)

100 - حذف الروابط اللغويّة بين الجمل أو الآيات كالواو والفاء (وهو كثير)

المواقع الانفتاحيّة في سوة (المدّثّر):

لقد اعتمدنا سورة (المدّثّر) حتى الآن في دراستنا التحليليّة لمختلف الجوانب اللغويّة الجديدة في القرآن، ولو شئنا رصد الألفاظ والتعبيرات المنفتحة في هذه السورة، وهي عادةً أكثر المواقع التجديديّة إثارةً للجدل عند المفسّرين واللغوييّن والنحوييّن، وأرحبها قابليّةً للشروح المتعدّدة والتخريجات النحويّة المختلفة، لخرجنا منها بما لا يقلّ عن 29 موقعاً، بين لفظٍ أو عبارة. وهي:

- ﴿قُمْ فأنذِر﴾
- ﴿وربَّك فكبِّر﴾
- ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾
- ﴿والرُجزَ فاهجُر﴾
- ﴿ولا تَمْنُنْ تَستكثِرْ﴾
- ﴿ولربِّكَ فاصبِر﴾
- ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾
- ﴿ذَرْني ومن خلقتُ وحيدا﴾

- ﴿وبنينَ شُهودا﴾
- ﴿ومهّدتُ له تمهيدا﴾
- ﴿كلّا﴾
- ﴿إنّه كان لآياتِنا عنيدا﴾
- ﴿سأرهِقُه صَعُودا﴾
- ﴿إنْ هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر﴾
- ﴿سأُصْليهِ سَقَر﴾
- ﴿لَوّاحةٌ للبَشَر﴾
- ﴿الذين في قلوبِهم مرضٌ﴾
- ﴿كلّا والقمر﴾
- ﴿إنّها لَإحدى الكُبَر﴾
- ﴿نذيراً للبشَر﴾
- ﴿لِمَن شاء منكم أن يتقدّمَ أو يتأخّر﴾
- ﴿إلّا أصحابَ اليمين﴾
- ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾
- ﴿نخوضُ مع الخائضين﴾
- ﴿أتانا اليقين﴾
- ﴿حُمُرٌ مُستنفِرة﴾
- ﴿قَسْوَرَة﴾
- ﴿أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرة﴾
- ﴿هو أهلُ التقوى﴾

وبإمكانكم أن تتوقّفوا عند كلّ لفظٍ أو عبارةٍ منها، وأن تتمعّنوا فيها واحدةً واحدة، لتتبيّنوا بأنفسكم الأبعاد العديدة التي يحملها كلٌّ منها، بدءاً من العبارة الأولى: "قم فْأنذِرْ" وما يحمله الفعل (قُمْ) من معانٍ احتماليّةٍ

متعدّدة: فهل هو النهوض، أو هو التحرّك، أو هو الإشارة للشروع بالعمل، أو هو الاستنفار والتأهّب؟ وكذلك الفعل (فأنذِر) الذي قد يعني: فبلّغ الرسالة، أو: فأنذر باقتراب الساعة، أو: فأنذر بعقوبة الدّنيا، أو: فأنذر بالنار والخلود فيها... وانتهاءً بالعبارة الأخيرة فيها: (هو أهلُ التقوى) وما في اللفظ (أهل) من معانٍ محتمَلة: صاحب الشيء، أو مانحه، أو الجدير به، أو مرجعيّته، وكذلك ما في لفظ (التقوى) من إمكاناتٍ معنويّةٍ متعدّدة: فقد يكون بمعنى الاتّقاء: وهو اتقّاؤنا لعذاب الله يوم القيامة بإيماننا به، وقد يكون بمعنى الوقاية نفسها: أي وقايته تعالى للناس من هذا العذاب لو آمنوا به، أو وقايته لهم من شرور الدنيا، أو من شرّ ما خَلق..

ومن نافل القول أنّ اجتماع لفظين منفتحين في عبارةٍ واحدة من شأنه أن يضيف رصيداً جديداً إلى انفتاحيّتها، وأن يضاعف القوّة الاحتماليّة لهذه العبارة ويزيد من المعاني والظلال التي ترتسم حولها، وذلك عن طريق الجسور التي نقيمها بين كلّ معنىً احتماليٍّ لأحد اللفظين؛ وكلّ معنىً احتماليٍّ للّفظ الآخر، فينشأ من خلال هذا التبادل والاختلاط عديدٌ من الجسور والعلاقات الإضافيّة الجديدة.

إنّ النسبة العالية من المواقع المنفتحة في (المدّثّر) تقدّم لنا فكرةً تقريبيّةً عن مدى سيطرة هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات المنفتحة على لغة القرآن الكريم في سائر سوَره، مع التأكيد مرّةً أخرى على أنّ انفتاح هذه اللغة لا يعني وجود ثغرةٍ خطيرةٍ في القرآن تمكّن أصحاب الأغراض من تحريف معانيه، فأمثال هؤلاء من ذوي القلوب المريضة لن يوقفهم شيءٌ عن محاولات التحريف، وقد جرّبوا ذلك على مدى العصور، وما زالوا يفعلون، وإنّما هي خصيصةٌ تغني هذه المعاني وتزيدها خصوبةً وحيويّةً وعطاءً على مرّ القرون، وعبر تطوّر معارف الإنسان واختلاف بيئته وثقافته.

القراءات والانفتاح:

وقبل أن نختم الحديث عن اللغة المنفتحة لا بدّ أن نتوقّف عند منعطَفين قرآنيّين هامّين يمكن أن يدخلا تحت هذا العنوان، وإن كنّا سنتجنّب إدخالَهما

في الجزء التطبيقيّ من الكتاب، فهما بابان واسعان يحتملان الكثير من الأخذ والردّ وتشابك الآراء واختلاف الأحكام اللغويّة والفقهيّة، وليس هذا البحث مكانَ ذلك كلِّه. والبابان هما: القراءات القرآنيّة، وما يسمّى بالناسخ والمنسوخ من آيات الكتاب الحكيم.

أمّا باب القراءات فهو من أعجب ما قدّمه القرآن لنا في مجال اللغة المنفتحة، ممّا لم يعرفه أيّ كتابٍ آخر عرفته البشريّة، لا قبل القرآن ولا بعده، كما سبق أن أكّدنا.

وقد أثار المستشرقون، ومن تبعهم بعد ذلك، لغطاً كبيراً حول هذا الجانب الإعجازيّ في لغة القرآن، ورصدوا له البحوث المطوّلة، وخصّصوا من أجله المنح الدراسيّة السخيّة رجاء أن يعثروا على منافذ لشكوكهم أو ثغراتٍ لخيالاتهم يستطيعون النفاذ منها للنيل من مصداقيّة القرآن ومرجعيّته، من غير أن يتوقّفوا للحظةٍ واحدةٍ مع ضمائرهم ومناهجهم العلميّة، التي تعلّمنا منها الكثير نحن الشرقيّين، فيعترفوا معها بأنّ القراءات القرآنيّة ماهي إلّا جانبٌ إعجازيٌّ آخر في لغة هذا الكتاب المدهش.

هل سمعتَ عن كتبٍ عديدةٍ جاءت في كتابٍ واحدٍ، ووجوهٍ من النصوص اختُصِرَت في نصٍّ واحد، بحيث يمكن لهذا النصّ أن يُقرأ بأكثر من طريقة، أو أن يحمل أكثر من معنىً، من غير أن يكون هناك أيّ تناقضٍ أو تباعدٍ بين هذه المعاني على اختلافها وتعدّدها؟

إنّ المسألة ليست اختلافاً بين المسلمين، ولا بين اللغويّين، في طريقة قراءة اللفظ القرآنيّ تبعاً للّهجة أو القبيلة التي ينتمي إليها القرّاء، كما يظنّ بعضهم، وإنّما هي طرائق متنوّعةٌ للقراءة أُنزلت هكذا متعدّدةً من السماء، إغناءً للغة القرآن، وإثراءً لمعانيه، وتسهيلاً لقراءته، وإضافةً إلى جوانبه الإعجازيّة التي يتفرّد بها دون أيّ كتابٍ آخر.

وإذا كان من خلافٍ بين اللغويّين أو القرّاء بخصوص هذه القراءات فإنّما هو حول "مَن يفضِّل ماذا؟" من هذه القراءات، لأنّها جميعاً، والقراءات السبع منها بخاصّة، مُنزَلةٌ من السماء، كما يؤكّد لنا الرسول ﷺ في

عديدٍ من الأحاديث الشريفة، من مِثل هذين الحديثين:

- عن ابن مسعودٍ ﷺ قال: أقرأني رسولُ الله ﷺ سورة (الأحقاف)، وأقرأَها آخرَ فخالفَ قراءتَه، فقلتُ: من أَقرأَكَها؟ قال: رسولُ الله ﷺ، فقلت: واللهِ لقد أقرَأَني رسولُ الله ﷺ غيرَ ذا!! فأتَينا رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، ألم تُقرِئْني كذا وكذا؟ قال: بلى، وقال الآخر: ألم تُقرِئْني كذا وكذا؟ قال: بلى. فتَمَعَّر وجهُ رسول الله ﷺ فقال: لِيقرأْ كلُّ واحدٍ منكما ما سمِع فإنّما هلَكَ مَن كان قبلكم بالاختلاف﴾[11].

- عن عمر بن الخطّاب ﷺ قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ (الفرقان) في حياةِ رسولِ الله ﷺ فاستمعتُ لقراءتِه فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقرئْنِيها رسولُ الله ﷺ فكدتُ أساورُه في الصلاة، فانتظرتُه حتّى سَلّم، ثمّ لَبّبتُه بردائه، فقلتُ: مَن أقرأكَ هذه السورة التي سمعتُك تقرأ؟ قال: أقرَأَنِيها رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: كذبتَ، فوالله إنّ رسولَ الله ﷺ أقْرأَنِيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله ﷺ، فقلتُ: يارسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يقرأ سورةَ (الفرقان) على غير ما أقرَأْتَنِيها، فقال رسولُ الله ﷺ أرسِلْه يا عمر، اِقرأْ يا هشام. فقرأ القراءةَ التي سمعتُه يقرأُها، فقال رسولُ الله ﷺ: هكذا أُنزِلَتْ. ثمّ قال لي: اِقرأ يا عمر، فقرأتُ التي أقرأَني، فقال: هكذا أُنزِلَتْ، إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ فاقرأوا ما تَيَسّرَ منه﴾[12].

ومن المهمّ التأكيد أنّ الاختلافات بين القراءات القرآنيّة، على تعدّدها،

---

(11) السيوطي، **الدر المنثور**، مرجع سابق، ج7، ص433.

(12) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج2، ص851، وج6، ص2541.
وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص560.
وللمزيد من هذه الأحاديث راجع كتب القراءات، ولا سيّما الكتاب التالي لابن الجزريّ (ت833هـ):
- ابن الجزريّ، محمد بن محمد. **تقريب النشر في القراءات العشر.** تحقيق إبراهيم عطوة عوض. القاهرة: دار الحديث، 1996، ص47-51.

لا ينتج عنها أيّ اختلافٍ أساسيٍّ في المعنى. ولنتوقّف قليلاً عند نماذج من القراءات لتكون أمامنا شريحةً علميّةً عشوائيّة، وقد حصرناها في مقطعٍ صغيرٍ من سورة (الكهف)[13]

- ﴿فأردْنا أن يُبدِلَهُما ربُّهما خيراً منه زكاةً﴾ [الآية 81] (وقُرئت أيضاً: يُبَدِّلَهما، ويُبْدِلَهُ، ويُبْدِلَنا)
- ﴿فأَتْبَعَ سَبباً﴾ [الآية 85] (وقُرئت: فاتَّبَعَ)
- ﴿في عَيْنٍ حَمِئةٍ﴾ [الآية 86] (وقُرئت: حاميَةٍ)
- ﴿فلهُ جزاءً الحُسْنى﴾ [الآية 88] (وقُرئت: جَزاءُ)
- ﴿حتّى إذا بَلَغَ بينَ السَدَّينِ﴾ [الآية 93] (وقُرئت: السُدَّين)
- ﴿إنّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفسِدون في الأرضِ﴾ [الآية 94] (وقُرئت: يَاجوجَ وماجوج)
- ﴿فهل نَجعلُ لكَ خَرْجاً﴾ [الآية 94] (وقُرئت: خَراجاً)
- ﴿حتّى إذا ساوَى بين الصَدَفَيْنِ﴾ [الآية 96] (وقُرئت: الصُدْفَيْن، والصُدُفَيْن، والصَدُفَين)

فإذا وقع اختلافٌ في المعنى كان ذلك في حدودٍ لا تخرج معها القراءتان إلى التناقض، أو حتّى التباعد، كما في هذه الآيات من المقطع نفسه من سورة (الكهف):

- ﴿لا يكادون يَفْقَهون قَولاً﴾ [الآية 93] (وقُرئت أيضاً: يُفْقِهون)

---

(13) للتوسّع في هذا الجانب تُراجَع كتب القراءات، ولا سيّما الكتاب التالي للأصبهاني (ت381هـ): الأصبهانيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين. **المبسوط في القراءات العشر**. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي. بيروت: مؤسّسة علوم القرآن، جدّة: دار القبلة، 1988. وقد أهملنا في دراستنا ما سُمّي بالقراءات الشاذّة، أو ما خرج عن القراءات السبع المعروفة، وإن وُجد بعض من يدافع عن بعضها قديما وحديثاً، وارجع إلى كتاب ابن جنّي "المحتسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات". ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. **المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

- ﴿قال آتُوني أُفْرِغْ عليهِ قِطْراً﴾ [الآية 96] (وقُرئت: قالَ أْتُوني)
- ﴿أفَحَسِبَ الذين كَفَروا أنْ يَتّخِذوا عباديْ مِن دوني أولياءَ﴾ [الآية 102] (وقُرئت: أفَحَسْبُ)

فالفرق في الآية الأولى بين أن يَفهم القوم الذين التقى بهم ذو القرنين عند السدّين ما يقوله الآخرون (يَفقَهون) وبين أن يَفهم الآخرون ما يقولونه (يُفقِهون) يؤدّي في النهاية إلى معنيين مختلفين ولكن متكاملين، فالأخير يدلّ على صعوبة فهم لغتهم التي يتحدّثون بها، والأوّل يدلّ على ضعف قدرتهم على فهم لغة الآخرين، وهذا الفرق يجعل من العبارة لغةً مفتوحةً، ومن ثمّ أكثر غنىً وأشدّ إمتاعاً للقارئ بما تحتمله من تفسيراتٍ وأوجهٍ متعدّدة.

والفروق في قراءتَيْ الآية الثانية بين طلب ذي القرنين منهم أن يُحضروا له النحاسَ المُذاب (آتُوني قِطْراً)، أو أن يُحضروا النحاس ليُذيبه هو بنفسه (آتُوني أُفْرِغْ قِطراً)، وبين دعوته لهم للمجيء لمساعدته في صبّ النحاس لإقامة السدّ (اِأْتوني) أو ليساعدوه في كلّ هذه الأمور معاً، أو ربّما ليشهدوا معه، وليس أكثر، هذا الحدثَ الكبير (اِأْتُوني "لترَوا كيف أُفرِغُ عليه قِطرا")، فُروقٌ ممتعةٌ أخرى تدلّ على غنىً وخصوبةٍ وتكاملٍ بين هذه المعاني جميعاً أكثر منها على اختلافٍ أو تناقضٍ بينها.

والفرق في الآية الثالثة بين أن يظنّ الكافرون فيمن اتّخذوهم آلهةً من دون الله القدرةَ على مساعدتهم وحمايتهم (أفَحَسِبَ)، وبين أن يكتفوا بتلك الآلهة معتمَداً ووكيلاً يتّكلون عليه (أفحَسْبُ) ليكونوا بذلك مستحقّين لخذلان الله وعقابه، يضفي على العبارة ظلالاً وغنىً وألواناً لا تتوفّر في الجملة البشريّة التي تخلو من مثل هذا البعد اللغويّ الإضافيّ الجديد.

ولا تنحصر القراءات في سبعٍ، كما قد يفهم بعضهم من حديث الرسول ﷺ المعروف "نزل القرآن على سبعة أحرف"، فمعظم كلمات القرآن لا تُقرأ بأكثر من طريقةٍ واحدة، ولكنّ قراءات بعضها قد ترتفع لتصل إلى تسعٍ وثلاثين

(14) انظر: السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص303.

قراءة، كما سبق أن ذكرنا بخصوص اللفظ القرآنيّ (أفٍّ)[14].

ومن المهمّ أن ننبّه أخيراً إلى أنّ القراءات السبع، وقد صادف أن جاءت سبعاً لأنّ عدد القرّاء المشهورين الذين تنتهي إليهم أسانيد قراءاتنا كانوا سبعةً، هي غير (الحروف السبعة) التي جاءت في الحديث النبويّ. ومع أنّهم "اختلفوا في شرح هذا الحديث على نحو أربعين قولاً" كما ينصّ السيوطي[15] فإنّ مراجعةً استقرائيّةً متفحّصةً للروايات العديدة التي وردت لهذا الحديث، وهي تزيد على خمس عشرة، تُرجّح لدينا أنّ (الحروف السبعة) ما هي إلّا مراعاة اللهجات المحلّية وكذلك المخارج المختلفة للحروف التي يمكن أن تتنوّع بين مثقّفٍ وأمّيٍّ وشابٍّ وشيخ، كما يمكن أن توضّح لنا هذه الرواية التي وجدتُها أكثر الروايات توضيحاً لحقيقة المقصود (بالحروف)، وهي روايةٌ صحيحة الإسناد كما ينصّ عبد الصبور شاهين في كتابه القيّم "تاريخ القرآن"[16]:

- حدّثنا أبو كُريب، قال: حدّثنا حسين بن عليّ، وأبو أسامة، عن زائدة، عن عاصم عن زرٍّ، عن أُبيٍّ: لقي رسولُ الله ﷺ جبريلَ عند أحجار المراء (موضعٌ بقُباء) فقال: إنّي بُعثتُ إلى أمّةٍ أمّيّين، منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي والعجوز، فقال جبريل: فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف. ولفظ الحديث لأبي أسامة.

(الناسخ والمنسوخ) والانفتاح:

أمّا الجانب الهامّ الآخر من جوانب الانفتاح في النصّ القرآنيّ، وهو ما أطلقوا عليه اسم (الناسخ والمنسوخ)، فله أبعادٌ أكثر خطورةً وأعمق أثراً في التفكير الفقهيّ عند المسلمين.

لقد وُضِعت عشرات البحوث، قديماً وحديثاً، لمعالجة هذا الموضوع المشكِل، بعضهم يؤكّده من غير أي تحفّظ، وبعضهم ينفيه ثمّ لا يسمح بأيّ

---

(15) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص92 .

(16) شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**. القاهرة: دار القلم، 1966. ص230.

هامشٍ لاحتمالات وجوده، وبعضهم يذهب بين هذا وذاك فيفرّق بين نَسْخ وتخصيصٍ واستثناء. ولكنّني لا أكاد أعرف من تنبّه إلى أنّ هذا الموضوع ما هو إلّا جانبٌ هامٌّ آخر من جوانب الانفتاح في النصّ القرآنيّ.

إنّ من الحكمة، مرّةً أخرى، ألّا نخوض عميقاً في هذا الموضوع الشائك في بحثٍ كهذا غير متخصّصٍ بعلوم الوحي وتاريخ القرآن، فإنّما هو بحثٌ في الإعجاز اللغويّ أوّلاً وأخيراً، ومن المهمّ أن ننبّه أيضاً إلى أنّ كلّ الآراء والأحكام التي خرج بها العلماء في علم المُحْكَم والمنسوخ آراءٌ جديرةٌ بالتوقّف والتفكّر والاحترام، حتّى إن ذهبنا إلى غير ما ذهبوا إليه، فإنْ هو إلّا رأيٌ آخر نضيفه إلى الآراء الكثيرة التي أغنت فهْمَنا للإسلام وفقهِه وعلومه وتراثه.

لقد سبق أن خالفنا من ذهب إلى تفسير (آية) على أنّها الآية القرآنية في قوله تعالى:

- ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِها نَأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها﴾ [البقرة: 106].

وقلنا إنّما هي هنا على الأغلب آية الخلق والإعجاز الإلهيّ؛ فلو ذهبنا إلى ما ذهبوا إليه فسيكون ما أطلقوا عليه اسم (المنسوخ) ما هو إلّا (المعلّق) أو (المُنْسَأ) إذا كانت (نُنْسِها) فهي في الآية مخفّفة من (نُنْسِئْها) كما ذهب بعض المفسرين، فهي على هذا بمعنى: نعلّق أو نؤجّل العمل بها إلى أن تعود فتتكرّر الشروط التي نزلت فيها فيتكرر العمل بها(17).

لقد تغيّرت مواقع الإسلام ومواقع الأشياء عبر مراحل تاريخيّةٍ عديدةٍ منذ أن نزل الوحي على الرسول ﷺ بكلمات القرآن الأولى (اِقرأ باسم ربّك الذي خَلَق) حتى نزول الكلمات الأخيرة من الوحي وانتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى. وكان لكلّ مرحلةٍ متطلّباتُها وظروفها التي تختلف عما سبقها أو لحقها من مراحل تاريخيّةٍ ومواقع حضاريّة.

---

(17) يقول السيوطي في مثل هذا المعنى: إنّ كلّ أمرٍ يجب امتثالُه في وقتٍ ما لعِلّةٍ تقتضي ذلك الحُكم، ثمّ ينتقل، بانتقال تلك العلّة، إلى حُكم آخر، وليس بنسخ". السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن،** مرجع سابق، ج2، ص41.

فحين كان الإسلام في بداياته، والمسلمون ما يزالون قلّة، كان بدهيّاً أن تدعو الآيات إلى الأخذ بالسلم والصلح والمهادنة مع الأعداء والصبر على المعتدين. ولكنّ ازدياد أعداد المسلمين ونموّ قوّتهم السياسيّة والعسكريّة، سيفسح المجال عمّا قريبٍ لاستخدام القوّة واللجوء إلى الدفاع المسلّح عن الدين وأتباعه ضدّ أيّ معتدٍ، ثم لمزيدٍ من التطوّر في التعامل مع أعداء الدين الجديد ومناهضيه والمتآمرين عليه، بحيث تتمّ ملاحقتهم وقتالهم حيثما وُجِدوا.

وبدهيٌّ أن تكون لكلّ مرحلةٍ من مراحل التطوّر السياسيّ والعسكريّ هذه آياتها التي تَحكم حركتها وتنظّم تيّارها، بحيث تُعطِّل آياتُ المرحلة التالية آياتِ المرحلة السابقة، كما يرى من يقول بالنسخ، أو بالأحرى "تُعلِّق" مفعولَها، كما اخترنا أن نذهب إليه في هذا البحث.

فلو عاد الزمن بالمسلمين إلى شروط أيّة مرحلةٍ من تلك المراحل المندثرة، عادوا إلى آياتها فاعتمدوها في تعاملهم مع أعدائهم. وإذن فأحكام هذه الآيات التي تنظّم العلاقات السياسيّة والحربيّة للمسلمين مع أعدائهم تظلّ سارية المفعول على مرّ السنين، كلّ عصرٍ يأخذ منها ما يحتاج إليه وما يتواءم مع شروطه وأوضاعه.

فإذا ضعُف المسلمون وتراجعت دولتهم، فلم يعودوا قادرين على فرض كلمتهم وإسماع صوتهم للآخرين، أو إذا حدث أن تهيّأ للعالم منظّماتٌ دوليّةٌ تحكم بين الأمم بالعدل والتساوي فلا تكيل بينها بمكيالين، أخذوا بمثل هذه الآيات:

- ﴿وَدَّ كثيرٌ مِن أهلِ الكتابِ لو يردّونكم مِن بَعدِ إيمانِكمْ كُفّاراً حَسَداً من عندِ أنفُسِهمْ مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهمُ الحقُّ فاعفُوا واصفَحوا حتّى يأتيَ اللهُ بأمرِه﴾ [البقرة: 104].
- ﴿لا إكراهَ في الدينِ﴾ [البقرة: 256].
- ﴿فأَعرِضْ عنهمْ وعِظْهمْ وقُلْ لهمْ في أنفُسِهم قولاً بليغاً﴾ [النساء: 63].
- ﴿وما على الرسولِ إلّا البلاغُ﴾ [المائدة: 99].

- ﴿وما جعلناكَ عليهمْ حفيظاً وما أنتَ عليهمْ بوكيلٍ﴾ [الأنعام: 107].
- ﴿واهجُرهمْ هَجْراً جميلاً﴾ [المُزّمّل: 10].
- ﴿واصفَحْ عنهمْ وقُلْ سلامٌ﴾ [الزُخرُف: 89].
- ﴿وذَرِ الذين اتَّخَذوا دِينَهمْ لَعِباً ولَهْواً﴾ [الأنعام: 70].

فإذا انعدمت مثل هذه الوسائل والشروط السلميّة، وتراجعت العدالة في العالم، وتعرّضت الأمّة الإسلاميّة للظلم والعدوان، وكانت قادرةً على الدفاع عن نفسها وتملك أبسط الشروط للوقوف في وجه الظلم، كان لها أن تأخذ بالآيات الأخرى:

- ﴿فمنِ اعتدى عليكمْ فاعتدُوا عليه بمثْلِ ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: 194].
- ﴿فإنِ اعتزلوكمْ فلم يُقاتلوكمْ وألْقَوا إليكمُ السَلَمَ فما جعلَ اللهُ لكمْ عليهمْ سبيلاً﴾ [النساء: 90]
- ﴿وإن جَنَحوا للسَلمِ فاجنَحْ لها﴾ [الأنفال: 61].

أمّا إذا عادت الأمّة إلى سابق حصانتها وقوّتها، واستعادت مكانتها بين الأمم، لتكون بمثابة شرطيّ الأمن المعتدّ بمسؤوليّته، والذي يحافظ ما أمكنه على سلامة المسلمين وسلامة من هم في ذمّتهم، وسلامة العالم بأسره من أيّ خطرٍ قد يهدّده، فلا بدّ أن تتبنّى آياتِ الجهاد القصوى فتستلهمها في خططها السياسيّة والعسكريّة:

- ﴿واقتُلوهُمْ حيث ثقِفتُموهمْ وأخرِجوهمْ من حيثُ أخرجوكمْ﴾ [البقرة: 191].
- ﴿وقاتِلوهم حتّى لا تكونَ فتنةٌ﴾ [البقرة: 193، والأنفال: 39].
- ﴿كُتِبَ عليكمُ القتالُ وهو كُرْهٌ لكم﴾ [البقرة: 216].
- ﴿فإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فاقتُلوا المشركين حيث وجدتُموهم﴾ [التوبة: 5].
- ﴿قاتِلوا الذين لا يُؤْمنون باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ﴾ [التوبة: 29].
- ﴿وقاتلوا المشركين كافّةً﴾ [التوبة: 36].
- ﴿ياأيّها النبيُّ جاهِدِ الكُفّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهِمْ﴾ [التوبة: 73، والتحريم: 9].

مع الأخذ بالحسبان، طبعاً، السياقُ الذي جاءت به هذه الآيات، والمناسبات التي أُنزلت فيها، والبيئة التاريخيّة والثقافيّة والسياسيّة التي أحاطت بنزولها، فهذا كلّه يحدّد لنا معالم فهمها، وظروف تطبيقها أو تعليقها على مدار العصور، وينجو بنا من التأويلات الغريبة والمنحرفة التي بدأت تأخذ بها بعض الاتجاهات المتطرّفة في العقود الأخيرة.

وهذا يسري على أحكام قرآنيّةٍ عديدةٍ أخرى. فتحريم الخمرة، كما هو معروف، لم يتمّ فجأةً، ولكنّه جاء على مراحل عدّة. يقول ابن جُبَير في (الخلاصة):

"لمّا نَزلت ﴿قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس﴾ [البقرة: 219] كَرِهَ الخمرَ قومٌ للإثم، وشربها قومٌ للمنافع، حتّى نزل: ﴿لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سُكارى﴾ [النساء: 43] فتركوها عند الصلاة، حتّى نزلت: ﴿فاجتنبوه لعلّكم تُفلِحون﴾ [المائدة: 90] فحُرّمَت. فهذا يدلّ على أنّ آية البقرة منسوخةٌ بآية المائدة، والمائدة نزلت بعد البقرة بلا شكّ"[18].

وقد نجد غرابةً في مضمون الآية الثانية وهي تجمع بين السُكْرِ والصلاة، فكيف يصلّي من اعتاد أن يشرب الخمرة؟! من أجل هذا صنّفوها، والآيةَ التي سبقتْها، بين المنسوخ من الآيات حين نزلت آيةُ المائدة التي حَرّمت الخمرة تحريماً قاطعاً. ولكن هل يتطلّب نزولُ آية المائدة حقّاً إبطالَ الآيتين اللتين سبقتاها في النزول إبطالاً أبديّاً؟

إنّنا نفترض في المصلّي تجنُّب الحرام، ولكن أيّ المصلّين يتجنّب كلّ أنواع المحرّمات؟ أوَلا يحدث أن ينزلق أحد المصلّين مع إغراءات الشيطان فيشربَ الخمرة، أو أن يتذكّرَ شاربُ الخمرة ربّه بين آنٍ وآخر فيُهرع إلى المسجد باكياً مستغفراً؟ هنا تأتي الآية لتذكّره بأنّ عليه أن يصحو من سُكره قبل أن يبدأ صلاته والوقوف بين يدي الله، حتّى يعلم ما يقول، وكأنّ تحريم

(18) القيسيّ، أبو محمّد مكّيّ بن أبي طالب. **الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه.** تحقيق: أحمد حسن فرحات. جدّة ومكّة: دار المنارة، 1986، ص: 167-168.

الخمرة على مراحل ثلاثٍ جاء لحكمةٍ إلهيّةٍ تدرك تمام الإدراك أن سيكون من المسلمين دائماً، فيما مضى وفيما يأتي من الزمان، من يشرب الخمرة ويصلّي في وقتٍ معاً، فلا نسخ إذن، ولا إبطال لمعنى أيٍّ من الآيات الثلاث.

وهكذا اقتضت الحكمة الإلهيّة أن تتنزّل آياتٌ في أحوالٍ وأحداثٍ ظنّها بعض الناس مؤقّتةً وطارئةً ولن تتكرّر، فنسخوا العمل بها، ولم يدركوا أنّ كلّ ما تنزّل من السماء فضمَّه كتابُ الله تعالى سيظلّ منفتحاً لكلّ العصور، وأنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار، وأنّ الظروف والأحداث التي شهدها فجر الإسلام يمكن أن تتجدّد على امتداد الزمن مرّةً بعد مَرّة.

الفصل الرابع

جوامع الكَلِم

هل يستطيع أحدكم أن يُمضي الساعات الأربع والعشرين القادمة من غير أن يتلفّظ بأيٍّ من هذه العبارات:

- ﴿إنْ شاءَ اللهُ﴾ [البقرة: 70].
- ﴿إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون﴾ [البقرة: 156].
- ﴿بإذنِ اللهِ﴾ [آل عمران: 49].
- ﴿الحمدُ للّهِ﴾ [الأنعام: 1].
- ﴿اللهُ أَعلمُ﴾ [الأنعام: 124].
- ﴿توكّلتُ على اللهِ﴾ [هود: 56].
- ﴿رحمةُ اللهِ وبرَكاتُه﴾ [هود: 73].
- ﴿ما شاءَ اللهُ﴾ [الكهف: 39].
- ﴿لا قُوّةَ إلّا بالله﴾ [الكهف: 39].
- ﴿سبحانَ اللهِ﴾ [المؤمنون: 91].

أنا لا أخاطب القارئ المسلم، بل أيّ عربيٍّ يتكلّم هذه اللغة، مسلماً أو غير مسلم، إنّ هذا المعجم الثرّ من العبارات القرآنيّة الجامعة قد أضحى جزءاً من حياتنا ولغة خطابنا اليوميّة، من غير أن نعي، ربّما، أنّنا إنّما نتوكّأ في حديثنا على عباراتٍ محضٍ قرآنيّة. هذا مع اعترافنا بأنّ العرب من غير المسلمين حاولوا في بعض الأصقاع، وليس كلّها، أن تكون لهم، أحياناً وليس دائماً، تعبيراتهم اليوميّة الخاصّة غير المستمدّة من القرآن، وربّما كان

ذلك من قبيل الحفاظ على شخصيّتهم اللغويّة الدينيّة، كإحلال نصارى الشام في عامّيتهم تعبيراتٍ مثل (يكثّرْ خيرْ ألله) أو (نشكرْ ألله) محلّ التعبير القرآنيّ (الحمدُ لله) وكقولهم (إذا أللهْ رادْ) بدلاً من (إنْ شاء الله).

الجوامع القرآنيّة في لغتنا اليوميّة:

كان من أهمّ ما أحدثه القرآن في اللغة العربيّة من تغيير، وما يزال يُحدثه حتى الآن، انتقالُ عباراتٍ ومتّكآتٍ لغويّةٍ كثيرةٍ منه إلى ألسنتنا، بحيث غدونا نردّدها في أحاديثنا اليوميّة من غير أن نَعِي أحياناً حقيقة أصولها، أو ندرك قوّة تأثيرها ومدى تغلغلها في لغتنا. إنّنا لم نعد نستطيع أن نتصوّر حياتنا اليوم من غير ما مثّلنا به قبل قليلٍ من عبارات، أو من مثل هذه العبارات القرآنيّة الأخرى السائرة على كثيرٍ من الألسن:

- ﴿إنّ اللهَ غَفورٌ رحيمٌ﴾ [البقرة: 173].
- ﴿ولكمْ في القِصاصِ حياةٌ﴾ [البقرة: 179].
- ﴿ولا تُلْقُوا بأيديْكُم إلى التَهلُكَةِ﴾ [البقرة: 195].
- ﴿يَرزُقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ﴾ [البقرة: 212].
- ﴿عسى أنْ تَكرَهوا شيئاً وهو خيرٌ لكمْ﴾ [البقرة: 216].
- ﴿كَمْ مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ﴾ [البقرة: 249].
- ﴿لا إكراهَ في الدينِ﴾ [البقرة: 256]
- ﴿خاويةٌ على عُروشِها﴾ [البقرة: 259].
- ﴿قال أوَلَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلَى ولكنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي﴾ [البقرة: 260].
- ﴿ولا هُمْ يَحْزَنون﴾ [البقرة: 262 وغيرها].
- ﴿لا يُكلِّفُ اللهُ نفْساً إلّا وُسْعَها﴾ [البقرة: 286].
- ﴿وتلكَ الأيّامُ نُداولُها بينَ الناسِ﴾ [آل عمران: 140].
- ﴿حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ﴾ [آل عمران: 173].
- ﴿إستغفِرِ اللهَ﴾ [النساء: 106].

- ﴿ما على الرسولِ إلّا البلاغُ﴾ [المائدة: 99].
- ﴿لا تَسألوا عن أشياءَ إنْ تُبْدَ لكمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101].
- ﴿عليكمْ أنفسَكمْ﴾ [المائدة: 105].
- ﴿رضيَ اللهُ عنهمْ﴾ [المائدة: 119].
- ﴿سبحانَه وتعالى﴾ [الأنعام: 100].
- ﴿ولا تَبخَسوا الناسَ أشياءَهمْ﴾ [الأعراف: 85].
- ﴿وما رَمَيتَ إذْ رَمَيتَ ولكنّ اللهَ رَمى﴾ [الأنفال: 17].
- ﴿قُلْ لنْ يُصيبَنا إلّا ما كَتَبَ اللهُ لنا﴾ [التوبة: 51].
- ﴿إذا جاءَ أجَلُهُمْ فلا يَستأْخِرونَ ساعةً ولا يَستَقدِمون﴾ [يونس: 49].
- ﴿إلّا مَن رَحِمَ ربُّكَ﴾ [هود: 119].
- ﴿وشَهِدَ شاهدٌ مِن أهلِها﴾ [يوسف: 26].
- ﴿ما أَنزَلَ اللهُ بها مِن سُلطانٍ﴾ [يوسف: 40].
- ﴿حاجةً في نفْسِ يعقوبَ﴾ [يوسف: 68].
- ﴿وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ﴾ [يوسف: 76].
- ﴿إنّ اللهَ لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفُسِهمْ﴾ [الرعد: 11].
- ﴿لئنْ شَكرتُمْ لأَزيدَنّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].
- ﴿وجادِلْهمْ بالتي هي أحسَنُ﴾ [النحل: 125].
- ﴿فَلا تقُلْ لهما أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23].
- ﴿قُل كلٌّ يَعملُ على شاكلتِه﴾ [الإسراء: 84].
- ﴿وليَ فيها مآرِبُ أُخرَى﴾ [طه: 18].
- ﴿وقُلْ ربِّ زِدْنيْ عِلْماً﴾ [طه: 114].
- ﴿خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَل﴾ [الأنبياء: 37].
- ﴿وما أرسلناكَ إلّا رحمةً للعالَمِين﴾ [الأنبياء: 107].
- ﴿وما جَعلَ عليكمْ في الدّينِ مِن حَرَجٍ﴾ [الحجّ: 78].

- ﴿هذا مِنْ فَضْلِ ربّي﴾ [النمل: 40].
- ﴿واللهُ على ما نقولُ وكيلٌ﴾ [القَصص: 28].
- ﴿وما تَدري نفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ﴾ [لقمان: 34].
- ﴿ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أخرَى﴾ [فاطر: 18].
- ﴿إنّما يخشى اللهَ مِن عِبادِه العلماءُ﴾ [فاطر: 28].
- ﴿ولا يَحِيقُ المَكْرُ السيِّءُ إلّا بأهلِه﴾ [فاطر: 43].
- ﴿قُلْ هل يَستوي الذين يَعْلَمون والذين لا يَعْلَمون﴾ [الزُّمَر: 9].
- ﴿وأُفوِّضُ أمريْ إلى اللهِ﴾ [غافر: 44].
- ﴿ورَفعْنا بعضَهمْ فوقَ بعضٍ درجاتٍ﴾ [الزُخرُف: 32].
- ﴿العِلْمُ عندَ الله﴾ [الأحقاف: 23].
- ﴿سِيماهُم في وجوهِهِمْ﴾ [الفتح: 29].
- ﴿إن جاءكمْ فاسقٌ بنبإٍ فتَبيّنوا﴾ [الحُجُرات: 6].
- ﴿لا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهمْ﴾ [الحُجُرات: 11].
- ﴿إنّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ﴾ [الحُجُرات: 12].
- ﴿وجعلْناكُمْ شُعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا إنّ أكرمَكمْ عندَ اللهِ أتقاكُمْ﴾ [محمد: 13].
- ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلّا الإحسانُ﴾ [الرحمن: 60].
- ﴿لِمَ تقولون ما لا تَفعلون﴾ [الصفّ: 2].
- ﴿مَنْ يَتّقِ اللهَ يَجعَلْ له مَخْرَجاً. ويَرزُقْه مِنْ حيثُ لا يَحتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].
- ﴿لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: 7].
- ﴿عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمْ﴾ [العلق: 5].
- ﴿وأمّا بنعمةِ ربِّكَ فحدِّثْ﴾ [الضحى: 11].
- ﴿إنّ معَ العُسرِ يُسراً﴾ [الشرح: 6].

إنّها من "جوامع الكَلِم" التي رسخت في ذواكرنا اللغويّة فلم نعد نستطيع الاستغناء عنها، فهي تَختصر بكلماتٍ قليلةٍ بليغةٍ مواقفَ وأفكاراً يحتاج

وصفُها أو التعبيرُ عنها إلى شرحٍ طويلٍ ربّما لن يؤدّي في النهاية ما تؤدّيه العبارة القرآنيّة البليغة والمركّزة.

يروي البيهقيّ في (شُعب الإيمان) عن أبي شهابٍ في معنى الحديث الذي رواه الشيخان "بُعِثْتُ بجوامعِ الكَلِم" قال:

> بلغني أنّ "جوامعَ الكَلِم" لأنّ الله يجمع له الأمورَ الكثيرة، التي كانت تُكتَب في الكُتب قبله، في الأمر الواحدِ والأمرَين.. ومن ذلك قولُه تعالى "خُذِ العفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عنِ الجاهلين" (الأعراف: 199) فإنّها جامعةٌ لمكارم الأخلاق، لأنّ في أخْذِ العفو: التساهلَ والتسامح في الحقوق، واللِّينَ والرفق في الدعاء إلى الدِّين، وفي الأمر بالمعروف: كفَّ الأذى وغضّ البصر وما شاكلهما من المحرّمات، وفي الإعراض: الصبرَ والحِلم والتُؤَدَة"[1].

وانظر إلى قوله تعالى، وقد أراد أن يجسّد ضعف الإنسان، المغترّ بقوّته، فصوّره لنا، وهو المخلوق القويّ الكبير، يُخفِق في استنقاذ ما يمكن أن تسلبه منه ذبابة، وهي المخلوق الحقيرالضعيف، فيخرج لنا بهذه الجامعة من جوامع الكَلِم:

- ﴿ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾ [الحجّ: 73].

أو قوله تعالى مبيّناً أنّ أهمّية العقاب لا تقلّ خطورةً عن أهمّية الثواب، لأنّ قتل مجرمٍ واحدٍ يمكن أن ينقذ آلاف البشر:

- ﴿ولكمْ في القِصاصِ حياةٌ﴾ [البقرة: 179].

ويذكر السيوطي أنّ هذه العبارة القرآنيّة الجامعة "فُضِّلتْ على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى، وهو قولهم: (القتلُ أنفَى للقتل) بعشرين وجهاً أو أكثر" ويعدّد السيوطي هذه الأوجه العشرين، ويفصّلها بشكلٍ مقنعٍ ومثيرٍ للاهتمام حقاً[2].

---

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص107.

(2) المرجع السابق، ج2، ص109 وما بعدها.

نحو قاموسٍ قرآنيٍّ وآخر نبويٍّ لجوامع الكلِم:

ولو أحصينا مثل هذه العبارات القرآنيّة الجامعة والموجزة والبليغة، وصنّفناها تصنيفاً علميّاً خاصّاً تبعاً لمعانيها، لحصلنا على قاموسٍ من جوامع الكَلِم يُغْني لغتنا العربيّة ويمدّها بثروةٍ أدبيّةٍ وفكريّةٍ لا حدود لها، وهذا في الحقّ جزءٌ من أهداف هذه الدراسة، وهو ما يسري أيضاً على الحديث الشريف.

فالرسول ﷺ الذي "بُعِث بجوامع الكلم" له معجمه اللغويّ الخاصّ، المختلف تماماً عن المعجم القرآنيّ، وقد أصبحت "جوامعُه النبويّة" أيضاً على ألسنتنا وجزءاً من قاموس لغتنا اليوميّة. وهل تستطيع اللغة العربيّة أن تتجرّد بعد الآن من مثل هذه العبارات النبويّة التي لم يعد معظم العرب يجدون بديلاً مُغْنياً عنها في كتاباتهم وأحاديثهم:

- ﴿الله أكبر﴾
- ﴿رِفقاً بالقوارير﴾
- ﴿كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّتِه﴾
- ﴿دَعْ ما يَريبُك إلى ما لا يَريبُك﴾
- ﴿اِعقِلْها وتوكَّلْ﴾
- ﴿إنّما الأعمالُ بالنيّات﴾
- ﴿الدِّينُ النّصيحة﴾
- ﴿خَيْرُكم خَيْرُكم لأهلِه﴾
- ﴿اِفعَلْ ولا حَرَج﴾
- ﴿لِيُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ﴾
- ﴿اللهُ عَزَّ وجَلّ﴾
- ﴿كاسياتٍ عارياتٍ﴾
- ﴿ألا هل بلّغْتُ﴾
- ﴿ضَلّوا وأضَلُّوا﴾

- ﴿يَسِّروا ولا تُعسِّروا﴾
- ﴿بَشِّروا ولا تُنفِّروا﴾
- ﴿كما تَدينُ تُدان﴾
- ﴿الحلالُ بَيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ﴾
- ﴿مَن وقعَ في الشُّبُهاتِ وقعَ في الحَرام﴾
- ﴿الحياءُ مِن الإيمان﴾
- ﴿حجٌّ مبرورٌ﴾
- ﴿خيرُ الأمورِ الوَسَط﴾
- ﴿لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ﴾
- ﴿الناسُ سَواسيةٌ كأسنان المَشط﴾
- ﴿إنّ أمْرَ المؤمنِ كلُّه خير﴾
- ﴿عامداً متعمّداً﴾
- ﴿أنتم السابقون ونحن اللاحقون﴾.

ولكنّ ما يستهدفه هذا البحث هو العبارات القرآنيّة التي جرت على الألسنة مجرى الأمثال، فغدونا نستشهد بها في شتّى مجالات الحياة. فإن لم تصل بعدُ إلى هذه المرحلة فإنّها تصلح لأن تجري مجرى الأمثال، ويكون دورنا في هذه الدراسة، بل جزءٌ من هذا الدور، هو التنبيه إليها والدعوة إلى استخدامها، مع الإشارة إلى مواقعِ هذا الاستعمال ومناسباته ومجالاته، ما دامت قد توافرت فيها شروطُ العبارَة السائرة، وما دامت تشكّل إضافةً جديدةً منحها القرآن الكريم لقاموسنا التعبيريّ، وهو ما يمكن أن يشكّل في المستقبل معجماً معنويّاً مستقلاً يضمّها بين دفّتيه.

ومن أهمّ الشروط التي تتوفّر عادةً في مثل هذه العبارات؛ الوضوح، والاختصار، وبساطة التعبير، وخفّة الجريان على اللسان، وقابليّة النقل من الخاصّ إلى العامّ، فلا تنحصر العبارةُ في واقعةٍ معيّنةٍ تختصّ بها ثمّ لا تتجاوزها إلى غيرها.

ورغم أنّ هذه الشروط متوفّرةٌ في آلافٍ من التعبيرات القرآنيّة، فإنّ كثيراً منها ما يزال في منأىً عن الألسنة أو الأقلام.

وكثيراً ما يجري بعض هذه العبارات على ألسنة الخاصّة أو ربّما خاصّة الخاصّة، تبعاً لدرجة ثقافتهم اللغويّة والقرآنيّة، ولكنّها لا تجري على ألسنة الناس جريان العبارات الأخرى، كما في هذه الجوامع:

- ﴿فاستبِقوا الخيراتِ﴾ [البقرة: 148] (للدعوة إلى الخير والصدقة)
- ﴿ومن تطوَّعَ خيراً فإنّ اللهَ شاكرٌ عليم﴾ [البقرة: 158] (للتذكير بالأجر)
- ﴿تقطّعتْ بهمُ الأسبابُ﴾ [البقرة: 166] (لوصف التفرّق والحيرة والضياع)
- ﴿أخذتْه العِزّةُ بالإثم﴾ [البقرة: 206] (لوصف المكابرة والعناد)
- ﴿على شَفا حُفرةٍ﴾ [آل عمران: 103] (للتخويف من اقتراب أمر)
- ﴿فإنّ ذلك مِن عَزْمِ الأمور﴾ [آل عمران: 186] (لإكبار عملٍ عظيم)
- ﴿وأُحضِرتِ الأنفسُ الشُحُّ﴾ [النساء: 128] (لوصف البخيل)
- ﴿فقُطِع دابرُ القوم﴾ [الأنعام: 45] (لوصف الهزيمة النكراء)
- ﴿الله أعلمُ حيث يَجعلُ رسالتَه﴾ [الأنعام: 124] (للتذكير بحكمة الله وعجزنا عن فهمها)
- ﴿طائرُكم معكم﴾ [الأعراف: 131] (للردّ على من يحاول إلباسنا تهمة هو أولى بها)
- ﴿أَخْلَدَ إلى الأرض﴾ [الأعراف: 176] (للمغرور بنعمة المال أو النجاح)
- ﴿لا يُجلّيها لوقتها إلّا هو﴾ [الأعراف: 187] (لعدم القطع بأمرٍ غيبيّ)
- ﴿ولو تواعدْتُم لاختلفتُم في الميعاد﴾ [الأنفال: 42] (للّقاء مصادفةً من غير ميعاد)
- ﴿لا يَرقُبون في مؤمنٍ إلّاً ولا ذِمّةً﴾ [التوبة: 10] (للتحذير من الظالم)
- ﴿بَعُدَتْ عليهمُ الشُقّة﴾ [التوبة: 42] (لتيئيس من يطمع بأمرٍ بعيد المنال)
- ﴿هل يستويان مَثَلاً﴾ [هود: 24] (لإبراز الفرق الكبير بين شخصين أو أمرين)

- ﴿لا يعلمُهم إلّا اللهُ﴾ [إبراهيم: 9] (للتعبير عن جهلنا بأمرٍ أو إنسان).

إنّ أكثر هذه العبارات الجامعة بعيدٌ حتى الآن عن ألسنة العامّة، ولا بدّ من التنبيه إلى أهميّتها والإشارة إلى المواقع المحتملة لاستخدامها في أحاديثنا، وهذا ما أخذنا به أنفسنا في القسم التطبيقيّ من هذا البحث.

وتنتشر (جوامع الكلِم) في سوَر القرآن الكريم بكثرةٍ تتيح للمتحدّث أو الكاتب بالعربيّة أن يغني حديثه بها، وقد قرأ معظمنا قصّة الأعرابيّة التي كانت تأبى أن تتحدّث مع الناس إلّا بعباراتٍ قرآنيّة.

اللفظ الجامع:

أضفى القرآن الكريم على بعض الألفاظ أو العبارات ظلالاً معنويّةً، من خلال استخدامه الخاصّ لها، لم تكن تملكها قبل القرآن. فلم يعد أحدنا بقادرٍ على استخدام اللفظ (قَبِيلَ) مجرّداً من ظلاله القرآنيّة، فيقول مثلاً عن ضيف عزيزٍ جاءه مع رفاقٍ له: جاءني هو وقَبيلُه؛ إذ لا مفرّ لذهن الضيف، لو سمع العبارة، من أن يسترجع حالاً السياق القرآنيّ الذي يربط هذا اللفظ بالشيطان، وذلك في الآية:

- ﴿يا بَني آدمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطانُ كما أَخرجَ أبويكمْ منَ الجَنّةِ يَنزِعُ عنهما لباسَهما لِيُرِيَهما سَوءاتِهما إنّه يَراكُمْ هو وقَبِيلُهُ مِن حيثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27].

ولا يستطيع أن يقول لهذا الضيف الصديق: عندي ثلاثة ضيوف ورابعهم أنت؛ أو: عندي خمسةٌ وسادسهم أنت، أو: عندي سبعةٌ وثامنهم أنت، إذ لا مناص أمام الصديق من أن يستحضر ذهنه الآية التي تربط هذه الألفاظ العدديّة الترتيبيّة بالكلب الذي رافق أصحاب الكهف، فكأنّما هو، في الجملة الجديدة، بموضع ذلك الكلب:

- ﴿سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبُهم رَجْماً بالغيبِ ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم﴾ [الكهف: 22].

ولا يستطيع أحدنا أن ينصح جماعةً بالتأكّد من صحّة خبرٍ وصلهم بقوله

(فتبيّنوا) من غير أن يكون قد ألقى بالظلال القرآنيّة لهذا اللفظ على من نقل إلى القوم هذا الخبر، فكأنّه يضفي على هذا الناقل صفة (الفسق) التي رافقت اللفظ (تبيّنوا) في القرآن:

- ﴿يا أيّها الذين آمنوا إنْ جاءكمْ فاسقٌ بنبإٍ فتبيّنوا﴾ [الحجرات: 6].

هذه الظلال المعنويّة الجديدة للألفاظ والعبارات القرآنيّة لا تقلّ أهمّيةً وخطورةً عن جوامع الكلم التي أدخلها القرآن في معجمنا التعبيريّ، بل ربّما كانت أوسع تأثيراً وأعمق نفوذاً إذا أُحسِن استخدامها والإفادة من شحنتها التعبيريّة الفائقة.

جوامع الكلِم في (المدّثّر):

فإذا حاولنا استخلاص جوامع الكلم وحدها، دون العبارات أو الألفاظ ذات الظلال، من سورة (المدّثّر)، تلك التي طالما أجرينا عليها تطبيقاتنا اللغويّة في الفصول السابقة، فبإمكاننا الخروج بما لا يقلّ عن خمسٍ وثلاثين جامعةً نسردها فيما يلي، مع ما نقترحه لمجالات استعمالها، مع التأكيد على أنّ تلك المجالات تظلّ مفتوحةً لكثيرٍ من المعاني والمواقف الحياتيّة التي لا يستطاع حصرها في مقالةٍ أو بحثٍ أو زمانٍ أو مكان:

- ﴿قمْ فأنذِرْ﴾ (تُقال للحثّ على الإسراع بعمل شيء)
- ﴿وربَّكَ فكبِّرْ﴾ (يقولها من يستعظم أمراً أو يَهمّ به)
- ﴿وثيابَكَ فطَهِّرْ﴾ (نقولها لمن ننصحه بطهارة الثوب أو النفس)
- ﴿والرُجْزَ فاهجُرْ﴾ (لمن ننصحه بترك معصية)
- ﴿ولربِّكَ فاصبِرْ﴾ (لمن نعزّيه بأمرٍ أو نستحثّه على الثبات والصبر)
- ﴿فذلك يومَئذٍ يومٌ عسيرٌ﴾ (للتحذير من عقوبةٍ أو حَدثٍ قادم)
- ﴿وجعلتُ له مالًا ممدوداً﴾ (لتحذير مَن لم يُقدّر نِعَم الله عليه)
- ﴿ومهّدتُ له تمهيداً﴾ (لتحذير مَن غرّه نجاحٌ أو ربحٌ)
- ﴿ثمّ يطمعُ أن أزيدَ﴾ (لتأنيب من لم يقدّر صنيعاً ثمّ يطلب المزيد)

- ﴿سأرهقُه صَعوداً﴾ (للتهديد بالعقاب الشديد)
- ﴿فقُتِل كيف قَدَّرَ﴾ (لمن أصدر حُكماً جائراً)
- ﴿عبَسَ وبَسَرَ﴾ (لوصف المغضَب الحانق)
- ﴿أدبرَ واستكبَرَ﴾ (لمن تصرّف بعجرفةٍ وغطرسة)
- ﴿سأُصْليه سَقَرَ﴾ (للتذكير بعقاب الله)
- ﴿وما أدراكَ ما سَقَرُ﴾ (للتحذير من شدّةٍ، أو لوصف شخصٍ قاسٍ)
- ﴿لا تُبقي ولا تَذَرُ﴾ (لوصف شخصٍ أو سُلطةٍ شرهةٍ أو مدمِّرة)
- ﴿في قلوبِهم مرضٌ﴾ (للمتشكّكين وضعاف النفوس)
- ﴿ماذا أراد اللهُ بهذا مَثَلاً﴾ (للتعجّب من أمرٍ وقع ونجهل الحكمة منه)
- ﴿يُضلّ اللهُ مَن يشاءُ ويَهدي مَن يشاءُ﴾ (للتعجّب من اختلاف أمر الناس)
- ﴿وما يَعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو﴾ (للتعجّب من نجاحٍ أو فشلٍ غير متوقَّع)
- ﴿وما هي إلّا ذكرى للبشَرِ﴾ (للإشارة إلى نُذُر أمرٍ وشيك)
- ﴿إنّها لَإحدى الكُبَرِ﴾ (للإشادة بأمرٍ عظيم، أو التنديد بأمرٍ قبيح)
- ﴿نذيراً للبَشَرِ﴾ (تقال إنذاراً وتحذيراً)
- ﴿لمَن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّرَ﴾ (للحثّ على العمل والاجتهاد)
- ﴿كلُّ نفسٍ بما كسبَت رهينةٌ﴾ (لتأكيد المسؤوليّة الشخصيّة)
- ﴿ما سلَككم في سَقَرَ﴾ (لمن نلقاه وقد نال ما استحقّه من عقاب)
- ﴿وكنّا نخوضُ مع الخائضين﴾ (لتحذير أصحاب الألسنة الطويلة)
- ﴿حتّى أتانا اليقينُ﴾ (نقولها لوفاة ظالمٍ أو متكبّر، أو لنَيله جزاءه)
- ﴿فما تنفعهم شفاعةُ الشافعين﴾ (للتيئيس من التوسّط لمذنبٍ)
- ﴿فما لَهم عن التذكرةِ مُعْرِضين﴾ (للتشنيع على من لا يسمع النصح)
- ﴿كأنّهم حُمُرٌ مستنفِرةٌ﴾ (لوصف من يفرّ من معركةٍ أو لا يسمع لنصيحة)
- ﴿يريدُ.. أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرةً﴾ (لمن يطلب طلباتٍ تعجيزيّة، أو يطلب ما لا يستحقّه)

- ﴿بل لا يخافون الآخرةَ﴾ (لوصف الظالم أو السيّء)
- ﴿إنّه تَذكِرةٌ﴾ (للوعظ والتذكير)
- ﴿إلّا أنْ يشاءَ اللهُ﴾ (حين نَعِد بشيءٍ لا نضمن أن يتحقّق).

حجم المواقع التجديديّة في (المدّثّر):

وقبل الخروج من هذا الجزء من الكتاب، من المهمّ أن نذكّر بأنّنا لو أضفنا ما اكتشفناه من جوامع الكلِم في (المدّثّر) إلى كُتل التجديد الكبيرة الأخرى التي سبق أن اكتشفناها في هذه السورة، من ألفاظٍ ومصطلحاتٍ وتراكيب وتعبيراتٍ وعلاقاتٍ لغويّةٍ وبيانيّةٍ، ومن صورٍ جديدة، ومواقع لغويّةٍ منفتحة، فضلاً عن السبائك القرآنيّة الجديدة، وهو ما يزيد في مجموعه عن (300) موقعٍ في سورةٍ لا يتجاوز عدد ألفاظها (256) لفظاً، أدركنا حجم الثورة التجديديّة التي أحدثها نزول القرآن الكريم في اللغة العربيّة، وأبعاد الصدمة التي تلقّتها نفوسهم وآذانهم حين استمعوا إلى هذه اللغة السماويّة الجديدة وهي تتنزّل عليهم أوّل مرّة.

وإذا كان استعمال أديب العربيّة الكبير مصطفى صادق الرافعي للتعبير الجديد (أمّا قبل) قد أحدث في نفوسنا حين قرأناه تلك الهزّة العجيبة، وهو لا يعدو أن يكون موقعاً واحداً في رسالةٍ طويلة، ضمن كتابٍ كبير، فأيّة هزّةٍ يمكن أن يحدثها القرآن في نفوس العرب وهو يفاجئهم بما لا يقلّ عن مائةٍ وخمسين موقعاً جديداً في كلّ صفحةٍ من صفحاته الكريمة؟!

هذا ما سيحاول الإجابة عنه بالتفصيل القسم التطبيقيّ التالي من هذا البحث، الذي سنفتتحه بدراسةٍ تطبيقيّةٍ عامّةٍ نُجريها على نموذجٍ متوسّط الطول من سوَر القرآن الكريم، وهو سورة (فاطر)، لنبدأ بعد ذلك بسورة (الفاتحة) تتلوها سورة (الناس) ثم (الفلق) وهكذا رجوعاً مع السور الكريمة حتّى سورة (التين).

وبعد...

فإنّ الخوض في الحديث عن القرآن، أيّاً كان هذا الحديث، هو نوعٌ من الخوض في مياه المحيط وأنت لا تعرف السباحة. فأنّى لنا نحن البشر الصغار الضعاف أن تصل أيدينا القصيرة الواهية إلى تلك الأغوار البعيدة النائية للتعبير الإلهيّ المطلق واللامتناهي، فتكشف عن مكنوناته وأسراره؟

نعم، يجب أن أعترف الآن، وأنا في نهاية رحلتي الأولى لدراسة الإعجاز التجديديّ في لغة الكتاب لأتهيّأ للإبحار في آفاق سوَره الكريمة، سورةً بعد سورة، وآيةً بعد آية، أنّها كانت "مغامرةً" إنسانيّةً استكشافيّةً ضعيفةً قاصرة، مهمّا تزيّت بزيّ العلم والموضوعيّة. إنّ كلّ تناولٍ بشريٍّ لهذه اللغة السماويّة المعجزة لن يستحقّ أن يوصف بأكثر من "مغامرة". كيف ونحن نعترف بعجزنا وضعفنا أمام التعبير الإلهيّ الكامل الذي لا يأتيه الباطل ولا النقص ولا الوهن ولا الخطأ من بين يديه ولا من خلفه.

وإن كان من شفيعٍ لنا فيما أقدمنا عليه من الانفلات من قيود اللغويّين والنحويّين والبلاغيّين والمفسّرين، وقد أثقلتْ حركتنا، وحَدّتْ من تفكيرنا، من غير أن يقصد أصحابها إلى ذلك، للانطلاق في فضاءٍ غير فضاءاتهم، والسفر في مدارٍ مختلفٍ عن مداراتهم، فلعلّ هذا الشفيع أن يتقدّمنا يوم القيامة: إخلاصاً لكتاب الله، وصدقَ سعيٍ للوصول إلى بعض حقائقه، واكتشافِ ما لا ينقضي من عجائبه وأسراره، وإيماناً لا يتزعزع بأنّه تنزّل على رسولٍ صادقٍ أمينٍ من عند خبيرٍ عليمٍ حكيم.

ربّنا لا تؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أخطأْنا، ربّنا ولا تَحْمِل علينا إصراً كما حَمْلتَه على الذين مِنْ قَبْلِنا، ربَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا طاقةَ لنا به، واعْفُ عنّا، واغفِرْ لنا، وارحمْنا، أنتَ مولانا فانصُرْنا على القومِ الكافرين.

المراجع

المراجع العربية:

- ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. تحقيق: كامل عويضة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.
- ابن الجزريّ، محمد بن محمد. **تقريب النشر في القراءات العشر**. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. القاهرة: دار الحديث، 1996.
- ابن الحاجب، أبو عمرو عثمان. **شرح الرضيّ على شافية ابن الحاجب**. القاهرة: مطبعة حجازي، (د. ت.) .
- ابن المقفّع، عبد الله. **كليلة ودمنة**. بيروت: دار مكتبة الحياة، 1987.
- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. **المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.
- ابن حزم الأندلسيّ. **طوق الحمامة في الألفة والألّاف**. تحقيق: إحسان عبّاس. بيروت: المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 1993.
- ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله. **الشعر والشعراء**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار الحديث، 1996.
- أبو زيد، نصر حامد. **مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن**. بيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، 1996.
- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل. **مقالات الإسلاميّين واختلاف المصلين**. تحقيق: هلموت ريتر. اسطنبول: (د.ن.)، 1929.
- الأصبهانيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين. **المبسوط في القراءات العشر**. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي. ببيروت: مؤسّسة علوم القرآن، جدّة: دار القبلة، 1988.
- الأنباريّ، محمّد. **نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء**. تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار نهضة مصر، 1967.
- الأنصاريّ، ابن هشام. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**. تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. بيروت: دار الفكر، 1985.

- الأنصاريّ، أحمد مكّي. **الدفاع عن القرآن ضدّ النحويّين والمستشرقين.** القاهرة: دار المعارف، 1973.
- الأنصاريّ، أحمد مكّي. **نظريّة النحو القرآنيّ.** (د. م.): دار القبلة، 1405هـ.
- الباقلاّني، القاضي أبو بكر محمّد بن الطيّب. **إعجاز القرآن.** تعليق وتخريج: صلاح بن عويضة. بيروت: دار الكتب العلميّة، 2001.
- الجرجانيّ، عبد القاهر. **دلائل الإعجاز.** تعليق: محمود محمد شاكر. القاهرة، وجدّة: دار المدني، 1992.
- الحسناوي، محمّد. **الفاصلة في القرآن.** عمّان: دار عمّار، 2000.
- حسين، طه. **في الأدب الجاهليّ.** القاهرة: دار المعارف، 2001.
- الحمصي، نعيم. **مجلّة المجمع العلمي العربيّ بدمشق. العدد** 30.
- الدرويش، محيي الدين. **إعراب القرآن الكريم وبيانه.** دمشق، وبيروت: اليمامة، ودار ابن كثير، 1999 .
- الرازيّ، الفخر. **التفسير الكبير.** بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، 2001.
- الرافعي، مصطفى صادق. وحي القلم. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.
- الزايد، سميرة. **الجامع في السيرة النبويّة.** (د. م.): المطبعة العلميّة، 1995.
- الزّركشيّ، بدر الدّين محمّد بن بهادر. **البرهان في علوم القرآن.** تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار إحياء الكتب العربيّة، 1958.
- ساعي، أحمد بسام. **الصورة الفنّية بين البلاغة والنقد.** جدّة: دار المنارة، 1984 .
- ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية.** دمشق: دار المأمون، 1978. (والطبعة المعدّلة: دمشق: دار الفكر، 2006).
- سالم، محمّد عدنان (بالاشتراك مع محمّد وهبي سليمان). **معجم كلمات القرآن العظيم.** دمشق: دار الفكر، 1997.
- السكّاكيّ، أبو يعقوب يوسف. **مفتاح العلوم.** تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2000.
- السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن.** تحقيق: محمد سالم هاشم. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003.
- السيوطيّ، جلال الدين. **جامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل.** جمع وترتيب: أحمد عبد الجواد وعبّاس أحمد صقر. دمشق: مطبعة محمّد هاشم الكتبيّ، 1981.
- شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن.** القاهرة: دار القلم، 1966.

- الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. **فتح القدير: الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير.** القاهرة: دار الفكر، (د. ت.).
- ضيف، شوقي. **معجزات القرآن.** القاهرة: دار المعارف، 2002 .
- عبد الباقي، محمّد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.** القاهرة: دار الحديث، 1988.
- عضيمة، محمّد عبد الخالق. **دراسات لأسلوب القرآن الكريم.** القاهرة: دار الحديث، 2004.
- العلواني، طه جابر. **نحو موقف قرآنيّ من النسخ.** القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2007.
- الغزالي، محمد. **كيف نتعامل مع القرآن** (مدارسة أجراها عمر عبيد حسنة). فرجينيا: المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ، 1991.
- الفَراهي، عبد الحميد. **تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان.** الهند: الدائرة الحميديّة، 2000.
- القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ. **الجامع لأحكام القرآن.** تحقيق: مصطفى السقّا. بيروت: دار الفكر، 1987.
- القطّان، منّاع. **مباحث في علوم القرآن.** بيروت: مؤسّسة الرسالة، 1998.
- القيسيّ، أبو محمّد مكّيّ بن أبي طالب. **الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه.** تحقيق أحمد حسن فرحات. جدّة، ومكّة: دار المنارة، 1986.
- **الكتاب المقدّس.** (د. م.): دار الكتاب المقدّس في العالم العربي، 1981.
- **الكتاب المقدّس.** بيروت: دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، 2004.
- لانج، جيفري. **حتّى الملائكة تسأل.** ترجمة: زين نجاتي. القاهرة: مكتبة الشروق الدوليّة، 2002.
- المعرّي، أبو العلاء. **رسائل أبي العلاء المعرّي.** تحقيق: عبد الكريم خليفة. عمّان: اللجنة الأردنيّة للتعريب والترجمة والنشر، 1978.

المراجع الإنجليزية:

- Asad, Muhammad. *The Message of the Qur‘an*. Bristol, England: The Book Foundation.
- Gute Nachricht Bibel. Stuttgart, Germany: Deutsche Bibelgesellschaft, 2000.
- Islahi, Amin Ahsan. *Pondering over the Qur’an*. Translated by M.S. Kayani. London: Islamic Book Trust, 2003.

- La Sainte Bible (Traduite sur les textes originaux Hebreu et Grec). London: Trinitarian Bible Society, 1981.
- Luxenberg, Christoph. *The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran*. English Edition. Germany: Verlag Hans Schiler, 2007.
- Murry, John Middleton. *The Problem of Style*. Oxford: Oxford University Press, 1960.
- New World Translation of the Holy Scriptures. U.S.A.: Watch Tower Bible and Tract Society of New York, 1981.
- The Holy Bible, Containing the Old and New Testament (Revised Standard Version). Great Britain: Division of Christian Education of the National Council of the Churches of Christ in the U.S.A., 1971.
- The Holy Bible. London: Trinitarian Bible Society, 2000.
- The Holy Book (King James Version). London: Collins' Clear-Type Press, 1950.
- The New Testament of our Lord and Saviour. Oxford: Oxford University Press.

الكشّاف

الموزع المعتمد لمنشورات
المعهد العالمي للفكر الإسلامي
في العالم العربي

منتدى المعارف

بناية طبارة – الطابق الرابع – شارع نجيب العرداتي
بجانب أوتيل كونكورد – المنارة – رأس بيروت
ص. ب: 7494–113 حمرا
بيروت 2030 1103 – لبنان
هاتف: 749140 (1–961)
فاكس: 749141 (1–961)
بريد إلكتروني: info@almaarefforum.com.lb

الأردن

دار الشروق للنشر والتوزيع
ص. ب: 926463
الرمز البريدي 11118
عمّان – الأردن
هاتف: 4618190 – 4618191 – 4624321 (6–962)
فاكس: 4610065 (6–962)
بريد إلكتروني: shorokjo@nol.com.jo

الأهلية للنشر والتوزيع
ص. ب: 7772
عمّان 11118 – الأردن
هاتف: 4638688 (6–962)
فاكس: 4657445 (6–962)
بريد إلكتروني: alahlia@nets.jo

البستان للكتب
ص. ب: 941802
عمّان 11194– الأردن
هاتف: 5654271 (6–962)
فاكس: 5654270 (6–962)
بريد إلكتروني: info@bustanbooks.com
: lamis@bustanbooks.com

الإمارات

دار الحكمة
ص. ب: 2007
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 2665394 (4–971) (4 خطوط)
فاكس: 2669827 – 2976066 (4–971)
بريد إلكتروني: alhikma@emirates.net.ae

دار القلم للنشر والتوزيع
بر دبي – تقاطع الصقر
بناية الفردان – محل رقم (5)
ص. ب: 11817
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 3930430 (4–971)
فاكس: 3930408 (4–971)

البحرين

مؤسسة الأيام للنشر
إدارة التوزيع
ص. ب: 3262
المنامة – مملكة البحرين
هاتف: 725111 (17–973)
فاكس: 723763 (17–973)
بريد إلكتروني: cir@alayam.com

الشركة العربية للوكالات والتوزيع
شارع السلمانية، 171 بناية الشيخ راشد
ص. ب: 156
المنامة – مملكة البحرين
هاتف: 3982866 – 251531 – 255706 (17–973)
فاكس: 245255 – 230039 (17–973)
بريد إلكتروني: karim156@batelco.com.bh

تونس

الشركة التونسية للصحافة
المقر الاجتماعي 3، نهج المغرب
ص. ب: 719
تونس 1000
الجمهورية التونسية
هاتف: 322499 – (216–71) 322468 – 322463

فاكس: (216–71) 323004
بريد الكتروني: sotupresse@sotup.com.tn

الجزائر

ابن النديم للنشر والتوزيع
الجزائر: حي رابية الطاهر عمارة 13
رقم 373 باب الزوار
الجزائر العاصمة – الجمهورية الجزائرية
تلفاكس: +213 21 24 38 19
هاتف نقال (موبايل): +213 661 20 76 03 – +213 771 90 05 65 – +213 790 98 65 83
بريد إلكتروني: ibnadimedition@yahoo.fr

وهران:
51 شارع نهار بلعيد قويدر
ص. ب: 357 السانيا زرباني محمد
وهران – الجمهورية الجزائرية
تلفاكس: +213 41 35 97 88
هاتف نقال (موبايل): +213 661 20 76 03 – +213 771 90 05 65 – +213 790 98 65 83
بريد إلكتروني: ibnadimedition@yahoo.fr

دار الأبحاث للترجمة والنشر والتوزيع
25 شارع مصطفى بن بولعيد
الجزائر العاصمة – الجمهورية الجزائرية
هاتف: (00213–21) 744281
فاكس: (00213–21) 748569
بريد إلكتروني: abhaath@hotmail.com

شركة رواق الكتاب
4 شارع الهواء الجميل
باش جراح – الجزائر العاصمة
الجمهورية الجزائرية
هاتف: (213–21) 267152 – 266016
هاتف نقال: 0661 510573 – 0773 336045
فاكس: (213–21) 267165
بريد إلكتروني: maouchi_a@yahoo.fr

السعودية

مكتبة العبيكان
طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة
ص. ب: 62807
الرياض 11595
المملكة العربية السعودية
هاتف: 4654424 – 4160018 (1–966)
فاكس: 00966920020299
بريد إلكتروني: info@obeikanbookshop.com.sa

مكتبة جرير
ص. ب: 3196
الرياض 11471
المملكة العربية السعودية
هاتف: 4626000 (1–966)
فاكس: 4656363 – 4629500 (1–966)
بريد إلكتروني: purchasing@jarirbookstore.com

مكتبة نادي الكتاب
عمارة رقم 500 – طريق الملك عبد الله
400 متر شرق (نقطة التقاء طريقي الملك عبد العزيز والملك عبد الله)
حي صلاح الدين
الرياض – المملكة العربية السعودية
هاتف: 22107000 – 0505422022
فاكس: 2705097 – 4039680 (1–966)
بريد إلكتروني: nadiketab@hotmail.com
: Abu.wayel@hotmail.com

مكتبة كنوز المعرفة
ص. ب: 30746
جدة 21487
المملكة العربية السعودية
هاتف: 6514222 – 6510421 (2–966)
فاكس: 6516593 (2–966)
بريد إلكتروني: info@konoozb.com

مكتبة المتنبي
ص. ب: 610
الدمام 31421
المملكة العربية السعودية
هاتف: 8411395 – 8413000 (3–966)
فاكس: 8432794 (3–966)

دار أجنادين للنشر والتوزيع
الرياض – العُليا
ص. ب: 250197 – الرياض 11391
المملكة العربية السعودية
هاتف: 4602288 – 4609554 (1–966)
فاكس: 4602288 (3–966)
بريد إلكتروني: sales@darajnadeen.com

السودان

دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع
الرياض شارع المشتل
عقار رقم 52 – مربع 11
ص. ب: 11166
الخرطوم – السودان
هاتف: 945770 (154–249)
هاتف جوال: 12302995
فاكس: 945771 (154–249)
بريد إلكتروني: rabiedahab@hotmail.com

سوريا

الشركة السورية لتوزيع المطبوعات
البرامكة – تجاه ثانوية التجارة

ص. ب: 12035
دمشق – الجمهورية العربية السورية
هاتف: 2128248 – 2124831 – 2127797 (11–963)
فاكس: 2128664 (11–963)
بريد إلكتروني: distribution@tarassul.sy
العراق

مكتبة خالد
حي الجامعة – شارع الربيع
بغداد
جمهورية العراق
هاتف: 7901369510 (964)
بريد إلكتروني: Abu_waleed56@yahoo.com

مكتبة الأعراف
سوق الحويش
النجف الأشرف
جمهورية العراق
هاتف: 07802763820

عُمان

مؤسسة العطاء للتوزيع
ص. ب: 473
الرمز البريدي: 130 العذيبة
سلطنة عُمان
هاتف: 24492936 – 24491399 – 24496748 (968)
فاكس: 24493200 (968)
بريد إلكتروني: alatta@omantel.net.om

مكتبة علوم القرآن
ص. ب: 1960
الرمز البريدي 112 روي
مسقط – سلطنة عمان
هاتف: 783567 (968)
فاكس: 783568 (968)

فلسطين

شركة وكالة أبوغوش للنشر والتوزيع
ص. ب: 66988 – القدس 91669
فلسطين
هاتف: 0097022345493 – 5831404 (02) – 050464421
فاكس: 6564042 (02)
بريد إلكتروني: boxadnan@yahoo.com

قطر
مؤسسة العروبة التجارية
إدارة الصحف والمجلات والدوريات
قسم التوزيع
شارع حارثه بن سهل
ص. ب: 52
الدوحة – دولة قطر
هاتف: 4424721 – 5531665 – 4440014 – 4310746 (974)
فاكس: 4429424 (974)
بريد إلكتروني: s.mathew@aecqatar.com
distribution@aecqatar.com :

الكويت

مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع
النقرة – شارع قتيبة – مقابل مجمع النقرة الشمالي
ص. ب: 26223
الصفاة 13123
الكويت
هاتف: 22664626 (965)
فاكس: 22610842 (965)
بريد إلكتروني: aloroba_kw@yahoo.com

لبنان

المكتبات الرئيسية في بيروت والمحافظات

ليبيا

دار الرواد
ذات العماد برج – 4
ص. ب: 91969
طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية
هاتف: (218–21) 3350332 – 3350333
هاتف نقال: (218–91) 2124064
فاكس: (218–21) 3350016
بريد إلكتروني: alrowadbooks@yahoo.com

مكتبة طرابلس العلمية العالمية
مبنى سوق الجماهيرية المجمع – شارع الجمهورية
ص. ب: 9008
طرابلس – الجماهيرية العربية الليبية
هاتف: (218–21) 3601584 – 3601583
فاكس: (218–21) 3601585
بريد إلكتروني: tisblibya@hotmail.com

مصر

مكتبة مدبولي
6 ميدان طلعت حرب
القاهرة – جمهورية مصر العربية
هاتف: 25756421 (202)
فاكس: 25752854 (202)
بريد إلكتروني: info@madboulybooks.com

الجزيرة انترناشيونال
5، شارع جمال الشاهد
المهندسين – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: 33453058 – 33474259 (202)
فاكس: 33453056 (202)
بريد إلكتروني: elgezirapress@hotmail.com

مكتبة ليلى
39 شارع قصر النيل – ميدان مصطفى كامل
الدور الثاني – شقة 12
ص. ب: 31 – الظاهر 11271
القاهرة – جمهورية مصر العربية
هاتف: 23934402 – 23909747 (202)
فاكس: 23924475 (202)
بريد إلكتروني: info@leilabooks.com
: sales@leilabooks.com

مجموعة النيل العربية
17 شارع محمد توفيق دياب – متفرع من شارع مكرم عبيد
مدينة نصر
ص. ب: 4051 الحي السابع
مدينة نصر 11727
القاهرة – جمهورية مصر العربية
هاتف: 2707696 – 2754583 (202)
فاكس: 2707696 (202)
بريد إلكتروني: arab_nile_group@hotmail.com
: arab_nile_group@link.net

المغرب

الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة
70، زنقة سجلماسة
الدار البيضاء – المملكة المغربية
هاتف: 212 522 24 92 00+
فاكس: 212 522 24 92 14+
بريد إلكتروني: sapress@sapress.ma

المركز الثقافي العربي
42 الشارع الملكي – الاحباس
ص. ب: 4006 (درب سيدنا)
الدار البيضاء – المملكة المغربية
هاتف: (212–52) 2303339 – 2307651 – 2276838
فاكس: (212–52) 2305726
بريد إلكتروني: markaz@wanadoo.net.ma

مكتبة دار الأمان
4 ساحة المامونية
الرباط – المغرب
هاتف: (212–537) 723276
فاكس: (212–537) 200055
بريد إلكتروني: darelamane@menara.ma
: libdarelamane@yahoo.fr

موريتانيا

شركة الكتب الإسلامية في موريتانيا
ص. ب: 1266
نواكشوط – الجمهورية الإسلامية الموريتانية
هاتف: (00222) 5253461
فاكس: (00222) 5251222

اليمن

مكتبة أبي ذر الغفاري
شارع حده
ص. ب: 2213
صنعاء – الجمهورية اليمنية
هاتف: 414969 – 206953 (1–967)
فاكس: 414969 (1–967)

إنكلترا

Saqi Books
26 Westbourne Grove
London W2 5RH
United Kingdom
Tel: (44-020) 7221 9347 - 7229 8543
Fax: (44-020) 7229 7492
Email: publicity@saqibooks.com
ashley@saqibooks.com